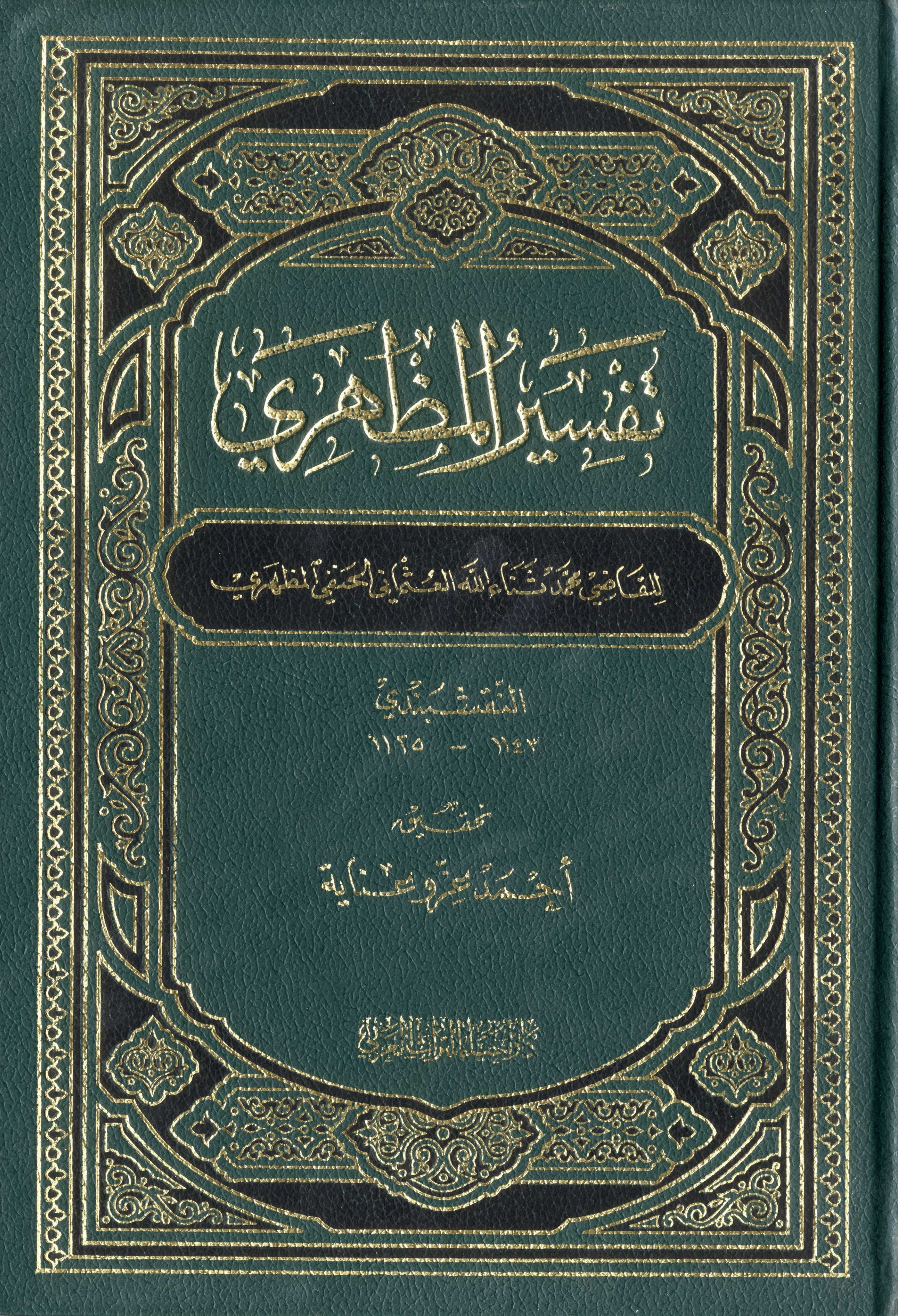

تفسير المظهري
للقاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١١٢٥
تحقيق
أحمد عزو عناية
دار إحياء التراث العربي

تفسير المظهري



تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١٢٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء الثامن



الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 220493/091 - موبيل: 5902280/0300 - باكستان

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 7957/11 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 - 544440 فاكس: 850717

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

سورة الملائكة

آياتها خمس وأربعون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما من غير مثال سبق من الفطرة بمعنى الشق العدم بإخراجها منه والإضافة محضة لأن فاطراً بمعنى الماضي فهو صفة لله ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائط بين الله وأنبيائه والصالحين من عبادة ﴿يُبَلِّغُونَ﴾ إليهم رسالاته بالوحي أو الإلهام أو الرؤيا الصالحة أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه، وإضافة جاعل إلى الملائكة لفظية لأن جاعلاً قد عمل في رسلاً ولا يجوز إعماله في المفعول الثاني إلا أن يكون عاملاً في الأول لأنه من ملحقات أفعال القلوب لا يجوز اقتصارها على أحد المفعولين والمعنى يجعل الملائكة رسلاً في الحال أو الاستقبال إلى محمد ﷺ وخواص أمته فقوله جاعل بدل من الله وليس بصفة ﴿أولي أجنحة﴾ بدل من رسلاً ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ صفات لأجنحة قال قتادة ومقاتل بعضهم له جناحان وبعضهم له

ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة أجنحة وليس هذا اللحصر ولدفع توهم الحصر قال الله تعالى ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ في الملائكة وغيرها ﴿مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ روى مسلم في الصحيح عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قال رأى جبرئيل في صورته له ست مائة جناح»[1] ورواه ابن حبان بلفظ «رأيتُ جبرئيل عند سدرة المنتهى له سبع مائة جناح ينشر من ريشه الدر والياقوت» والجملة مستأنفة للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك إنما هو مقتضى مشيئته تعالى ومؤدى حكمته لا أمر يستدعيه ذواتهم والآية متناولة لزيادات الصور والمعاني كملاحة الوجه وحسن الصوت وسماحة النفس والعقل والفهم وغير ذلك فما قال ابن شهاب أن المراد به حسن الصوت، وقال قتادة الملاحة في العينين، وقيل هو العقل والتميز كل ذلك على سبيل التمثيل.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ أي ما يعطي أطلق الفتح وهو الإطلاق وأراد به الإعطاء تجوزاً إطلاقاً للسبب على المسبب ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ نعمة دينية كالإيمان والعلم والنبوة وتوفيق الحسنات أو دينوية كالمطر والرزق والأمن والصحة والجاه والمال والولد ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول فسر بالرحمة فروعي معناه والثاني مطلق يتناولها والغضب فروعي لفظه وفيه إشعار بأن رحمته سبقت غضبه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يشاء لا يقدر أحد أن ينازعه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان روى الشيخان في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كل صلاة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا مانع أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[2] ولما بيَّن الله سبحانه أنه خالف لجميع الأشياء متصرف فيها على ما يشاء أمر الناس بشكر إنعامه فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أهل مكة ودخل في العموم غيرهم ﴿اذكروا نعمت الله عليكم﴾ حيث أسكنكم الحرم ومنع منكم الغارات وجعل الأرض كمهد ورفع السماء بلا عمد وخلقكم وزاد في الخلق ما شاء وفتح أبواب الرزق ولا ممسك له، ثم أنكر أن يكون لغيره في ذلك مدخل حتى يستحق الإشراك به فقال ﴿هل من خالق غير الله يزرقكم من السماء﴾ المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ النبات، من الأولى زائدة فإن الإستفهام للإنكار بمعنى النفي وخالقٌ مبتدأ وغير الله فاعله على قراءة الرفع أو خالق مبتدأ محذوف الخبر تقديره هل لكم من خالق غير الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في ذكر سدرة المنتهى (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة (٨٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٣).

أو خبره غير الله أيضاً على قراءة الرفع أو خبره يرزقكم وغير الله وصف له أو بدل منه، قرأه حمزة والكسائي بالجر حملاً على لفظه والباقون بالرفع حملاً على محله أو خالق فاعل لفعل محذوف تقديره هل يرزقكم من خالق غير الله ويرزقكم في محل الجر أو الرفع صفة لخالق أو في محل النصب حال منه أو تفسير لما أضمر أو استئناف لا محل له من الإعراب ﴿لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾ فمن أي وجه تصرفون من التوحيد إلى الإشراك مع اعترافكم بأنه الخالق والرازق لا غير.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في البعث والتوحيد والعقاب فقاس بمن قبلك من الرسل يعني اصبر ولا تحزن حذف الجزاء وأقيم مقامه ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ إقامة للسبب مقام المسبب وتنكير الرسل للتعظيم لزيادة التسلية والحث على الصبر يعني كذبت رسل ذو عدد كثيرة وآيات واضحات وأعمار طوال وأصحاب حزم وعزم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازيك على الصبر بالنصر والثواب وإياهم على التكذيب في الدارين بالعذاب، قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الجيم على البناء للمفعول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء حق كائن لا يحتمل الخلف ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا يلهيكم الاشتغال بزخارف الدنيا من طلب الآخرة والسعي لها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الشيطان بأن ينسيكم عذاب الآخرة أو يمنّيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية فإنها وإن أمكنت لكن إرتكاب الذنب بهذا الإحتمال يشبه تناول السم على إحتمال الترياق أو رفعه الطبيعة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة حيث قال وعزتك لأغوينهم أجمعين ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يعني استيقنوا بعداوته وكونوا على حذر من إتباع وسوسته في مجامع أحوالكم ولا تطيعوه وأطيعوا الله على رغم أنفه فإن مقتضى المحبة أن يفعل ما يرضاه المحبوب ويرضيه منه ومقتضى العداوة أن يفعل ما لا يرضاه ويغيظه والجملة تعليل للنهي السابق ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ أي أتباعه من الإنس إلى المعاصي وإتباع الهوى والركون إلى الدنيا ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ متعلق بيدعو تقرير لعداوته، وبيان لغرضه، ثم بين حال موافقيه ومخالفيه فقال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وأتبعوا الشيطان لهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وخالفوا الشيطان ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ﴾ أي رأى عمله السيء حسناً معطوف على زين تقرير له يعني من زين له قبح عمله يعني خذله الله حتى غلب همه وهواه على عقله واختل رأيه

ووسوس له الشيطان فرأى السيىء حسناً والباطل حقاً كمن لم يزين له وهداه الله إلى الحق، ولم يجد الشيطان إليه سبيلاً حتى عرف الحق من الباطل واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه فحذف الجواب لدلالة قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ الهمزة في أفمن زين للإنكار والفاء للعطف على المحذوف تقديره أتطمع أن تهتدي كل رجل فيكون المخذول من الله والمهدي سواء لا تطمع ذلك فأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ يعني لا تهلك نفسك ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على ضلالهم ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ منصوب على العلية أي للحسرات على غيهم وضلالهم والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف إغتمامه على أحواله أو كثرة مساوىء أفعالهم المقتضية للتأسف، وعليهم ليس صلة لها لأن صلة المصدر لا تتقدمه بل صلة تذهب أو بيان للمتحسر عليه وقيل تقدير الكلام أتغتم بكفرهم فمن زين له سوء عمله فأضله الله تذهب نفسك عليهم حسرة يعني لا تغتم فلا تذهب عليهم حسرات فقوله تعالى فلا تذهب تدل على الجواب المحذوف وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ معترضة في مقام التعليل، قال الحسين بن الفضل فيه تقديم وتأخير مجازه أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، قال البغوي قال ابن عباس نزلت الآية في أبي جهل ومشركي مكة وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال نزلت الآية حين قال النبيّ ﷺ: «اللّهم أعزّ دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» فهدى الله عمر وأضل أبا جهل ففيهما نزلت، وقال سعيد بن جبير نزلت في أصحاب الأهواء والبدع، قال قتادة منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وأما أهل الكبائر فليسوا منهم فإنهم لا يستحلون الكبائر بل يعتقدون الباطل باطلاً وإن كانوا مرتكبين به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا

طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ عطف على ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني وعد الله بالبعث حق والله أرسل الرياح وأحيا الأرض بعد موتها كذلك نشوركم بالبعث قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على إرادة الجنس والباقون بصيغة الجمع ﴿فتثير سحاباً﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة ولأن المراد بيان إحداثها بهذه الخاصة ولذلك أسند إليها ويجوز أن يكون إختلاف الأفعال للدلالة على استمرار الأمر ﴿فسقناه﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل في الاختصاص لما فيها من مزيد الصنع إلى ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بتشديد الياء والباقون بالتخفيف ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره أو بالسحاب فإنه سبب السبب ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أي جعلناها مخضرة ذات نبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد أغبرارها ويبس نباتها أسند موت نباتها وحياتها إليها مجازاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إحياء النبات بعد اليبس ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ للأموات من القبور لاستوائهما في المقدورية إذ ليس بينهما إلا إختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا ندخل له فيها، وقيل التمثيل في كيفية الإحياء لما ورد في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم في كيفية البعث حيث قال: «ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس»[1] الحديث، وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن وهب قال البحر المسجور أوله في علم الله وآخره في إرادة الله فيه ماء ثخين شبه ماء الرجل يمطر الله منه على الخلق أربعين يوماً بين الراجفة والرادفة فينبتون نبات الجنّة في حميل السيل ويجمع أرواح المؤمنين من الجنات وأرواح الكافرين من النار فيجعل في الصور يأمر الله إسرافيل فينفخ فيه فيدخل كل روح في جسده الحديث، وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما بين النفختين أربعون؟ قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيت، قالوا أربعون عاماً؟ قال: أبيتُ ثم يُنزّلُ الله من

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض والنفخ في الصور وبعث من في القبور (٢٩٤٠).

السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة»[١] وأخرج ابن المبارك عن سليمان قال يمطر الناس قبل البعث أربعين يوماً ماءً خاثراً، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعين عاماً ينبت منه كل خلق بلي من إنسان أو طير أو دابة ولو مرَّ عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض فينبتون ثم يرسل الأرواح فتزوج بالأجساد.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي في الدنيا والآخرة قال الفراء من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعاً والظاهر أن معناه من كان يطلب لنفسه العزة فليطلبها من عند الله وليتعزز بطاعة الله فإن العزة كلها له ملكاً وخلقاً يؤتيها من يشاء وفيه رد على الكفار حيث طلبوا العزة بعبادة الأصنام قال الله تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلام﴾[٢] وعلى المنافقين حيث طلبوا العزة من الكفار وقال الله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]........ ثم بين أن ما يطلب به العزة إنما هوالتوحيد والعمل الصالح فقال ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وهي سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلا الله وتبارك الله ونحو ذلك وصعودها مجاز عن قبوله إياها كذا روي عن قتادة، أو المراد بها صعود الكتبة بصحيفتها إلى عرشه كما يدل عليه حديث ابن مسعود قال: «ما من عبد يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ إليه يصعد الكلم الطيب» رواه البغوي والحاكم وغيره، وروى الثعلبي وابن مردويه حديث أبي هريرة نحوه مرفوعاً ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ قال الكلبي ومقاتل الضمير المستكن في يرفعه راجع إلى الكلم والمنصوب إلى العمل المعنى أن العمل لا يقبل إلا أن يكون صادراً عن التوحيد، وقال سفيان بن عيينة إن المستكن راجع إلى الله عزَّ وجلَّ يعني أن العمل الصالح أي ما كان خالصاً لوجه الله لا يكون مشوباً برياء وسمعة يرفعه الله أي يقبله فإن الإخلاص سبب لقبول الأقوال والأعمال، والظاهر أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

(٢) سورة مريم، الآية: ٨١ ـ ٨٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

الضمير المستكن راجع إلى العمل الصالح لقربه والمنصوب إلى الكلم.

وهو مفرد ليس بجمع أريد به الجنس ولذا وصفه بالطيب أو يقال تقديره إليه يصعد بعض الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وذلك البعض ما كان منهن بالإخلاص وإرجاع الضمير هكذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وأكثر المفسرين.

قال الحسن وقتادة الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله ولم يؤد الفريضة رد كلامه على علمه وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقه الأعمال فمن قال حسناً وعمل غير صالح، رد الله عليه قوله ومن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه القول ذلك بأن الله يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ وجاء في الحديث «لا يقبل قولاً إلا بعمل ولا قولاً ولا عملاً إلا بنية» قلت: ليس المراد بهذه الآية إن الأيمان بغير عمل لا يعتد به كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حقٌّ والنار حقٌّ أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»[١].

رواه الشيخان في الصحيحين عن عبادة بن الصامت، بل المراد أن الكلم الطيب يصعد إلى الله فإن كان معه عمل يرفع شأن تلك الكلمة ويزيد في ثوابها ومعنى قوله ﷺ «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل» يعني قول المنافق بلا عمل من القلب والجوارح لا يعتد به وكذا القول المقرون بالعمل لا يعتد بهما الابنية أي باعتقاد وإخلاص من القلب، وقيل معنى الآية والعمل الصالح يرفع القائل أي درجته.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صفة لمصدر محذوف لأن الفعل لازم ليس بمتعد إلى مفعول به، أي يمكرون المكرات السيئات، قال أبو العالية يعني مكرات قريش للنبيّ ﷺ في دار الندوة كما مر في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[٢] وقال الكلبي معنى الآية الذين يعملون السيئات وقال مجاهد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ (٣٢٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٨).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

وشهر بن حوشب هم أصحاب الرياء ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو﴾ أي الله سبحانه ﴿يَبُورُ﴾ أي يبطل حيث قال الله تعالى: ﴿يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[١] والمعنى الله يبطل أعمال المرائين.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ معطوف على والله أرسل وهذا أيضاً دليل على القدرة على البعث فإن بدء الخلق ليس بأهون من إعادته ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني أصلكم البعيد تراب حيث خلق آدم منه وأصلكم القريب نطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً ما ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ إلا متلبساً ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ حال يعني إلا معلوماً له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يعني ما يقدر عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي لا ينقضي من عمر أحد شيء (إلا في كتاب) يعني كل ذلك مكتوب في اللوح أو في الصحائف الكرام الكاتبين.

قال سعيد بن مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاث أيام حتى ينقطع عمره، وقيل معناه لا يزاد في عمر أحد ولا ينقص إلا في كتاب يعني كتب في اللوح المحفوظ أن عمر فلان كذا سنة ثم يزاد عمره بعض الحسنات أو ينقص ببعض السيئات كل ذلك مكتوب في اللوح يؤيده قول ﷺ «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»[٢] ورواه الترمذي عن سلمان الفارسي، وقيل: معناه لا يمد في عمر من هو طويل العمر ولا ينقص عمر غيره من عمره أي عمر طويل العمر بأن يعطى له عمر ناقص من عمره أو لا ينقص عمر المنقوص عمره بجعله ناقصاً، والضمير له وإن لم يذكر لدلالة مقابله عليه وللمعمر على التسامح إعتماداً على السامع كقولهم لا يثبت الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق ﴿إن ذلك﴾ أي كتابة الآجال والأعمال ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا﴾ يعني أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة وقيل هو ما يكسر العطش ﴿سَآئِغٌ﴾ سهل الإنحدار ﴿شَرَابُهُۥ﴾ جملة ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ مع ما عطف عليه صفة للبحرين على طريقة، ولقد أمر على اللئيم يسبني ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة وقيل هو ما يحرق بملوحته، ضرب مثل المؤمن والكافر وبيان لكمال قدرته تعالى حيث خلق من جنس وآخر شيئان مختلفان في الخواص ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي من كل واحد من

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩).

البحرين ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ إستطراد في صفة البحرين وما فيها من النعم أولا على سبيل الإستطراد بل لتمام التمثيل والمعنى أنه كما أنهما وإن إشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء كذلك المؤمن والكافر إن اشتركا في بعض خواص الإنسانية لا يتساويان فيما هو المقصود من خلق الإنسان، وهو معرفة الله وعبادته حيث قال الله تعالى: ﴿ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[١] أو لتفضيل الأجاج على الكافر بما يشارك العذب في المنافع ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي من الملح دون العذب ﴿حِلْيَةً﴾ يعني اللؤلؤ والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ قيل نسب اللؤلؤ إلى البحرين لأنه يكون في بحر الأجاج عيون عذبة يمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من بين ذلك ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ عطف على ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ ﴿فِيهِ﴾ أي في كل منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ جمع ماخرة على وزن فاعلة من المخر وهو الشق يعني شاقات للماء تجريها مقبلات ومدبرات ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي من فضل الله بالتجارة فيهما واللام متعلق بمواخر ويجوز أن يكون متعلقاً بفعل دل عليه الأفعال المذكورة يعني جعل الله البحر هكذا لتبتغوا من فضله ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ أي ولكي ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك عطف على لتبتغوا لأن حرف الترجي استعير لمعنى اللام وإيراد حرف الترجي بأعتبار ما يقتضيه ظاهر الحال.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ صيفاً متصل بقوله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[٢] وبما في سياقه وجملة ما يستوى معترضة ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ شتاء، حيث يقصر النهار ويمد الليل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ﴾ أي كل واحد منهما ﴿يَجْرِي﴾ في السماء ﴿لأجل مسمى﴾ هي مدة دوره أو منتهاه أو يوم القيامة حين ينقطع جريها وجملة ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ بيان للتسخير ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ أي الذي فعل هذه الأشياء ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة وكونه تعالى فاعلاً لما ذكر موجب لثبوت تلك الأخبار ويحتمل أن يكون له الملك كلاماً مبتدءاً ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي الذين تعبدونها من الأصنام وغيرها كائنة ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ من زائدة على المفعول به فضلاً أن يملك شيئاً آخر وهو لفافة دقيقة على النواة فمن لم يملك كيف يستحق العبادة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ لقضاء حاجتكم ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنها جمادات، الجملة الشرطية مع ما عطف عليه، خبر ثان للموصول ولم يعطف للدلالة على استبداده لنفي الألوهية ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض أو على تقدير

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١١.

كون بعضهم ذا شعور كإبليس ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ لعدم قدرتهم على الإنفاع أو لبترئهم منكم ومما تدَّعون لهم من الألوهية كعيسى وعزير والملائكة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي ينكرون إشراككم إياهم يقولون ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[1] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أي لا يخبرك بحقيقة الأمر مخبر ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي عالم وهو الله سبحانه فإنه هو الخبير بكل شيء على ما هو عليه، أو المعنى ولا ينبئك أيها المفتون بأسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بحقائق الأشياء.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ دائماً في الوجود وتوابعه وفي البقاء وفي النجاة من النار والإثابة بالجنة وغير ذلك وتعريف الفقراء نظراً إلى افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به فإنه حَمَلَ الأمانة مع كونه ضعيفاً ظلوماً جهولاً، فهو أجوع من غيره ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ اللام للعهد أي المعروف بالاستغناء على الإطلاق والإنعام العام على الموجودات ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في نفسه مستحق الحمد من جميع خلقه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إلى العدم دليل على كونه غنيّاً عنكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقوم آخرين بدلكم أطوع منكم أو بعالم آخر غير ما تعرفونه ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بمتعذر ولا متعسر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿وِزْرَ﴾ أي ثقل يعني إثم نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾

(١) سورة يونس، الآية: ٢٨.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[١] ففي الضالين المضلين فإنهم حملوا أثقال ضلالهم مع أثقال ضلاَل أنفسهم لأنهم أضلّوهم فكل ذلك أوزارهم وليس شيء منها من أوزار غيرهم، وأما ما رواه مسلم عن أبي موسى يرفعه «أنه يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها لهم ويضعها على اليهود والنصارى»[٢] وما روي أيضاً من وجه آخر بلفظ «إذا كان يوم القيامة رفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداك من النار».

وروى الطبراني والحاكم وصححه أيضاً عن أبي موسى نحو الرواية الأولى وابن ماجه والطبراني أيضاً نحو الرواية الثانية، وأخرج ابن ماجه والبيهقي عن أنس «إذا كان يوم القيامة رفع إلى كل رجل من المسلمين رجل من المشركين فيقال هذا فداك من النار» فتأويل هذه الأحاديث عندي أن المراد بالذنوب التي توضع على الكفار أنهم ارتكبوا بتلك السيئات قبل أمة محمد ﷺ وسنوا سنة سيئة واقتفى المتأخرون آثارهم في إرتكاب السيئات فلما غُفرت سيئات المؤمنين تفضلاً من الله تعالى بقيت سيئات الذين سنوا تلك السنة عليهم مضاعفة لأجل الإرتكاب ولأجل إبداع السنة السيئة فالوضع كناية عن إبقاء ما لحق الكافر بما سنه من عمله السيىء الذي عمل بها فاقتفاه مسلم والله أعلم.

﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ أثقلها أوزارها أحداً غيرها ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي ليتحمل بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي لم تجب تحمل شيء منه نفي الله سبحانه أن يحمل عنها غيرها ذنبه كمانفى أن يحمل عليها ذنب غيرها ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي المدعو دلَّ عليه قوله إن تَدع ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي ذا قرابتها، قال البغوي قال ابن عباس يلقى الأب والأم ابنهما فيقول يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول لا أستطيع حسبي عملي ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ قال الأخفش معناه إنما تنفع بإنذارك ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ غائبين عن عذابه أو عن الناس في خلواتهم أو غائباً عنهم عذابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الذين اجتنبوا المعاصي وأتوا بالواجبات خشية من عذاب الله هم المنتفعون بإنذارك وإختلاف الفعلين للدلالة على إستمرارهم على ذلك في جيمع الأزمنة ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر من دنس المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفعه لها، جملة معترضة مؤكدة لخشيتهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازيهم على تزكيته ﴿وما يستوي الأعمى﴾ عن الهدى أي الكافر أو الجاهل ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ أي

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٧).

المؤمن والعالم ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ أي الكفر ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي الإيمان ولا الظل أي الجنة والثواب ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ أي النار والعقاب ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وقيل مثل للجهال والعلماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه فيوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ومبالغة في الإقناط عنهم ﴿إِنْ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ تخوفهم بالنار ولا تقدر على هدايتهم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ حال من الضمير المرفوع والمنصوب أو صفة لمصدر محذوف أي محقين أو محقاً إرسالاً متلبساً بالحق ويجوز أن يكون صلة لقوله ﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالوعد الحق ﴿ونذيراً﴾ أي نبيّ أو من ينوبه من العلماء والإكتفاء بالنذير للعلم بأن النذارة قرينة للبشارة قد قرن به من قبل أو لأن الإنذار لهم فإن دفع الضرر أهم من جلب النفع ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد فلا تغتم واصبر على أذاهم كما صبر قبلك من الأنبياء ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كفار الأمم الخالية قبل كفار مكة ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال من فاعل كذب بتقدير قد ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات الشاهدات على نبوتهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل دون الجمع أو المراد بها واحد والعطف لتغاير الوصفين يعني فصبروا على تكذيبهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي إنكاري بالعقوبة أي هو واقع موقعه، قرأ ورش بإثبات الياء في الوصل فقط والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أجناسها أو أصنافها على أن كلاً منها أصناف مختلفة أو مختلفاً هيئتها

من الصفرة والخضرة والحمرة ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي ذو جدد أي خطط وطرائق، جملة اسمية هي مع ما عطف عليه حال من فاعل أخرجنا على طريقة أتيتُك والشمس طالعة ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ وصفر ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدة والضعف ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي صخور شديدة السواد عطف على بيض أي أي جدد بيض وحمر وسود غرابيب فغرابيب تأكيد لسود مضمر يفسره ما بعده لأنه تأكيد وحق التأكيد باعتبار الإضمار والإظهار كذا قال البيضاوي، وقال الجلال المحلي يقال كثيراً سود غربيب وقليلاً غربيب وسود، قلت: لعل ذلك القليل عند إرادة مزيد التأكيد وجاز أن يكون عطفاً على جدد كأنّه قيل من الجبال ذو جدد مختلف ألوانها ومنها غرابيب متحدة اللون ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على مِنَ الجبال ﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ ذكرَّ الضمير لأجل من وقيل تقديره وَمِنَ الناسِ وَالدواب والأنْعَام ما هو مختلف ألوانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف أي اختلافاً مثل إختلاف الثمار والجبال.

ولمَّا قال: **ألم تر أنَّ الله أنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ** إلى آخره ذكر أنواع المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع الدالَّة على صانعها وصفاته أتبعه بقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ يعني الذين تفكروا في خلق الله وأستدلوا به على ذاته وصفاته وأفعاله وآلائه بخلاف الجهال ككفار مكة والذين تجاهلوا ولم يخلص علومهم إلى قلوبهم وأنفسهم كأحبار اليهود والنصارى، قال الشيخ العارف الأجل شهاب الدين السهروردي في هذه الآية تعريض إلى أنه من لا خشية له فهو ليس بعالم.

قلتُ: فإن معرفة المخشي بعظمته وجلاله والعلم بصفات كماله يستلزم الخشية وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، قال البغوي قال ابن عباس يريد إنما يخافني من خَلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني فكل من كان أعلم بالله وصفاته كان أخشى منه، روى الشيخان في الصحيحين عن عائشة قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**»(١) وروى الدارمي عن مكحول مرسلاً قال قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾» وروى البخاري في الصحيح عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل باب: علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦).

أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً**»[١] فكمال الخشية للأنبياء ثم للأولياء وهم علماء الحقيقة ثم الأمثل فالأمثل قال مسروق: كفي بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً، قال الشعبي العالم من يخشى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالة على أنه عزيز في ملكه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب من عصيانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي يداومون على قراءته وإتباع ما فيه حتى صارت عنواناً لهم والمراد بكتاب الله القرآن أو جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم والقراء العلماء منهم بعد إقتصاص حال المكذبين ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أداموها مع رعاية حقوقها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني كيف ما أتفق من غير قصد إليهما، وقيل السر في النافلة والعلانية في المفروضة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ أي يرجون تحصيل الثواب بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي لن تكسر ولن تهلك بالخسران صفة للتجارة ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ الله متعلق بمعنى لن تبور يعني يرجون تجارة نافعة ليوفيهم بإنفاقها ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أي أعمالهم أو متعلق بفعل محذوف دل عليه ما عد من أعمالهم يعني فعلوا ذلك ليوفيهم أو بيرجون، واللام للعاقبة يعني يرجون تجارةً لن تبور حتّى يُوَفِّيَهَمُ الله أُجُورَهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ما يقابل أعمالهم، أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «يُوَفِّيَهُمْ أجورهم يدخلهم الجنة وَيَزِيدَهُمْ من فَضلِه الشفاعة لمن وجب له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا» ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ هذه الجملة في مقام التعيل لما سبق ويرجون خبر إن وجاز أن يكون لهذا خبران بتقدير الرابط يعني أنه غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم، قال ابن عباس يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر القليل من أعمالهم أي يجازيهم عليه وعلى هذا يرجون حال من فاعل أنفقوا، أخرج عبد الغني أن هذه الآية نزلت في حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن ومن للبيان أو الجنس أو للتبعيض ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتُب السماوية حال مؤكدة لأن حقيقته يستلزم موافقته إياها في العقائد وأصول الأحكام والأخبار ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ عالم بظواهر الأشياء وبواطنها فهو عالم بأنك حقيق لأن يوحى إليك هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٦٤٨٥).

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ منك ذلك ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والإرث انتقال الشيء من أحد إلى غيره، وقيل معنى أورثنا أخرنا ومنه الميراث لأنه آخر من سالف، ومعنى الآية أخرنا القرآن من الأمم الماضية وأعطينا ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ من للتبعيض متعلق باصطفينا أو بيان للموصول ظرف مستقر حال من الضمير المنصوب المحذوف الراجع إلى الموصول يعني اصطفيناهم من عبادنا وإضافة العباد إلى نفسه للتشريف والمراد بالموصول علماء أمة محمد ﷺ من الصحابة ومن بعدهم أو الأمة بأسرها كذا قال ابن عباس، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بكرامة الإنتماء إلى سيد الأنبياء:

طوبى لنا معشر الإسلام إن لنا ... من العناية ركناً غير منهدم

لمَّا دعا الله داعينا لطاعته ... بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

وقيل الجملة معطوفة على إن الذين يتلون والذي أوحينا اعتراض وعندي أن الجملة معطوفة على مضمون والذي أوحينا إليك هو الحق يعني أنزلنا إليك الكتاب الحق ثم أورثناه منك الذين أصطفينا هم من عبادنا ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من هو ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مقصد في العمل قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[١] ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من هو ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ يعمل على ظاهر الكتاب ولا يفوز إلى حقيقته قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[٢] ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من هو ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي بإرادته فائز إلى حقائق القرآن قال الله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[٣] وقال الله تعالى: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾[٤] والصنفان الأولان هم أصحاب الميمنة، وقيل المقتصد من يعمل بالقرآن في غالب الأوقات والسابق من ضم إلى العمل التعليم والإرشاد.

روى البغوي بسنده عن أبي عثمان النهدي قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقرأ هذا فقال: قال رسول الله ﷺ: «**سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له**» قال أبو قلابة (من رواة الحديث): فحدثتُ به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه، ورواه البغوي أيضاً مرفوعاً، وأخرجه سعيد ابن منصور والبيهقي موقوفاً على عمر. وروى البغوي بسنده عن أبي ثابت أن رجلاً دخل المسجد فقال اللّهم إرحم غربتي وآنس وحشتي وسُق إليّ جليساً صالحاً، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك سمعت رسول الله ﷺ وسلم قرأ هذه الآية فقال «أما السابق فيدخل الجنة فيدخل الجنة بغير حسابٌ أما المقتصد فيحاسبه حساباً يسيراً وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخله الجنة ثم قرأ هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾» ورواه أحمد وابن جرير والطبراني والحاكم والبيهقي وفيه «فأما الذين ظلموا فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته لهم الذين يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكورٌ»، قال البيهقي له طرق عن أبي الدرداء قال وإذا كثرت طرق الحديث ظهر أن للحديث أصلاً، قال البغوي وروي عن أسامة بن زيد في هذه الآية قال قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة» وكذا أخرج البيهقي عن أسامة وأخرج مثل ذلك عن كعب وعطاء أن الأصناف الثلاثة في الجنة،

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.
(٤) سورة الواقعة، الآية: ١٠ ـ ١١.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزله فظالمهم مغفور له ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب، وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «**هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة**»(١) وأخرج الفريابي عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ﴾ الآية قال أشهد على الله أنه يدخلهم الجنة جميعاً.

وأخرج ابن أبي عاصم والأصبهاني عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميّز العلماء فيقول يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم إنطلقوا قد غفرت لكم» وأخرج الطبراني بسند رجاله ثقات عن ثعلبة بن الحكم قال قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: للعلماء إذا قعد على كرسيه لفصل عباده: «إني لم أجعل علمي وحكمي إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي» وأخرج ابن عساكر عن أبي عمر الصنعاني (اسمه حفص بن ميسرة) قال إذا كان يوم القيامة عزلت العلماء فإذا فرغ الله تعالى من الحساب قال لم أجعل حكمتي فيكم إلا بخير أريدكم، أريدكم أدخلوا الجنة بما منكم، وقال عقبة بن صهبان سألتُ عن عائشة عن قوله تعالى: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فقالت يا بني كلهم في الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وأما المقتصد فمن اتبع أثره حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا، قلتُ: ويمكن حمل هذه الأصناف الثلاثة على المصطفين الأخيار من هذه الأمة أي الأولياء فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وهو من يمنع نفسه عن حقوقه كما يمنعه عن حظوظه كأهل الرياضات والمجاهدات الشاقة رهبانية ابتدعوها ومِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ يمنع نفسه عن حظوظه ويعطيه حقوقه فيصوم ويفطر ويصلي ويرقد وينكح ويأكل ويشرب ما أبيح له على ما هو السنة هم الذين قال عائشة فيهم من إتبع أثره حتى لحق به، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ (بالخيرات) المستغرق في كمالات النبوة وهم الصحابة رضي الله عنهم والصديقون كما قالت عائشة وزعمت عائشة نفسها من الظالمين هضماً وزعمت المخاطبين منهم لأجل رياضاتهم، وبالجملة فالأحاديث كلها تدل على أن الأصناف الثلاثة من المؤمنين أو من العلماء فمن قال أريد بالظالم الكافر أو المنافق فقوله مردود. سئل أبو يوسف عن هذه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الملائكة (٣٢٢٥).

الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ وأما الطبقات الثلاث فمن الذين اصطفى من عباده لأنه قال فَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ والكل راجع إلى الذين اصطفى من عباده وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور، وقدم الظالم في الذكر لكثرة الظالمين وقلة السابقين وتوسط المقتصدين أو لأن الظلم بمعنى الميل إلى الهوى مقتضى الجملة والإقتصاد والسبق عارضان لكن الإقتصاد متوسط بين المنزلتين (ذلك) التوريث أو الإصطفاء ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أو مبتدأ خبره محذوف تقديره لهم جنات عدن وقوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ صفة لجنات أو جناتٌ مبتدأ ويدْخُلُونَهَا خبره قرأ أبو عمر وبضم الياء وفتح الخاء على البناء للمفعول من ا لأفعال، والباقون بفتح الياء وضم الخاء من المجرد والضمير المرفوع في يَدْخُلُونَهَا راجع إلى الأصناف الثلاثة لما مرَّ من الأحاديث ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ حال مقدرة من فاعل يدخلونها أو بدل إشتمال من يدخلون أو مستأنفة أو خبر بعد خبر لجنات عدن أو صفة بعد صفة له ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على محل أساور ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ عطف على يحلون أو على جنات عدن أو حال من فاعل يحلون أو معترضة، عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ «تلا قوله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، الآية فقال «إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤ منها ليضيء ما بين المشرق والمغرب»[١] رواه الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي، قال القرطبي قال المفسرون ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**»[٢] متفق عليه، وعن حذيفة قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**»[٣] متفق عليه، وعن عمر رضي الله عنه قال قال: رسول الله ﷺ «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[٤] متفق عليه،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأطعمة، باب: الأكل في إناء مفضض (٥٤٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب والفضة (٢٠٦٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: لبس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه (٥٨٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء (٢٠٦٩).

وروى الطيالسي بسند صحيح وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري نحوه وفي آخره «وإن دخل الجنة لم يلبسه» في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أي يقولون ذلك كما دل عليه ما تقدم من الأحاديث ودل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ ويقولون ذلك أيضاً عند البعث من القبور لحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون الحمدُ لله الذي أذهب عنا الحزن**» رواه الطبراني، قال ابن عباس حزن النار وقال قتادة حزن الموت، وقال مقاتل لأنهم كانوا لا يدرون ما يفعل بهم، وقال عكرمة خوف الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات، وقال الكلبي ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة، وقال سعيد بن جبير هم الخبز في الدنيا وقيل هم المعاش والمعاد، والحق أن المراد به جنس الحزن مطلقاً ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للذين ظلموا على أنفسهم ﴿شكور﴾ للمقتصدين والسابقين ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ مصدر ميمي أي دار الإقامة من فضله أي من إنعامه وتفضّله إذ لا واجب عليه شيء، أخرج البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيع بن الحارث عن عبد الله بن أبي أوفى قال قال رجل يا رسول الله إن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم؟ قال لا إن النوم شريك الموت وليس في الجنة موت، قال فما راحتهم؟ فأعظم ذلك ﷺ وقال ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة فنزلت ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلال وأعياء من التعب، ذكر الثاني التابع للأول للتصريح بنفيه ومزيد التأكيد وجملة لا يمسنا حال من مفعول أحلّنا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على ثم أورثنا ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ أو يستريحوا منصوب بأن مقدرة في جواب النفي تقديره لا يكون عليهم قضاء بالموت فيموتوا، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى يا أهل الجنة لاموت ويا أهل النار لاموت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم**»[1] وأخرج الشيخان عن أبي سعيد نحوه وفيه «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح» الحديث ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

عَذَابِهَاۚ﴾ طرفة عين بل ﴿كلما نضجت جلودهم بدلنا بجلود غيرها ليذوقوا العذاب﴾[١] وكلما خبت زيدوا سعيراً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي جزاءً مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي كافر بالله تعالى فإنه أشد كفراً من كفر نعمة منعم غير الله تعالى، قرأ أبو عمرو يجزي بضم الياء المثناة من تحت وفتح الزاء ورفع كل على غير تسمية الفاعل والباقون بالنون وفتحها وكسر الزاء ونصب كُلَّ المفعولية ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي في النار عطف على (لهم نار جهنم) أو حال من الضمير المجرور في لهم يعني يستغيثون بشدة وعويل يفتعلون من الصراخ وهو الصياح استعمل في الإستغاثة لجهد المغيث صوته يا ﴿ربنا أخرجنا﴾ من النار ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ﴾ بدل من صالحاً ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ جملة ربنا إلى آخره مقول ليقولون محذوف بيان ليصطرخون وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير صالح أو الاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبونه صالحاً والآن ظهر خلاف ذلك، يقول الله تعالى في جوابهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم نترككم في دار التكليف ولم نعمركم ما يتذكر أي عمراً يتذكر فيه من تذكر من المؤمنين.

وقال ابن عباس ستون سنة ويروى ذلك عن علي وهو العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم لحديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**أعذر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة**»[٢] رواه البخاري، وكذا أخرج البزار وأحمد وعبد بن حميد عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج الطبراني وابن جرير عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة قيل أين أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله أوَلَمْ نُعَمرِكم ما يتذكر فيه من تذكر**» قلتُ: الظاهر أن ما يتذكر فيه من تذكر متناول لكل عمر يمكن للمكلف التفكر والتذكر فيه، ولعل معنى الحديث سلب كل عذر لكل امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنةً فإنه لم يبق من عمره الطبيعي الأكثر في شيء لما رواه الترمذي عن أبي هريرة وأبو يعلى في مسنده عن أنس كلاهما عن النبيّ ﷺ قال: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك**»[٣] وإلا فبعد البلوغ ليس له عذر معقول في ترك الصلاة وغيرها من الفرائض لاسيما الإيمان بالله ولولا كان ما يتذكر متناولاً لكل عمر يمكن فيه التفكر لما كان هذا القول جواباً

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٤١٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات باب: في دعاء النبي ﷺ (٣٥٥٠).

لكل كافر بل لمن أدرك ستين سنة فما زاد والله أعلم.

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فما أجبتموه والنذير محمد ﷺ كذا أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي وابن أبي حاتم وابن جرير عن زيد وهو قول أكثر المفسرين، وقيل القرآن، والمراد من تفسيرهم أن النذير محمد ﷺ والقرآن لهذه الأمة وغيرهما من الأنبياء والكتب لغيرهم، وقيل العقل وهذا على رأي من قال أن مجرد العقل كاف لوجوب الإيمان بالله حتى يحكمون بكفر شاهق الجبل إذا بلغ عاقلاً ولم يبلغه دعوة نبي وهذه الجملة معطوفة على مضمون ما سبق يعني عمرنا كم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير وهذا العطف يقتضي أن النذير ليس المراد به العقل لأن العطف يقتضي المغايرة ولا مغايره بين مجيء العقل وعمر يصلح للتفكر إلا في المفهوم فإن المعقل مأخوذ في ذلك العمر وعديم العقل لم يعمر ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ، وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع المراد بالنذير الشيب أخرجه عن عكرمة عبد بن حميد وابن المنذر وأخرجه ابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس يقال الشيب بريد الموت، قال البغوي وفي الأثر ما من شعرة تبيضّ إلا قالت لأختها استعدي فقد قرب الموت، وقيل النذير موت الأقارب والأقران ﴿فذوقوا﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه أحوالهم جملة مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل له لأنه إذا كان عالماً بمضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيره.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾».

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يخلف بعضكم بعضاً وعلى هذا خطاب لجميع الناس، وقيل معناه لجعلكم أمة خلفت من قبلها ورأت فيمن قبلها ما ينبغي أن يعتبر به، وقيل الخليفة بمعنى المستخلف يعني جعلكم خلفاء في أرض خليفة بعد خليفة وقد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وخلائف جمع خليفة والخلفاء جمع خليف ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم فعليه وبال كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ﴾ أي أشد غضباً وبغضاً ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾ في الآخرة والتكرير للدلالة على أن إقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنام أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله أو لأنفسهم فيما يملكونه ﴿أَرُونِي﴾ تأكيد أو بدل اشتمال من أرأيتم لأنه بمعنى أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾ مفعول ثان لرأيتم محمول على شركائهم ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي من أجزاء الأرض بيان لما كأنه قال أخبروني عن هؤلاء الشركاء أخبروني أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾ أي شركة مع الله ﴿فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فاستحقوا بذلك شركة في ألوهية ذاتية أم منقطعة بمعنى بل، والهمزة إضراب عن خلق بعض الأرض بالاستقلال واستفهام عن الشركة في السماوات ثم أضرب عنه واستفهم فقال ﴿أم﴾ يعني بل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ قال مقاتل أعطينا كفار مكة ﴿كتاباً﴾ ينطق على ما اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمۡ﴾ الفاء في جواب شرط محذوف تقديره إن كان الأمر كذلك فهم يعني كفار مكة كائنون ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٖ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة على التوحيد والباقون بينات على الجمع يعني على حجج واضحات ﴿مِّنۡهُۚ﴾ أي من ذلك الكتاب ﴿بَلۡ﴾ إضراب عن التهديد السابق وإثبات لما عدا ذلك كلها بقوله ﴿إِن يَعِدُ﴾ أي ما يعد ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني ليس عندهم علم على شركهم وكتاب ليستدل عليه به بل ما يعد الأسلاف الأخلاف إلا غروراً باطلاً ما يغرُّهم إلا بلا سند يشهد عليه ﴿يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[1].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ أي لئلا تزولا أو كراهة أن تزولا أو يمنعهما أن تزولا فإن الممكن حال بقائه لا بد له من علة تحفظه كما لا بد له في إيجاده من علة ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ بمقتضاء إمكانها إن لم يوجد من الله سبحانه إفاضة الوجود اللام للقسم ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ يعني ما أمسكهما ﴿مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ أي من بعد الله أي سواه أو بعد الزوال وجملة إن الله يمسك إلى آخره سدَّ مسدَّ الجوابين يعني لم يخلق شيئاً أحد غيره وليس لأحد شركة معد من الأولى زائدة والثانية للإبتداء ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ فبحلمه أمهل الكفار ولم يستعجل في عقوبتهم وبغفرانه غفر المسلمين ولولا إمهاله وغفرانه لم يمسك السماوات والأرض فيسقط السماء عليهم وينخسف بهم الأرض بذنوبهم.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول لو أن الله بعث منا نبيّاً ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ولا أسمع لنبيها ولا أشد تمسكاً بكتابها منا فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ منصوب على المصدرية من أقسموا لأن الأيمان بمعنى الإقسام يعني أقسموا إقساماً بليغة أو من المحذوف تقديره أقسموا بالله جهدوا جهد أيمانهم أو حال من فاعل أقسموا يعني جاهدين في إيمانهم على طريقة مررتُ به وحده، قال البغوي بلغ قريشاً قبل مبعث النبي ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسلهم فكذبوهم فأقسموا ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ رسول من الله ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ﴾ جواب قسم في اللفظ وجواب شرط أيضاً في المعنى ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ السالفة يعني من كان من الأمم السالفة على هدى فنحن نكون أهدى منهم قالوا ذلك لما رأوا تكذيب اليهود والنصارى بعضهم بعضاً ﴿قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾[1] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ من الله يعني محمداً ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي تباعداً من الحق وهذا إسناد مجازي ﴿استكباراً في الأرض﴾ عن الإيمان بدل من نفور أو مفعول له أو حال ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ أي العمل القبيح.

قال الكلبي هو اجتماعهم على الشرك، قلتُ: هو إرادتهم بالنبي ﷺ أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، أصله وإن مكروا المكر السيىء فحذف الموصوف إستغناء بوصفه ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر ثم أضيف، قرأ حمزة السيىء ساكنة الهمزة في الوصل لتو إلى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

الحركات تخفيفاً كما سكن أبو عمرو والهمزة في بارئكم وإذا وقف أبدلها ياءً ساكنة أيضاً وهي قراءة الأعمش والباقون بخفض الهمزة ويجوز رومها وإسكانها في الوقف ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي لا يحل ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ يعني بمن مكرو قد حاق بهم يوم بدر فقتلوا، قال ابن عباس لا يحيق عاقبة الشرك إلا بمن أشرك يعني وبال شركهم راجع إليهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إلا سنت الأولين﴾ أي سنة الله فيهم يعني استبصارهم إن أصرو على الكفر ﴿فلن تجد لسنت الله تبديلاً﴾ يعني سنة الله لا يتبدل ولا يتغير فلم يبق من أهل مكة إلا من أمن منهم ﴿ولن تجد لسنت الله تحويلاً﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ الإستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يشاهدوا آثار الماضين ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ مجزوم عطفاً على يسيروا أو منصوب بتقدير أن بعد النفي ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني قد شاهدوا في مسيرهم إلى الشام واليمن والعراق آثار الماضين ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ حال بتقدير قد يعني والحال أنه قد كان الذين قبلهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ ومع ذلك قد أهلكوا ولم يغني عنهم قولهم شيئاً فما لهم أي لأهل مكة لا يعتبرون بهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ أي ليسبقه ويفوته ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من زائدة وشيء في محل الرفع فاعل ليعجزه ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف مستقر صفة لشيء أو ظرف لغو متعلق بيعجزه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها وبما يستحقها ﴿قديراً﴾ على كل شيء بما يشاء.

ولمّا سبق من أن كفرهم يقتضي استئصالهم كما هو سنة الله في الذين من قبلهم وقد كانوا أشدَّ منهم قوةً ذكر سبب إمهالهم فقال ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ في الدنيا عاجلاً ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمة تدب عليها بشؤم معاصيهم أو من دابة عاصية وهو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر مؤاخذتهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو ما بعد الموت أو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس يريد به جميع العباد أهل طاعته وأهل معصيته ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم على حسب أعمالهم.

تمت تفسير سورة الملائكة من تفسير المظهري، (ويتلوه سورة يس إن شاء الله تعالى) وصلّى الله على خير خلقه محمّد وآله وأصحابه أجمعين حادي عشر شهر صفر من السنة السابعة بعد ألف/ سنة ١٣٠٢هـ/ ومائتين من الهجرة.

سورة يس

آياتها ثلاث وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يس وتسمى معمة أخرج ابن مردويه والخطيب والبيهقي عن أبي بكر الصديق عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: «يس تدعى معمة تعم صاحبها خير الدين» وتسمَّى الدافعة لأنها تدفع عن صاحبها كل سوء وتسمَّى القاضية لأنها تقضي كل حاجة مكية وهي ثلاث وثمانون آية.

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾.

﴿يسٓ ۝١﴾ أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه فإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم عمي لا يبصرون فجاءوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا ننشدك بالله والرحم يا محمد، ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فدعا النبيّ ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت يس إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد، قرأ حمزة وأبو بكر بإمالة فتح الياء والباقون باخلاصها وورش وأبو بكر وابن عامر والكسائي يدغمون نون الهجاء في الواو ويبقون الغنة وكذلك في ن ق القلم غير أن عامة أهل الأداء من البصريين يأخذون في مذهب ورش هناك بالبيان والباقون بإظهار النون في السورتين. ويس كسائر المقطعات في المعنى والإعراب وقيل معناه يا إنسان بلغة طي

يعني به محمداً ﷺ على أن أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء كما قيل من الله في أيمّن الله كذا روى عن ابن عباس وهو قول الحسن وسعيد بن جبير وجماعة، وقال أبو العالية يا رجل وقال أبو بكر الوراق يا سيد البشر وروي عن ابن عباس أنه قسم ﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ أي المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني الواو للقسم أو العطف إن جعل يس مقسماً به ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ جواب قسم. فإن قيل الغرض من الإخبار أما إفادة الحكم للمخاطب أو إفادة لازم الحكم يعني إفادة أن المتكلم عالم به وهاهنا لا يتصور شيء منهما فأيُّ فائدة في الأخبار؟ قلنا الغرض هاهنا إعلام الكفار ورد إنكارهم وإصرارهم حيث قالوا (لَسْتَ مُرْسَلاً) ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ متعلق بالمرسلين أي لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم وهو التوحيد والإستقامة في الأمور، أو ظرف مستقر خبر ثان لأن أو حال من المستكن في الجار والمجرور وفائدته المدح ووصف الشرع بالإستقامة صريحاً وإن دلّ عليه ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلتزاماً.

﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ قرأ حفص وابن عامر وحمزة والكسائي بنصب تنزيل بإضمار أعني بين للصراط أو بإضمار فعله تقديره نَزَّلَ يعني القرآن تَنْزِيل العُزَيْزِ في ملكه الرَّحِيْم بخلقه حيث نزل الكتاب وأرسل الرسول فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي القرآن ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلق بتنزيل أو بمعنى قوله لَمِنَ المُرُسَلِيْنَ ﴿مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ ما نافية والجملة صفة لقوم أي لتنذر قوماً لم ينذر أباؤهم حيث لم يبعث بمكة نبي بعد إسماعيل عليه السلام فهم أشد إحتياجاً إلى الرسالة من غيرهم ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي لم ينذروا فبقوا غافلين، وقيل ما موصولة أو موصوفة والمعنى لِتُنْذِرَ قَوْماً بالذي أو بشيء أُنذِرَ به أباؤُهُمُ الابعدون فيكون مفعولاً ثانياً لتنذر أو مصدرية يعني لِتُنْذرَ قوماً إنذار آبائهم أي مثل إنذارهم وعلى هذه الوجوه قوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ متعلق بقوله إنك لَمِنَ الْمُرُسَلِيْنَ أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قوله تعالى: لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعين ﴿فَهُمْ﴾ أي ذلك الآكثر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال أبو جهل لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن فنزلت ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إلى قوله ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو أين هو لا يبصره، وقال البغوي نزلت في أبي جهل وصاحبه المخروميين وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمداً يصلّي ليرضخن رأسه فرآه وهو يصلّي ومعه حجر ليدمغه فلمّا رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده، فلمّا عاد إلى أصحابه وأخبرهم

بما رأى سقط قال رجل من بني مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلّي ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت؟ فقال ما رأيتُهُ ولقد سمعتُ صوته وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل يخطر بذنبه ولو دنوتُ منه لأكلني فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي الأغلال وأصله إلى أذقانهم فلا يخليهم يطأطئون، وقال البغوي هي كناية عن الأيدي وإن لم يجر لها ذكر لأن الغل بجمع اليد إلى العنق معناه إنَّا جعلنا في أيديهم وأعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ الفاء للسببية فإن الأغلال سبب للإقحام يعني هم رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم لا يستطيعون النظر إلى شيء، وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق السدّي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن ناساً من بني مخزوم تواصوا بالنبي ﷺ ليقتلوه منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة فبينا النبيّ ﷺ قائم يصلّي يسمعون قراءته أرسلوا إليه الوليد ليقتله فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلّي فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانصرف إليهم فأعلمهم فأتوه فلما انتهوا إلى المكان الذي هو يصلي فيه سمعوا قراءته فيذهبون إلى الصوت فإذا الصوت من خلفهم فيذهبون إليه فيسمعونه أيضاً من خلفهم فانصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلا فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بفتح السين والباقون بفتحها وهما لغتان ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي فأعميناهم من التغشية وهي التغطية ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الفاء للسببية، قال أهل المعاني هذا على طريق التمثيل ولم يكن هناك غلٌ ولا سدٌ، أراد الله سبحانه أنا منعناهم عن الإيمان بموانع فجعل الأغلال والسد مثلاً لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا يغني عنهم الآيات والنذر مثلهم بالذين غلّت أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وبالذين جعل بينهم السد وبين ما يريدون رؤيته في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له ولو طأطئوا رؤوسهم فرضاً يمنعهم السد عن الأبصار فهم لا يبصرون سبيل الهدى أراد أنا منعناهم عن إيذاء الرسول بحفظنا إياه، وجاز أن يكون جعلنا بمعنى نجعل أورد صيغة الماضي لتحقق الوقوع يعني نجعل في جهنم في أعناقهم أغلالاً ونجعل بين أيديهم سداً وذلك بجعلهم الله تعالى في توابيت من نار ﴿وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتب عليه الفائدة ﴿من اتبع الذكر﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي خاف عقابه أو المعنى إنما ينفع إنذارك لمن كان صالحاً

لاتباع الذكر والخشية مستعداً لذلك لم يقل وخشي القهار المنتقم للدلالة على أن الخشية مع ملاحظة صفة الرحمة كمال الخشية وعين الإيمان وأن الإيمان بين الخوف والرجاء ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من فاعل خشي يعني غائباً عن عذابه قبل أن يعاينه أو غائباً عن الناس في خلوته ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حسن وهو الجنة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ عند البعث أو المراد إنا نعطي العلم والهداية بعد الجهل والضلال ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الحسنة كعلم علموه وحبس وقفوه وسنة حسنة سنوه والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم وتأييد كفر وبدعة إبتدعوها، قال النبيّ ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة يعمل بها من بعده فله أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة يعمل بها من بعده فإن له وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(١) رواه مسلم عن حديث جرير، وقال قوم معنى آثارهم في قوله نكتب ما قدموا وآثارهم خطوهم إلى المساجد، عن أبي موسى الأشعري قال قال: رسول الله ﷺ «**أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى والذي ينتظر الصلوات حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام**»(٢) متفق عليه، وعن جابر رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنوا سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال لهم: «إنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم»(٣) رواه مسلم، وروى البغوي عن أنس نحوه وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري نحوه ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ يعني كتبناه ﴿فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: فضل صلاة الفجر في جماعة (٦٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد (٦٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد (٦٦٥).

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿واضرب لهم﴾ أي مثل لكفار مكة من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أي مثال واحد وهو يتعدى إلى مفعولين لتضمنه معنى الجعل كأنه قيل وأجعل لهم ﴿مَثَلًا﴾ مفعول أول ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مفعول ثان بحذف المضاف تقديره اجعل مثلهم أصحاب القرية وهي أنطاكية أخرجه الفريابي عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن بريدة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة يعني قل حال أهل مكة مثل حال أهل إنطاكية ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ أي تلك القرية بدل إشتمال من أصحاب القرية ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يعني رسل عيسى عليه السلام، قال البغوي قال العلماء بأخبار القدماء بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية فلما قربا من المدينة فأتيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب صاحب عيسى عليه السلام فلمّا سلما عليه قال الشيخ لهما من أنتما؟ فقالا رسول الله يدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادة الرحمن، فقال معكما آيةٌ قال نعم نشفي المريض ونُبرِىء الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ إن لي ابناً مريضاً منذ سنتين قالا فانطلق بنا نطلع حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً ففشى الخبر في لمدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى وكان لهم ملك، قال وهب إسمه انطفس وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام قالوا فانتهى الخبر إليه فدعاهما فقال من أنتما؟ قالا رسولا عيسى، قال وفيم جئتما؟ قالا ندعوك من عبادة من لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، قال ولكما إله دون آلهتنا، قالا نعم من أوجدك وآلهتك قال قُوْما حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق.

قال وهبٌ: بعث عيسى هذين الرجلين إلى أنطاكية فأتياها فلم يصلا إلى ملكها رِطال مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبر أو ذكر الله فغضب الملك فأمر بهما فحبسهما وجلد كل واحد منهما مائتي جلدة، قالوا فلمّا كُذّب الرسولان وضُرِبا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضي عشرته وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتَهما وسمعتَ قولهما، فقال الملك حال الغضب بيني وبين ذلك، قال فإن رأى الملك، دعاهما حتى نطلع ما عندهما فدعاهما

الملك فقال لهما شمعون من أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال لهما شمعون صفاه وأوجزا، فقالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال شمعون وما آيتكما؟ قالا ما تتمنَّاه فأمر الملك حتى جيء بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زال يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب المِلك فقال شمعون للمَلِك إن أنت سألت إلهك حتى يصنع صنعاً مثل هذا فيكون لك الشرف فقال الملك ليس لي عنك من سر إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون إذا دخل الملك على الأصنام يدخل ويصلي كثيراً ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم فقال الملك للرسولين إن قدر إلهكم الذي تعبدانه على إحياء ميت أمنا به قالا إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك إن هاهنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابن لدهقان وأنا أخرتُه فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاءوا بالميت وقد تغير واروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو ربه سراً فقام الميت وقال إني قدمّتُ منذ سبعة أيام ووجدت مشركاً فأدخلتُ في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم مما أنتم فيه فآمنوا بالله، ثم قال فتحت أبواب السماء فنظرت فرأيتُ شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن الثلاثة؟ قال شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه فتعجب الملك فلمَّا علم شمعون أن قوله أثر بالملك أخبره بالحال فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون، وقيل: إن ابنة الملك كانت توفيت ودفنت فقال شمعون للملك أطلب هذين الرجلين أن يحييا ابنتك فطلب منهما الملك ذلك فقاما وصليا ودعوا وشمعون معهما قرأ بسر فأحيا الله المرأة وأنشق القبر عنها فخرجت وقالت أعلموا أنهما صادقان ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يرداها إلى مكانها فذرا تراباً على رأسها وعادت إلى قبرها كما كانت.

وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين فذلك قوله عزّ وجلَّ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ بدل من إذ السابقة ﴿إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ قال وهب إسمهما يحيى ويونس ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ قرأ أبو بكر بالتخفيف، والباقون بالتشديد ومعناهما واحد أي فقوينا ﴿بِثَالِثٍ﴾ أي برسول ثالث وهو شمعون كذا أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ترك ذكر المفعول به لأن المقصود ذكر المعزز به وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وزهق الباطل وإذا كان الكلام لغرض يجعل سياقه له ويرفض ما سواه، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة

قال بلغني أن عيسى بعث إلى أهل القرية رجلين من الحواريين، وقال كعب الرسولان صادق وصدوق والثالث شاوم وإنما أضاف الله الإرسال إلى نفسه لأن عيسى بعثهم بأمره عزَّ وجلَّ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ كلهم لأهل أنطاكية ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ قَالُواْ﴾ أي أهل إنطاكية ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ لا مزية لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة من الله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ من وحي ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة ﴿قالوا﴾ أي الرسل ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ إستشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم ولذلك من قال الله يعلم إني فعلتُ كذا وهو كاذب كان غموساً وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم دون الأول ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى يعنون أن إنكاركم لا يضرنا بعدما كان علينا من أداء التبليغ وإنما هو يعود عليكم بالمضرة.

ولمَّا حبس الله عنهم المطر بتكذيبهم الرسل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ يعنون أن ما نزل بنا إنما هو بشؤمكم وذلك لاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له وتنفرهم عنه فإن عادة الجهال أن يتمنوا كل شيء مالت إليه طباعهم ويتشاءموا ما كرهوه ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ عما تقولون ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحجارة ونقتلنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمۡ﴾ وهو كفركم، وقال ابن عباس حظكم من الخير والشر معكم لا ينفك عنكم ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ وعظتم به وجواب الشرط محذوف والإستفهام للإنكار يعني أن وعظتم تطيرتم بنا وتوعدتمونا بالرجم لا ينبغي ذلك بل كان ينبغي الإتعاظ والإمتنان، قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة الثانية وذُكرتم بالتخفيف تقديره اتطيرتم وتوعدتم لأن ذكرتم ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي قوم عادتكم الإسراف في العصيان ومنها التشاؤم برسل الله والواجب التبرك بهم.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ وهو حبيب النجار أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة وقال السديُّ كان قصاراً وقال وهب كان حبيب رجلاً يعمل الحرير وكان سقيماً وقد اسرع فيه الجذام وكان منزله عند اقصي باب من أبواب المدينة وكان مؤمناً ذا صدق يجمع كسبه إذا أمسى فقسم نصفين على عياله ويتصدق نصفه فلمَّا بلغه أن قومه قصدوا قتل الرسل جاءهم و﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبلغ الرسالة الجملة تأكيد للأول أو بدل يشتمل فائدة زائدة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدارين.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ما إستفهامية مبتدأ والظرف خبر له ولا أعبد حال من ضمير المتكلم والجملة معطوفة على قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم وفيه تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإنما في النصح حيث أراد لهم ما أراد لنفسه والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد ثم عاد إلى السياق الأولى فقال ﴿ءأتخذ﴾ الآية وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان حبيب في الغار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم يعني قومه فأظهر دينه وقال: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ فلما قال ذلك قالوا له وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي خلقني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب مالي بسكون الياء والباقون بفتحها، قيل أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم لأن الفطرة أثر النعمة وكان عليه إظهاره وفي الرجوع معنى الزجر فكان أليق بهم، قيل إنه لمَّا قال إتَّبعُوا المرسلين أخذوه فرفعوه إلى الملك فقال له الملك أفأنت تتبعهم فقال ومالي لا أعبد الذي فطرني يعني أي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عند البعث فيجازيكم أتخذ إستفهام إنكار أي لا اتخذ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي دون الذي فطرني ﴿ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾ أي لا تنفعني ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ والتي تزعمونها ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ قرأ ورش بإثبات الياء في الوصل والباقون بالحذف في الحالين أي لا ينقذوني من عذاب الله أن عذبني وفي نفي الإغناء عن الشفاعة في دفع الضرر والإنقاذ من العذاب مبالغة في نفي النفع عن شفاعتهم مطلقاً فإن قبول الشفاعة لدفع الضرّ أقرب

من قبولها لنيل الرحمة والجملة الشرطية صفة لآلهة ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِذًا﴾ أي إذا اتخذ مالا ينفع ولا يضر بوجه ما آلهة من دون من فطرني وهو يقدر على النفع والضر ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا يخفى على من له أدنى تميز كونه ضلالاً، والجملة تعليل للإنكار على اتخاذ الآلهة ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم أيها القوم أو أيها الملك ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي فاسمعوا إيماني فعلى هذا هذه الآية من تتمة النصح فأن القوم إذا قيل لهم اتَّبِعُوا المرسلين كأنَّهُمْ قالوا هل آمنت أنت بهم فقال إني آمنتُ بربّكُمْ فاسمعوا أيماني ولو لم يكن هذا خيراً ما استأثرتُ به لنفسه وأضاف الرب إلى المخاطبين ولم يقل آمنت بربي ليكون أدعى لهم إلى الإيمان.

قال البغوي: فلمَّا قال ذلك وثب القوم وثبة رجل واحد فقتلوه قال ابن مسعود وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبة من دبره، وقال السديّ كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللّهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه، وقال الحسن خرقوا خرقاً في حلقه فعلقوه من سور المدينة وقبره بأنطاكية فأدخله الله الجنة وهو حي فيها يرزق يعني حياة الشهداء، وقيل الخطاب للرسل فإنه لمَّا رأى أنه يقتل إستشهد الرسل على ايمانه قبل أن يموت والتقدير فقال للرسل إني آمنت ﴿قِيلَ﴾ يعني قال الله تعالى لحبيب البخار رضي الله عنه لمَّا استشهد إكراماً وإذناً في دخول الجنة كسائر الشهداء ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقيل قال الله تعالى ذلك له قبل موته يعني أدخل قبرك الذي هو روضة من رياض الجنة وإنما لم يقل وقيل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له فإنه معلوم والكلام فيه والجملة مستأنفة في خير الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نصر دينه والله أعلم.

ولما أفضى حبيب إلى الجنة ﴿قال﴾ ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ما موصولة أو مصدرية والباء متعلق بيعلمون أي يعلمون بالذي غفر لي ربي به أو بغفران ربي إياي أو استفهامية والباء متعلق بغفر أي بأي شيء غفر لي يريد به الإيمان والمصابرة على إيذاء الكافرين، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم على اكتساب الإيمان والطاعة على دأب الصالحين في كظم الغيظ والترحم على الأعداء أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق.

قال البغوي فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النقمة فأمر جبرئيل فصاح بهم صيحةً واحدة فماتوا عن آخرهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي قوم حبيب ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من زائدة أي بعد إهلاكه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأولى زائدة

لتأكيد النفي والثانية للإبتداء يعني ما أنزلنا إلا هلاكهم جنداً من الملائكة كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقاره هلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ما نافية أي ما كان شأننا في إهلاك قوم إنزال جند فإن الأمر أيسر من ذلك وإنما أنزلنا الأجناد لنصرك بشارةً وإكراماً لك وتسكيناً لقلبك قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(١) وقيل ما موصولة معطوفة على جند يعني ما أنزلنا على قومه ما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة أو ريح أو أمطار شديدة ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت الأخذة أو العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بها جبرئيل، قرأ الجمهور بالنصب على أنه خبر كان وأبو جعفر بالرفع جعل الكون تامة بمعنى الوقوع، قال البغوي قال المفسرون أخذ جبرئيل بعضاً وأتى باب المدينة ثم صاح صيحةً واحدةً ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي ميتون، شبهوا بالنار لأن الحياة يتعلق بالحرارة الغريزية فإذا خمدت الحرارة الغريزية مات وجملة ما أنزلنا عطف على قوله ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ وجملة ما كنا منزلين معترضة وجملة إن كانت إلا صيحة تعليل والفاء للسببية يعني فاجئت الصيحة وقت خمودهم.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الظرف صفة للحسرة وجعلت الحسرة منادى تنبيهاً للمخاطبين على وجوب الحسرة عليهم وتنكيرها للتعظيم كأنَّه قيل يا حسرة أي حسرة تعالى فهذه من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها وهي ما دل عليه ﴿ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون﴾ إستثناء مفرغ حال من الضمير المنصوب أو من رسول أو منهما والإستثناء يعني الشرط والجزاء يعني كلما يأتيهم رسول يستهزءون به، والجملة تعليل للحسرة فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء أن يتحسروا وأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الإستعارة لتعظيم جنايتهم على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا، وقيل المنادى محذوف وحسرةً منصوب بفعل مقدر تقديره يا أيها المخاطبون تحسروا حسرةً على العباد، والحسرة شدة الحزن والندامة، قال البغوي فيه قولان أحدهما يقول الله يا حسرة وندامةً وكآبة على العباد يوم القيامة لما لم يؤمنوا بالرسل والآخر أنه من قول الهالكين، قال أبو العالية لما عاينوا العذاب قالوا يا حسرةً على العباد واللام في العباد للعهد والمراد بهم أهل أنطاكية أو كل من لم يؤمن بالرسل واستهزأ بهم فهو تعريض

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٠.

لأهل مكة ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن قوله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ لأن كم لا يعمل فيما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الإستفهام فهو يستدعي صدر الكلام والضمير في لم يروا لأهل مكة ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل اشتمال من كم على المعنى أي الم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم ألم يروا أنهم غير راجعين إليهم، ولمَّا كان في قوله ﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ إيهاماً إلى أن الموتى لا يرجع أبداً ندفع ذلك الوهم قال ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يوم القيامة، قرأ عاصم وحمزة لما بالتشديد هاهنا وفي الزخرف والطارق وأخفها ابن عامر إلا في الزخرف في رواية ابن ذكوان ووافق أبو جعفر في الطارق، والباقون بالتخفيف فمن قرأ بالتشديد فإن نافية ولمَّا بمعنى إلاَّ ومن قرأ بالتخفيف فإن مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وما مزيدة للتأكيد وجميعٌ فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لمحضرون.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ قرأ نافع بالتشديد ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بالمطر خبر للأرض والجملة خبر آية وصفة للأرض إذ لم يرد بها معينة فهو كقوله ولقد أمر على اللئيم يسبني، والأرض مبتدأ خبرها آية أو خبر لكونها نكرة والآية مبتدأ والجملة معطوفة على قوله وإن كلٌ لما، وجاز أن يكون أحييناها استئنافاً لبيان كونها آية ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنس الحب كالحنطة والشعير ونحو ذلك ﴿فمنه﴾ أي من الحب ﴿يَأْكُلُونَ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي من أنواع النخيل والعنب ولذلك جمعهما دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالإختلاف

ولا كذلك وذكر النخيل دون التمر ليطابق الحب والأعناب لاختصاص النخيل بمزيد النفع وآثار الصنع ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه عند الأخفش من زائدة ﴿لِيَأْكُلُواْ﴾ متعلق بفجرنا ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي ثمر ما ذكر وهو الجنات، وقيل الضمير لله على طريقة الإلتفات والإضافة إليه لأن الثمر بخلقه، قرأ حمزة والكسائي ثُمُرِهِ بضمتين وهو لغة فيه أو جمع ثمار ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عملت بغيرها ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ عطف على ثمره وما موصولة والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمراد أن الثمر بخلق الله تعالى بفعلهم ويؤيد الأول قراءة الكوفيين بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن عن غيرها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أينكرون إنعام الله فلا يشكرون وحيث كان إنكاراً على ترك فهو أمر بالشكر ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ أي الأنواع والأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما خلق الله في البحر والبر ولم يطلع عليها أحداً.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على قدرتنا ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي ننزع ونكشط وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها بطلوع الشمس فإذا غربت فكأنه مسلخ النهار من الليل وظهرت الظلمة فانسلخ هاهنا مستعار من سلخ الجلد، والكلام في إعرابه مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿آية لهم الأرض من الميتة﴾ ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ عطف على نسلخ منه النهار فغاصوا وقت كونهم داخلين في الظلمة يعني يذهب بالنهار ويجيء بالليل ﴿والشمس﴾ عطف على الليل ﴿تَجْرِى﴾ في فلكها مثل جري الحوت في الماء صفة للشمس بناء على تنكيره أو مبتدأ وخبر والجملة معترضة لبيان سبب وجود الليل والنهار ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ مصدر ميمي أو ظرف يعني تجري لاستقرار لها على نهج مخصوص أو لموضع استقرارها وهي منتهى دورها تشبهت بالمسافر إذا قطع مسيره أو مستقرها كبد السماء قبيل الزوال فإن حركتها توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هُناك وقفة أو مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء، أو لمنتهى مقدر بكل يوم من المشارق والمغارب فإن لهافي دورها ثلاث مائة وخمساً وستين مشرقاً ومغرباً تطلع كل يوم من مطلع وتغرب في مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب الدنيا، وهذه التأويلات كلها مبنية على أنها في ظاهر الحال لا تستقر في وقت من الأوقات ويدل عليه قراءة ابن مسعود ما رواه البغوي عن عمر بن دينار عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿والشمس

تجري لا مستقر لها﴾ لكن ورد في الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**مستقرها تحت العرش**» رواه البخاري في الصحيح، وروى البغوي عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ أنه قال حين غربت الشمس **أتدري أين تذهب هذه؟ قلتُ الله ورسوله أعلم**، قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد ولا تقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال لها إرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: «**مستقرها تحت العرش**»[1] متفق عليه.

ومعنى الحديث والله أعلم أن الشمس بعد غروبها قبل طلوعها تسجد تحت العرش فيؤذن لها في الطلوع من جانب المشرق فتطلع ويوشك أن لا يؤذن لها بالطلوع من المشرق بل يؤذن لها بالطلوع من المغرب فحينئذ تطلع من مغربها وهي آية من آيات الساعة، لا يقال إن مقدار الليل من وقت غروبها إلى طلوعها يتفاوت بتفاوت الأقاليم حتى أن تحت القطب الشمالي من وراء بلغار إذا كانت الشمس عند رأس السرطان يكون الليل بحيث لا يكون هناك وقت العشاء بل بعد غروب الشمس إذا غاب الشفق من جانب طلع الصبح من جانب فأيُّ وقت يتصور فيه الشمس ذاهبة تحت العرش ساجدة، قلتُ: ليس المراد أن الشمس تدوم ساجدة من وقت غروبها إلى وقت طلوعها فجاز أن يكون وقت من الأوقات يكون ظلمة الليل شاملة لجميع الأقاليم وذلك عند منصفها وحينئذ يذهب الملائكة الموكلون على الشمس بها إلى تحت العرش فتخر هناك ساجدةً ثم يؤذن لها بالطلوع واختلاف مقدار الليل باختلاف الأقاليم إنما يتعلق باختلاف مبدأ الليل ومنتهاه والله أعلم، والقول بأن الحديث من المتشابهات أو أن المراد بالسجود هو الإنقياد أو نحو ذلك يأباه سياق الحديث ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري على هذا التقدير المتضمن للحكمة التي يكل الفطن عن إحصائها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ أي قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ أو قدرنا سيره في منازله قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والقمر بالرفع على أنه معطوف على الشمس يعني آية لهم الليل وآية لهم الشمس وآية لهم القمر والجملة الواقعة بعدها كالجملة الواقعة بعد الشمس وقرأ الباقون بالنصب بإضمار فعل فسره بقوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ (٤٨٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩).

ليلة في واحدة منها لا يتخطئه ولا يتقاصر عنه فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ أي الشمراخ المعوج فعلون من الإنعراج بمعنى الإعوجاج ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ العتيق قيل ما هي عليه حول فصاعداً ثم يكون القمر تحت شعاع الشمس في المحاق ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ أي يصح لها ويتيسر ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ قال البيضاوي أي في سرعة سيره وهذا مبني على ما قالت الفلاسفة إن القمر أسرع سيراً من الشمس فإن دورها يتم في شهر ودور الشمس يتم في سنة وعندي الأمر بالعكس كما سنبين إن شاء الله تعالى فالأولى أن لا يقيد السير بالسرعة بل يقال الشمس لا تدرك القمر في سيره المخصوص حتى يتحد سيرهما فإن ذلك يخل بتكون النباتات وتعيش الحيوانات أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله أو سلطانه فتطمس نوره، قلتُ: وجاز أن يكون المراد بالشمس النهار وبالقمر الليل وهذا يستقيم المقابلة يعني لا ينبغي للنهار أن يدرك الليل أي يسبقها ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته كذا تستفاد من كلام البغوي ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض المضاف إليه أي كل واحد منهما، وقال البيضاوي تقديره كلهم والضمير للشموس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات ولو بالإعتبار أو إلى الكواكب فإن ذكرهما مشعر بها ﴿فِي فَلَكٍ﴾ واحد من الأفلاك وهي السماء الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾(١) ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ كما يسبح السمك في الماء.

وهذا صريح في أن الشمس والقمر والكواكب سائرة في الفلك بقسر قاسر من الملائكة أو بالإرادة لا أنها مرتكزة في السماء كالمسامير لا تتحرك إلا بتحرك السماء حركة وضعية كما يقول به الفلاسفة بناءً على أن السباحة يستلزم الخرق والالتئام وزعموا أنه محال، فاستدلوا بتعدد الحركات للكواكب على تعدد السماوات على حسب تعدد الحركات فقالوا السماوات تسعة كلها منطبقة بعضها على بعض مثل قشور البصل وقالوا السماء التاسع الذي هو حاد للجميع يتحرك من المشرق إلى المغرب على منطقة وقطبين بحيث يتم دائرة سيره في كل يوم وليلة مرةً تقريباً وسائر . . . . . السماوات تسير بسيره قسراً ولكل منها حركة بالطبع من المغرب إلى المشرق على منطقة أخرى وقطبين آخرين ويحصل التقاطع بين الأقطاب الأربعة قطبي فلك الثوابت وقطبي فلك الأفلاك والشمس يلازم لمنطقة فلك الثوابت وينقسم منطقة فلك الثوابت إلى إثني عشر حصة يسمون كل حصة منها برجاً

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

ويسمون ذلك الفلك فلك البروج، قالوا ذلك لمَّا رأوا أن الكوكب لا يتم دائرة سيرها في يوم وليلة، ولما رأوا أن الكواكب كلها غير السبعة التي يسمونها سيارات لا يختلف نسبة بعضها مع بعض قط وأن سيرها ينقص من الدائرة في اليوم والليلة قليلاً غاية القلة جداً حكموا بأن كلها مرتكزة في فلك واحد وهي السماء الثامنة فلك البروج وإن سيرها كان لا سير ولذا سموها ثوابت وفلكها فلك الثوابت، ولمَّا رأوا السبعة ينقص سيرها في اليوم والليل من الدائرة نقصاناً ظاهراً بحيث يرون القمر يسير في ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين دائرة والشمس تسير في ثلاث مائة وخمس وستين يوماً ثلاث مائة وأربعاً وستين دائرة وهكذا أن أفلاكها سبعة كلها سائرة من المغرب إلى المشرق ولأجل ذلك يرى سيرها في اليوم والليلة ناقصة من الدائرة وكلما رأوا نقصان سيرها من الدائرة أزيد حكموا بكون سيرها أسرع فقالوا فلك القمر أسرع سيراً فإن سيرها إلى المشرق يقطع الدائرة في شهر وفلك الشمس يقطع في سنة ثلاث مائة وخمس وستين يوماً وهكذا حكموا في سائر السيارات، ولمَّا رأوا خمساً من الكواكب العطارد والزهرة والمشترى والمريخ والزحل تارةً سيرها أزيد من دائرة وتارةً أنقص من دائرة وتارةً سيرها دائرة تامة لا زائد ولا ناقص سموها خمسة متحيرة وأثبتوا لها تدويرات سير أعلاها يخالف سيراً سفلها كل ذلك بُيّنَ في علم الهيئة.

ولمَّا دلَّت النصوص القطعية على أن عدد السماوات سبع لا مزيد عليها بحيث يكفر جاحدها وعلى جواز الخرق والالتئام على الأفلاك بحيث يكفر جاحدها أيضاً بل على وقوعها حيث قال الله تعالى: ﴿إذا السماء إنشقت﴾ ﴿إذا السماء انفطرت﴾ ﴿وانشق القمر﴾[1] ونحو ذلك، ودلت الأحاديث الصحيحة على أن السماوات غير منطبقة بعضها على بعضها بل بين كل منها مسافة بعيدة بحيث يفسق جاحدها روى أحمد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً حديثاً طويلاً وذكر رسول الله ﷺ «**بعُد ما بين الأرض والسَّماء وبين كل سماءين خمس مائة سنة**»[2] وروى الترمذي وأبو داوود عن العباس بن عبد المطلب مرفوعاً حديثاً طويلاً ذكر فيه رسول الله ﷺ «**بعدما بين الأرض والسماء وبين كل سمائين إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة**»[3] (ولعل اختلاف ذلك باعتبار اختلاف سير السائرين

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحديد (٣٢٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الجهمية (٤٧١٠).

سرعة وبطوءاً وجب القول ببطلان علم الهيئة وبأن من اعتقدها يخاف عليه الكفر بالكتاب والسنة وإذا ظهر جواز الخرق والالتئام في السماوات لا مانع من أن يقال أن الكواكب كلها في السماء الدنيا كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[1] وإن كلاً منها في فلك يسبحون وأن سير أكثرها على مقدار واحد قريباً من الدائرة التامة وسير سبعة فيها على مقادير مختلفة على حسب ما يرى ولا مانع من القول بأن الخمسة تارة يسير زائداً وتارة ناقصاً على حسب إرادة الله تعالى وهي الخنس الجواري الكنس والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب ذُرِّيَّاتِهِم بالجمع وكسر التاء والباقون ذُرِّيَّتَهُمْ على الإفراد بفتح التاء ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء، الظاهر أن المراد بالذرية أولادهم الذين يتبعونهم إلى تجاراتهم أو صبيانهم ونساؤهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية يطلق عليهن لأنهن ترارعها، وورد في الحديث أنه ﷺ «رأى امرأة مقتولة فقال ما كانت هذه تقاتل بالحق خالداً فقل له لا تقتل ذرية ولا عسيفاً»[2] والمراد بالذرية في هذا الحديث النساء لأجل الامرأة المقتولة وفي حديث عمر «حجوا بالذرية لا تأكلوا أرزاقها وتذروا أرباقها في أعناقها» أي حجوا بالنساء كذا في النهاية، والمراد بالفلك السفائن الصغار والكبار وتخصيص الذرية بالذكر لأن إستقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب، وقال البغوي المراد به سفينة نوح عليه السلام والمراد بالذرية الآباء واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد، وقال البيضاوي وعلى تقدير أن يراد بالفلك سفينة نوح عليه السلام معنى الآية أن الله تعالى حمل آباءهم وحملهم وذريتهم في أصلابهم وتخصيص الذرية بالذكر لأنه أبلغ في الإمتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي مثل الفلك مطلقاً أو مثل ذلك نوح ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر أو من الفلك والسفن والرواق على هيئة سفينة نوح ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مع اتخاذ السفائن ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ جزاء لشرط محذوف تقديره وإن نغرقهم فلا صريخ أي لا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق أو فلا استغاثة كقولهم أتاهم الصريخ ﴿ولا هم ينقدون﴾ عطف على لا صريخ لهم أي لا ينجون من الغرق، قال ابن

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في قتل النساء (٢٦٦٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الجهاد، باب: الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان (٢٨٤٢).

عباس ولا أحد ينقذهم من عذابي ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾ استثناء مفرغ منصوب على العلية لا ينقذون لشيء إلا لرحمة منا ولتمتيع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي زمان قُدِر لآجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال ابن عباس ما بين أيديكم يعني الآخرة فاعملوا لها وما خلفكم يعني الدنيا فأحذروها ولا تغتروا، وقيل ما بين أيديكم يعني وقائع الله فيما قبلكم من الأمم وما خلفكم عذاب الآخرة وهو قول قتادة، وقيل المراد به نوازل السماء ونوائب الأرض كقوله تعالى: ﴿أولم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾[1] وقيل المراد به عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقيل عكسه وقيل ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لتكونوا راجين رحمة الله وجواب إذا محذوف تقديره إذا قيل لهم اتقوا أعرضوا بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ من الأولى زائدة لتأكيد النفي والثانية للتبعيض ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ استثناء مفرغ مثل قوله: ﴿إلا كانوا به يستهزؤون﴾ هذه الآية في مقام التعليل لما سبق يعني إذا قيل لهم اتقوا أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوه والجملة الشرطية أعني قوله وإذا قيل لهم مع ما عطف عليه أعني وما تأتيهم من آية عطف على قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على الشرطية السابقة يعني كان المؤمنون يقولون لكفار مكة ﴿أَنفِقُواْ﴾ على المساكين ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الأموال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه وضع المظهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بكفرهم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ يعني أن الله لم يرزقهم

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٩.

مع قدرته عليه فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعمهم (قيل قاله مشركوا قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن وعبد وبن حميد وابن المنذر عن إسماعيل بن خالد) وهذا قول باطل فإن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم إبتلاءً فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً وأمر الغني بالإنفاق لا حاجةً إلى ما لهم ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له في مال الغني ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه ولا يدرك العقول كل حكمة في أفعاله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله ويجوز أن يكون جواباً لهم من الله تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي القيامة والبعث عطف على الشرطية السابقة إستفهام إستبطاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الأخبار بإتيانه جواب الشرط محذوف يعني فأنبئونا عن وقت إتيانه خطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ حال من فاعل يقولون يعني يقولون ذلك في حال ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ إستثناء مفرغ منصوب على المفعولية، قال ابن عباس يريد به النفخة الأولى فإن قيل إن الكفار لم يكونوا يعتقدون النفخة فكيف ينتظرونها؟ قلنا: هذه الآية كناية عن عدم تركهم المعاصي أبداً حتى يموتون أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون فإنهم لمّا لم ينتهوا عمّا نهوا عنه قبل ذلك فكأنّهم ينتظرون لأجل ترك المعاصي صيحة الصعق ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ صفة لصيحة واحدة والضمير راجع إلى الناس المفهوم مما سبق وكذا كل ضمير بعده ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ حال من الضمير المنصوب في تأخذهم أي يختصمون في أمور الدنيا من متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء من إتيانها، أصله يختصمون فسكنت التاء وأدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين على قراءة عاصم وابن ذكوان والكسائي، وقرأ ابن كثير وورش وهشام ويعقوب بفتح الخاء بنقل حركة التاء إلى الخاء والإدغام وقرأ قالون وأبو عمرو باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد وقرأ قالون أيضاً وأبو جعفر بإسكان الخاء كأنهما جوّزا التقاء الساكنين إذا كان الثاني مدغماً، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعان ولا يطويانه ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»**[1]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، (٦٥٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٤).

وأخرج الفريابي عنه في هذه الآية قال تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح وفي حوائجهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عطف على تأخذهم ورابط الموصوف محذوف تقديره فلا يستطيعون بعدها والفاء للسببية ﴿تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الزبير بن العوام قال إن الساعة تقوم والرجل يذرع الثوب والرجل يحلب الناقة ثم قرأ: ﴿لا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ يعني لا يقدرون على أن يوصوا في شيء من أمورهم ولا أن يرجعوا إلى أهلهم فيروا حالهم بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي ينفخ، ذكر صيغة الماضي لتيقن وقوعه عطف على مضمون فلا يَسْتَطِيعُونَ يعني يموتون من ساعتهم وينفخ في الصور مرةً ثانيةً وبين النفختين أربعون سنةً كذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون عاماً؟ قال أبيت**»[1] الحديث، وروى ابن أبي داوود عن أبي هريرة حديثاً مرفوعاً وفيه بين النفختين أربعون عاماً ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي يخرجون والنسل في الأصل الإنفصال عن الشيء يقال نسل الوبر من البعير ومنه يقال للولد النسل لانفصاله عن والده وقيل معناه يسرعون، في القاموس الماشي ينسُلِ بضم العين وكسره نسلاً ونسيلاً ونسلاناً يسرع. ﴿قَالُوا۟﴾ يعني يقول الكفار حين يبعثهم أورد لفظ الماضي لتيقن وقوعه ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ ينادون الويل يعني يا ويل احضر فإن هذا أوانك أو يقال أن المنادى محذوف تقديره لا يا أيها المخاطب ويلنا وهو مصدره فعل له من لفظ منصوب بفعل مقدر في معناه، قال في القاموس معناه حلول الشر، وقال بعض المحققين لم يرد في اللغة أن ويلاً وضع لهذا المعنى بل هو اسم لوادٍ في جهنم لما روى أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي الدنيا وهناد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ويل وادٍ في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره**»[2] وروى سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال الويل واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار جعل للمكذبين، وأخرج ابن جبير عن عثمان بن عفان عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء (٣١٦٤).

رسول الله ﷺ «الويل جبل في النار» وأخرج البزار بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال قال رسول الله ﷺ: «**إن في النار حجراً يقال له ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون**» ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ سكت حفص هاهنا سكتة لطيفة والوقفة عليها عند غيره أحسن، قال ابن عباس وقتادة إنما يقولون هذا لأن الله يرفع العذاب عنهم بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الآخرة عاينوا القيامة ودعوا بالويل، وقول ابن عباس هذا دفع لما قالت المعتزلة إن هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر فإنها تدل على أنهم كانوا كالنيام، وقال أهل المعاني إن الكفار إذا عاينوا جهنم بأنواع عذابها صارت عذاب القبر في جنبها كالنوم فقالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ مبتدأ وخبر وما مصدرية بمعنى المفعول أو موصولة والرابط محذوف يعني هذا ما وعد به الرَّحمانُ وَصَدَقَ فيه المُرْسَلُوْنَ وجاز أن يكون صَدَقَ المرسلون جملة مستأنفة معطوفة على جملة فهذا إقرار منهم حين لا ينفعهم الإقرار، وقيل هذا قول الملائكة جواباً لهم، وقال مجاهد هذا قول المؤمنين في جوابهم وإنما عدل عن سن الجواب تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذي يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنَّهم قالوا بعثكم الرحمن الذي وعدكم بالبعث وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم وليس الأمر كما تظنون أنه بعث النائم فيهكم السؤال عن الباعث بل هو البعث الأكبر ذو الأهوال، وجاز أن يكون هذا صفة لَمُرقَدِنَا ومَا وَعَدَ خبر محذوف أو مبتدأ خبره محذوف يعني ما وَعَدَ الرَّحْمَن حق وَصَدَقَ المُرْسَلُوْنَ وعلى هذا التأويل لا يلائم السكتة أو الوقف على مَرْقَدِنا ﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي ما كانت الفعلة في بعثهم ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هي النفخة الأخيرة ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ﴾ أي مجموعون ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ خبر بعد خبر وفي ذلك تهوين لأمر البعث والحشر واستغنائهما عن الأسباب التي ينوطان بها فيما يشاهدونه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾ حكاية لما يقال لهم تصويراً للموعود وتمكيناً له في النفوس وكذا قوله.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ

تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٍ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بسكون الغين والباقون بضمها وهما لغتان مثل السُّحُتِ وَالسُّحْتِ، واختلفوا في معنى الشغل قال ابن عباس في افتضاض الأبكار، وقال وكيع بن الجراح في السَّماع، وقال الكلبي في شغل عن أهل النار وعمَّا هم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم، وقال الحسن شغلوا بما في الجنة من النعيم عمَّا فيه أهل النار من العذاب، وقال ابن كيسان في زيارة بعضهم بعضاً وفي ضيافة الله تعالى، والأولى أن يقال في شغل ما يشتهون فالصوفية العلية الذين لا مقصود لهم إلا الله تعالى شغلهم الانهماك والاستغراق في التجليات الذاتية على جهم وغيرهم كان شغلهم بالسماع والرياح والأكل والشرب والجماع على حسب شهواتهم ورغباتهم، أخرج أبو نعيم عن شيخ طريقتنا أبي يزيد البسطامي أنه قال إن لله خواصاً من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهلنا بالخروج من النار، وفي تنكير شغل وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ وتنبيه على أنه أعلى ممَّا يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر بعد خبر لإن.

قرأ أبو جعفر فكهون بغير ألف حيث كان ووافق حفص في المطففين وفيه مبالغة والباقون بألف وهما لغتان مثل الحَاذِرِ والحَذِرِ يعني ناعمون متلذذون في النعمة من الفكاهة وقال مجاهد والضحاك معجبون بما هم فيه وعن ابن عباس قال هم فرحون ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي ظلل بغير ألف جمع ظلة والباقون ظلال بالألف وكسر الظاء جمع ظل وهو موضع الذي لا يقع عليه الشمس كشعاب أو ظلة وهو ما يترك عن الشمس كقباب ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ يعني السرد في الحجال واحدتها أريكة قال البغوي قال ثعلب لا يكون أريكة حتى يكون عليها حجلة، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال لا يكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان السرير بغير حجلة لا يكون أريكة، وإن كان حجلة بغير سرير لا يكون أريكة فإذا اجتمعا كانت أريكة وأخرج البيهقي عن مجاهد قال الأرائك من لؤلؤ وياقوت الجار والمجرور متعلق بقوله ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ هم مبتدأ

خبره في ظلال وعلى الأرائك جملة مستأنفة أو خبر ثان أو الخبر متكئون والجاران صلة له أو هم تأكيد للضمير في شغل أو فاكهون وعلى الأرائك متكئون خبر آخر لإن، وأزواجهم عطف على هم للمشاركة في الأحكام أو في ظلال حال من المعطوف والمعطوف عليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي ما يطلبون لأنفسهم يقتنعون من الدعاء أو يتمنون من قولهم إدع على ما شئت بمعنى منه على أو ما يدعون في الدنيا من الجنة ودرجاتها، وما موصولة أو موصوفة مبتدأ وخبرها لهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل منها ويجوز أن يكون خبراً لهم أو الخبر المحذوف أي هم سلامٌ ومبتدأ محذوف الخبر أي لهم سلامٌ ﴿قَوْلًا﴾ يعني يقول الله قولاً أو يقال لهم قولاً كائناً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ والمعنى أن الله يسلّم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم ومقناهم ويحتمل نصبه على الأختصاص، أخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني والآجري عن جابر قال قال النبيّ ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله تعالى:** ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ فقال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»[1] قال السيوطي إشرافه سبحانه وإطلاعه منزه عن المكان والحلول، قال البغوي يسلم عليهم الملائكة من ربهم وقال مقاتل يدخل الملائكة على الجنة من كل باب سلامٌ عليكمُ يا أهل الجنة من ربكم الرحيم يعطيهم السلامة أسلموا السلامة الأبدية.

﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ قال مقاتل والسديُّ والزجاج يعني اعتزلوا من الصالحين يعني يُساق المؤمنون إلى الجنة والمجرمون إلى النار عطف على مضمون ما سبق، وقال الضحاك: إن لكل كافر في النار بيتاً يدخل ذلك البيت ويردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن مسعود قال إذا ألقي في النار من هو مخلد فيها جُعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحدهم أنه يعذب غيره، وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن عفلة نحوه ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ألم آمركم على لسان المرسلين استفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات يعني قد

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٤).

عهدتُ إليكم والجملة في مقام التعليل لتميزهم من المؤمنين ﴿يا بني آدم أن لا تعبدو الشيطان﴾ أي لا تطيعوه في معصية الله أن مفسرة للعهد فإنه في معنى القول ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة تعليل للمنع عن طاعته فيما يحملهم عليه ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ عطف على ولا تعبدوا ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته تعالى والجملة استئناف لبيان المقتضى للعهد بشقيه أو بالشق الأخير والتنكير للمبالغة والتعظيم أو للتبعيض فأن التوحيد سلوك بعض الطريق المستقيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ﴾ الشيطان ﴿مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ويعقوب بضم الجيم والباء وتشديد اللام وابن عامر وأبو عمرو بضم الجيم وسكون الياء، والباقون بضم الجيم والباء بغير تشديد وكلها لغات ومعناها الخلق والجماعة أي خلقاً ﴿كَثِيرًا﴾ جواب قسم محذوف رجوع إلى بيان معاداة الشيطان وظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل فإنه إنما يأمر بالفحشاء والمنكر وترك عبادة الخالق الرازق الضارّ النافع إلى عبادة من لا يضر ولا ينفع وترك اتباع النبيّ الناصح المؤيد بالمعجزات إلى إتباع هوى النفس ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ عداوته مع وضوحها، الإستفهام للتوبيخ وجملة ولقد أضل معترضة للتوبيخ ويقال لهم لما دنوا من النار ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا﴾ أُدخلوها وذوقوا حرها ﴿ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بكفركم في الدنيا ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ جملة فيها التفات من الخطاب إلى الغيبة، أخرج مسلم عن أنس قال كنا مع رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون فيما أضحك**»؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «**من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا بشاهد مني، فيقول كفى بنفسِكَ اليوم عليكَ شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فينطق بأعماله ثم يخلّى بينه وبين الكلام فيقول بُعْداً لكنَّ وسحقاً فعنكُنَّ أناضل**»[1] وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله «هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليست في سحابة؟ قالوا لا، قال فوالذي نفسي بيده لا تضارُّون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، فيأتي العبد فيقول أي فلان ألم أكرمك ألم أسودك ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأتركك تترأس وتربع، قال بلى يا رب، فيقول أظننت أنك

---

(١) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٩).

ملاقي؟ فيقول لا، فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقي الثاني فيقول له مثل ذلك، ويقول مثل ذلك ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك وصلَّيتُ وصمتُ وتصدقتُ ويثني ما استطاع فيقال أفنبعث عليك شاهداً فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي، فيختم على فيه ويقول لفخذه إنطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله ما كان ذلك قال وذلك المنافق وذلك بعذر عن نفسه وذلك الذي سخط الله عليه»[1] وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني عن عقبة بن عامر مرفوعاً «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال» وفي حديث معاوية بن حيدة عند أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي قال: «**تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الغلام فأول ما يتكلم من الأدمي فخذه وكفه**» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال يُدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول أي رب عملتُ وعملتُ فيغفر الله ذنوبه ويستره فيها، قال فما على الأرض خليقة يرى من تلك الذنوب شيئاً وتبدو حسناته والناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول أي ربّ وعزتك كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل فيقول له عملتَ كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك فإذا فعل ذلك ختم علي فيه، قال أبو موسى فإني أحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ثم تلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية، أخرج أبو يعلى والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إذا كان يوم القيامة عير الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا، فيقال أحلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله تعالى ويشهد عليهم ألسنتهم فيدخلهم النار**».

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ يعني ولو شئنا طمس أعينهم ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى الطمس ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ عطف على طمسنا أي إلى الطريق اعتادوا سلوكهم وانتصابه بنزع الخافض أو بتضمين الاستباق معنى الإبتداء أو جعل المسبوق إليه مسبوقاً على الاتساع أو على الظرفية ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للإنكار يعني فكيف يبصرون الطريق حينئذ أي لا يبصرون بسبب الطمس، قال البغوي هذا قول الحسن والسدّي، وقال ابن عباس وقتادة ومقاتل وعطاء ولو نشاءُ لفقأنا أعين ضلالتهم فأعميناهُمْ عن غَيِّهم وحولنا أبصارهم من

(١) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٨).

الضلالة إلى الهدى أبصروا رشدهم يعني لم نشأ ذلك فأنى يبصرون رشدهم ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ قرأ أبو بكر مكاناتهم بصيغة الجمع والباقون بالإفراد يعني ولو شئنا لجعلناهم قردةً وخنازير في منازلهم، وقيل يعني لو شئنا لجعلناهم حجارة وهم قعود في منازلهم لاروح لهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾ أي ذهاباً ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً وضع الفعل موضعه للفواصل، وقيل ولا يرجعون عن تكذيبهم إلى التصديق ومعنى هذه الآية والآية السابقة على تأويل الحسن أنهم لكفرهم ونقضهم العهد أحقاء أن يفعل بهم ذلك لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم في الدنيا واقتضاء الحكمة إهمالهم.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي من نطل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف والتشديد من التنكيس، والباقون بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف مخففاً من المجرد والتنكيس أبلغ والنكس أشهر ومعناه نقلبه ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ يعني كان في بدء الأمر لا يزال يتزايد قوةً ونجعله في الآخر بحيث لا يزال يتزايد ضعفاً حتى يموت ﴿أفلا يعقلون﴾ عطف على مضمون الشرطية السابقة والإستفهام للإنكار يعني ينبغي أن يعقلوا ويعلموا أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ فأنه مشتمل عليهما وزيادة غير أنه على تدرج قرأ نافع وابن ذكوان بالتاء على الخطاب لجري الخطاب قبله في قوله: ﴿ألم أعهد إليكم﴾ والباقون بالياء على الغيبة جرياً على قوله: ﴿لو نشاء لمسخناهم﴾.

قال البغوي قال الكلبي إن كفار مكة قالوا إن محمداً شاعر وما تقوله شعر فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ عطف على قوله إنك لمن المرسلين، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة يعني ما علمناه الشعر بتعليم القرآن فإنه غير مقفى ولا موزون وليس معناه مثل معنى الأشعار من التخيلات المرغبة والمنفرة والأقوال الكاذبة ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي ما يصح له أن يضيع وقته الشريف في إنشاء الشعر ورعاية الوزن والقافية، وأما ما روى الشيخان في الصحيحين من حديث البراء بن عازب قوله ﷺ: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[1] ومن حديث جندب بن أبي سفيان «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت»[2] فاتفاقي من غير تكلف وتصنع وقعت قصد منه إلى ذلك ومثله لا يعد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر (٢٩٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٦).

شاعراً وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عدَّ المسطور من الرجز شعراً. هذا وقد روى أنه ﷺ حرك البائين من كذب وعبد المطلب وكسر التاء من دميت بلا إشباع وسكن التاء من لقيت، وقال البغوي ما كان يتزين له بيت شعر حتى إذا تمثل بيت شعر جرى على لسانه منكسرا، وروى البغوي عن الحسن أن النبيّ ﷺ كان يتمثل بهذا البيت كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً، فقال أبو بكر يا نبي الله قال الشاعر كفى الشيب والإسلام بالمرء ناهياً فأعاد كالأول فقال أبو بكر أشهد أنك رسول الله يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، وروى عن المقدام بن شريح عن أبيه قال قلتُ لعائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يتمثل شيئاً من الشعر؟ قالت كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة قالت وربما قال: ويأتيك الأخبار من لم تزودي، وقال معمر عن قتادة بلغني أن عائشة سئلت هل كان النبيّ ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت كان الشعر أبغض الحديث إليه قالت ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بني قيس بن مطرف.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزودي

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار قال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال إني لستُ بشاعر وما ينبغي لي، وقيل الضمير للقرآن أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وإرشاد من الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ للفرائض والحدود والأحكام وإخبار الغيب من الماضي والمستقبل التي لا يمكن إتيانها من الشاعر بل من أحد من البشر ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر يا محمد بالقرآن وكذلك في الاحقاف ووافق ابن كثير في الأحقاف والباقون بالياء للغيبة متعلق بمضمون ما سبق يعني أنزلنا القرآن وأرسلنا محمداً لينذر القرآن أو الرسول ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي مؤمناً فإنه حي القلب يعقل الأشياء على ما هي عليه وأيضاً الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الأبدية لأنه هو المنتفع به دون الكافر فإنه كالميت لا ينتفع به ولا يدرك الحسن من القبيح يحسب عبادة الأحجار وإتباعَ الشيطان حسناً وعبادةَ الخالق واتباعَ الرسول الناصح المؤيد بالمعجزات قبيحاً فيكون في الآخرة بحيث لا يموت ولا يحيي وللإشعار بأنهم أموات في الحقيقة جعلهم في مقابلة مَنْ كَانَ حَيّاً وقال ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ عطف على لينذر أي ليجب كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن

دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة لاستفهام الإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكرون البعث أو أينكرون خلق الله ولم يروا يعني قد رأوا وأقروا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي تولينا إحداثه دون غيرنا لانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ إسناد العمل إلى الأيدي استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرد بالأحداث ﴿أَنْعَٰمًا﴾ خصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ متملكون بتمليكنا إياهم أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾ أي سخرناها ﴿لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي مركوبهم يعني الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمه ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار والنسق له واستعمالها في الحرث وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من البانها جمع مشربة بمعنى الموضع أو المصدر ﴿أفلا يشكرون﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أينكرون فَلاَ يفكرون لا بل يعترفونه ويكفرون كما يدل عليه قوله ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أشركوها به في العبادة بعدما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة وعلموا أنه المتفرد بها، عطف على مضمون خلقنا لهم يعني أنعمنا عليهم وهم اتخذوا آلهة غيرنا، روى البيهقي والحكيم عن أبي الدرداء أنه قال رسول الله ﷺ قال الله عزَّ وجلَّ: «**إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري**»[1] ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ حال من فاعل اتخذوا يعني راجين أن ينصروهم فيما يحقُّهم من الأمور، والأمر بالعكس لأنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي أن يمنعوهم من العذاب ﴿وَهُمْ﴾

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي بلا سند، والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم وفيه بقية بن الوليدأورده الذهبي في الضعفاء. انظر: فيض القدير (٦٠٠٨).

أي الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ معدون لحفظهم والذب عنهم في الدنيا وهي لا يسوق إليهم خيراً ولا يدفعون عنهم شراً، وقيل معناه يؤتى يوم القيامة بكل معبود من دون الله ومعه أشياعه الذين عبدوهم كأنهم جند محضرون في النار، الجملة حال من فاعل لا يستطيعون ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ الفاء للسببية يعني إذا سمعت الوعيد للكافرين ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحاد وفيك بالتكذيب والتهجين ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من عداوتك والعقائد الباطلة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال والأقوال الشنيعة فيجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتلى به وجملة إنا نعلم تعليل للنهي على الإستئناف.

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حاصل محقة، فقال يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرى؟ قال نعم يبعث الله هذا يميتك ثم يحييه ثم يدخلك نار جهنم فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ يعني العاص ابن وائل ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخر السورة، وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسديُّ والبيهقيُّ في شعب الإيمان عن أبي مالك وكذا ذكر البغوي أنها نزلت في أبي بن خلف الجمحي خاصم النبيّ ﷺ في إنكار البعث وأتاه بعظم قد بلي ففتته بيده وقال أترى يحيي الله هذا بعدما؟ فقال النبيّ ﷺ: «**نعم ويبعثك فيدخلك النار**» فأنزل الله تعالى هذه الآية، الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكر الإنسان قدرتنا على الإعادة ولم ير يعني قد علم أنا خلقناه من نطفة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ الفاء للعطف وإذا للمفاجأة يعني خلقناه من نطفة ففاجأ وقت خصامه ﴿مبين﴾ ظاهر أنه مجادل بالباطل لا يريد تحقيق الحق لظهوره حيث يعلم ويعترف ببدء خلقه وينكر ما هو أهون منه وهو الإعادة، وفيه تسلية ثانية بتهوين ما يقول له بالنسبة إلى إنكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ حيث أتى الكفر في مقابلة النعمة التي لا مزيد عليه وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفاً مكرماً، وقيل معنى فإذا هو خصيم مبين فإذا هو بعدما كان ماء مهيناً مميز منطيق قادر على الخصام معرب عما في نفسه وقيل فهو على مهانة أصله ودناءة أوله يتصدى مخاصمة ربه وينكر قدرته على إحياء الميت وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ إلى آخره بدل من قوله ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نسي القدرة على إحياء الموتى وتشبيهه بخلقه موصوفاً بالعجز عمَّا عجزوا عنه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي خلقنا إياه من مني وهو أغرب من إحياء العظم ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ حال من العظام إستئناف بيان للمثل والرميم ما بلي من العظام فعيل بمعنى فاعل من إم الشيء صار إسماً بالغلبة فلذلك لم يؤنث أو بمعنى مفعول من رحمته.

قال البيضاوي فيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء يعني بذلك أن عظم الميتة نجس وبه قال الشافعي، وكذا ذكر ابن الجوزي مذهب أحمد في التحقيق وذكر صاحب رحمة الأمة أن الصحيح من مذهب أحمد طهارة السنّ والريش والعظم، احتج القائلون بنجاسة عظم الميتة بهذه الآية وبقوله ﷺ: «**لا ينتفع من الميتة بشيء**» رواه أبو بكر الشامي بإسناده عن أبي الزبير عن جابر قال صاحب المغني وصاحب تنقيح التحقيق إسناده حسن ورواه ابن وهب في مسنده عن زمعة بن صالح عن أبي الزبير عن جابر ولفظه «لا تنتفعوا من الميتة بشيء ولا تنتفعوا بالميت» قال صاحب التنقيح زمعة فيه كلام وللحديث علة ذكرها ابن معور وغيره، قال صاحب الهداية شعر الميتة وعظمها لا حياة فيهما يعني فلا يحلهما الموت فلا يشتملهما الحديث الوارد في النهي عن الإنتفاع بالميتة ويرد على هذا القول هذه الآية فإنها تدل على كون الحياة في العظم، فالأولى أن يقال أن المنجس إنما هو الدم المسفوح ولا دم في العظم والعصب والشعر وإن كانت فيها حياة ولهذا موت ما لا دم له سائلاً من الحيوانات في الماء لا يفسده عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: «**كل طعام أو شراب وقعت فيه دابة ليس لها دم فماتت فيه فهو حلال أكله وشربه ووضوءه**» رواه الدارقطني، قال الدارقطني لم يروه غير بقية عن سعيد بن سعيد الزبيدي وهو ضعيف وقال ابن عدي سعيد مجهول، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء**»[1] رواه البخاري، والحجة لنا حديث ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة فقال: «ألا استمتعتم بجلدها؟ فقالوا يا رسول الله إنها ميتة، قال إنما حرم أكلها»[2] متفق عليه، وروى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال إنما حرم رسول الله ﷺ من الميتة لحمها وأما الجلد والشعر والصوف فلا بأس به، وفيه عبد الجبار بن مسلم قال الدارقطني ضعيف لكن ذكره ابن حبان في الثقات قال ابن همام لا ينزل الحديث عن الحسن والعجب من ابن الجوزي أنه احتج بهذا الحديث على طهارة صوف الميتة وشعرها ولم يحتج بها على طهارة العظم واحتج على نجاسة العظم بحديث «لا تنتفعوا من الميتة بشيء» ولم يحتج بها على نجاسة الصوف والشعر، والحق أن المراد بقوله ﷺ لا تنتفعوا من الميتة بشيء لا تنتفعوا من الميت مما يؤكل لتنجسه باختلاط الدم المسفوح وأما العظم والشعر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: إذا وقع الذباب في الإناء (٥٧٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الذبائح والصيد، باب: جلود الميتة (٥٥٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: طهارة جلود الميتة بالدباغ (٣٦٣).

والصوف مما لا يختلط بالدم فلا بأس به ولا بأس بالجلد بعد الدباغ وإزالة الرطوبة وفي الباب أحاديث أخر منها ما روى الدارقطني عن ابن عباس قال سمعتُ رسول الله ﷺ «ألاَ كل شيء من الميتة حلال إلا ما أكل منها فأما الجلد والشعر والصوف والعظم فكل هذا حلال لأنه لا يزكى» وفيه أبو بكر الهذلي قال الدارقطني متروك وقال غندر كذاب وقال يحيى وعلي ليس بشيء، وروى الدارقطني عن أم سلمة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«لا بأس بمسك الميتة إذا دبغ ولا بأس بصوفها وشعرها وقرونها إذا غسل بالماء»** قال الدارقطني لم يأت به غير يوسف بن السفر وهو متروك يكذب وقال أبو زرعة والنسائي هو متروك وقال دحيم ليس بشيء وقال ابن حبان لا يحل الإحتجاج به بحال، وروى ابن الجوزي من طريق أبي يعلى عن حميد الشامي عن سليمان عن ثوبان أن رسول الله ﷺ اشترى لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج، قال ابن الجوزي الحديث لا يصح حميد وسليمان مجهولان قال أحمد لا أعرف حميداً وقال يحيى بن معين لا أعرف سليمان، وأيضاً المراد بالعاج الزبل قال ابن قتيبة ليس العاج هاهنا الذي يعرفه العامة ويخرطه من العظم والناب ذلك ميتة منهي عنه فكيف يتخذ لها منه سواراً إنما العاج الزبل قال ذلك الأصمعي، قال ابن همام قول الأصمعي ليس العاج الذي يعرفه العامة، ويوهم أنه ليس من اللغة وليس كذلك قال في المحكم العاج أنياب الفيلة ولا يسمى غير الناب عاجاً، وقال الجوهري العاج عظم الفيل الواحد حاجة، فتأويل الأصمعي إنما هو لاعتقاده نجاسة عظم الفيل، قال ويظهر من القاموس أن العاج مشترك في الزبل وعظم الفيل وكذا يظهر من النهاية للجزري والزبل جلد السُّلحفاة البحرية أو البرية أو عظام ظهر دابة بحرية يتخذ منها الأسورة والأمغاط كذا في القاموس، وأخرج البيهقي عن بقية عن عمرو بن خالد عن قتادة عن أنس أنه ﷺ كان يمتشط بمشط من عاج، قال البيهقي ورواية بقية عن شيوخه المجهولين ضعيفة، قال ابن همام فهذه عدة أحاديث لو كانت ضعيفة حسن المتن فكيف ومنها ما لا ينزل عن الحسن وله الشاهد الأول من الصحيحين والله أعلم.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قدرته كما كان لامتناع التغير فيه والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها جملة مستأنفة وقوله ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ حال من فاعل يحيي أي يعلم تفاصيل المخلوقات وكيفية خلقها فيعلم أجزاء الأشخاص المتغيبة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطرق تميزها وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو أحداث مثلها ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدل من ﴿الذي انشأها﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي

هو أو منصوب على المدح بتقدير أعني، قال ابن عباس شجرتان يقال لإحداهما المرخ وللأخرى العفار فمن قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضروان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار يخرج منها النار يقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار، وقال العلماء في كل شجر نار إلا العناب ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي ففاجئتم وقت إيقادكم ولا تشكون في أنها نار خرجت منه فمن قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماهية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على إعادة العضاضة فيما كان عضاً فيبس وبلي ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الإستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أخلق السماوات والأرض كما تعترفون به وليس الذي خلقهما مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ قرأ يعقوب يقدر على صيغة المضارع ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما أو مثلهما في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من الله لتقرير ما بعد النفي أي هو قادر على أن يخلق مثلهم ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ يخلق خلقاً بعد خلق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الممكنات عطف على مضمون بلى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أن يوجد ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون، نصبه ابن عامر والكسائي عطفاً على يقول، قال البيضاوي هو تمثيل لتأثير قدرته في مراده تعالى بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخالق.

﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ مصدر فعل محذوف والفاء للسببية يعني إذا علمتم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة وهو قادر على أن يحيى العظام وأنه إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون فسبحوا سبحان ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ أي الملك بمعنى القدرة زيدت الواو والتاء للمبالغة ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي تنزيه له عما ضربوا وتعجيب عمَّا قالوا فيه معللاً بكونه مالكاً للملك كله قادراً على كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عطف على قوله بيده وفيه وعد للمقرين ووعيد للمنكرين.

عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «**إقرأوا على موتاكم يس**»[(١)] رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وفي لفظ «يس قلب القرآن لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له إقرأوها على موتاكم» وذكره الجزري في الحصن الحصين بلفظ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: القراءة عند الميت (٣١١٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حضر (١٤٤٨).

«يس لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له إقرأوها على موتاكم» وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: **«إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس من قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات»**[1] سنده ضعيف رواه الترمذي.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة يس (٢٨٨٧)، وفيه شيخ مجهول.

سورة الصافات

آياتها مائة وأثنان وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ أقسم بالملائكة الذين يصفون في مقام العبودية كصفوف المصلين، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **«ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف ويتراصون في الصف»**[1] كذا قال ابن عباس والحسن وقتادة وقيل هم الملائكة تصف بأجنحتها في الهواء واقفةً حتى يأمر الله بما يريد وقيل هي الطير قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[2] ﴿فالزجرات زجرا﴾ يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه، وقيل الملائكة تزجر الناس عن المعاصي بإلهام الخير أو الشياطين عن التعرض لهم، وقال قتادة هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبيح ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ هم الملائكة الذين

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الأمر بالسكون في الصلاة وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع (٤٣٠).

(٢) سورة النور، الآية: ٤١.

يتلون ذكر الله أو آيات من الكتب السماوية على الأنبياء وذِكَراً منصوب على المفعولية وجاز نصبه على المصدرية من معنى التاليات، أو أقسم بنفوس العلماء الصافِّين أقدامهم في الصلاة الزاجرين عن الكفر والسيئات بالحجاج والنصيحات التالين آيات ربهم رفيع الدرجات، أو بنفوس الغزاة المقاتلين في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص الزاجرين الخيل والعدو التالين لذكر الله لا يشغلهم مبارزة العدو عن ذكر الله، والعطف لاختلاف الدوات أو الصفات والفاء لترتيب الوجودِ فإن الصف كمال والزجر تكميل بالمنع عن الشر أو الإساقة إلى الخير والتلاوة إفاضة أو الرتبة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] أدغم حمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا وأبو عمرو على أصله في الإدغام الكبير، جواب القسم ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَوَٰحِدٌ﴾ رد لما قال كفار مكة ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب﴾[2] ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ خبر بعد خبر لإن أو خبر مبتدأ محذوف أي هو والمراد بالمشارق مشارق الكواكب كلها أو مشارق الشمس في السنة فإنها ثلاث مائة وخمس وستون تطلع كل يوم من واحد وبحسبها يختلف المغارب ولذلك إكتفى بذكرها مع أن الشرق أَدَلُّ على القدرة وأبلغ في النعمة.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي القربى منكم فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة وهي بيانية أي بزينة هي الكواكب أو إضافة المصدر إلى المفعول أي بأن زينا الكواكب فإنها كما جاءت إسماً كالليقة جاء مصدراً كالنسبة أو إلى الفاعل أي بأن زينها الكواكبُ، وقرأ حمزة ويعقوب وحفص بتنوين زينةٍ وجر الكواكب على إبدالها منه أي بزينة هي الكواكب أو بزينة هي لها كأضوائها وأوضاعها، قال ابن عباس أي بضوء الكواكب وهذه القراءة يؤيد كون الإضافة في قراءة الجمهور بيانية وقرأ أبو بكر بتنوين زِيْنَة ونصب الكواكب على المفعولية فيؤيد كون الإضافة إلى المفعول أو منصوب بتقدير أعني أو على البدل من محل زينة ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوب على المصدرية بإضمار فعله أي وحفظناها حفظاً أو بالعطف على زينة بحسب المعنى كأنَّه قال إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً أي لأجل الحفظ ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة برمي الشهب من الكواكب، وهذه الآية تفيد أن الكواكب كلها في السماء الدنيا وقول البيضاوي أن كون

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٧.

(٢) سورة ص، الآية: ٥.

الثوابت في الكرة الثامنة وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينها وبين سماء الدنيا أن تحقق لم يقدح في ذلك فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة مبني على تجويز قول الفلاسفة، والحق أن قول الفلاسفة باطل بالكتاب والسنة والإجماع فإن كون السماوات سبعاً منصوص عليه بالكتاب فلا يجوز القول بالكرة الثامنة وتسميتها باسم غير السماء لا يفيد كتسمية الخمر بغير إسمها لا يفيد الحل، وأيضاً الدُّنيَا صفة للسماء ومفهوم الصفة يقتضي حصر زينتها في السماء الدنيا ولولا ذلك الحصر لما وجه لتقييد السماء بالدنيا وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ يرد القول بكون الكواكب في سماء غير سماء الدنيا فإن رجم الشيطان ليس إلا من السماء الدنيا ولا سبيل للشياطين فوق سماء الدنيا والقول بأن الشهاب تخرج من الكواكب الثابتة في السماء الثامنة نافذة من السماوات السبع إلى سارق السمع من الشياطين يأباه العقل والنقل والله أعلم.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي بتشديد السين والميم أصله يَتَسَمَّعُونَ فأدغمت التاء في السين والمعنى يطلبون السماع وفيه مبالغة في نفي السماع والباقون بسكون السين وتخفيف الميم من المجرد، وهذا كلام مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ السماء عنهم ولا يجوز جعله صفة لكلّ شيطان فإنه يقتضي حفظها من الشياطين الذين لا يسمعون ولا علة للحفظ على حذف اللام كما في جئتك أن تكرمني ثم حذف أن وأدار عملها فإن اجتماع ذلك منكر ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ متعلق بلا يسمعون بتضمين معنى الإصغاء مبالغة لنفيه وتهويلاً لما يمنعهم عنه، والمراد بالمُلأ الأعلىٰ الملائكة أو أشرافهم مدبرات الأمور ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يُرمون عطف على لا يسْمَعُونَ ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي من آفاق سماء الدنيا بالشهب إذا قصدوا المكث والإصغاء ﴿دُحُورًا﴾ مصدر بمعنى الطرد منصوب على المصدرية لأن القذف والدحور متقاربان أو على الحال بمعنى مدحورين أو بنزع الخافض أي بدحور وهو ما يطرد به ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ آخر ﴿واصب﴾ أي دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة، وقال مقاتل لهم عذاب في الدنيا دائم إلى النفخة الأولى يحرقون ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ إستثناء من فاعل لا يسمعون وبدل منه، وقيل إستثناء منقطع والخطفة الاختلاس يعني من اختلس كلمةً من كلام الملائكة مسارقةً ولذلك عرّف الخطفة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أتبع بمعنى تبعه أي لحقه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وهو ما يرى كأنّ كوكباً إنقض وهو شعلة تخرج من كوكب لرجم مسترقي السمع من الشياطين.

وليس كما قالت الفلاسفة أنه بخار يصعد إلى الأثير ويشتعل فإن هذا قول باطل

مبني على الظن والتخمين وإنَّ الظَّنَّ لا يغنى من الحق شيئاً وهذا كقولهم في المطر أنه بخار يصعد من الأرض ويصل إلى الطبقة الزمهيرية من الهواء فيجمد ويكون غماماً ثم يصل إليه الحرارة من الشمس فيذوب وبقطر ماء، هذه الأقوال الباطلة التي لا دليل عليها يأباه العقل فإن الأبخرة قد يصعد كثيراً لأجل شدة الحرو لا يكون مطراً إلى سنين وقد يكون أمطاراً متوالية متكاثرة في البرد من غير أن يدرك حينئذ صعود الأبخرة وأيضاً لو كان كذلك لذاب في بعض الأحيان الغمام كله ولم ير ذلك قط وأيضاً البخارات لا تزال تتصاعد دائماً فرؤية الشهاب في بعض الأحيان لا معنى له، وهذه الأقوال باطلة بالكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء من جبال فيها من برد﴾[2].

وهذه الآية ﴿زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ إلى قوله ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وروى البخاري عن قتادة قال «خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم».

وروى أيضاً عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض**» (وصف سفيان بكفه فحركها وبدد بين أصابعه) «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها ا لآخر إلى من تحت حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء»[3].

وروى مسلم عن ابن عباس «ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى تبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ما قال فيستخبر بعض أهل

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٢) الآية هي: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ سورة النور، الآية: ٤٣.

(٣) البخاري في كتاب: التفسير، باب: (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) (٤٧٠١).

السماوات بعضاً حتى تبلغ أهل هذه السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم تعرفون فيه ويزيدون»[١]، وروى البخاري عن عائشة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فيسترق الشياطين السمع فيستمعه فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم**»[٢] قال البيضاوي واختلف في المرجوم يتأذى فيرجع أو يحترق به لكن قد يصيب الصاعدة مرةً وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولهذا لا يرتدعون.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ الضمير المنصوب لمشركي مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ ممن خلقناهم ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ هم أشد خلقاً منهم والمراد بمَنْ خَلَقْنَا ما سبق ذكره من السماوات والأرض وما بينهما من الخلائق والمشارق والمغارب والكواكب والشهب الثواقب ومَنْ لتغليب العقلاء والإستفهام للتقرير، وقيل المعنى أمْ مَّنْ خَلَقْنَا من غير هم من الأمم السالفة كعاد وثمود قد أهلكناهم بذنوبهم فمالكم تأمنون من العذاب والتأويل الأول يوافق قوله تعالى: ﴿ءأنتم أشد خلقاً أم السماء﴾[٣] ويدل على إطلاقه قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي لاصق يتعلق باليد، وقال مجاهد والضحاك أي منتن فإنه فارق بين خلقهم وخلق السماوات والأرض فإن خلقها بلا مادة سبق وهذه الجملة متضمنة للسؤال المذكور على طريقة ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾[٤] بعد قوله ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾[٥] والغرض من هذا الكلام الرد على منكر البعث فإنه شهادة عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة فمن قدر على خلق السماوات وغيرها قادر البتة على ما لا يعتد به بالإضافة إليها واحتجاج عليهم بأن خلقهم الأول من الطين اللازب فمن أين ينكرون أن يخلقوا ثانياً من تراب حيث قالوا: ﴿ءإذا كنا تراباً ءإنا لفي خلق جديد﴾[٦] وإن الطين اللازب يحصل بضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي وهما باقيان قابلان للإنضمام والفاعل لا تغير في قدرته فعلى ما ينكرون.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٠).

(٣) سورة النازعات، الآية: ٢٧.

(٤) سورة النبأ، الآية: ٢.

(٥) سورة النبأ، الآية: ١.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٥.

﴿بَل﴾ ابتدائية للانتقال من غرض إلى آخر وهو الإخبار بحاله وحالهم وليست للإضراب ﴿عجبت﴾ العجب حالة يعتري للإنسان عند رؤية أمر لم يعهد مثله فيعبر عن تلك الحالة بقوله عجبت وبصيغة التعجب منه قوله ﷺ: «**عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة في السلاسل**»، وقوله سبحانه ما أعظم شأنه، ويطلق أيضاً على الشيء الذي لم يعهد مثله أنه عجب قال الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾[1] وكثيراً يستعمل العجب فيما يراه الرجل حسناً غاية الحسن يقال أعجبني كذا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾[2] وقوله عليه السلام «عجب ربكم مِن شاب ليست له صبوة»[3] وقوله ﷺ «عجب ربكم من إلكم وقنوطكم» وقد يستعمل فيما يراه قبيحاً غاية القبح يقال عجبت من بخلك وفرهك، وقال الشاعر شيئان عجيبان هما أبرد من شيخ «شيخ يتصبى وصبي يتشيخ»، وفيما يراه كثيراً غاية الكثرة يقال ما أكرمه وما أطفاه وما أشد استخراجه وما أجهله وما أشد بياضه فالمعنى أن هذا الشيء بهذا الحسن أو بهذا القبح أو بهذا الكرام أو الجهل أو البياض لم يعهد مثله، وقيل هي حالة يعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء وبناءً على ذلك قالوا لا يصح على الله العجب لإحاطة علمه بكل شيء، وقيل هي حالة يعتري للإنسان عند استعظامه الشيء، والصحيح أن مآل هذين التفسيرين إلى ما ذكرنا لأن الإنسان يستعظم ما لم يعهد مثله، وكذا ما يجهل بسببه يراه غير معهود مثله فلا حاجة إلى الصرف عن الظاهر. في قراءة حمزة والكسائي عَجِبْتُ، بضم التاء على صيغة المتكلم، وقال البيضاوي العجب من الله إما على الفرض والتخييل أو على معنى الإستعظام اللازم وقيل أنه مقدر بالقول يعني قل يا محمد بَلُ عَجِبْتُ وقال البغوي والعجب من الله إنكاره وتعظيمه والعجب من الله قد يكون بمعنى الإنكار والذم كما في هذه الآية وقد يكون بمعنى الإستحسان كما في الحديث «عجب ربكم من شاب ليست له صبوة»، وسئل جنيد عن هذه الآية فقال إن الله ما يعجب من شيء ولكن الله وافق رسوله فقال (وإن تعَجَبْ فَعَجبٌ قَوْلُهُمْ) أي هو كما تقوله، وقرأ الجمهور على صيغة المخاطب بفتح التاء يعني عَجِبْتَ أنتَ يا محمد من تكذيبهم إياك مع اعترافهم بكونك

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٤.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فيمن لا صبوة له وينشأ في العبادة (١٧٩٥٤).

أميناً صدوقاً وشهادة المعجزات على صدقك وكون القرآن معجزاً أو عجبت من إنكارهم قدرة الله على البعث مع ظهور قدرته تعالى على كل شيء فإن هذا الأمر لم يعهد مثله قال قتادة عجب نبي الله ﷺ من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم بعده وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن من سمع لهذا القرآن يؤمن به فلمّا سمع المشركون وسخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك رسول الله ﷺ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ حال من فاعل عَجِبْتَ بتقدير المبتدأ يعني وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي وعظوا بالقرآن ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتعظون أو المعنى إذا ذكرهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرتهم ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ معجزة تدل على صدق الرسول ﷺ، قال ابن عباس ومقاتل هو إنشقاق القمر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية أو يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها ﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ يعنون ما يرونه من المعجزة ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سحريته وقالوا ﴿ءإذا متنا﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الميم ﴿وكنا تراباً وعظاماً ءإنا لمبعوثون﴾ أصله أنُبْعَثُ إذَا مِتْنَا فبدل الفعلية بالاسمية، وقدم الظرف وكرر الهمزة مبالغة في الإنكار وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذا الحال أولى بالإنكار فهذا أبلغ من قراءة ابن عامر بطرح الهمزة الأولى وقراءة نافع والكسائي ويعقوب بطرح الثانية ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ عطف على محل اسم إن بعد مضي الخبر أو على الضمير في مبعوثون فإنه مفصول عنه بهمزة الإستفهام والإستفهام لإنكار الجمع بين بعثهم وبعث آبائهم لزيادة الإستبعاد لبعد زمانهم، وسكن نافع وابن عامر الواو على معنى الترديد وعلى هذه القراءة لا يجوز العطف ﴿قل﴾ يا محمد ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون أنتم وآباؤكم قرأ الكسائي بالكسر وهو لغة فيه ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ الدخور أشد الصغار حال من فاعل المقدر ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ﴾ جواب شرط مقدر يعني إذا كانت البعث فإنما هي أي البعثة، وقيل هي ضمير مبهم موضحها خبرها يعني زجرة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة أي نفخة الثانية والزجر الطرد والمنع بالصوت يقال زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كما أمر في الإبداء ولذلك رتب عليها ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ من مراقدهم أحياءً ﴿يَنظُرُونَ﴾ عطف على ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ﴾ يعني إنما البعثة زجرة ففاجئت وقت كونهم أحياءً ينظرون أي يبصرون أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وقالوا يا﴾ للتنبيه ﴿ويلنا﴾ أي هلاكنا مصدره فعل له من لفظه وجملة قالوا عطف على ﴿يَنظُرُونَ﴾ ويقولون ﴿يا ويلنا﴾ ﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم نجازى فيه بأعمالنا ﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي يوم القضاء أو الفرق بين المحسن والمسيء ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل هذا جواب الملائكة وقد تم كلامهم على يوم الدين، وقيل هذا أيضاً من كلامهم بعضهم لبعض.

فحينئذ يقول الله سبحانه للملائكة ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يعني أشركوا ﴿فإن الشرك لظلم عظيم﴾ يعني اجمعوهم إلى الموقف للحساب والجزاء ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني نظراءوهم وأشياعهم وأتباعهم، أخرج البيهقي من طريق النعمان بن بشير قال سمعتُ عمر بن الخطاب يقول ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني ضرباءهم الذين هم مثلهم يجيىء أصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الزنى مع أصحاب الزنى وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر وأزواج في الجنة وأزواج في النار، وأخرج البيهقي عن ابن عباس يعني أشباههم، وقال البغوي قال قتادة والكلبي يعني من عمل مثل عملهم فأهل الخمر مع أهل الخمر وأهل الربا مع أهل الربا وقال الضحاك قرناؤهم من الشياطين كل كافر مع شيطانه في سلسلة، وقال الحسن أزواجهم من المشركات ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا يعني الأوثان والطواغيت وقال مقاتل يعني إبليس واحتج بقوله: ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾[1] واللفظ مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2] ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس دلوهم إلى طريق النار،

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

وقال ابن كيسان قدموهم إلى النار والعرب يسمي السائق هادياً ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي احبسوهم، قال المفسرون لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط فيقول الله تعالى: ﴿قفوهم﴾ ﴿إنهم مسؤولون﴾ تعليل بقفوا، قال ابن عباس يسألون عن جميع أفعالهم وأقوالهم، وروي عنه عن لا إله إلا الله، أخرج مسلم عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يزول قدما عبد عن الصراط حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه ما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه**»[1].

وأخرج الترمذي وابن مردويه مثله عن ابن مسعود وأخرج الطبراني مثله عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وابن عباس، وأخرج ابن المبارك في الزهد عن أبي الدرداء قال: إن أخوف ما أخاف إذا وقعت الحساب أن يقال لي قد عملت فما علمت، وأخرج أحمد في الزهد عنه قال أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة يقال ما عملت فيما علمتَ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبقع بن عبد الله الكلاعي قال إن لجهنم سبع قناطير والصراط عليها فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى فيقولون ﴿ففوهم إنهم مسؤولون﴾ فيحاسبون عن الصلاة ويسألون منها فيهلك فيها من هلك وينجو من نجا، فإذا بلغوا الثانية حوسبوا عن الأمانة كيف أدوها وكيف خانوها فيهلك من هلك وينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها فيهلك من هلك وينجو من نجا قال والرحم يومئذ متدلية إلى الهواء تقول اللّٰهم من وصلني فصله ومن قطعني فاقطعه ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي يقال لهم توبيخاً مالكم لا ينصر بعضكم بعضاً تحريض على التناصر والغرض منه التهكم والتعجيز ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قال ابن عباس أي خاضعون، وقال الحسن منقادون يقال استسلم لشيء إذا انقاده وخضع.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساء والأتباع أو الكفرة والقرناء ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حال من الفاعل والمفعول يعني يسأل بعضهم بعضاً توبيخاً ولذلك فسر بقوله يتلاومون ويتخاصمون ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء أو الكفرة للقرناء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي عن أقوى الوجوه وأيمنها أو عن الدين أو عن الخير كذا قال الضحاك ومجاهد مستعار عن يمين الإنسان الذي هو أقوى الجانبين وأشرفهما وأنفعهما ولذلك سمي يميناً، وقال بعضهم المراد باليمين الحلف يعني كنتم تحلفون إن ما تدعوننا إليه من الدين هو الحق، وقيل معناه القوة والقهر يعني كنتم تكرهوننا وتقسروننا على الضلال، هذه الجملة وما

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: في القيامة (٢٤١٩).

بعدها بيان للتساؤل ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي يقول الرؤساء أو الشياطين ما أضللناكم ﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ يعني كنتم كافرين ضالين باختياركم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۢ﴾ من قهر وغلبة تقريرٌ لما سبق ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي مختارين الطغيان ﴿فَحَقَّ﴾ أي وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ عطف على محذوف مفهوم مما سبق تقديره كنتم قومًا طاغين كما كنا طاغين ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[1] ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ ضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه عطف على فحقَّ علينا ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ضالين يعنون إن ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمراً مقضياً علينا وإنه غاية ما فعلنا بكم إنا دعونا إلى الغيّ لأنا كنا على الغي فأحببنا أن تكونوا مثلنا.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني لمَّا كان كلهم من الرؤساء والأتباع والكفرة والقرناء على الغي فهم ﴿يومئذ في العذاب مشتركون إنا كذلك﴾ إنا مبتدأ والجملة خبر وكذلك في محل النصب على المصدرية أي فعلاً مثل ما نفعل بهؤلاء ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي بكل مشرك والمجرم هو المشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على يستكبرون ﴿أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ يعنون النبي ﷺ.

قال الله تعالى رداً عليهم ﴿بَلْ جَآءَ﴾ النبيّ ﷺ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي التوحيد الذي قام عليه البرهان ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني ليس هذا دعوى مصدعاً بل إدعاه الأولون من الرسل وهذا يصدقهم ويطابق دعواه دعواهم ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المجرمون فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالاشراك وتكذيب المرسلين ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ جزاءً إلا جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الموحدين استثناء منقطع إلا أن يكون الضمير في تجزون لجميع المكلفين فيكون استثناؤهم عما سبق باعتبار المماثلة فإن ثوابهم يضاعف إلى سبع مائة ضعف إلى ما شاء الله والمنقطع أيضاً بهذا الإعتبار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.

عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ خصائصه من الدوام وتمحض اللذة ولذلك فسره بقوله ﴿فَوَاكِهُ﴾ جمع فاكهة بدل أو بيان للرزق وهي ما يقصد به التلذذ دون التغذي والقوت ما يقصد به التغذي دون التلذذ والرزق يعمهما، وأهل الجنة لمَّا كان خلقهم محفوظة عن التحلل كان أرزاقهم فواكه خالصة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في نيله يصل إليهم من غير تعب وسؤال بخلافها أرزاق الدنيا، الجملة عطف على الجملة أو حال أو خبر بعد خبر ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ متعلق بالظرف المستقر يعني لهم رزق معلوم في جنات ليس فيها إلا النعيم أو متعلق بمكرمون أو حال من المستكن فيه أو خبر آخر لأولئك ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتمل الحال والخبر فيكون ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ حالاً من المستكن فيه أو في مكرمون ويحتمل أن يتعلق على سرر بمتقابلين فيكون متقابلين حالاً من ضمير مكرمون ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ أي بإناء فيه خمر أو خمر كقول الشاعر، وكأس شربت على لذة، وعن الأخفش كل كأس في القرآن فهي الخمر، والجملة حال أو خبر ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾.

أي خمر جارية في الأنهار ظاهرة تراها العيون أو خارج من العيون وهو صفة الماء من عان الماء إذا نبع وصف به خمر الجنة لأنها تجري كالماء أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بخلاف خمر الدنيا فأنها كريهة عند الشرب وبيضاء ولذَّةٍ صفتان لكأس، قال الحسن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ووصفها بلذة للمبالغة أو لأنها تأنيث لذ بمعنى لذيذ كطب ووزنه فعل.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي غائلة من غاله يغوله إذا أفسده ومنه الغول يعني ليس فيها شيء من أنواع الفساد كما في خمر الدنيا من المفاسد من ذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقيء والبول ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الزاء من الإنزاف ووافقهما حفص في الواقعة والباقون بفتح الزاء فيهما ولا خلاف في ضم الياء يقال نُزِف

الشارب على البناء للمفعول فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله وأنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه وأصله النفاد ونزف لازم ومتعد كذا في القاموس وأنزفتُ الشيء أبلغ من نزفتُه أفرد النزف بالنفي وعطف على ما يعمه لأنه من أعظم فساده ذهاب عقله وأشد على الشارب نفاد شرابه ﴿وَعِندَهُمْ﴾ عطف أو حال ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي أزواج قصرن عيونهم على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لحسنهم عندهن ﴿عِينٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هن عينٌ أي حسان الأعين يقال رجل أعين وامرأة عيناء ورجال ونساء عين ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ للنعام، أخرج ابن جرير عن أم سلمة عنه ﷺ «العين الضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» وعنه ﷺ قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ قال رقتهن كرقة الجلدة في داخل البيضة التي على القشر ﴿مَّكْنُونٌ﴾ بريشه لا يصل إليه غبار والبيضُ جمع بيضة لعوده على لفظه، قال الحسن شبههن ببيض النعامة لأنها تكفها بريشها من الريح والغبار فلونها أبيض في صفرة ويقال هذا أحسن ألوان النساء أن يكون بيضاء بصفرة والعرب تشبهها ببيض النعامة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ أي بعض أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عما مضى عليه في الدنيا حال والجملة معطوفة على يُطافُ عليهم أي يشربون فيتحادثون على الشراب قال الشاعر:

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فإنه ألذ تلك اللذات إلى العقل والتعبير بالماضي للتأكيد ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الجنة بيان للتساؤل ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ في الدنيا ينكر البعث، قال مجاهد كان شيطاناً، وقال الآخرون كان من الإنس، وقال مقاتل كانا أخوين، وقال الباقون كانا شريكين أحدهما كافر إسمه مطروس والآخر مؤمن اسمه يهودا وهما اللذان قص الله خبرهما في سورة الكهف ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾[1] ﴿يقول ءإنك لمن المصدقين﴾ البعث استفهام للتوبيخ ﴿ءإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ءإنا لمدينون﴾ مجزيون بعد البعث كرر الاستفهام لغاية الاستبعاد والإنكار ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي أهل النار لأريكم ذلك القرين، وقيل القائل هو الله أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأراكم ذلك القرين ولتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم، قال ابن عباس إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى النار ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ هذا المؤمن على أهل النار ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وسطه يسمى وسط الشيء سواء لاستواء الجوانب

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٢.

منه، أخرج هناد عن ابن مسعود في الآية قال فاطّلَعَ ثم التفت إلى أصحابه فقال رأيتُ جماجم القوم تغلى ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ قرأ يعقوب بإثبات الياء في الحالين وورش وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين يعني كدت لتهلكني بالإغواء أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ بالهداية والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ يعني لسنا ممن شأنه الموت إلا التي كانت في الدنيا فالمستثنى مفرغ منصوب على المصدرية من اسم الفاعل أو المعنى فما نحن نموت أبداً إلا التي كانت في الدنيا فالإستثناء منقطع والفاء للعطف على محذوف تقديره أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين والاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على إقرار ما كان ينكره في الدنيا بقوله: (إِنَّا لَمَدِيْنُونُ) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ وذلك تمام كلامه لقرينه تقريعاً له وجاز أن يكون هذا معاودة إلى كلامه مع جلسائه تحدثاً بنعمة الله وتعجباً منها وتعريضاً للقرين بالتوبيخ، وقال بعضهم يقول أهل الجنة للملائكة حين تذبح الموت إستبشاراً أو تبجحاً أفما نحن بميتين فيقول الملائكة لا فيقولون ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الخلود في النعم ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ويحتمل أن يكون هذا من كلام الله كقوله تعالى ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ المنزل أو لمثل هذا النعيم لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام سريعة الزوال ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر لأهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ التي هي نزل أهل النار وهي شجرة مرة خبيثة كريهة الطعم يُكره أهل النار على تناولها يزقّمون على أشد كراهية ومنه قولهم تزقَّم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة، وانتصاب نزلاً على التميز والحال وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ولهم ما وراء ذلك ما يقصر عنه الأفهام وكذلك الزقوم لأهل النار. أخرج الترمذي وصححه النسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ

قال: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف من يكون طعامه**»[١] وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم عن أبي عمران الخولاني في شجرة الزقوم قال بلغنا أن ابن آدم لا ينهش منها نهشة إلا نهشت منه مثلها ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا﴾ أي شجرة الزقوم ﴿فِتْنَةً﴾ أي محنةً وعذاباً في الآخرة أو ابتلاءً في الدنيا ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين كانوا يقولون كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر، وقال ابن الزبيري لصناديد قريش إن محمداً يخوفنا بالزقوم والزقوم بلسان بربر الزبد والتمر فأدخله أبو جهل في بيته وقال يا جارية زقِّمينا فأتتهم بالزبد والتمر فقال تزقموا هذا ما يوعدكم به محمد، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال قال أبو جهل زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر وإنَّا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ أي قعر النار وأخرج نحوه عن السدي قال الحسن أصلها في قعر جهنم وأغصانها ترفع إلى دركاتها ﴿طَلْعُهَا﴾ أي ثمرها سمي طلعاً لطلوعه ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قال ابن عباس هم الشياطين بأعيانهم غيَّه بها لقبحه فإن الناس إذا وضعوا شيئاً بغاية القبح قالوا كأنه شيطان وإن كانت الشياطين لا ترى لأن قبح صورتها يتصور في النفس، وقال بعضهم الشياطين حيات هائلة قبيحة للنظر لها أعراف وعلها سميت بها لذلك، وقيل هي شجرة قبيحة مرة منتنة تكون في البوادي تسميها العرب رؤوس الشياطين ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي من الشجرة أو من طلعها الفاء للسببية تعليل لكونه فتنة ﴿فمالؤن منها البطون﴾ لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها والمَلأ حشو الإناء بما لا يحتمل المزيد عليه ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي على أكلها بعدما ملئوا بطونهم وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم ويجوز أن يكون ثم لِمَا في شرابهم من مزيد الكراهة ﴿لَشَوْبًا﴾ خلطاً ومزجاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ متعلق بشوباً وحميم ماء حار شديدة الحرارة يعني يشربون الحميم فيصير في بطونهم شوباً له ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم قال البغوي وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج من الجحيم كما يورد الإبل إلى الماء ثم يردُّون إلى الجحيم يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾[٢] وقرأ ابن مسعود ﴿إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟﴾ أي وجدوا ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٤.

أي يسرعون، الجملة في مقام التعليل أي استحقوا تلك الشدائد تقليداً للآباء في الضلال مسرعين من غير نظر وبحث ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ﴾ عطف على إنهم ألفوا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل مشركي مكة ﴿أكثر الأولين﴾ من الأمم الخالية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أنبياء أنذروهم من العواقب ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ الإستفهام للتعجب والاستعظام والجملة الاستفهامية بتأويل المفرد مفعول لانظر والغرض منه التحقيق أي كان عاقبتهم العذاب في الدنيا والآخرة ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ إستثناء من مضمون الجملة السابقة أي إلا الذين تنبهوا بإنذارهم فأخلصوا دينهم لله فإنهم نجوا من العذاب وقرىء بالفتح أي الذين أخلصهم لدينه، والخطاب مع الرسول ﷺ المقصود خطاب قومه فإنهم أيضاً سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم شرع في تفصيل القصص بعد إجمالها فقال ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام يعني ولقد ضل قبلهم قوم نوح فأرسلنا فيهم نوحاً منذراً فدعاهم إلى الإسلام فلم يؤمنوا حتى أيِسَ من إسلامهم ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾[1] فنادانا أي دعانا بإهلاك قومه فأجبناه أحسن الإجابة ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف لقيام ما يدل عليه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ عطف على فأجبناه المقدر ﴿وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي من أذى قومه ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ يعني لم يبق لأحد من قومه ذرية إلا لنوح، أخرج الترمذي وغيره عن سمرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قال: حام وسام ويافث[2] وأخرج من وجه آخر قال: «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم» روى الضحاك عن ابن عباس أنه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساؤهم، الظاهر من قصة نوح في القرآن أنه غرق في الطوفان كل من كان في الأرض إلا من آمن بنوح وركب السفينة ثم لم يبق لأحد ذرية

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الصافات (٣٢٣٠).

إلا لنوح متناسلين إلى يوم القيامة، قال سعيد بن المسيب كان ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والروم والفارس وحام أبو السودان ويافث أبو الترك والخوز ويأجوج ومأجوج وما هنالك يعني وما في بلاد الشرق من الهند وغير ذلك، قلتُ: وعندي أن نوحاً لم يكن مبعوثاً إلى كافة الناس فإن الإرسال إلى الناس كافةً كان من خصائصه ﷺ بل كان مبعوثاً إلى قومه خاصة فلم يؤمنوا فدعا عليهم فأهلكوا بالطوفان والمراد بالأرض في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1] أرضه المعهود فعلى هذا الحصر في هذه الآية إضافي يعني جعلنا ذريته هم الباقين من قومه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ من الأمم هذا الكلام ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ جيء به على الحكاية والمعنى يسلمون عليه تسليماً ويقولون هذا القول، وقيل هو سلام من الله ومفعول تركنا محذوف تقديره تركنا عليه الثناء والذكر الجميل وفي العالمين متعلق بالظرف المستقر أي عليه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني إنا نجزي كل محسن جزاء كذلك الجزاء أو الذي جزينا نوحاً بابقاء الذكر الجميل والسلام قولاً من رب العالمين ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني إنما جزيناه ذلك الجزاء بإيمانه وإحسانه وفيه بشارة للمحسنين من أمة محمد ﷺ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني غير المحسنين من قومه عطف على نجينا.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ عطف على قوله ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني ممن شايعه في الإيمان وأصول الدين أو في الفروع أيضاً جميعها أو أكثرها ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وست مائة وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح عليهم السلام ﴿إِذْ جَآءَ

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦.

﴿رَبَّهُۥٓ﴾ يعني توجه إليه، والظرف متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة يعني تابعه وقت مجيئه أو بمحذوف وهو أذكر ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الاشتغال بغير الله تعالى خالياً عن الغير وحبه كما يدل عليه قصة ذبح ابنه لامتثال أمر به ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من إذ السابقة أو ظرف لجاء أو لسليم ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ استفهام توبيخ، على عبادة الحجارة ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ هذا الاستفهام أيضاً توبيخ بعد توبيخ آلهةً مفعول به لتُرِيْدُوْنَ ودُوْنَ الله صفة لآلهة وإفكاً مفعول له قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم عليه المفعول له لأن الأهم أن يقرر أن مبنى أمرهم على الإفك والباطل، وجاز أن يكون إفكاً مفعولاً به وآلهةً بدل منه على أنها إفك في أنفسها مبالغة وأن يكون إفكاً حالاً بمعنى أفكين ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي بمن هو حقيق لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته أو أشركتم به غيره آمنتم من عذابه، والمعنى إنكار ما يوجب الظن فضلاً عن موجب القطع الذي يصد عن عبادته أو يجوز الإشراك به أو يقضي إلا من عقابه على طريقة الإكرام وهو كالحجة على ما قبله.

﴿فَنَظَرَ﴾ عطف على قال ﴿نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ أي في مواقعها واتصالاتها أو في علمها أو في كتابها وهذا يدل على أن النظر في علم النجوم وتعليمه وتعلمه كان جائزاً في شريعته لكن صار منسوخاً في شريعتنا حيث قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»[1] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عباس ورواه رزين وزاد «المنجم كاهن والكاهن ساحر والساحر كافر» والمعنى أن ثلاثتهم في الكفر بمنزلة واحدة، ويمكن أن يقال إنما يحرم النظر في علم النجوم إذا أسند الحوادث إلى الكواكب وأما إذا أسندها إلى الله سبحانه وجعل اتصالات النجوم علامات بحسب جري عادة الله على خلق بعض الأشياء عند تلك الاتصالات كما أن الله تعالى يخلق الشفاء غالباً عند شرب الدواء ويخلق الموت عند شرب السم ويخلق أفعال العباد عند القصد المصمم منهم فلا بأس به، ولعل النبيّ ﷺ إنما نهى عن اقتباس علم النجوم لئلاً يسند الناس الحوادث إلى الكواكب. عن زيد بن خالد الجهني قال صلّى لنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأمّا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الكهانة والتطير، باب: في النجوم (٣٩٠٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: تعلم النجوم (٣٧٢٦).

من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب»[١] متفق عليه، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنزل الله من السماء من بركة إلا اصبح فريق من الناس بها كافرين ينزّل الغيث فيقولون بكوكب كذا وكذا**»[٢] رواه مسلم، وقد ذكر الإمام محمد الغزالي رحمه الله في كتابه المنقذ من الضلال أن علم الطب والنجوم أنزلهما الله تعالى على بعض الأنبياء ثم بقي العلمان بأيدي الكفرة، ويدل على إفادة علم النجوم علماً ظنياً (مثل الطب) إخبار المنجمين فرعون بولادة موسى وزوال ملكه على يديه.

وروى البخاري في الصحيح بسنده عن الزهري «أنه كان ابن الناطور (صاحب إيليا وهرقل) أسقُفاً على نصارى الشام يحدث أن هرقل لما قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النفس فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك (قال ابن الناطور وكان هرقل حزّاء وينظر في النجوم) فقال لهم حين سألوه إني رأيتُ الليلة حين نظرتُ في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة، قالوا ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فليقتل من فيهم من اليهود فبينما هو على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان بخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلمَّا استخبره هرقل قال إذهبوا فانظُرُوا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب فقال هم يختتنون، فقال هرقل ملك هذه الأمة قد ظهر ثم كتب هرقل إلى صاحب له برؤيته وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص فلم يرم بحمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبيّ ﷺ وأنه نبي»[٣]. قال الشيخ ابن حجر رواية الزهري موصولة لابن الناطور لا معلقة، قد بين أبو نعيم في دلائل النبوة أن الزهري قال لقيتُ ابن الناطور بدمشق في زمن عبد الملك بن مروان وأظنه لم يتحمل عند ذلك إلا بعد أن أسلم. فإن هذا الحديث وأمثاله يدل على إفادة علم النجوم نوعاً من العلم، لكن لما كان الاشتغال به موجباً لما ذكرنا من المفسدة وهو إسناد الحوادث إلى الكواكب وكان اشتغاله إضافة للأوقات لكونها غير نافعة في الدين نهى النبيّ ﷺ عن الاشتغال به والظاهر أن الإشتغال بعلم النجوم كان جائزاً في دين عيسى عليه السلام وإلالم يشتغل به علماء النصارى والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨٤٦) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، بيان: كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧).

ومن زعم أن علم النجوم باطل لا أصل له قال إن هذا القول من إبراهيم كان إيهاماً منه، قال ابن عباس كان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروها عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزم الحجة عليهم في أنها غير مستحقة للعبادة وكان لهم من الغد عيد ومجمع فكانوا يدخلون على أصنامهم ويفرشون لهم الفراش ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم زعموا التبرك عليه فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه وقالوا لإبراهيم تخرج غداً هنا إلى عيدنا (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ قال ابن عباس أي مطعون وكانوا يفرون من الطاعون، وقال الحسن أي مريض وقال مقاتل وجع، في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منه في ذات الله قوله إني سَقِيمٌ وقوله بل فَعَلَه كَبِيْرُهُم هذا**»[(١)] الحديث وذكر الثالث قوله لسارة أختي وقد مر الحديث في سورة الأنبياء، والمراد بالكذبات التعريضات والتّورية، قال الضحاك معناه سأسقم، وقيل تأويله أن من في عنقه الموت سقيم ومنه ما قيل أن رجلاً مات فجاءةً فقالوا مات وهو صحيح فقال أعرابي أصحيح مَنِ الموت في عنقه، وقيل أراد إني سقيم النفس لكفركم وقد ذكرنا تأويلات قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾[(٢)] في سورة الأنبياء ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى عيدهم فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها كما قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي دخل عليها خفيةً من روغه الثعلبُ أصله الميل بحيلة، وقال البغوي لا يقال راغ حتى يكون صاحبه مخفياً لذهابه ومجيئه ﴿فَقَالَ﴾ إبراهيم إستهزاءً ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ الطعام الذي بين أيديكم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بجوابي حال، والعامل فيه معنى الفعل في مالكم أي ما تصنعون حال كونكم غير ناطقين ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي مال عليهم مستخفياً والتعدية بعلى للإستعلاء ولأن المراد الميل المكروه ﴿ضَرْبًا﴾ منصوب على المصدرية لأن في راغَ معنى ضرب أو بفعل محذوف أي فضرب ضرباً ﴿باليمين﴾ أي بيد اليمنى لأنه أقوى من اليسار وقيل أراد به القسم الذي سبق منه وهو قوله ﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾[(٣)].

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾، يعني أقبل قوم إبراهيم إليه بعدما رجعوا ورأوا أصنامهم مكسورة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٨).

وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٢٣٧١).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.

وسألوا عن كاسرها بقولهم ﴿من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾[١] وظنوا أنه هو حيث قالوا ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[٢] ﴿يَزِفُّونَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة بضم الياء والباقون بفتحها قيل هما لغتان والمعنى يسرعون، وقيل معنى يَزِفُّونَ بالضم يحملون على الزفيف يعني كان يحمل بعضهم بعضاً على الإسراع ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿اتعبدون ما تنحتون﴾ أي ما تنحتونه عن الأصنام استفهام للإنكار والتوبيخ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الجملة حال من فاعل تعبدون والتقيد بالحال إنكار بعد الإنكار والظاهر أن ما مصدرية يعني والحال أن الله خلقكم وخلق أعمالكم فمالكم تتركون عبادة الخالق وتؤثرون عبادة المحتاج إليكم فهذه الآية حجة لنا على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وقالت المعتزلة ما موصولة والمعنى خلقكم وما تعملونه يعني الأصنام فأن جوهرها بخلقه تعالى وشكلها وإن كان بفعلهم (ولذلك جعل من أعمالهم) في إقداره إياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه من الدواعي والعدَدِ أو مصدرية والمعنى عملكم بمعنى معمولكم ليطابق ما تنحتون، قلنا الوجه هو الأول لأن الأخيرين يقتضي الحذف والمجاز ولا شك أن معمولهم ليس إلا الشكل دون جوهر الأصنام وعلى التأويلين الأخيرين أيضاً يثبت أن الشكل مخلوق لله تعالى، ومعمول أي مكسوب للعباد وهو المقصود ﴿قَالُوا۟﴾ فيما بينهم لما عجزوا عن المحاجة ﴿ابنوا له بنياناً فالقوة في الجحيم﴾ أي في النار الشديدة التأجج كذا في القاموس، واللام بدل الإضافة والجملة معطوفة على جمل محذوفة معطوفة بعضها على بعض تقديره فاملئوه حطباً واضربوه بالنار فإذا التهب ألقوه في الجحيم قال مقاتل بنوا له حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملئوه من الحطب وأوقدوا فيها ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بإبراهيم عليه السلام ﴿كَيْدًا﴾ أي شراً وهو أن يحرّقوه كيلا يظهر عجزهم للعامة فطرحوه فيها موثقاً يداه ورجلاه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً واضحاً على علو شأنه، حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً ولم يحرق منه الأوثاق وكان ذلك بأرض بابل في زمن نمرود الجبار.

﴿وقال﴾ إبراهيم حين خرج من النار سالماً ولم يؤمنوا به ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ يعني أهجر دار الكفر، وأذهب إلى حيث أتجرد فيه بعبادة ربي ﴿سَيَهْدِينِ﴾ عطف على ما يفهم من قوله فجعلناهم الأسفلين يعني خرج من النار سالماً ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ إلى

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٠.

ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصد قصدته حيث أمرني ربي وهو الشام، وحينئذ فَرَّ إبراهيم هارباً مع سارة من أرض بابل من خوف نمرود وكانت سارة من أجمل نساء عصرها ومرّ بحدود مصر، وفرعونها يومئذ صادف بن صادف. وفي شرح البخاري لابن الملقن إسمه سنان بن علوان أخو الضحاك وقيل اسمه عمرو بن امرأ القيس فغصب سارة من إبراهيم فحمل صادف الجبار سارة إلى قصره وجعل الله الجدر والستور لإبراهيم كقشر البيضة ينظر إليها كيلا يقيد قلبه إليها وكان رجلاً غيوراً، فلمَّا هَمَّ بها زلزل القصر فلم يدر أن ذلك من أجلها فتحول إلى القصر الثاني فزلزل به فتحول إلى القصر القصر الثالث فزلزل به فقالت سارة هذا من إلى إبراهيم رد إليه امرأته، وفي رواية فلمَّا مدَّ يده إليها شلت يده فاستغاث صادف بسارة وطلب الدعاء فدعت سارة فعادت اليد كما كانت فمد يده إليها ثانية فصارت مشلولةً فطلب الدعاء منها ثانياً وعهد أن لا يفعل لهذا الفعل فدعت سارة فمد يده إليها ثالثةً فشلت يده ثالثاً وحلف إن عوفي أن لا يفعل أبداً فدعت سارة فصحت يده وروى أحمد في مسنده والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ «بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له إن هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال من هذه؟ قال أختي فأتى سارة، فقال يا سارةُ ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل إليها، فلمَّا دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ثم تناولها ثانياً فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق فدعا بعض حجبته فقال إنك لم تأتيني بإنسان إنما أتيتني بشيطان فأخدَمَها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومىء بيده مهيم قالت رد الله كيد الفاجر في نحره وأخدمني هاجر»[١] وفي المواهب اللّدنية أن في رواية صارت يد صادف مغلولةً حين مدها إلى سارة، فاستغاث صادف بإبراهيم عليه السلام فدعا إبراهيم فأطلق الله يده فأعطاه هاجر أم إسماعيل عليه السلام وقال لا سبيل لي إلى سارة بعد وكانت هاجر أمينة وخازنة وجليسة وقال حين وهبها ما أَجَرك الخطاب لإبراهيم إن وهبها له أو لسارة إن وهبها لها فسميت هاجر من ذلك ثم وهبها إبراهيم لسارة طلباً لرضاها فلم تلد سارة قبل ولادة إسماعيل وظنت بها العقم وقالت لإبراهيم إن هاجر امرأة مرغوبة فقد وهبتُها لك لعله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٢٣٧١).

يكون لك منها ولد فرطئها فولدت إسماعيل عليه السلام.

قلتُ: وذلك حين دعا إبراهيم ربه وقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾ أي وهب لي ولداً كائناً من الصالحين، قال مقاتل لما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ يعني ذا عقل كذا في القاموس، يعني إسماعيل عليه السلام وهو الصحيح وإليه ذهب ابن عمر، وهو قول سعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال المفدي إسماعيل، وأخرج الواقدي وابن عساكر من طريق عامر بن سعيد عن أبيه أنه كانت سارة تحت إبراهيم فمكثت عنده دهراً لا يرزق ولداً فلمّا رأت ذلك وهبت له هاجر أمة قبطية فولدت له إسماعيل فغارت من ذلك سارة وقد ذكرنا القصة في سورة إبراهيم، ثم جاء إبراهيم بها وبإسماعيل بمكة وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت كذا في البخاري وذكرنا حديث البخاري أيضاً في سورة إبراهيم، وقالت اليهود والنصارى الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه هو إسحاق وهذا كذب منهم. قال البغوي قال محمد بن كعب القرظي سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً من علماء اليهود (وحسن إسلامه) أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل ثم قال يا أمير المؤمنين إن اليهود يعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق بن إبراهيم ومن الدليل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في يدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج، أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في سننه عن امرأة من بني سليم عن عثمان بن طلحة أنه كان قرنا الكبش معلقين بالكعبة وقال البغوي قال الشعبي

رأيتُ قرني الكبش منوطين بالكعبة، وقال ابن عباس والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش تعلق بقرنيه وميزاب الكعبة قد وحش يعني يبس، قال الأصمعي سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسماعيل أو إسحاق قال يا أصمع أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة إنما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه، قال البغوي وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ، قلتُ وقول البغوي هذا كناية عن أنه لم يثبت عن النبيّ ﷺ في الباب شيء إذ لو صح أحدهما لم يعتد بقول آخر، وما ذكر البغوي أنه ذهب من الصحابة عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي وهو رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس إلى أنه إسحاق، وقال سعيد بن جبير أدى إبراهيم ذبح إسحاق بالشام فسار به مسيرة شهر في غدوة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى فلمَّا أمره الله بذبح الكبش وذبحه سار به مسيرة شهر في روحة واحدة فطويت له الأودية والجبال، فلعل من قال منهم هذا القول اعتمد على أخبار اليهود والله أعلم.

والدليل على كون إسماعيل مأموراً بذبحه أنه هو المولود أولاً بعد الهجرة إلى الشام إجماعاً وقد عطف الله قوله ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ على قوله ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾ بالفاء الموضوع للتعقيب بلا تراخ وأما إسحاق فقد ولد بعد ذلك بتراخ والمأمور بذبحه إنما هو ذلك المبشر به لمَّا بلغ معه السعي، ولأن البشارة بإسحاق بعد ذلك معطوفة على البشارة بهذا الغلام فهو غير، ذلك دليل واضح على أنه غيره لا يقال إن البشارة التي بعد ذلك المعطوفة إنما هي بشارة بنبوة إسحاق لا بولادته كما قيل بشر إبراهيم بإسحاق مرتين مرةً بولادته ومرة بنبوته لأنه خلاف ظاهر الآية فإن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾ يعني بشرناه بنفس إسحاق حال كونه مقضياً بالنبوة والصلاح ولم يقل بشرناه بنبوة إسحاق وصلاحه والصرف عن الظاهر لا يجوز بلا ضرورة، ولأن سارة لمّا بشرت بإسحاق بشرت معه بيعقوب ولداً منه حيث قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1] فلا يتصور الأمر بذبحه مراهقاً قبل ولادة يعقوب.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ عطف على جملة محذوفة تقديره فولد له الغلام فلما بلغ معه السعي أي بلغ أن يسعى معه في أعماله ويعينه، وقال الكلبي يعني العمل لله وهو قول

---

(١) سورة هود، الآية: ٧١.

الحسن ومقاتل بن حبان وابن زيد قالوا هو العبادة، وقال ابن عباس وقتادة لما بلغ أن يسعى إلى الجبل معه وقال مجاهد عن ابن عباس يعني أنه شبَّ حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، قيل كان سنه ثلاث عشرة سنة وقيل سبع سنين، والظرف أعني معه متعلق بمحذوف دل عليه السعي لا به لأن صلة المصدر لا يتقدمه ولا يبلغ فإن بلوغهما لم يكن معاً كأنَّه قال فلمَّا بلغ السعي فقيل مع من فقيل معه كذا قيل، والأولى أن يقال إنه ظرف مستقر حال من السعي ﴿قَالَ يَبُنَيَّ﴾ قرأ حفص بفتح الياء ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك ويحتمل أنه رأى ما هو تعبيره، قال محمد بن إسحاق كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أمر في المنام أن يذبحه وذلك أنه رأى ليلة التروية كأنَّ قائلاً يقول له أن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلمَّا أصبح روى في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فمن ثم سمي عرفة كذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال ابن إسحاق وغيره فلمَّا أمر إبراهيم بذبح ابنه قال لابنه خذ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلمَّا خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر به، قال مقاتل رأى في المنام ثلاث ليال متتابعات فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه إني أرى في المنام أني أذبحك وقال السديُّ لمَّا دعا إبراهيم فقال ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾ وبشر به قال هو إذاً لله ذبيح فلمَّا ولد وبلغ معه السعي قيل له يعني من الله أوفي بنذرك هذا هو السبب في أمر الله بذبح ابنه، وهذا القول ينافي الإبتلاء، قال البغوي إنه قال إبراهيم لإسماعيل إنطلق نقرب قرباناً لله عزَّ وجلَّ فأخذ سكيناً وحبلاً فانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال فقال الغلام يا أبت أين قربانك قال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء المتكلم في إني أرى وإني أذبحك والباقون بإسكانها فيهما ﴿فانظر ماذا ترى﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم التاء وكسر الراء من الإفعال من الرأي لا من الرؤية أي ماذا تشير وإنما إستشاره ليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته والباقون بفتح التاء والراء وأبو عمرو يميل فتحة الراء ﴿قَالَ﴾ إسماعيل ﴿يا أبتِ أفعل ما تؤمر﴾ أي ما تُؤْمَرُ به فحذفا دفعةً أو على الترتيب أو افعل أمرك أي مأمورك والإضافة إلى المأمور، وهذا يدل على أن رؤيا الأنبياء وحي واجب الامتثال وقد روى عبد بن حميد عن قتادة أن رؤيا الأنبياء وحي، وروى

البخاري في الصحيح عن أبي سعيد الخدري ومسلم عن ابن عمر وأبي هريرة وأحمد وابن ماجه عن أبي رزين والطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[١]، ولا شك أن رؤيا الأنبياء كلها صالحة لا يحتمل الفساد وأما رؤيا غيرهم فمنها صالحة ومنها دون ذلك ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي إستسلما وانقادا وخضعا لأمر الله، وقال قتادة أي أسلم إبراهيم ابنه وأسلم ابنه نفسه ﴿وتلّه﴾ أي صرعه على الأرض ﴿لِلۡجَبِينِ﴾ قال ابن عباس أضجعه على جنبه على الأرض والجبهة بين الجنبين وكان ذلك عند الصخرة بمنى أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس، وأخرج البغوي عن عطاء بن السائب عن رجل من قريش عن أبيه عن النبيّ ﷺ أنه بالمنحر الذي ينحر فيه اليوم، قال البغوي قالوا قال له ابنه يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب واكفف عنّي ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون عليّ فإن الموت شديد وإذا أتيتَ أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيتَ أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها، قال إبراهيم عليهما السلام: نِعْمَ العون أنتَ يا بني على أمر الله ففعل إبراهيم ما قال له ابنه ثم أقبل عليه وقبله وربطه وهو يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يحك السكين وروي أنه كان يمرُّ الشفرة على حلقه ولا يقطع فشحذه مرتين أو ثلاثاً بالحجر كل ذلك لا يقطع، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السديّ أنه أمرَّ السكين بقوّته على حلقه مراراً فلم يقطع وضرب الله على حلقه صفحة من نحاس، قالوا فقال الابن عند ذلك يا أبت كبني لوجهي على جنبي فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقة تَحُولُ بينك وبين أمر الله وإني لا أنظر إلى الشفرة فأجزع ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أيضاً أن إبراهيم كبّه على وجهه.

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله لمَّا أراد إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً فتمثل الشيطان رجلاً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٦٩٨٨).

فأتى أم الغلام فقال لها هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت ذهبا يحتطبان من هذا الشعب، قال لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت لا هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك قال إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على أثر أبيه فقال يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال لا والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال ولِمَ؟ قال يزعم أن ربه أمره بذلك، قال فليفعل ما أمر به ربُّه سمعاً وطاعةً فلما أمتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم، فقال له أين تريد أيها الشيخ؟ قال أريد هذا الشعب لحاجة لما فيه، قال والله إني لأرى أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا فعرفه إبراهيم، فقال إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضِيَنَّ لأمر ربي فرجع إبليس بغيظه، ولم يصب من إبراهيم وآله شيئاً ممَّا أراد وامتنعوا منه بعون الله عزَّ وجلَّ. وروى أبو الطفيل عن ابن عباس أن إبراهيم لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر سابقة فسبقه إبراهيم ثم ذهب الجمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله عزَّ وجلَّ وَتَلَّه للجبين.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ قال البغوي الواو زائدة وناديناه جواب لمَّا، وقال البيضاوي جواب لمَّا محذوف تقديره كان ما كان، فما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله وإظهار فضلهما به على العالمين مع إحراز الثواب الجزيل إلى غير ذلك، قلتُ: وجاز أن يكون الواو للعطف على جواب لمَّا المحذوف تقديره فلما أسلما وتله للجبين منعنا عنه الذبح وناديناه ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أن مفسرة ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ حيث أتيتَ من الفعل ما كان مقدوراً لك والمطلوب من التكليف والإبتلاء هو الإتيان بالمقدور لا غير، وقيل كان رأى في المنام معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم وعلى هذا ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ حقيقة في معناه وعلى الأول مجاز، فإن قيل على التقدير الثالث ألم يكن ذبح الولد عليه واجباً وإنما كان الواجب عليه معالجة أسباب الذبح فما معنى قوله ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ فإن الفداء لا يتصور إلا بعد الوجوب؟ قلنا على التقدير الثاني إذا كان معالجة الذبح واجباً أصالةً صار الذبح واجباً دلالة لكونه لازماً له عادة فصح إطلاق الفداء عليه وهذا نسخ للحكم قبل القدرة على إتيانه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ

﴿٨٠﴾ تعليل لفرج تلك الشدة عنهما بإحسانهما يعني إنا نجزي المحسنين بإحسانهم جزاء مثل ما جزينا إبراهيم، وعفوناه عن ذبح الولد مع ما أعطيناه من الثواب العظيم وفضلناه به على العالمين ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الأمر بتذبيح ابنه ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي الاختيار الظاهر الذي به يتبين المخلص من غيره أو المحنة والصعوبة البينة فإنه لا أصعب منها، وقيل المراد بالبلاء هو النعمة وهي أن فدى ابنه بالكبش.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ عطف على نادينا، روي أنه لما سمع إبراهيم النداء نظر إلى السماء فإذا هو بجبرئيل ومعه كبش أملح أقرن وقال هذا فداء لابنك فاذبحه دونه فكبر جبرئيل وكبر الكبش وكبر إبراهيم وكبر ابنه فأخذ إبراهيم الكبش وأتى المنحر من منى فذبحه والفادي على الحقيقة إبراهيم، وإنما قال وَفَدَيْنَاهُ لأنه المعطى له والأمر به على التجوز في الفداء أو الإسناد ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر في الثواب، وقال الحسين بن الفضل لأنه كان من عند الله، قال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيماً، وقال مجاهد سماه عظيماً لأنه متقبل، قال البغوي قال أكثر المفسرين كان ذلك في الجنة أربعين خريفاً وأخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ورُوي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي كان قربه ابن آدم هابيل. استدل الحنفية بهذه الآية على أنه من نذر بذبح ولده لزمه ذبح شاة، قال البيضاوي وليس فيها ما يدل عليه، قلتُ: قد ذكرنا المسألة في سورة الحج في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾[1] وذكرنا أن القياس يقتضي أن لا يلزمه شيء لأنه نذر بالمعصية وبه قال أبو يوسف لكن استحسن أبو حنيفة أنه يلزمه شاة لأن الحقيقة إذا كانت مهجورة شرعاً تعين المجاز فلما نذر بذبح الولد حملناه على التزامه بدل أعني الشاة بدليل هذه الآية حيث جعل الله تعالى كبشاً فداء لابن إبراهيم عليهما السلام وبه أفتى ابن عباس كما ذكرنا هناك ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على إبراهيم عطف على صدر القصة يعني ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وجاز أن يكون عطفاً على فَدَيْنَاهُ ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأمم الثناء والذكر حذف المفعول لدلالة سياق الكلام وجاز أن يكون قوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ بتقدير هذا القول مفعولاً لتركنا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للسلام ولعله طرح عنه إنا إكتفاء بذكره مرةً في هذه القصة ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ أي بأن نهب لك ولذلك سمى إسحاق ﴿نَبِيًّا﴾ أي مقضياً نبوته مقدراً ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا يقدح فيه

(١) سورى الحج، الآية: ٢٩.

عدم المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار المعنى بالحال فلا حاجة إلى تقدير المضاف يجعل عاملاً فيهما مثل وَبَشَّرْنَاه بوجود إسحاق أي بأن يوجد إسحاق نبيا من الصالحين ومع ذلك لا يصير نظير قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1] فإن الداخلين مقدرون خلودهم وقت الدخول وإسحاق لم يكن مقدراً نبوة نفسه وصلاحه حيث ما يوجد، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة ثناء عليه وتعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي أفضيا بركات الدين والدنيا عليه، وقيل باركنا أي على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ بكون ألف نبي من نسله أولهم يعقوب وآخرهم عيسى ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ في عمله أو على نفسه بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مبين﴾ ظاهر ظلمه وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في أعقابهما لا يضرهما.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾ أنعمنا بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عطف على ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ﴾[2] وبينهما معترضات ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي من فرعون يسومهم سوء العذاب وقيل من الغرق ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ يعني موسى وقومه ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على فرعون وقومه ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ البالغ في بيان أحكام الله وشرائعه ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ الطريق الموصل إلى الحق والصواب لمن يسلكه ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ سبق مثل ذلك.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٧٥.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝١٢٥ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝١٢٦ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ قرأ ابن ذكوان برواية النقاش عن الأخفش بحذف الهمزة والباقون بتحقيقها ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عطف على ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ روى عن عبد الله بن مسعود قال الياس هو الإدريس وفي مصحفه إن إدريس لمن المرسلين وهذا قول عكرمة وقال الآخرون هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، قال ابن عباس هو ابن عم اليسع، وقال محمد بن إسحاق هو الياس بن بشر بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران عليه السلام، وقال أيضاً محمد بن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار لما قبض الله عزَّ وجلَّ قبله نبياً عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وظهر الشرك ونصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله فبعث الله إليهم إلياس نبيّاً وكانت الأنبياء من بني إسرائيل يبعثون بعد موسى بتجديد ما نسوا من التوراة، وبنوا إسرائيل كانوا متفرقين في أرض الشام وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح الشام بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم فاحل سبطاً منهم بعلبك ونواحيها وهم الذين كان منهم إلياس فبعثه الله إليهم نبياً وعليهم يومئذ ملك يقال له أَجُبُ فداخل قومه وأجبرهم على عبادة الأصنام وكان يعبد صنماً يقال له بعل وكان طوله عشرون ذراعاً ولها أربعة وجوه، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ وهم لا يسمعون منه شيئاً إلا ما كان من أمر الملك فإنه صدقه وآمن به فكان إلياس يقوّم أمره ويسدّده ويرشده، وكانت لأجب امرأة يقال لها إزبيل فكان يستخلفها على رعيته إذا كان غائباً في غزاة وغيرها وكانت تبرز وتقضي للناس وكانت قَتَّالة للأنبياء ويقال هي التي قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام ـ وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه وكان قد خلص من يدها ثلاث مائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم وكانت في نفسها غير محصنة وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بني إسرائيل وقتلت كلهم بالاغتيال وكانت معمرة يقال أنها ولدت سبعين ولداً.

وكان لأجب هذا جار رجل صالح يقال له مزدكي وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ومرمتها وكانت الجنينة إلى جانب قصر المَلِك وامرأته وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويغسلان فيها وكان أَجُبُ المَلِك يحسن

جوار صاحبه مزدكي، ويحسن إليه وامرأته إزبيل تحسده لأجل تلك الجنينة وتحتال أن تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها وتحتال أن تقتله والملك ينهاها من ذلك فلم تجد إليه سبيلاً، ثم إنه إتفق خروج الملِك إلى سفر بعيد فطالت غيبته فاغتنمت امرأته إزبيل وأمرت رجالاً يشهدوا على مزدكي أنه سبَّ زوجها أَجَبُ فأجابوها إليه وكان في حكمهم في ذلك الزمان القتل على من سب الملِك، فأقامت عليه البنية وأحضرت مزدكي وقالت بلغني أنك شتمتَ الملِك فأنكر المزدكي وأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور فأمرت بقتله وأخذت جنينته فغضب الله عزَّ وجل عليهم للعبد الصالح، فلمَّا قدم الملِك من سفره أخبرته الخبر فقال ما أحسنتِ ولا أرانا نفلح بعده فقد جاورنا منذ زمان وأحسَنَّا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا فختمت أمره بأسوء الجوار قالت إنما غضبتُ لك وحكمتُ بحكمك، فقال لها ما كان يسعه حلمكِ فتحفظين له جواره قالت قد كانت ما كانت، فبعث الله إلياس إلى أجبُ الملك وقومه فأمره أن يخبرهم أن الله قد غضب لوليه حين قتلوه ظلماً وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ولم يرد الجنينة إلى ورثة المزدكي أن يهلكهما يعني أجُب وامرأته في جوف الجنينة ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى يتعرى عظامهما من لحومهما ولا يتمتعان بهما إلا قليلاً، قال فجاء إلياس فأخبره بما أوحى الله إليه في أمره وأمر امرأته برد الجنينة فلمَّا سمع الملِك ذلك اشتد غضبه عليه ثم قال له يا إلياس ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلاً وما أرى فلاناً وفلاناً (سمى ملوكاً منهم) قد عبدو الأوثان إلا على مثل ما نحن عليه يأكلون ويتنعمون مملكين ما ينقص من دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل وما نرى لنا عليهم من فضل، قال وهَمَّ الملِك بتعذيب إلياس وقتله فلما أَحَسَّ الشرَّ رفضه وخرج عنه ولحق بشواهق الجبالُ وعاد الملك إلى عبادة البعل وارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه يقال أنه بقي سبع سنين شريداً خائفاً يأوي إلى الشعاب والكهوف يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه وقد وضعوا عليه العيون والله يستره.

فلمَّا تم سبع سنين أذن الله في إظهاره وشفاء غيظه منهم فأمرض الله عزَّ وجلَّ ابناً لأجُب وكان ذلك أحب ولده إليُه وأشبههم به فادنف حتى يئس منه فدعا صنمه بعلاً وكانوا قد فتنوا ببعل وعظموه حتى جعلوا له أربع مائة سادن، فوكلوهم به وجعلوهم أنبياء وكان الشيطان يدخل في جوف الصنم فيتكلم والأربع مائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسنوس إليهم الشيطان بشريعة من الضلال فيبينونها للناس بها ويسمونهم أنبياء، فلما اشتد مرض ابن الملِك طلب إليهم الملِك أن يتشفعوا إلى بعل ويطلبوا لابنه من قبله

الشفاء فدعوه فلم يجبهم ومنع الله الشيطان فلم يمكنه الولوج في جوفه وهم مجتهدون في التضرع إليه، فلمَّا طال عليهم ذلك قالوا لأجُب إن في ناحية الشام آلهة أُخرى فابعث إليها أنبياءك فلعلها تشفع لك إلى إلهك بعل فإنه غضبان عليك ولولا غضبه عليك لأجابك، قال ومن أجل ماذا غضب عليَّ وأنا أطيعه قالوا من أجل أنك لم تقتل إلياس وفرطتَّ فيه حتى نجا سليماً وهو كافر بإلهك، قال أجب وكيف لي أن أقتل إلياس وأنا مشغول عن طلبه لوجع ابني وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد فلو عوفي ابني لفرغتُ لطلبه حتى أجده فأقتله فأرضي إلهي، ثم إنه بعث أنبياءه الأربع مائة إلى الآلهة التي بالشام يسألونها أن تشفع إلى صنم الملك يشفي ابنه فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس أوحى الله إليه أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويكلمهم وقال له لا تَخَفُ فإني سأصرف عنك شرهم وألقي الرعب في قلوبهم، فنزل إلياس من الجبل فلما لقيهم استوقفهم فلما وقفوا قال لهم إن الله عزَّ وجلَّ أرسلني إليكم وإلى من ورائكم فاستمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوا صاحبكم فارجعوا إليه وقولوا إن الله يقول ألستَ تعلم يا أجب إني أنا الله لا إله إلا أنا إله بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم وقلة عملك حملك على أن تشرك بي وتطلب الشفاء لابنك من غيري ممن لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلا ما شئتُ إني حلفتُ باسمي لأغضبك في ابنك ولأميتنه في فوره غداً حتى تعلم أن أحداً لا يملك له شيئاً دوني، فلمَّا قال لهم هذا رجعوا وقد ملئوا منه رعباً، فلما صاروا إلى الملك أخبروه بأن إلياس قد انحط عليهم وهو رجل نحيف طوال قد نحِل وتمعط شعره واقشعر جلده عليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا فلمَّا صار معنا قذف له في قلوبنا الهيبة والرعب وانقطعت ألسنتنا ونحن في هذا العدد الكثير فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه، حتى رجعنا إليك وقصوا عليه كلام إلياس.

فقال أجب لا ننتفع بالحياة ما كان إلياس حيّاً ولا يطاق إلا بالمكرو الخديعة فقيض له خمسين رجلاً من قومه ذوي القوة والبأس وعهد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال له وأن يطمعوه في أنهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ليستنيهم إليهم ويغتربهم فيمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم فانطلقوا حتى ارتفعوا ذلك الجبل الذي يسكن فيه إلياس ثم تفرقوا ينادونه بأعلى أصواتهم ويقولون يا نبي الله أبرز إلينا وامتن علينا بنفسك فإنا قد آمنا بك وصدقناك وملكُنا أجُب وجميع الناس وأنت آمن على نفسك وجميع بني إسرائيل يقرؤون عليك السلام ويقولون قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلتَ فآمنَّا بك وأجبناك إلى ما دعوتَنا فهلم إلينا فأقم بين أظهرنا واحكم فينا فننقاد لما أمرتَنا وننتهي عما نهيتنا

وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا بك وطاعتنا فأرجع إلينا، وكل هذا منهم مماكرةٌ وخديعةٌ فلمَّا سمع إلياس مقالتهم وقع في قلبه وطمع في إيمانهم وخاف الله إن هو لم يظهر لهم فألهمه الله التوقف والدعاء فقال اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم فاحترقوا أجمعين، قال فبلغ أجب وقومه الخبر فلم يرتدع من همه بالسوء واحتال ثانياً في أمر إلياس وقيض إليه فئةً أخرى مثل عددهم أولئك أقوى منهم وأمكن في الحيلة والرأي فأقبلوا حتى توقلوا قلل الجبال متفرقين وجعلوا ينادون يا نبي الله إنَّا نعوذ بالله بك من غضب الله وسطواته أنا لسنا كالذين أتوك قبلنا وإن أولئك فرقة نافقوا فصاروا إليك ليكيدوا من غير رأينا ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم فالآن قد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم وانتقم لنا ولك منهم، فلمَّا سمع إلياس مقالتهم دعى الله بدعوته الأولى فأمطر عليهم النار فاحترقوا عن آخرهم وفي كل ذلك ابن الملك في البلاء الشديد من وجعه.

فلمَّا سمع الملِك بهلاك أصحابه ثانياً ازداد غضباً إلى غضب وأراد أن يخرج إلى طلب بإلياس بنفسه إلا أنه شغله من ذلك مرض ابنه فلم يمكنه فوجه نحو إلياس المؤمن الذي هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس به إلياس فينزل معه وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً وإنما أظهر له لِمَا أطلع عليه من إيمانه وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مثنياً عليها هو عليه من الكفاية والأمانة وسداد الرأي، فلمَّا وجهه نحوه أرسل معه فئة وأوغر إلى الفئة دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم وإن جاء مع الكاتب وأثقابه لم يروّعوه ثم أظهر مع الكاتب الإنابة وقد قال له أنه قد آن لي وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني وقد عرفتُ أن ذلك بدعوة إلياس ولستُ آمناً أن يدعو على جميع من بقي منا فنهلك بدعوته فانطلق إليه وأخبره أنا قد تُبنَا وأنبنَا وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضاء ربنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضى ربنا، وأمر قومه فاعتزلوا وقالوا له أخبر إلياس أنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبدو أرخينا أمرها حتى ينزل إلياس فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها وكان ذلك مكراً من الملك، فانطلق الكاتب والفئة حتى علا الجبل الذي فيه إلياس ثم ناداه فعرف إلياس صوته فتاقَت نفسه إليه وكان مشتاقاً إلى لقائه فأوحى الله إليه أن أبرز إلى أخيك الصالح فالقه وجدد العهد به فبرز إليه وسلم عليه وصافحه فقال له ما الخبر فقال له المؤمن أنه قد بعثني إليكَ هذا الجبار الطاغي وقومه ثم قص عليه ما قالوا، ثم

قال له وإني خائف إن رجعتُ إليه ولستَ معي أن يقَتلني فمرني بما شئتَ أفعله إن شئتَ انقطعتُ إليك وكنتُ معك وتركتُه وإن شئتَ جاهدتُه معك وإن شئتَ ترسلني إليه بما تحبُّ فأبلِغه رسالتَك وإن شئتَ دعوتَ ربَّك أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، فأوحى الله إلى إلياس أن كل شيء جاءك منهم مكر وخديعة وكذب ليظفروا بك وإنَّ أجب الملِك إن أخبرته رسله إنك لقد لقيتَ لهذا الرجل ولم يأت بك اتهمه وعرف أنه قد واهن في أمرك فلم يؤمن أن يقتله، فانطلق معه وإني سأشغل عنكما أجب فأضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له هم غيره ثم أميتُه على شر حال فإذا مات هو فارجع منه، قال فانطلقَ معهم حتى قدموا على أجُب فلما قدموا شدَّد الله الوجع على ابنه وأخذ الموت بِكَظَمه فشغل الله بذلك أجب وأصحابه عن إلياس فرجع إلياس سالماً إلى مكانه، فلمَّا مات ابن أجب وفرغوا من أمره وقلَّ جزعه انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب الذي جاء به فقال ليس لي به شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلا وقد استوثقتَ منه فأضرب عنه أجُب وتركه لما فيه من الحزن على ابنه.

فلمَّا طال الأمر على إلياس ومد في الجبال واشتقاق إلى الناس نزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأةٍ من بني إسرائيل وهي أم يونس بن متى ذي النون إستخفى عندها ستة أشهر ويونس بن متى يومئذٍ مولود مرضع فكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت بعد تعوده فسحة الجبال فأحب اللحوق بالجبل فخرج وعاد إلى مكانه فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ثم لم تلبث إلا يسيراً حتى مات إبنها يونس حين فطمته فعظمت مصيبتها فخرجت في طلب إلياس ولم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته وقالت له إني قد فجعتُ بعدك بموت إبني فعظمت فيه مصيبتي واشتد لفقده بلائي وليس لي ولد غيره فارحمني وادع الله جلَّ جلاله ليحيى لي ابني وإني تركته مسجىً لم أدفنه قد أخفيتُ مكانه، فقال لها إلياس ليس هذا مما أمرتُ به وإنَّما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني ربي فجزعت المرأة وتضرعت وأعطف الله قلب إلياس إليها فقال لها متى مات إبنك؟ قالت منذ سبعة أيام فأنطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى انتهى إلى منزلها فوجد ابنها ميتاً له أربعة عشر يوماً فتوضأ وصلّى ودعا فأحيى الله يونس بن متى فلمَّا عاش وجلس وثب إلياس وتركه وعاد إلى موضعه. فلمَّا طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذرعاً فأوحى الله إليه سبع سنين وهو خائف مجهود فنادى الله إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه ألستَ أميناً على وحيي وحجتي في أرضي وصفوتي في خلقي فاسألني أعطيك فإني ذو الرحمة

الواسعة والفضل العظيم، قال إلياس فإن تميتني فتلحقني بآبائي فقد مللتُ بني إسرائيل وملوني فأوحى الله إليه يا إلياس ما هذا باليوم الذي أعري عنك الأرض وأهلها وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك وإن كنتم قليل ولكن سلني فأعطيك، قال إلياس فإن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال الله عزَّ وجلَّ وأيُّ شيء تريد أن أعطيك قال تمكنني من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشر عليهم سحابة إلا بدعوتي ولا تمطر عليهم قطرةً إلا بشفاعتي فإنه لا تذلهم إلا ذلك، قال الله عز وجل يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك وأن كانوا ظالمين، قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك قال فخمس سنين، قال أنا أرحم بخلقي من ذلك ولكني أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك، قال إلياس بأيّ شيء أعيش؟ قال أسخر لك جيشاً من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط، قال إلياس قد رضيتُ، قال وأمسك الله عنهم المطر حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً وإلياس على حالته يستخف من قومه يوضع الرزق حيث ما كان وقد عرف ذلك قومه وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت قالوا لقد دخل إلياس هذا المكان فطلبوه ولقي منهم أهل ذلك المنزل شراً قال ابن عباس أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحطُ فمر إلياس بعجوز فقال لها هل عندك طعام؟ قالت نعم لشيء من دقيق وزيت قليل، قال فدعا بهما ودعا فيه بالبركة ومسه حتى مَلأ جُرابها دقيقاً وملأ خوابيها زيتاً فلمَّا رأوا ذلك عندها قالوا من أين لكِ هذا قالت مرّ بي رجل من حاله كذا وكذا فوصفته بصفته فعرفوه قالوا ذلك إلياس فطلبوه فوجدوه فهرب منهم، ثم إنه أوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال لها اليسع بن أخطوب به ضرٌّ فأوته وأخفته فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به وأتبع اليسع إلياس وآمن به وصدقه ولزمه وكان يذهب حيث ما ذهب وكان إلياس قد أسنَّ وكبر واليسع غلام شابٌ.

ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق فمن لم يعص من البهائم والدواب والطير والهوام لحبس المطر، فيزعمون والله أعلم أن إلياس قال يا رب دعني أكون أنا الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هو فيه من البلاء لعلهم أن يرجعوا أو ينزعوا عما هم عليه من عبادة غيرك فقيل له نعم، فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً وهلكت البهائم والطير والدوابّ والهوام والشجر بخطاياكم وإنكم على باطل فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم عليَّ فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوتُ الله ففرج

عنكم ما أنتم فيه من البلاء، قالوا أنصفت فخرجوا بأوثانهم فدعوها فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ثم قالوا لإلياس إنا قد أهلكنا فادع الله لنا فدعا لهم إلياس ومعه اليسع بالفرج فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثهم وحييت بلادهم فلمَّا كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم فأقاموا على أخبث ما كانوا.

فَلمَّا رأى ذلك إلياس دعا ربه تعالى أن يريحه منهم فقيل له فيما يزعمون انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه إلى موضع كذا وكذا فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كان بالموضع الذي أمر به أقبل فرس من نار وقيل لونه كلون النار حتى وقف بين يديه فوثب عليه إلياس فأنطلق به الفرس، فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرني به فقذف إليه إلياس بكسائه من الجَوِ الأعلى وكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل فكان ذلك آخر العهد به، ورفع الله إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان إنسياً ملكيّاً سماويّاً أرضياً.

وسلط الله على أُجب الملِك وقومه عدواً لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم فقتل أُجب وامرأته أزبيل في بستان مزدكي فلم يزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمَّت عظامها، ونَبَّأ الله اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل وأوحى إليه فآمنت به بنوا إسرائيل وكانوا يعظمونه وحكم فيهم قائم إلى أن فارقهم أليسع، روى السري بن يحيى عن عبد العزيز عن أبي الرواد قال إلياسُ والخضرُ يصومان شهر مضان ببيت المقدس ويوافيان الموسم في كل عام وقيل إن إلياس موكل في الفيافي والخضر موكل بالبحار هكذا ذكر البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ عذاب الله ﴿أَتَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿بَعْلًا﴾ اسم صنم كانوا يعبدونها سميت بها مدينتهم بعلبك، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة البعل الرب بلغة أهل اليمن ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فلا تعبدونه وجملة أتدعون إلى آخره بيان أو بدل لما قبله ﴿الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالنصب على البدل والباقون بالرفع على الاستئناف ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ في العذاب وإنما أطلق اكتفاءً بالقرينة أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ مستثنى من فاعل كذَّبُوهُ من المُحضَرِينَ لفساد المعنى وقيل استثناء منقطع أو متصل من المحضرين إن كان المحضرين من قبيل توصيف الكل بوصف البعض كما في قوله

تعالى: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾[1] فحينئذ يكون شاملاً للمستثنى منه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)﴾ لغة في إلياس كسيناء وسينين وإسماعيل وسمعين وميكائيل وميكائين، وقال الفراء هو جمع أراد إلياس وأتباعه من المؤمنين فيكون بمنزلة الأشعريين والأعجبين بالتخفيف لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام، وقرأ نافع وابن عامر آل ياسين بفتح الهمزة مشبعة وكسر اللام مقطوعة لأنها في المصحف مفصولة فيكون ياسين أبا إلياس وجاز أن يكون ياسين اسماً لإلياس والمراد بآل ياسين هو وأتباعه، وما قيل إن ياسين محمد ﷺ أو القرآن أو غيره من الكتب السماوية لا يناسب نظم سائر القصص وما قبله وما بعده من قوله ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١)﴾ إذ الظاهر أن الضمير لإلياس، وفي قراءة ابن مسعود سلامٌ على إدريسين يعني إدريس وأتباعه لأنه قرأ إنَّ إدريس لمن المرسلين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤)﴾ من العذاب الذي نزل على قومه ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته كائنة ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أهلنا ﴿الْآخَرِينَ﴾ من قومه ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي على منازلهم في أسفاركم إلى الشام فإن سدوم في طريقه ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ أو مساءً أو المعنى نهاراً أو ليلاً ولعلها وقعت قريباً من موضع النزول فيمر المرتحل عنه صباحاً والقاصد لها مساءً إن كان السير نهاراً أو بالعكس إن كان السير ليلاً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني ألستم ذو في العقول فتعتبروا والجملة معترضة.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ﴾ أي هرب وأصله هرب العبد من السيد لكن لما

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٠.

كان هربه من قومه بلا إذن ربه حسن إطلاقه عليه ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن طاووس أنه لمَّا وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم (يعني لمَّا تأخر عنهم العذاب) قبل أن يأمره الله به فركب السفينة، فوقفت فقال الملاحون هاهنا عبد أبق فاقترعوا فخرجت عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه في الماء، وذكر البغوي قول ابن عباس ووهب نحوه وذكر أنهم اقترعوا ثلاثاً فوقعت القرعة على يونس، قال البغوي وروي أنه لمَّا وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ثم جاءت موجة أخرى وأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب وأخذ ابنه الأصغر فبقي فريداً فجاء مركب آخر فركبه فقعد ناحية من القوم فلمَّا مرت السفينة في البحر ركدت فاقترعوا، وقد ذكرنا القصة في سورة يونس فذلك قوله تعالى ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع والمساهمة إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر فالْتَقَمَهُ الحُوتُ أي أخذه لقمة ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه حال من مفعول التَقَمَه.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ قال ابن عباس من المصلين، وقال وهب من العابدين قال الحسن ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً، قال الضحاك شكر الله له طاعته القديمة، قلتُ: ويمكن أن يكون هُو مصليّاً في بطن الحوت بالإشارة لكونه حيّاً مفيقاً والأولى أن يقال ولولا أنه كان من المسبحين في بطن الحوت يعني ذكراً له بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] كما نطق به القرآن ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ يعني لمات في بطنه وصار له قبراً فيبقى أجزاؤه مختلطاً بأجزاء الحوت حيثما كان في علم الله إلى يوم القيامة ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي المكان الخالي مما يغطيه من الشجر ونحوه ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ كالفرخ الممعط، وقيل كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم يبق له قوة. واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت؟ قال البغوي قال مقاتل بن حبان ثلاثة أيام وكذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال البغوي قال عطاء سبعة أيام كذا أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وقال البغوي قال الضحاك عشرين يوماً، وقال السديُّ والكلبي ومقاتل بن سليمان أربعين يوماً كذا أخرج الحاكم عن ابن عباس

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك وعبد الرزاق وابن مردويه عن ابن جريج وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة، وأخرج عبد بن حميد في زوائد الزهد أنه بعض يوم، وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم والبغوي عن الشعبي أنه التقمه ضحىً ولفظه عشية ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي فوقه مظلة ﴿شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٖ﴾ قال البغوي قال الحسن ومقاتل كل نبت يمتد وينبسط على وجه الأرض ليس له ساق ولا يبقى على الشتاء نحو القرع والقثاء والبطيخ فهو يقطين وقال كان ذلك اليقطين بساق على خلاف العادة انتهى، وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به، قلتُ: وكان قرعاً تغط من أوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه كذا قال البغوي أنه قول جميع المفسرين وكذا أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة، وقال مقاتل بن حبان وكان يونس يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه يشرب لبنها بكرة وعشية حتى اشتد لحمه ونبت شعره وقوي فنام نومة فاستيقظ وقد يبست الشجرة فحزن حزناً شديداً إذ أصابه أذى الشمس فجعل يبكي فبعث الله إليه جبرئيل فقال أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف من أمتك وقد أسلموا وتابوا.

مسألة:

لا يجوز ذكر زلة الأنبياء فإن زلاتهم توجب كمال الإنابة إلى الله ورفع درجاتهم ومن اعترض على أحد من الأنبياء فقد كفر قال الله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[1].

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى**»[2] متفق عليه، وفي رواية للبخاري «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» وعن أبي هريرة قال استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال والذي اصطفى محمداً على العالمين، وقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك لطم وجه اليهودي فذهب اليهودي إلى النبيّ ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم فدعا النبيّ ﷺ فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبيّ ﷺ «**لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش**

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ (٣٣٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: في ذكر يونس عليه السلام (٢٣٧٧).

بجانب العرش فلا أدري كان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان فيمن استثنى الله»[١] وفي رواية «فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور أو بعث قبلي ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى» وفي رواية أبي سعيد قال: «لا تخيروا بين الأنبياء» متفق عليه، وفي رواية أبي هريرة لا تفضلوا بين أنبياء الله» فان قيل ما المعنى والمرادُ بالنهي عن التفضيل بين الأنبياء مع كونه ثابتاً بالنص والإجماع قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٢] وقال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأوّل شافع وأول مشفع»**[٣] رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة وقال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر»[٤] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد وقال عليه السلام «أنا قائد المرسلين ولا فخر وأنا خاتم النبيين ولا فخر وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر» رواه الدارمي عن جابر، قلتُ: معناه والله أعلم لا تفضلوا بين أنبياء الله بالظن والتخمين ما لم يأتكم علم من الله تعالى وأما بعدما ثبت ذلك بوحي من الله تعالى فلا بأس به، أو يقال لا تخيروا بين الأنبياء في نفس النبوة بأن تُؤمنوا ببعض وتعظموه وتوقروه ولا تؤمنوا ببعض والله أعلم.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ قال البغوي قال قتادة أرسل إلى نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه وكذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه وعن الحسن والمعنى وقد أرسلناه إلى مائة ألف، وقيل معناه أرسلناه إليهم ثانياً بعد خروجه من بطن الحوت، وقيل إلى قوم آخرين ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال مقاتل والكلبي معناه بل يزيدونَ، وقال ابن عباس معناه ويزيدونَ أو بمعنى الواو كقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾[٥] وقال الزجاج أو هاهنا على أصله معناه أو يزيدون على تقديركم وظنكم كالرجل يرى قوماً فيقول هؤلاء ألف أو يزيدون فالشك على تقدير المخلوقين. واختلفوا في مبلغ تلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره بعد (٣٤٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام (٢٣٧٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٢٢٧٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام (٤٦٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب باب: في فضل النبي ﷺ (٣٦٢٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٠٨).

(٥) سورة المرسلات، الآية: ٦.

الزيادة؟ فقال ابن عباس ومقاتل كانوا عشرين ألفاً رواه الترمذي عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «يزيدون عشرون ألفاً»[١] وقال الحسن بضعاً وثلاثين ألفاً، وقال سعيد بن جبير سبعين ألفاً ﴿فآمنوا﴾ يعني الذين أرسل إليهم يونس آمنوا به بعد معاينة العذاب ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص تفرقه بينهما وبين أصحاب الشرائع الكبر وأولي العزم من الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكور في آخر السورة.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ عطف على قوله ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾[٢] أمر رسول الله ﷺ أولاً عن وجه إنكارهم البعث بأن يسألهم سؤال تقرير أي الخلقين أشد أخلقهم أم خلق غيرهم من السماء والأرض والملائكة أو من سبقهم من عاد وثمود فإذا هم أقرُّوا بأنَّ خلق من سبقهم أشد لزمهم الخوف ممن انتقم منهم وأهلكهم بكفرهم وهو قادر على خلق من هو أشد منهم وعلى كل خلق وقادر على البعث والتعذيب ثم جاء بما يلائمه من القصص لبعضها ببعض، ثم أمره بالسؤال عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين في قولهم الملائكة بنات الله وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر التجسيم وتجويز البنات على الله فإن الولادة مخصوصة بالأجسام القابلة للكون والفساد سريعاً وتفضيل أنفسهم على الله حيث جعلوا أخس الصنفين لله وأشرفهم لأنفسهم واستهانتهم الملائكة باتصافهم بالأنوثة، ولذلك كرر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله في كتابه مراراً وجعله مما تكاد السماوات يتفطرن من شؤم هذا القول وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا، والإنكار هاهنا مقصود على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الصافات (٣٢٢٩).

(٢) سورة الصافات، الآية: ١١.

بنات الله ولأن فسادهما مما يدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل لاستفهام عن أنفسهم ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ فيه استهزاء وإشعار بأنهم لفرط جهلهم يحكمون به كأنهم شاهدوا خلقهم ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي كذبهم الذي هو ظاهر البطلان وينفيه البرهان ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ عند جميع العقلاء قطعاً ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ قرأ أبو جعفر بهمزة الوصل المكسورة عند الابتداء وإسقاطها في الدرج وهي رواية عن نافع إما على حذف همزة الاستفهام من اللفظ أو على الإخبار بتقدير قالوا يعني إنهم لكاذبون حيث قالوا أصطفى البنات، وقرأ العامة بهمزة مفتوحة للاستفهام داخلة على همزة الوصل إنكاراً واستبعاداً بتقدير يقال لهم اصطفى البنات على البنين ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أن لله البنات ولكم البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشيء والبنات أخس الصنفين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ عطف على محذوف تقديره أفلا تتفكرون فلا تتذكَّرُونَ أنه تعالى منزه عن ذلك حذفت إحدى التائين ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من الله تعالى بأن الملائكة بناته يعني أن أسباب العلم منحصرة في ثلاثة العقل والحس والخبر الصادق والخبر لا يفيد العلم ما لم يبتنى على الحس أو على الإعلام من الله العالم للغيب، فأنكر أولاً دلالة العقل بقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ فإنه مع قيام البرهان على امتناع الولد لله سبحانه لا يجوز درك انوثية الملائكة بالعقل الصرف ولا يجوز عاقل أن يثبت أخس الفريقين للخالق وأشرفهما للمخلوقين، وأنكر ثانياً دلالة الحس بقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ يعني لم يشهدوا ذلك، وأنكر ثالثاً الخبر الصادق إلى الحجة النازلة من الله العليم الخبير فإنه أعلم إفادة للعلم من غيره وأقوى فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ ولما كان هاهنا مظنة أن يقولوا الله علمنا بهذا كما أنهم إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قال ﴿فاتوا بكتابكم﴾ الذي منزل من الله مخبر بأن الملائكة بناته ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ حال من الضمير المنصوب في استفتهم بتقدير قد أي استفتهم وقد جعلوا ﴿بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أخرج جويبر عن ابن عباس أنه قال نزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء قريش سليم وخزاعة وجهينة، قال مجاهد وقتادة أراد بالجنة الملائكة سموها جنة لاجتنانهم عن الإبصار، قلتُ ذكرهم بهذا الاسم تحقيراً لشأنهم عن مرتبة البنوة لله سبحانه، وقال ابن عباس حي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس قالوا هم بنات الله، وقال الكلبي قالوا (لعنهم الله) إن الله تزوج من الجن فخرج منها الملائكة تعالى لله

عن ذلك، وقال بعض قريش إن الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن كذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ جملة معترضة ﴿إنهم﴾ أي قائلي هذا القول أو الإنس مطلقاً أو الجنة بمعنى يعم الملائكة وغيرهم ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه به من الولد والنسب جملة معترضة أخرى ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ إستثناء متصل من ضمير إنهم إن أريد به ما يعم المؤمن والكافر أو منقطع إن أراد به القائلون بالولد.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة التفات من الغيبة إلى الخطاب والفاء قيل جزائية والشرط محذوف تقديره إذا جعلتم بينه وبين الجنة نسباً.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ من الأصنام ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الله متعلق بقوله ﴿بفاتنين﴾ أي بمضلين للناس بالإغواء أحداً ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ في علم الله يعني من سبق لهم فما علم الله القديم الشقاوة.

﴿وَمَا مِنَّآ﴾ معشر الملائكة أحد ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ هذه الجملة بتقدير القول معطوف على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾[1] تقديره وقالت ما منَّا إلاَّ له مَقَامٌ معلومٌ في العبودية أو في السماوات يعبد الله فيه، قال رسول الله ﷺ: «**أطت السماء وحق لها أن تأط والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله**»[2] رواه البغوي،

(١) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» (٢٣١٢).

أو مقام معلوم في مراتب القرب لا يتجاوز عنه وكذا قال السدي إلاَّ له مقامٌ معلومٌ في القربة والمشاهدة، وقال أبو بكر الوراق إلا له مقامٌ معلومٌ يعبد الله عليه كالخوف والرجاء والمحبة والرضاء، قلتُ: وأما الإنس فلا يزال يرتقي على معارج القرب قال رسول الله ﷺ حكايةً عن الله سبحانه «ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»[١] الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة، وأما الملائكة فلا يتجاوزون عن مقاماتهم، عن زرارة بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال لجبرئيل هل رأيتَ ربَّكَ؟ فانتفض جبرئيل وقال يا محمد إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور لو دنوتُ من بعضها لاحترقتُ هكذا في المصابيح ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس إلا أنه لم يذكر فانتفض جبرئيل. عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق إسرافيل منذ يوم خلقه صافاً قدميه لا يرفع بصره بينه وبين الرب تبارك وتعالى سبعون نوراً ما منها من نور يدنو منه إلا احترق»**[٢] رواه الترمذي وصححه وهذه الآية رد على عابدي الملائكة نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[٣] ﴿وَإِنَّا﴾ معشر الملائكة ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن مالك قال كان الناس يصلون متبدين فأنزل الله وإنا لنحن الصافون فأمرهم أن يصفوا، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه، قال الكلبي صفوف الملائكة في السماء للعبادة كصفوف الناس في الأرض يعني في الصلاة، روى مسلم عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: **«ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها قال: يتمون الصفوف الأولى ويتراصون في الصف»**[٤] والمعنى وإنا لنحن صافون أقدامنا في أداء الطاعة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي المنزهون عما لا يليق به كاتخاذ الولد ونحو ذلك، وما في إن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص إنما هو للرد على من زعم أنهم بنات الله والحصر إضافي بالنسبة إلى الكفار يعني لسنا كهيئة الكفار مشركين مصغين في العبادة والتسبيح.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٢) رواه الطبراني وفيه محمد بن أبي ليلى وقد وثقه جماعة ولكنه سيء الحفظ وبقية رجاله ثقات.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: في تواضعه ﷺ (١٤٢١٢).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الأمر بالسكون في الصلاة (٤٣٠).

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ وإنهم يعني كفار مكة كانوا ﴿لَيَقُولُونَ﴾ قبل مبعث النبي ﷺ ﴿لَوْ﴾ ثبت ﴿أن عندنا ذكراً من الأولين﴾ أي كتاباً من الكتب التي أنزلت عليهم ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ يعني لأخلصنا له العبادة ولم نخالف ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالذكر الذي هو أشرف الأذكار لما جاءهم ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء للسببية فإن الكفر سبب للوعيد ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم وما يحل بهم من الانتقام، إن مخففة للمثقلة واللام هي فارقة وفي ذلك إيماء بأنهم كانوا يقولون مؤكدين للقول جازمين فيه فكم بين أولهم وآخرهم ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ بيان للكلمة ولذلك لم يعطف عليه، قلتُ وإنما يظهر التخلف لأجل شؤم العصيان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[2] ﴿فَتَوَلَّ﴾ عنهم أي أعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن عباس يعني الموت، وقيل يوم يأتيهم العذاب في الدنيا، وقال مجاهد يوم بدر وكذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّي، وقال البغوي قال السديّ يوم يأمركم بالقتال وهو المراد بقول مقاتل نسختها آية القتال ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ مغلوباً مقتولاً معذباً، فيه دلالة على أنه كائن قريبٌ كأنَّه قدامه ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قضينا لك من التأييد والنصرة في الدنيا والثواب في الآخرة وما يحل بهم في الدارين وسوف للوعيد لا للتبعيد.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه متى نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا العذاب وأخرج جويبر عنه نحوه فنزل ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أيجهلون شأننا فبعذابنا يستعجلون ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم، قال الفراء العرب يكتفي بذكر الساحة من القوم، أو المعنى إذ نزل الرسول ﷺ مع جيشه بساحة الكفار ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي صباحهم مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت الهجوم والغارة في الصباح عادةً سموا الغارة صباحاً وأن وقعت في وقت آخر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغز حتى يصبح، قال فلمَّا أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها فلمَّا رأوه قالوا محمد والله والخميس فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحتهم فساء صباح**

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

المنذرين» رواه البغوي، وفي الصحيحين عن أنس أن النبيّ ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر إليهم فإن سمع أذاناً كفَّ عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلمَّا أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبتُ خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم نبي الله ﷺ، قال فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم فلمَّا رأوا النبيّ ﷺ قالوا محمد والله محمد والخميس فلجأوا إلى الحصن فلمَّا رآهم رسول الله ﷺ قال: «**الله أكبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[1] ثم كرر الله سبحانه تأكيد الوعيد العذاب فقال ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ ﴿وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ فيه إطلاق بعد تقييد للإشعار بأنه يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرَّة وأنواع المساءة أو الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي الغلبة والقوة أضاف الرب إلى العزة لاختصاصه به إذ لا عزة إلا له أو لمن انتسب إليه رسوله والمؤمنون، وفيه إشعار بأن صفاته تعالى مقتضيات الذات، واجبات بالغير أي بذاته تعالى ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه به المشركون ممَّا حكى في السورة وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية والثبوتية مع الإشعار بالتوحيد ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الذين وصفوه على ما هو عليه وهذا تعميم للرسل بالتسليم ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما هدى المؤمنين إلى معرفة ذاته وصفاته بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصرة الأنبياء وتدمير الأعداء، عن علي كرم الله وجهه أنه قال من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾، رواه البغوي في تفسيره وعبد بن رنجويه في ترغيبه والحمد للّه رَبّ العالمين وصلّى الله تعالىٰ على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى أهل طاعته أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: ما يحقن بالأذان من الدماء (٦١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر (١٣٦٥).

سورة ص

آياتها ثمان وثمانون وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾﴾.

أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبيّ ﷺ فشكوه إلى أبي طالب فقال ابن أخي ما تريد من قومك؟ فقال أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم جزيةً قال كلمة واحدة قال ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» فقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب فنزل ﴿صٓ﴾ إلى قوله: ﴿بل لما يذوقوا العذاب﴾[1] قيل هو قسم وقيل هو اسم السورة كما ذكرنا في سائر حروف التهجي، قال محمد بن كعب مفتاح اسمه الصمد وصادق الوعد، وقال الضحاك معناه صدق الله وروي عن ابن عباس صدق محمد رسول الله ﷺ وقيل هو أمر من المصاداة ولذا قرىء بالكسر على وزن ناد ومعناه عارض من الصدي فإنه تعارض الصوت الأول يعني عارض القرآن بعملك، والحق أنه من المتشابهات وقد ذكرنا تحقيقها في أوائل سورة البقرة ﴿وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ﴾ قال ابن عباس أي ذي البيان لما يحتاج إليه في الدين من العقائد والشرائع والمواعيد أو ذي عظة، وقال الضحاك أي ذي الشرف كما في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص (٣٢٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1] والواو للقسم إن جعل ﴿صٓ﴾ اسم حرف مذكور للتحدي أو الرمز لكلام صدق محمد ﷺ أو غيره أو لفظ الأمر وللعطف إن جعل مقسماً به، قال الأخفش جواب القسم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ وهذا بعيد جداً والظاهر أن الجواب محذوف دل عليه ما في ﴿صٓ﴾ من الدلالة على التحدي أو الأمر بالمعادلة أي أنه المعجز أو الواجب العمل به أو أن محمداً لصادق أو أن الأمر ليس كما يقول الكفار ويدل عليه قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق وحمية جاهلية ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلاف وعداوة لمحمد ﷺ ولأجل ذلك لا يؤمنون به أو خلاف لما يقتضيه العقل والنقل، والتنكير فيهما الدلالة على شدتهما فهو إضراب عن الجواب المقدر، وقال قتادة هذا جواب القسم كما في قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا﴾ وبل ابتدائية، وقال القتيبي بل لتدارك كلام ونفي آخر ومجاز الآية أن الله أقسم بصٓ والقرآن ذي الذكر إن الذين كفروا من أهل مكة في عزة وشقاق.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيد لهم على كفرهم استكباراً وشقاقاً ﴿فَنَادَوا۟﴾ عند نزول العذاب إستغاثة أو توبة واستغفاراً ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس الحين حين مناص، جملة كم أهلكنا معترضة لبيان مآلهم بعد بيان حالهم يعني أنهم يهلكون كما هلك من قبلهم ولا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وتغير حكمه فخصت بلزوم الأحيان وحذف أحد المعمولين إما الاسم وإما الخبر والمحذوف هاهنا الاسم هذا مذهب الخليل وسيبويه.

وقال الأخفش هي النافية للجنس والخبر محذوف أي لا حين مناص كائن لكم، وقيل هي نافية للفعل والنصب بإضماره تقديره لا أرى حين مناص حاصلاً لهم، والوقف على لات بالتاء عند الزجاج وعند الكسائي لاه بالهاء، وذهب جماعة إلى أن التاء زيدت في حين والوقف على لاثم يبتدىء بحين وهو اختيار أبي عبيد وقال كذلك وجدتُّ في مصحف عثمان رضي الله عنه وهذا كقول الشاعر:

والعاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ما من مطعم

والمناص مصدر ميمي من ناصه ينوصه إذا فاته، وفي القاموس النوص التأخر والمناص الملجأ، قال ابن عباس كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

بعضهم لبعض مناص أي اهربوا وخذوا حذركم فلما أنزل الله بهم العذاب ببدر قالوا مناص فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس الحين حين هذا القول، والجملة حال من فاعل نادوا أي استغاثوا والحال أن لا ملجأ ولا مهرب ولا اعتبر بهم كفار مكة.

﴿وَعَجِبُوٓا﴾ عطف على الظرف المسقر أعني في عزةٍ وشقاقٍ أو حال من الضمير المستكن فيه بتقدير قد تقديره بل الذين كفروا كائنون في عزة وشقاقٍ وقد عجبوا من ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي بشر من أنفسهم رسولاً إليهم لينذرهم ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذمّاً لهم وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على أن قالوا ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ فيما يظهر من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقول ﴿أَجَعَلَ﴾ محمول على حذف قالوا استئناف في جواب ما قالوا حينئذ يعني قالوا اجعل ﴿ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ الاستفهام للتعجب يعني كيف جعل الألوهية التي كانت لجماعة لواحد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغ في العجب فإنه خلاف ما اطبق عليه آباؤنا ما نشاهد ونعاهد أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة، قال البغوي وذلك أن عمر بن الخطاب لما أسلم شق ذلك على قريش وفرح بها المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم الصناديد والأشراف وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سنّاً الوليد بن المغيرة قال امشوا إلى أبي طالب، فأتوا أبا طالب وقالوا أنت كبيرنا وشيخنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبيّ ﷺ فدعاه فقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ ماذا تسألون؟ قالوا ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال النبي ﷺ أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟ فقال أبو جهل لله أبوك لنعطيكها وعشر أمثالها، فقال رسول الله ﷺ قولوا لا إله إلا الله، فتفرقوا من ذلك وقاموا وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً كيف يسمع الخلق كلهم إله واحد إنَّ هذا لشيء عجابٌ، قيل التعجيب ما له مثل والعجاب ما لا مثل له ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشراف من مجلس أبي طالب الذين كانوا فيه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من قريش وجملة انطلق عطف على قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴿أَنِ ٱمْشُوا﴾ أي قائلين أن امشوا من مجلسكم هذه ﴿وَٱصْبِرُوا﴾ أي اثبتوا ﴿عَلَىٰٓ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِكُمْ﴾ حيث لا ينفعكم المكالمة وأن هي المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التناول يشعر بالقول، وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول وامشوا من مشيت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية أي اجتمعوا ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور من التوحيد ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ منا، هذه الجملة في مقام التعليل على قوله امشوا، قال البغوي وذلك أن عمر رضي الله عنه لما أسلم وحصل للمسلمين به قوة بمكانه

قالت الكفار إن هذا لشيء يراد، قيل معناه هذا الذي نرى من زيادة أصحاب محمد ﷺ لشيء من الله يراد بنا فلا مرد له، وقيل يراد بأهل الأرض، وقيل بمحمد ﷺ أن يملك علينا أو يقال إن هذا الذي يدعيه محمد من التوحيد أو الذي يقصد من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يريده كل احد أو أن دينكم يطلب ليؤخذ منكم ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله محمد من التوحيد وكلمة هذا للتحقير ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والكلبي ومقاتل يعنون بها النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يوحدون بل يقولون ثالث ثلاثة، وقال مجاهد يعنون ملة قريش ودينهم الذي لهم عليه أي ما سمعنا بهذا في الملة التي أدركنا عليه آباءنا، ويجوز أن يكون ظرفاً مستقراً في محل الحال أي ما سمعنا من أهل الكتاب ولا الكهان هذا أي التوحيد كائناً في الملة المترقبة التي هي آخر الملل ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي كذب اختلقه.

﴿ءأنزل عليه الذكر﴾ أي القرآن، الاستفهام للإنكار فهو بمعنى النفي فهو تأكيد لمضمون قولهم إن هذا إلا اختلاق ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وليس بأكبرنا ولا أكثر منا في المال والجاه وفيه دليل على أن منشأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي، قال الله تعالى: ﴿بل هم في شك من ذكري﴾ أي القرآن حيث كذبوا الجائي به، إضراب للإنكار وإثبات للشك لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل يعني ليس عندهم حجة يوجب علماً يقينياً بما يقولون إنه ساحر كذاب ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ ولو ذاقوا ما قالوا ذلك وسيذوقونها وحينئذ يزول عنهم الشك ولا ينفعهم، وبل للإضراب عن الشك وإثبات يقينهم واعتقادهم بانتفاء حقيقة القرآن فإثبات الشك إنما هو بالنظر إلى انتفاء الحجة عندهم وإثبات اليقين نظراً إلى جهلهم المركب وزعمهم الفاسد تعنتاً وعناداً، وقيل بل في الموضعين ابتدائية ليست للإضراب فالجملة الأولى جواب لكلام الكفار والثانية تأكيد للأولى ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي نعمة ربك يعني مفاتيح النبوة يعطوها من يشاءوا يعني ليس الأمر كذلك فإن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده مانع لما أعطاه فإنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يغلبه شيء ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ الذي يهب ما يشاء لمن يشاء، أم منقطعة بمعنى بل والهمزة قيل للإضراب من دعوى إلى دعوى أخرى والهمزة لإنكار ذلك الدعوى وكذلك أم في قوله ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لما أنكر عليهم التصرف في النبوة بأن ليس عندهم خزائن رحمته التي لا نهاية لها أردف ذلك بأنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ذلك

فليصمدوا في المعراج التي يتوصلون بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم فينزلوا الوحي إلى من يتصفون وهو غاية التهكم بهم والأمر للتوبيخ والتعجيز، قال قتادة ومجاهد أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ ما هذه للتقليل وجند خبر مبتدأ محذوف أي لهؤلاء الذين يقولون لهذا القول جند قليل ﴿مَهْزُومٌ﴾ عن قريب صفة لجند وكذا قوله ﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي من أحزاب الكفار المتحزبين على الرسل في القرون الماضية فقهروا وأهلكوا فمن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية أو فلا تهتم بما يقولون، قال قتادة أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه سيهزم جند المشركين وقال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[1] فجاء تأويلها يوم بدر وهُنالك إشارة إلى بدر ومصارعهم والظاهر أنه إشارة إلى حيث وضعوا أنفسهم وأتوا بمثل هذا القول العظيم وتكذيبهم إياك.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ تأنيث قوم من حيث المعنى ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس ومحمد بن كعب ذو البناء المحكم وقيل أراد الملك السديد الثابت، قال القتيبي تقول هم في العز الثابت الأوتاد يريدون أنه الدائم الشديد، وقال الضحاك ذو القوة والبطش الشديد، وقال عطية ذو الجنود والجموع الكثيرة يعني أنهم كانوا يقوّون أمره ويشدون ملكه كما يقوي الوتد الشيء وأيضاً سميت الأجناد أوتاداً لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم وهي رواية عطية عن ابن عباس، وقال الكلبي ومقاتل الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها وكان

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٥.

إذا غضب على احد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد وشد كل يد وكل رجل إلى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت، وقال مجاهد ومقاتل بن حبان كان يمد الرجل مستلقياً على الأرض ثم يشد يديه ورجليه على الأرض بالأوتاد، وقال السدي كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات، وقال قتادة كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب عليها بين يديه ﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأياة﴾ أي أصحاب الغيظة وهم قوم شعيب ﴿اولئك الأحزاب﴾ اللام للعهد أي أولئك الأحزاب الذين مر ذكرهم في قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾[1] الذين تخربوا على الرسل ومشركوا مكة حزب منها ﴿إن كُلٌّ﴾ أي ما كل حزب منهم فعل شيئاً ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ بيان لما أسند إليهم من التكذيب على الإبهام مشتملاً على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلاً على استحقاقهم أشد العذاب ولذلك رتب عليه ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي وجب عليهم وأنزل بهم عذابي الذي يستحق أن يعقب الكفر، قرأ يعقوب عقابي بالياء وصلاً ووقفاً والباقون بحذفها والاكتفاء على الكسرة، وفي قوله ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ إما مقابلة الجمع بالجمع أو جعل تكذيب واحد منهم تكذيباً لكلهم لاتحاد كلمتهم.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ أي ما ينتظر عطف على قوله وقال الكافرون أوحال ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أي كفار قريش ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي نفخة الصور يعني لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم حين لا ينفعهم إيمانهم ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ صفة بعد صفة لصيحة، قرأ حمزة والكسائي بضم الفاء والباقون بفتحها وهما لغتان بالفتح لغة قريش وبالضم لغة تميم، قال ابن عباس وقتادة معناه من رجوع، وقال مجاهد نظرة وقال الضحاك أي صرف وقال الفراء وأبو عبيدة بالفتح بمعنى الراحة والإفاقة كالجواب بمعنى الإجابة وذهب إلى إفاقة المريض من غلبة المرض، وبالضم ما بين الحلبتين وهي تحلب ناقة وتترك ساعة حتى يجتمع اللبن في الضرع بين الحلبتين يعني مالها مهلة مقدار ما بين الحلبتين قيل هما مستعاران من الرجوع لأن اللبن يعود إلى الضرع بين الحلبتين وإفاقة المريض رجوعه إلى الصحة يعني لا رجوع إلى الدنيا بعد الصيحة أو إذا جاءت الصيحة لم ترد ولم تصرف أو لا نظرة قدر ما بين الحلبتين أولا إفاقة ولا راحة حينئذ. قال الكلبي لمّا نزلت في الحاقة ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ قالت كفار مكة استهزاء ربنا عجل لنا قطناً فنزلت ﴿وقالوا﴾ عطف على قال الكافرون ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ والقط هي الصحيفة التي أحصت

(١) سورة ص، الآية: ١١.

كل شيء كذا قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يعني عجل لنا كتابنا في الدنيا ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ وروى عن سعيد بن جبير أنه قال يعنون عجل لنا حظنا ونصيبنا من الجنة التي يقول محمد، وقال الحسن وقتادة ومجاهد والسديُّ يعنون عقوبتنا ونصيبنا من العذاب، وقال عطاء هذا ما قاله النضر بن الحارث (اللَّهم إن كان هذا هو الحق مِنۡ عِنۡدِكَ فَامۡطِرۡ علينا حجارةً مِنَ السَّمَاء)[1] وعن مجاهد قال قِطَّنا حسابنا ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ استهزاء وتكذيباً جملة مستأنفة وعطف عليه قوله ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ فإن ذكر الأنبياء يقتضي الصبر على ما يكرهه الطبع وحبس النفس على الطاعة وعن المعصية ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ أي ذا القوة والبطش الشديد على الطاعة ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي رجَّاع إلى الله عما سواه وإلى الطاعة عن المعصية، قال ابن عباس أي مطيع، وقال سعيد بن جبير المسبّح بلغة الحبش، وهو تعليل للأيد دليل على أن المراد به القوة في الدين.

روى الشيخان في الصحيحين وأحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «**أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام السدس الأخير من الليل**»[2].

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ جملة سخرنا إلى قوله بيان لكرامة داود عليه السلام عند الله فكأنه بدل اشتمال لداود أي اذكر كرامة داود عند الله حيث سخرنا له الجبال إلى آخره ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ حال وضع موضع مسبحات لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح منه حالاً بعد حال ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ قال الكلبي غدوة وعشياً والإشراق هو أن تشرق ويتناهى ضوءها وفسره ابن عباس بصلاة الضحى، روى البغوي بسنده عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال كنت أومن بهذه الآية لا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل علينا فدعا بوضوء فتوضا ثم صلّى الضحى فقال: «يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق» وأخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وأخرج ابن جرير والحاكم عن عبد الله بن الحرث عن ابن عباس أنه قال، ما عرفتُ صلاة

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢ظ.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: أحب الصلاة إلى الله صلاة داود (٣٤٢٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم (١١٥٩).

الضحى إلا بهذه الآية وأخرجه سعيد بن منصور ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال يعني سخّرنا ﴿مَحْشُورَةً﴾ أي مجتمعة إليه من كل جانب تسبح معه ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي رجّاع إلى التسبيح بتسبيحه، والفرق بينه وبين ما قبله أنه يدل على الموافقة في التسبيح وهذا على المداومة عليها أو المعنى كل واحد من داود والجبال والطير له أي لله تعالى أواب.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، قال البغوي قال ابن عباس كان داود أشد ملوك الأرض سلطاناً يحرس محرابه كل ليلة ست وثلاثون ألف رجل، روى البغوي عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود أن هذا غصبني بقراً فسأله داود فجحد وسأله الآخر البينة ولم تكن له بينة فقال لهما داود قوما حتى أنظر في أمركما فأوحى الله إلى داود في منامه أن يقتل الذي استعدى عليه فقال هذه رؤيا ولست أعجل حتى أثبت فأوحى إليه مرةً أخرى فلم يفعل، فأوحى إليه الثالثة أن يقتله أو يأتيه العقوبة فأرسل داود إليه فقال إن الله أوحى إليّ أن أقتلك قال تقتلني بغير بينة؟ قال نعم والله لأنفذن أمر الله فيك، فلمّا عرف الرجل أنه قاتله قال لا تعجل حتى أخبرك إني والله ما أخذتُ بهذا الذنب ولكني كنت اغتلتُ والد هذا فقتلتُه فلذلك أُخذتُ فأمر به داود فقتله فاشتدت هيبته في بني إسرائيل عند ذلك لداود واشتد به ملكه، وكذا روى عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة وكمال العلم وإتقان العمل ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال البغوي قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به، قال ويروى ذلك عن أبي بن كعب قال فصل الخطاب الشهود والإيمان وهو قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح، وقال قال ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل هو البصيرة في القضاء وقال قال ابن عباس هو بيان الكلام يعني الكلام الذي يظهر به المقصود على المخاطب من غير التباس يراعى فيه الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ونحوها على ما بين في علم البلاغة ولا يكون فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل كما جاء في حديث أم معبد الذي ذكرناه في سورة التوبة في قصة الهجرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[1] في وصف كلام رسول الله ﷺ فصل لا نزر ولا هذر أي لا قليل

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

مخلٌّ ولا كثير مملٍّ، وروي عن الشعبي أن فصل الخطاب هو قول الإنسان بعد حمد الله والثناء عليه أما بعد إذا أراد الشروع في كلام، قال البيضاوي إنما سمي به أما بعد لأنه يفصل المقصود عمَّا سبق مقدمة له من الحمد والصلاة.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وهل أتاك نبؤا الخصم﴾ إستفهام ومعناه التعجبُ والتشويق إلى استماع القصة والجملة معطوفة على اذكر، والخصم في الأصل مصدر ولذلك يصلح للإطلاق على المثني والمجموع والمراد ههنا متخاصمان وإنما أورد صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ مجازاً كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[1] وهو تفعل من السور كتسنم من السنام ومعناه إذ تصعدوا ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي القلعة سمي محراباً لأنه يحرب عليه أو المراد به المسجد لما أنه يحرب فيه من الشيطان، وجاز أن يكونا جماعة كما يدل عليه الصيغة وضمائر الجمع، وإذ متعلق بمحذوف أي نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داود وأن إسناد أتى إليه على حذف المضاف أي قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الفعل لا يأتي لأن إتيانه الرسول الله ﷺ لم يكن حينئذ، وهذه امتحان داود عليه السلام. قال البغوي: اختلف العلماء في سببه؟ فقال قوم سبب

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

ذلك أنه عليه السلام تمنى يوماً من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسأل ربه أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل ما أعطاهم، فروى السديّ والكلبي ومقاتل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم في بعض قالوا كان داود قسَّم الدهر ثلاثة أقسام يوم يقضي بين الناس ويوم يخلو فيه لعبادة ربه ويوم لنسائه وأشغاله، قلتُ: وأخرج عبد بن حميد وابن جير وابن المنذر عن الحسن أنه جزَّ الدهر أربعة أجزاء فزاد ويوم للوعظ، قالوا وكان داود يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال يا رب أرى الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا من قبلي فأوحى الله إليه أنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها ابتلى إبراهيم بنمرود وبذبح إبنه وابتلي إسحاق بالذبح وبذهاب بصره وابتلي يعقوب بالحزن على يوسف، فقال يا رب لو ابتليتني بمثل ما ابتليتهم لصبرتُ أيضاً فأوحى الله إليه أنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس، فلمّا كان ذلك اليوم الذي وعده الله دخل داود محرابه وجعل يصلّي ويقرأ الزبور فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن وقيل جناحاه من الدر والزبرجد فوقفت بين رجليه فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها فيريها بني إسرائيل فينظروا إلى قدرة الله تعالى فلمَّا قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها، فأبصر امرأة في بستان على شط بركة لها تغتسل هذا قول الكلبي، وقال السدي رآها تغتسل على سطح لها فرأى إمرأة من أجمل النساء خَلقاً فعجب داود من حسنها وحانت منها إلتفاته فأبصرت ظُلة فنقضت شعرها فغطت بدنها فزاده ذلك عجباً فسأل عنها فقيل هي تشائع بنت شائع امرأة أوريا بن حنانا وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود عليه السلام فذكر بعضهم أنه أحب أن يقتل أوريا ويتزوج امرأته فكان ذنبه هذا القدر.

وذكر بعضهم أنه كتب داود إلى ابن أخته أيوب أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وقدِمه قبل التابوت وكان من قدَّم التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد وقدَّمه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن أبعثه إلى عدوّ كذا وكذا فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن إبعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأساً فبعثه فقتل في المرة الثالثة، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود فهي أم سليمان عليهما السلام، قال البغوي وعن ابن مسعود أنه قال كان في ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل عن امرأته قال أهل التفسير كان ذلك مباحاً لهم غير أن الله لم يرض له

ذلك لأنه كان رغبةً في الدنيا وازدياد النساء وقد أغناهم الله عنها بما أعطاه من غيرها، قال البغوي وروى عن الحسن أنه كان جزأ الدهر أربعة أجزاء كما ذكر عبد بن حميد وغيره وزاد فلمَّا كان يوم وعظ بني إسرائيل يذكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه فقالوا هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك وقيل أنهم ذكروا فتنة النساء فأضمر داود في نفسه أنه إن ابتلي اعتصم فلمَّا كان يوم عبادته غلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وأكب على التوراة فبينا هو يقرأ إذ دخلت عليه حمامة من ذهب كما ذكرنا، قال وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا مكاناً إذا سار إليه قتل ففعل فأصيب فتزوج امرأته، قال فلمَّا دخل داود بامرأة أوريا لم يلبس إلا يسيراً حتى بعث الله إليه ملكين في صورة رجلين يوم عبادته فطلبا أن يدخلا عليه فمنعهما الحرس فتسورا المحراب عليه فما شعر وهو يصلّي إلا وهما بين يديه جالسين يقال كانا جبرئيل وميكائيل عليهما السلام.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدل من قوله إذ تسوروا ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي خاف داود من الخصم لأنهما نزلا عليه من فوق في يوم الإحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من دخل عليه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أي نحن متخاصمان ﴿بغى بعضنا على بعض﴾ هذا الكلام على الفرض وقصد التعريض كأنَّهم قالوا إن كنا خصمين بغى بعضنا على بعض ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تجر يقال شط الرجل شططاً وأشط أشطاطاً إذا جار في حكمه والمعنى مجاوزة الحد، وأصل الكلمة من شطت الدار وأشطت إذا بعدت ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ سواء مصدر بمعنى الفاعل صفة للصراط أضيف إليه على طريقة أخلاق ثياب يعني إهدنا إلى طريق مستوى أي وسطه وهو العدل ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أي على ديني وطريقي ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي امرأة العرب تكنى المرأة بالنعجة، وقال الحسن بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهيم إذ لم يكن هناك نعاج، والجملة الظرفية خبر بعد خبر لأن ﴿وَلِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون باسكانها ﴿نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الجملة الظرفية منصوب على الحال والعامل فيه الظرف السابق ﴿فَقَالَ﴾ عطف على قوله: ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ قال ابن عباس أعطنيها، وقال مجاهد انزل لي عنها يعني طلقها لأتزوجها وحقيقته ضمها إليّ واجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل معناه إجعلها كفلي ونصيبي ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ عطف على قال معناه غلبني في المخاطبة إياي محاجة، قال الضحاك يعني إن تكلم كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني فالغلبة له لضعفي في يده وإن كان الحق معي، وقيل معناه غلبني في خطبة المرأة أي خطبتُ المرأة وخطبها هو على خطبتي فغلبني

حتى تزوجها ﴿قَالَ﴾ داود بعد اعتراف صاحبه بذلك ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ وقيل معناه إن كان الأمر كما تقول فلقد ظلمك، والجملة جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة أي ظلمك بسؤال أن يضيف نعجتك إلى نعاجه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي الشركاء الذين خلطوا أموالهم جمع خليط ﴿ليبغي﴾ أي ليظلم ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً جملة وإن كثيراً عطف على لقد ظلمك ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهم قليل وما مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم، فلمّا قَضَى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك وصعدا في السماء ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ أي علم وأيقن عطف على ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ يعني أن الله إبتلاه وامتحنه بتلك الحكومة هل يتنبه بها أم لا.

قال السدي بإسناده إن أحدهما لمّا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ الآية قال داود للآخر ما تقول فقال إن لي تسع وتسعون نعجة ولأخي نعجة واحدة وأنا أريد أن آخذها منه فأكمّل نعاجي مائة وهو كاره، قال إذاً لا ندعك فإن رمت ذلك ضربتُ هذا وهذا وهذا يعني طرف الأنف وأصله والجبهة، فقال يا داود أنت أحقُّ بذلك حيث لم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ولك تسع وتسعون امرأة، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته فنظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه، وقال القائلون بتنزيه الأنبياء في هذه القصة أن ذنب داود إنما كان أنه تمنى أن يكون امرأة اوريا حلالاً له فأتفق غزو أوريا وتقدمُه في الحرب فلمّا بلغ قتله داود لم يجزع عليه كما كان يجزع على غيره من جنده إذا هلك ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء ولو صغرت فهي عظيمة عند الله نظراً إلى رفعة شأنهم، وقيل كان ذنب داود أن أوريا كان خطب تلك المرأة وطن نفسه عليها فلما غاب في غزاته خطبها داود فزوجت منه لجلالته فاغتم لذلك أوريا فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسع وتسعون امرأة، وذكر البغوي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن داود النبي حين نظر إلى المرأة فأهم قطع على بني إسرائيل فأوصى صاحب البعث فقال إذا حضر العدو فقرب فلاناً بين يدي التابوت وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به من قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة فنزل الملكان يقصان عليه القصة ففطن داود فسجد فمكث أربعين ليلةً ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبهته وهو يقول في سجوده رب زلّ داود زلة أبعد ممّا بين المشرق

والمغرب، رب إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلتَ ذنبه حديثاً في الخلوف من بعده، فجاءه جبرئيل من بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله قد غفر لك الهم الذي هممتَ به فقال داود إن الرب قادر على أن يغفر لي الهمَّ الذي هممتُ به وقد عرفت أنّ الله عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال رب دمي الذي عند داود فقال جبرئيل ما سألتُ ربّك عن ذلك وإن شئت لأفعلن، قال نعم فعرج جبرئيل وسجد داود فمكث ما شاء الله ثم نزل فقال، سألتُ الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه فقال قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لي دمك الذي عند داود وَيَقول هو لك يا رب فيقول إن لك في الجنّة ما شئتَ وَما اشتهيت عوضاً عنه».

وروي عن ابن عباس وعن كعب الأحبار ووهب بن منبه قالوا جميعاً إن داود لمّا دخل عليه الملكان فقضى على نفسه فتحولا عن صورتيهما فعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه، وعلم داود أنه إنما عُنِيَ به فخر ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلاّ لحاجة ولوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً تمام أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربّه عزَّ وجلّ ويسأله التوبةَ، وكَان من دعائه في سجوده سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بمَا يشاءُ سُبحان خالق النور سبحان الحائل بين القلوب سبحان خالِق النّور إلٰهي أنت خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي سُبحانَ خالق النور إلٰهي الويل لداود إذا كشف عنه الغَطاء فيقال هذا داود الخاطىء سبحان خالق النور إلهي بأيّ عين أنظر إليك يوم القيامة وإنّما ينظر الظالمون من طرف خفي سبحان خالق النور إلٰهي بأيّ قدم أمشي أمامك وأقوم بين يديك يوم تزول اقدام الخاطئين سبحان خالق النور إلٰهي من أين يَطلب العبد المغفرة إلا من عند سيّده سبحان خالق النور إلٰهي أنا الذي لا أطيق حرّ فكيف أطيق حرَّ نارك، سبحان خالق النور إلٰهي أنا الذي لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم، سبحان خالِق النور إلٰهي الويل لداود من الذنب العَظيم الذي أصاب، سُبحانَ خَالق النور إلٰهي قد تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل عذري سبحان خالِق النور، إلٰهي برحْمتكَ إغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهواي، سبحان خَالق النّور إلٰهي أعوذ بنُور وجهك الكريم من ذنوبي التي أو بقتنى سبُحان خالق النور إلٰهي فررت إليك بذنوب واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تخزني يوم الدّيْنِ سبحان خالق النور. قال مجاهد فمكث داود أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعٰى من دموع عينيه حتّى غطى رأسه فنودي يا داود أجائع فتطعم أو ظمآن فتسقى أو عَار فتكسى فأجيب في غير ما طلب قال فنحب نحبة هاج

لها العود فاحترق من حرّ جوفه ثمّ أنزل الله له التوبة والمغفرة، قال وهب إن داود أتاه نداء أني قد غفرتُ لك قال يا ربّ كيف وأنت لا تظلم أحداً قال اذهب إلى قبر أوريا فناده فأنا أسمعه نداءك فتحلل منه، قال فانطلق وقد لبس المسوح حتى جلس عند قبر أوريا ثم ناداه فقال لبّيك من هذا الّذي قطع عنّي لذّتي وأيقظِني؟ قَال أنا داود، قال ما جاء بك يا نبي الله قال أسألك أن تجعلني في حلٍّ ممَّا كان منّي إليك قال وما كان منك إليَّ قال عرضتُك للقتل، قال قد عرضتني للجنة فأنت في حل فأوحى الله إلى داود يا داود ألم تعلم أني حكم عدل لا أقضي بالتعنت ألاَ أعلمتَه أنّك قد تزوّجت امرأته، قال فرجع إليه فناداه فأجابه فقال من هذا الذي قطع عني لذّتي قال أنا داود قال يا نبي الله أليس قد عفوتُ عنك؟ قال نعم ولكن إنما فعلتُ ذلك بك لمكان امرأتك وقد تزوجتُها قال فسكت ولم يجبه ودعاه فلم يجبه عاوده فلم يجبه فقام عن قبره وجعل يحثوا التراب على رأسه ثم نادى الويل لداود ثم الويل الطويل لداود، سبحان خالق النور والويل لداود إذا نصب الموازين بالقسط سبُحان خالق النور الويل لداود، ثم الويل الطويل لداود حين يُؤخذ بذقنه فيدفع إلى المظلوم سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار سبحان خالق النور، فأتاه نداء من السماء يا داود قد غفرتُ لك ذنبك ورحمتُ على بكائك واستجبت دعائك وأقلت عثرتك، قال يا رب كيف وصاحبي لم يعف عني؟ قال يا داود أعطيه من الثواب يوم القيامة ما لم ترعيناه ولم يسمع أذناه فأقول له رضيت عن عبدي داود فيقول يا رب من أين لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول هذا عوض عن عبدي داود فأستوهبك منه فيهبك لي، قال يا رب الآن قد عرفتُ أنّك قد غفرت لي فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ أي ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه، وقيل معناه خَرَّ أيْ سجد بعدما كان راكعاً كأنه أحرُم بركعتي الاستغفار فسجد في الصلاة ﴿وأناب﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة، واستدلت الحنفية لهذه الآية على أنه من قرأ آية السجدة وركع على الفور بنية سجود التلاوة أجزأه لأن الله سبحانه قال ﴿خر راكعاً﴾ أطلق الركوع على السجود فعلم منه أن المقصود هو التعظيم لا خصوصية السجود ومعنى التعظيم فيهما واحد والحاجة إلى تعظيم الله تعالى إما اقتداءً بمن عَظَّمَ أو مخالفة لمن استكبر وهذا هو الظاهر، فلهذا سمي قياساً، وقالت الأئمة الثلاثة لعدم إجزاء الركوع عن السجود وهو الاستحسان، وجه الاستحسان أن الواجب التعظيم بجهة مخصوصة وهي السجود بدليل أنه لو لم يركع على الفور حتى طاعت القراءة ثم نوى أن يقع الركوع عن السجدة لا يجوز إجماعاً وتسمية السجود بالركوع في هذه الآية غير مسلم ولو سلم فهو مجاز محض وذلك لا يقتضي قيام

أحدهما مقام الآخر، واختار أبو حنيفة رحمه الله هاهنا القياس على الاستحسان لقوة تأثيره وذلك باعتقاده بما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كانا أجاز أن يركع عن السجود في الصلاة ولم يرو من غيرهما خلاف ذلك ولا ترجيح للقياس الخفي بخفائه ولا للظاهر بظهوره بل يرجع في الترجيح إلى ما اقترن بهما من المعاني وقوة القياس الظاهر المتبادر بالنسبة إلى الخفي المعارض له في غاية العلة فلذا حصروا مواضع تقديم القياس على الاستحسان في بضع عشر موضعاً يعرف في الأصول هذا أحدها ولا حصر لمقابله.

مسألة:

ولو ركع على فور تلاوة آية السجدة ولم ينو للتلاوة ثم سجد سقط سجدة التلاوة بالسجدة الصلاتية نوى أو لم ينو وكذا لو قرأ بعد آية السجدة آيةً أو آيتين عند أبي حنيفة رحمه الله خلافاً للجمهور، وفي ثلاث آيات إختلفت الرواية عن أبي حنيفة وفيما زاد على الثلاث لا ينوبه ركوع ولا سجدة صلاتية سواء نوى أو لم ينو.

مسألة:

ويجب عليه قضاء سجدة التلاوة ما دام في الصلاة عند أبي حنيفة رحمه الله كذا قال جمهور الحنفية وظن محمد بن سلمة أن قيام السجدة الصلبية مقام سجدة التلاوة قياس، وفي الاستحسان لا يجوز، لأن السجدة الصلاتية قائم مقام نفسها فلا يقوم مقام غيرها كصوم يومٍ من رمضان لا يجوز أن يقوم عن نفسه وعن قضاء يوم آخر فالقياس فيه مقدم على الاستحسان وأما قيام الركوع مقام سجدة التلاوة فالقياس يأبى عنه وهو الظاهر وفي الاستحسان يجوز وهو الخفي فهو من باب تقديم الإستحسان على القياس.

مسألة:

يجب السجود على من تلا هذه الآية من ص عند أبي حنيفة رحمه الله وعند مالك سنة كقوله في مطلق سجود التلاوة وكذا عند أحمد في إحدى الروايتين، وقال الشافعي وأحمد في الرواية المشهور عنه أنها سجدة شكر يستحب في غير الصلاة ولا يجوز في الصلاة، احتج ابن الجوزي على أنها ليست من عزائم السجود بحديث ابن عباس قال رأيتُ رسول الله ﷺ يسجد في صّ قال ابن عباس وليست من عزائم السجود»[1] رواه ابن الجوزي من طريق الترمذي وقال قال الترمذي هذا حديث صحيح قلتُ ورواه البخاري في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في السجدة (٥٧٧).

الصحيح عن ابن عباس قال سجدة صٓ ليس من عزائم السجود وقد رأيتُ النبيّ ﷺ يسجد فيها[١]، وفي رواية قال مجاهد قلتُ لابن عباس أأسجد في صٓ فقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ حتى أتى على قوله ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فقال نبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم، وهذا يقتضي الوجوب فهوحجة لنا لا علينا وقول ابن عباس ليست من عزائم السجود موقوف يعارضه قوله نبيكم ﷺ أمر أن يقتدى بهم والمرفوع فعله ﷺ، واحتج ابن الجوزي أيضاً بحديث أبي سعيد الخدري قال: «خطبنا رسول الله ﷺ يوماً قرأ صٓ فلمَّا مرَّ بالسجود نزل فسجد وسجدنا معه وقرأها أخرى فلما بلغ السجدة نشرنا للسجود فما رآنا قال إنما هي سجدة توبة نبي ولكني أراكم قد استعددتم للسجود فنزل فسجد وسجدنا».
رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وهذا أيضاً ممَّا لا حجة علينا فيه غاية ما في الباب أن يكون فيه دلالة على عدم وجوب سجود التلاوة مطلقاً كما قال به الجمهور وهو المختار عندي للفتوى وبه قال الطحاوي من الحنفية خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، ولنا أيضاً حديث أبي هريرة «أن النبيّ ﷺ سجد في صٓ» رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وحديث أبي سعيد «أن رسول الله سجد في صٓ» رواه الطحاوي وأبو داود والحاكم وذكر البيهقي عن جماعة من الصحابة أنهم سجدوا في صٓ. عن السائب بن يزيد قال صليتُ خلف عمر الفجر فقرأ بنا سورة صٓ فسجد فيها فلمَّا قضى الصلاة قال له رجل يا أمير المؤمنين من عزائم السجود هذه فقال كان رسول الله ﷺ يسجد فيها، وعن أبي مريم قال لمَّا قدم عمر الشام أتى محراب داود فصلّى فيه فقرأ سورة صٓ فلمَّا انتهى إلى السجدة سجد، وحديث ابن عباس أن النبيّ ﷺ سجد في صٓ وقال: «**سجدها داود توبةً ونسجدها شكراً**»[٢] رواه النسائي من حديث حجاج بن محمد عن عمر بن ذر موصولاً ورواه الدارقطني ورواه الشافعي في الأمر عن ابن عيينة عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ وروي من وجه آخر من حديث عبد الله بن بزيع عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ وأعله بابن بزيع، قال قال ابن عدي ليس ممن يحتج به وصححه ابن السكن كذا قال ابن حجر، قال ابن همام غاية ما فيه أنه ﷺ بين السبب في حق داود والسبب في حقنا كون الشكر سبباً لا ينافي الوجوب فإن الفرائض والواجبات إنما وجبت شكراً لتوالي النعم، وفي مسند أبي حنيفة روى أبو حنيفة عن سماك بن حرب عن عياض الأشعري عن أبي موسى أن النبيّ ﷺ سجد في صٓ، وأخرج

(١) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجدة صٓ (١٠٦٩).
(٢) أخرجه النسائي في كتاب: افتتاح القرآن، باب: سجود القرآن السجود في صٓ (٩٥١).

أحمد عن بكر بن عبد الله المزني عن أبي سعيد رضي الله عنه قال رأيتُ رؤيا وأنا أكتب سورة صٓ فلَمَّا بلغتُ السجدة رأيتُ الدواة والقلم وكل شيء يحضرني انقلب ساجداً قال فقصصتُهَا على رسول الله ﷺ فلم يسجدها قال ابن همام فأفاد أن الأمر صار إلى المواظبة عليها كغيرها من غير ترك واستقر عليه بعد أن كان قد لا يعزم عليها فظهر أن ما رواه إن تمت دلالته كان قبل هذه القصة.

فصل:

عن ابن عباس قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله رأيتُني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدتُّ فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتُها تقول اللّهم أكتب لي بها عندك أجراً وضع عني بها وزراً وأجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فسمعتُ رسول الله ﷺ «قرأ سجدةً ثم سجد فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة»[1] رواه الترمذي (وقال هذا حديث غريب) وابن حبان والحاكم وكذا روى ابن ماجه إلا أنه لم يذكر «وتقبلها مني كما تقبلتَ من عبدك داود» ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي استغفر عنه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ بعد المغفرة ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ أي قرباً غير متكيف ومكانة حصلت، بكمال الندم والإستغفار بحيث لولا تلك الزلة لما حصلت وقيل معناه وإنَّ له زُلْفَى أي زيادة خير في الدنيا ومكانة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن مرجع ومنقلب في الآخرة.

قلتُ: والظاهر أن من روى أن داود عليه السلام بعث مرة بعد مرةٍ أوريا إلى المغازي وأراد منه أن يقتل ليتزوج بعده زوجته فهو كذب مفترىً حاشاه عن ذلك وعامة ما يدل عليه لفظ القرآن أنه عليه السلام ودَّ أن يكون له ما لغيره وكان له تسعاً وتسعين من أمثاله فنبهه الله بهذه القضية فاستغفر وأناب عنه، قال صاحب المدارك روي أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته وكان لهم عادة في المواساة بذلك كما كان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على امرأة أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها واستحيى أوريا أن يرد قوله ففعل فتزوجها، قلت ولم يفعل داود عليه السلام مثل ما فعل نبينا ﷺ حين أعجبته زينب حيث قال لزيد ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ ٱللَّهَ﴾[2] فزوجها الله إياه ولأجل ذلك

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في سجود القرآن (٥٧٥).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

عاتب الله داود عليه السلام فاستغفر ربه وأناب ولفظ القرآن يؤيد هذه الرواية حيث أدعى المدعي بقوله: ﴿قال أكفلنيها وعزني في الخطاب﴾ ولم يقل أراد قتلي وحكم داود بأنه قد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه والله أعلم.

قال البغوي قال وهب بن منبه إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة ولا يرقأ أدمعه ليلاً ولا نهاراً وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام يوم للقضاء بين بني إسرائيل ويوم لنسائه ويوم يسبح في الفيافي والجبال ويوم يخلو في داره فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه فيساعدونه على ذلك فإذا كان يوم سياحتهم يخرج في الفيافي ويرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى يسيل أودية من بكائهم، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الحيتان ودواب البحر وطير الماء، والسباع فإذا أمسى رجع فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه أن اليوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده فيدخل الدار التي فيها المحاريب فبسط ثلاث فرش من مسوح حشوها ليف فيجلس عليها ويجيىء أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصا فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه ويرفع الرهبان معه أصواتهم فلا يزال يبكي حتى يغرق الفرش من دموعه ويقع داود فيها مثل الفرخ ويضطرب فيجيء ابنه سليمان عليهماالسلام فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه ثم يمسح وجهه، ويقول يا رب اغفر لي ما ترى فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله، قال وهب ما رفع داود رأسه حتى قال له ملَك أول أمرك ذنب وآخره مغفرة ارفع رأسك فرفع رأسه فمكث حياته لا يشرب ماءً إلا مزجه بدموعه ولا يأكل الطعام إلا بله بدموعه، وذكر الأوزاعي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ «إن مثل عيني داود كالقربتين تنقطان ماءً ولقد خدت الدموع في وجهه كخديد الماء في الأرض» قال وهب لمَّا تاب الله على داود قال يا رب غفرتَ لي فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فاستغفر منها وللخاطئين إلى يوم القيامة قال فرسم الله خطيئته في يده اليمنى فما رفع فيها طعاماً ولا شراباً إلا بكى إذا رآها وما كان خطيباً للناس إلا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا رسم خطيئته وكان يبدأ إذا دعا فاستغفر للخاطئين قبل نفسه، وقال قتادة عن الحسن كان داود بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين يقول تعالوا إلى داود الخاطىء ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قطعة فلا يزال يبكي حتى يبل بدموع عينيه وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين، قال وكان

داود قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر فلمّا كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله وقام الليل كله، وقال ثابت كان داود إذا ذكر عقاب الله تخلعت أوصاله فلا يشدها إلا الأسى وإذا ذكر رحمة الله تراجعت، وفي القصة أن الوحوش والطير كانت تستمع إلى قراءته فلمّا فعل ما فعل كانت لا تصغي إلى قراءته فروي أنها قالت يا داود ذهبت خطيئتك بحلاوة صوتك.

﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ تقديره وقلنا يا داود معطوف على قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إستخلفناك على الملك أو جعلناك حليفة ممن قبلك من الأنبياء العالمين بالحق ﴿فَٱحْكُم﴾ الفاء للسببية ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بحكم الله ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ عطف على فاحكم أي لا تتبع ما يهويه نفسك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ منصوب في جواب النهي ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دلائله التي نصبها الله على الحق، فيه دليل على أنه من اتبع هواه إختل رأيه وضل في اجتهاده كما ترى في إثنين وسبعين فرقة ممن يدعي الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم يوم الحساب فإن تذكر ذلك اليوم يقتضي ملازمته ومخالفة الهوى والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ لا حكمة فيه أو ذوي باطل يعني مبطلين عابثين أو للباطل الذي هو متابعة الهوى بل للحق الذي هو الإستدلال على وجود الصانع وشكر نعمته بامتثال أوامره وانتهاء مناهيه جملة معترضة وكذلك قوله ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حيث ينكرون البعث وينكرون ثواب المطيع لمن خلق وعذاب العاصي وذلك يقتضي كون خلقها عبثاً لا حكمة فيه ﴿فَوَيْلٌ﴾ التنكير للتعظيم والفاء للسببية ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع المظهر موضع الضمير للذم والتقبيح ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ من للسببية ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة لإنكار التسوية بين الفريقين التي هي من لوازم خلقها باطلاً ليدل على نفيه، وبل للإضراب عما سبق من ظن بطلان خلق السماوات والأرض وكذا التي في قوله ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أنكر أولاً التسوية بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم ويجوز أن يكون

تكريراً للإنكار الأول باعتبار الوصفين الأخيرين المانعين التسوية من الحكيم، وهذه الآية برهان عقلي تدل على وجوب القول بالحشر إذ لا تفاضل بينهما في الدنيا غالباً بل الغالب فيها عكس ما يقتضيه الحكمة، فلا بد أن يكون لهم محلاً آخر يجاوز فيها.

وقال مقاتل قال كفار قريش إنا نعطي في الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت هذه الآية ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي هذا القرآن كتاب من الله ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ كثير خير ونفعة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي ليتفكروا فيها يعني تتفكر أنت وعلماء أمتك فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة أو يتفكر كل من له عقل فيعلم أنه من الله ولا يتصور إتيانه من البشر، قال الحسن تدبر آياته أتباعها ﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ أي ليتعظ به ذوي العقول السليمة أو يستحضروا ما هو المركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع وإرشاد إلى ما لا يستقل به العقل ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر للثاني.

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾

﴿وَوَهَبۡنَا﴾ عطف على قوله ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ﴾ وما بينهما معترضات ﴿لِدَاوُۥدَ﴾ سليمان ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح لأنه رجاع إلى الله تعالى بالتوبة أو إلى التسبيح مرجع له ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ﴾ ظرف لأواب أو لنعم والضمير لسليمان ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ أي في العشي، يعني بعد الظهر ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ الصافن من الخيل الذي يقوم على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابع وهي من الصفات المحمودة في الخيل، والجياد جمع جواد أو جود وهو الذي يسرع في جريه وقيل جمع جيد.

قال ابن عباس يريد الخيل السوابق قيل وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا سارت كانت خفافاً سراعاً، قال الكلبي غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين وأصابَ منهم

ألف فرس، وقال مقاتل ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ويرد هذا القول ما قال رسول الله ﷺ: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة»**[١].

أخرج عبد بن حميد والفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي قال كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عوف عن الحسن قال بلغني أن الخيل التي عقر سليمان وكانت خيلاً ذوات أجنحة أخرجت له من البحر لم يكن لأحد قبله ولا بعده، وذكر البغوي عن عكرمة قال كانت عشرين ألف فرس لها أجنحة وقالوا فصلّى سليمان صلاة الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه فعرضت عليه تسع مائة فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ولم يعْلم بذلك هيبة له فأغتم لذلك.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ﴾ عطف على جمل محذوفة تقديره إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فاشتغل بها حتى فاته العصر فقال إني احببت ﴿حب الخير عن ذكر ربي﴾ أي آثرت حب الخير أي المال الكثير والمراد به الخيل التي شغله أو أطلق الخير على الخيل لأن العرب تعاقب بين اللام والراء فيقول ختلت الرجل خترته أي خدعته وقيل سميت الخيل خيرا لأنه معقود في نواصيها الخير، قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»[٢] روى هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما عن عدة من الصحابة، وكان الأصل أن يعدى أحببتُ بمعنى أثرتُ بعلى لكن لمّا أنيب مناب أنبت عدي بمن.

وقيل أحبَبْتُ بمعنى تقاعدتُ وحُبَّ الخير منصوب على العلية والمعنى تقاعدتُ لحب الخير، في القاموس أحب البقر برك فلم يثر ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ أي الشمس أضمرت من غير ذكرها لدلالة العشي عليها ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي غربت واستترت بما يحجبها عن الإبصار، قال البغوي يقال الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة والشمس تغرب من ورائه ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ بتقدير القول عطف على ﴿قال إني أحببت﴾ وقال ردوها أي الصافنات عليَّ فردوها عليه ﴿فَطَفِقَ﴾ أي أخذ عطف على قال ردوها عليّ ﴿مَسۡحَۢا﴾ أي يمسح السيف مسحاً

(١) عند البخاري «لا نورث ما تركنا صدقة». أخرجه في كتاب: الفرائض، باب: قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» (٢٨٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٨٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلي يوم القيامة (١٨٧٣).

﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يعني قطعها من قولهم مسح علاوته إذا ضرب عنقه.

هذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل وأكثر المفسرين أخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال عقرها بالسيف، وأخرج الطبراني في الأوسط والإسماعيلي في معجمه وابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «**قطع سوقها وأعناقها بالسيف وكان ذلك بإذن الله تعالى توبةً عما غفل من ذكره وتقرباً إليه وطلباً لمرضاته**» قال الحسن فلمّا عقر الخيل أبدله الله خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره، وقال بعض المفسرين أنه ذبحها وتصدق بلحومها، وكان لحوم الخيل حلالاً كما هو في شريعتنا عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة فإنه قال يكره، وقال قوم معناه أنه حبسها في سبيل الله وكوى سوقها وأعناقها بكي الصدقة، وقال البغوي حكي عن علي كرم الله وجهه في قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يقول سليمان بأمر الله تعالى للملائكة الموكلين بالشمس رُدُّوهَا أي الشمس عَلَّي فردوها عليه حتى صلى العصر في وقتها وذلك أنه كان يعرض عليه الخيل للجهاد في سبيل الله ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ وقال الزهري وابن كيسان يمسح سوقها وأعناقها بيده يكشف الغبار عنها حبّاً لها وشفقة عليها، قال البغوي هذا قول ضعيف والمشهور هو الأول، قلتُ: ويأبى عن هذا القول ما قال سليمان تأسفاً ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا وابتلينا سليمان جواب قسم محذوف عطف على وهبنا ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا﴾ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إنه قال لأطوفن الليلة على تسع وتسعين امرأة**» وفي رواية «بمائة امرأة كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له الملك قل إن شاء الله فلم يقل ونسي فطاف عليهن فلم تحمل منهم إلا امرأة واحدةً جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1] متفق عليه، قيل فجاءت القابلة بذلك الشق فألقت على كرسيه، فذلك قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً﴾ ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع عن ترك الاستثناء في المستقبل كذا قال طاووس، وهذا التأويل أولى الأقاويل لقوة حديث الصحيحين، والقول بتنزيه الأنبياء عن السوء ولأن الجسد جسم لا روح فيه فيصدق على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من طلب الولد للجهاد (٢٨١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأيمان والنذور، باب: الاستثناء (١٦٥٤).

هذا التأويل بلا تمحل، وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة أنه قال ولد لسليمان ابن فقالت الشياطين إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك سليمان فكان يقوده في السحاب خوفاً من غرة الشياطين فما شعر به إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً فتنةً على زلته في أن لم يتوكل فيه على ربه.

وقال البغوي: ذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه قال سمع سليمان عليه السلام بمدينة في جزيرة البحر يقال لها صيدون بها ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيلٌ لمكانه في البحر وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر إنما يركب إليه الريح فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستفاء ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها جرادة لم يروا مثلها حسناً وجمالاً واصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وأحبها حبّاً شديداً لم يحب شيئاً من نسائه وكانت على منزلتها عنده ولا تذهب حزنها ولا يرقى دمعها، فشق ذلك على سليمان فقال لها ويحكِ ما هذا الحزن الذي لا تذهب والدمع الذي لا يرقى قالت إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصاب به فيحزنني ذلك، قال سليمان فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه وهداك الإسلام وهو خير من ذلك كله.

قالت ذلك كذلك ولكني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته في دار التي أنا فيها وأراها بكرة وعشية لرجوتُ أن يذهب ذلك حزني وأن يسلّي عني بعض ما أجد في نفسي فأمر سليمان الشياطين فقال مثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا ينكر منها شيئاً فما ثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه فعمدت إليه حين صنعوه فاردَّته وقمصته وعمَّمته بمثل ثيابه التي كان يلبسها، ثم كانت إذا خرج سليان من دارها تغدو عليه في ولائدها حتى تسجد له ويسجدن له كما كانت تصنع في ملكه وتروح عشية بمثل ذلك، وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً فبلغ ذلك آصف بن برضيا وكان صديقاً وكان لا يُرد عن أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل حاضراً كان سليمان أو غائباً فأتاه فقال يا نبي الله كبر سني ورق عظمي ونفد عمري وقد حان مني الذهاب فقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأثنى عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم فقال افعل.

فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبي بما فيه فذكر ما فضله الله حتى انتهى إلى سليمان فقال ما أحلمك في صغرك وأودعك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك عن كل ما تكره في صغرك ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه من ذلك شيئاً حتى ملأه غضباً، فلما دخل سليمان داره أرسل إليه فقال يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم فلما ذكرتني جعلت تثني عليَّ الخير في صغري وسكتَّ عما سوى ذلك من أمري في كبرى فما الذي أحدثتُ في آخر أمري؟ فقال إن غير الله ليعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة فقال في داري فقال في دارك فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون لقد عرفتُ أنك ما قلت الذي قلتَ إلا عن شيء بلغك ثم رجع سليمان إلى داره وكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها ثم أمر شاب الطهارة، فأتى بثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا ينسجها إلا الأبكار ولا تغسلها إلا الأبكار ولم تمسها امرأة قد رأت الدم ثم لبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده فأمر برماد ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللاً للّه وتضرعاً إليه يبكي ويدعو ويستغفر منها كان هو في داره فلم يزل كذلك حتى أمسى ثم رجع إلى داره.

وكانت له أم ولد يقال لها الأمينة كان إذا دخل مذهبه أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر وكان ملكه في خاتمه فوضعه يوماً عندها ثم دخل مذهبه، فأتاها الشيطان صاحب البحر واسمه صخر على صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً فقال خاتمي يا أمينة فناولته إياه فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سلميان فأتى الأمينة وقد غيرت حاله وهيئته عند كل من رآه فقال يا أمينة خاتمي فقالت من أنت؟ فقال أنا سليمان بن داود قالت كذبت قد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته فجعل يقف على الدور من دور بني إسرائيل فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون أنظروا إلى هذا المجنون أيّ شيء يقول يزعم أنه سليمان، فلمَّا رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق فيعطونه كل يوم سمكتين فإذا أمسى باع سمكة بأرغفة وشوى الأخرى فمكث على ذلك ذلك أربعين صباحاً عدة ما كان عبد الوثن في داره، فأنكر آصف وعلماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين فقال آصف يا معشر

بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيتُ؟ قالوا نعم، قال أمهلوني حتى أدخل على نسائه فاسأُلهن هل أنكرتن منه في خاصة أمره ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته فدخل على نسائه فقال ويحكن هل أنكرتن من ابن داود ما أنكرنا فقلن أشده ما يدع منا امرأة في دمها ولا يغتسل من الجنابة فقال إنا لله وإنا إليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين ثم خرج على بني إسرائيل فقال ما في الخاصة أعظم ممَّا في العامة، فلمَّا مضى أربعون صباحاً طار الشيطان من مجلسه ثم مر بالبحر فقذف الخاتم فيه فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشي أعطاه سمكتيه وأعطاه السمكة التي أخذت الخاتم وخرج سليمان بسمكتيه فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه في جوفها فأخذه فجعله في يده ووقع ساجداً وعكفت عليه الطير والجنُّ وأقبل عليه الإنس وعرف أن الذي كان قد دخل عليه لما كان أحدث في داره فرجع ملكه وظهر التوبة من ذنبه وأمر الشياطين فقال أتوني بصخر فطلبته الشياطين حتى أخذ أخذته فأتي به فحاب له صخرةً فأدخله فيها ثم شد عليه أخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف في البحر هذا حديث وهب.

وقال السدي: كان سبب قصة سليمان أنه كان له مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة هي آثر نسائه وآمنهن عنده وكان يأتمنها على خاتمه إذا أتى حاجته، فقالت له يوماً إن أخي بينه وبين فلان خصمونة وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك، فقال نعم ولم يفعل فابتلي بقوله فأعطاها خاتمه ودخل المخرج فجاء الشيطان في صورته فأخذه وجلس على مجلس سليمان وخرج سليمان فسألها خاتمه فقالت ألم تأخذه؟ قال لا وخرج منه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً فأنكر الناس حكمه فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم حتى دخلوا على نسائه فقالوا إنا أنكرنا هذا فإن كان سليمان فقد ذهب عقله فبكى النساء عند ذلك، فأقبلوا حتى أحدقوا به ونشروا التوراة فقرأوها فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت، وأقبل سليمان حتى انتهى إلى صياد من صياد البحر وهو جائع قد اشتد جوعه فاستطعمه من صيده وقال إني أنا سليمان فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجه فجعل يغسل دمه على شاطىء البحر فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه فأعطوه سمكتين مما قد حزر عندهم فشق بطنهما وجعل يغسلهما فوجد خاتمه في بطن إحداهما فلبسه فرد الله عليه ملكه وبهاءه وحامت عليه الطير فعرف القوم أنه سليمان فقاموا يعتذرون مما

صنعوا، فقال ما أؤاخذكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم هذا أمر كان لا بد منه ثم جاء حتى أتي ملكه وأمر حتى أتى بالشيطان الذي أخذ خاتمه، وجعله في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وأقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه وأمر به فألقي في البحر وهو هي كذلك حتى الساعة.

وروي عن سعيد بن المسيب قال احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه إحتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي فابتلاه الله عزَّ وجلَّ وذكر حديثَ الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما ذكرنا، وقال الحسن ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه إنتهى كلام البغوي.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وابن جرير عن السدي والنسائي وابن مردويه عن ابن عباس فذكروا القصة نحو حديث وهب بن منبه لكن في بعض الطرق أن صخر الجني لما جلس على سرير سليمان نفذ حكمه في كل شيء إلا فيه وفي نسائه وكذا قال الحسن فيما ذكر البغوي أنه ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه، وقال بعض المفسرين حديث الخاتم والشيطان والوثن في بيت سليمان من أباطيل اليهود لعنهم الله.

وقال البغوي أن في بعض الروايات أن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه لملكه فأعاده سليمان إلى يده فسقط فأيقن سليمان بالفتنة فأتى آصف فقال لسليمان إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك في يدك أربعة عشر يوماً ففر سليمان إلى سربه وأخذ آصف الخاتم فوضعه في أصبعه فثبت فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ فأقام آصف في ملكه على سيرته أربعة عشر يوماً إلى أن رد الله على سليمان ملكه فجلس على كرسيه فأعاد الخاتم في يده فثبت. قلت: والدليل على بطلان رواية وهب أن في تلك الرواية أنه غزا جزيرة يقال لها صيدون بها ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر فخرج سليمان إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده، والقرآن ينطق أن تسخير الريح لسليمان إنما كان بعد تلك الفتنة والإنابة حيث قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ يعني بعد الفتنة والإنابة وقوله ﴿رب هب لي ملكاً﴾ إلى آخره، قلتُ وعلى تقدير صحة تلك القصة لا يلزم سليمان صدور معصية فإن اتخاذ التماثيل كان جائزاً وسجود الصورة بغير علمه لا يضره.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ بيان لإنابة قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين بتقديم الاستغفار على السؤال. قرأ

نافع وأبو عمرو من بعدي بفتح الياء والباقون بإسكانها، في سياق هذا الكلام دلالة على أن فتنة سليمان إنما كان ابتلاءً من الله تعالى إياه لرفع درجاته في الدنيا والآخرة كفتنة أيوب عليه السلام ولم يكن فيها زلّة ومعصية من سليمان عليه السلام وإلا لبالغ في الندم والاستغفار ولم يسأل غير المغفرة والتوبة ولقال الله سبحانه ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ ذلك كما قال في قصة داود عليه السلام، قال مقاتل وابن كيسان أي لا يكون من بعدي لأحد وقيل معنى من بعدي من سوائي كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾[١] وقال عطاء بن أبي رباح يريد هب لي ملكاً لا تسلبنه في آخر عمري وتعطيه غيري كما سلبتَه آنفاً، قيل سأل سليمان ذلك ليكون أيةً لنبوته ومعجزةً له قال مقاتل كان سليمان مِلكاً ولكنه أراد بقوله: لا ينبغي لأحد من بعدي تسخير الرياح والطير والشياطين بدليل ما بعده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذتُه فأردتُ أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى ينظر له كلكم فذكرتُ دعوة أخي سليمان رَبّ هب لي ملكاً لا ينبغي لاحدٍ من بعدي فرددته خاسئاً**»[٢] متفق عليه، قلتُ: ويمكن أنه أراد به لا ينبغي لأحدٍ من بعدي في المرتبة قال ذلك شفقة على الناس يعني من كان مثلي في انقطاع التعلقات عن الخلق واشتغال قلبه بحب الله ومعرفته لا يضره ولا يشغله عن الله شيء فكان له الدنيا وسيلة لكسب الحسنات ومن لم يكن كذلك كانت الدنيا له شاغلاً عن الله فكانت له سمّاً قاتلاً. فإن قيل الحديث يأبى عمّا قلتَ فإن النبيّ ﷺ كان أعلى مرتبةً من سليمان ولم يكن يعط ملكاً مثله ولذلك لم يربط العفريت بالسارية؟ قلنا نعم إنه صلّى الله عليه وسلّم كن أعلى مرتبةً من سليمان ولكن لا نسلم أنه لم يعط ملكاً مثله لأجل دعائه بل الله سبحانه خيَّره بين أن يكون نبياً مِلكاً أو يكون نبياً عبداً فاختار كونه نبياً عبداً لكون الفقر أفضل عنده ودلَّ هذا الحديث أيضاً على أن الله تعالى مكنه على العفريت أن يربطه بالسارية لكنه ﷺ لم يربط باختياره حياءً من سليمان عليه السلام وكان النبيّ ﷺ نافذاً حكمه على الجن والأنس:

تأتي بدعوته الأشجار ساجدة ... تمشي إليه على ساق بلا قدم

لكن كان عيش الفقراء وزيَّهم مرغوباً عنده، وكذا الخلفاء الراشدون جمعوا بين

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: الأسير أو الغريم يربط في المسجد (٤٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة (٥٤١).

الخلافة والفقر وحازوا فضائل الفريقين صلّى الله تعالى عليه وعلى خلفائه وآله وأصحابه أجمعين ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ قرأ أبو جعفر الرياح على الجمع والباقون على الإفراد بإرادة الجنس، والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديره فاستجبنا دعاءه فسخرنا له أي ذلّلنا لطاعته الريح ﴿تجري بأمره﴾ الجملة صفة للريح على طريقة ولقد أمر على اللئيم يسبني، أو حال منه كقوله ﴿رُخَآءً﴾ لينةً لا تزعزع أو لا تخالف إرادته ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ ظرف لتجري يعني حيث أراد يقول العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب أي أراد الصواب ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ يبنون الحصون والقصور ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يستخرجون له اللآلىء من البحر، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر كُلَّ بدل من الشياطين ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطف على كل ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ مشددين في القيود فصَّل الشياطين إلى عملةٍ استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغواص ومردة فرق بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر.

قلتُ: لعله لم يسلط على إبليس لما سبق له من الوعد بأنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي قلنا له، هذا الذي أعطينا من الملك والبسط والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك عطاؤنا ﴿فَٱمْنُنْ﴾ أي فأعط من شئتَ ﴿أو أمسك﴾ عمن شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من المستكن في الأمر أي غير محاسب على منّه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك قال الحسن ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه تبعة إلا سليمان فإنه إن أعطي أجر وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة، وجاز أن يكون حالاً من العطاء أو صلة له وما بينهما إعتراض يعني عطاءً كثيراً لا يمكن إحصاؤه، وقال مقاتل هذا يعني تسخير الشياطين عطاؤنا أعطيناكه فامنن، يعني خذ منهم من شئتَ وَامُسِك منهم في وثاقك من شئتَ لاتبعة عليك في إطلاقها ولا في وثاقها ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ في الآخرة مع ماله من الملك العظيم في الدنيا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهو الجنة.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ عطف بيان لعبدنا والجملة عطف على واذكر عبدنا داود ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال من عبدنا ﴿أني مسنى﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها وأنَّ مع جملته حكاية لكلامه الذي نادى به ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد ويعقوب بفتحهما والباقون بضم النون وسكون الصاد ومعنى الكل واحد أي بمشقةٍ وضُرٍ ﴿وَعَذَابٌ﴾ أي وألم، قال مقاتل وقتادة بِنُصُبٍ في الجسم وَعَذَابٍ في المال، وقد ذكرنا قصة أيوب ومدة بلائه في سورة الأنبياء عليهم السلام فلما انقضت مدة بلائه أمره الله تعالى أن ﴿أركض﴾ جملة مستأنفة بتقدير قلنا له أركض ﴿بِرِجْلِكَ﴾ أي إضرب برجلك الأرض ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾ إغتسل منه فذهب كل داء كان بظاهره ﴿وشراب﴾ إشرب منه فذهب كل ماء كان بباطنه وقيل نبعت عينان بركضتين حارة وباردة فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال ركض برجله اليمنى فنبعن عين وضرب بيده اليمنى خلف ظهره فنبعت عين فشرب من إحداهما وأغتسل من الأخرى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ عطف على مفهوم كلام سابق أي فشفيناه ووهبنا له أهله ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ وَخُذْ﴾ عطف على اركضُ وعلى هذا وهبنا له إلى آخره جملة معترضة أو هي معطوفة على وهبنا بتقدير وقلنا له خذ ﴿بيدك ضغثاً﴾ وهو ملأ الكف من الشجر والحشيش ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ امرأتك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك وكان قد حلف أن يضربها مائة سوط فأخذ مائة عود من اذخر أو غيرها وضربها ضربةً واحدةً ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال تعليل لما وهب ولا يخل شكواه إلى الله تعالى من الشيطان في كونه صابراً فإنه لا يسمى جزعاً كتمني العافية وطلب الشفاء كما ذكرنا هُناك، ولشيخنا الشيهد رضي الله عنه هاهنا كلام رفيع وهو أنه عليه السلام صبر على البلاء سنين على ما ذكر في القصة، ثم لمَّا أراد الله سبحانه أن يكشف عنه الضُرَّ ألقي في روعه أن الله سبحانه يريد منك التضرع والدعاء في كشف البلاء وإظهار عجزك وافتقارك إلى جناب الكبرياء فاختار عليه السلام التضرع والدعاء على ما اقتضى طبعه من الصبر على البلاء ابتغاءً لمرضاة الله فارتقى من مقام الصبر إلى معارج الرضاء فشكر الله سبحانه على صبره بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ وعلى ارتقائه إلى مقام الرضاء بقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إنه أواب﴾ أي مقبل بشراشره على الله تعالى.

﴿واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ الثلاثة عطف بيان لعبادنا، وقرأ ابن كثير عبدنا بناء على وضع الجنس موضع الجمع أو هو على معنى التوحيد وإبراهيم عطف بيان له وإسحاق ويعقوب معطوفان عليه ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين والمعرفة بالله كذا قال ابن عباس وقتادة ومجاهد عبَّر بالأيدي عن الأعمال في الطاعة، لأن أكثرها بمباشرتها وبالإبصار عن المعارف لأنها أقوى مباديها وفيه تعريض لبطلة الجهال فإنهم كألزمنا والعماة ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾ أي جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة فيهم هي ﴿ذكرى الدار﴾ فهو مرفوع أو هو منصوب بتقدير أعني أو مجرور على البدل من خالصة أي تذكرهم للدار الآخرة دائماً وتذكيرهم الناس كما هو دأب الأنبياء، وذلك التذكر سبب لخلوصهم في الطاعة وذلك لأن مطمح أنظارهم فيما يأتون ويذرون جوار الله والفوز بلقائه وذلك في الآخرة وجاز أن يكون المضاف محذوفاً أي ذِكْرَى صاحب الدَّارِ وهو الله سبحانه وإطلاق الدار على الآخرة للإشعار بأنها هي الدار على الحقيقة والدنيا معبرة قرار فيها وما لا قرار فيها لا يسمى داراً. قرأ نافع وهشام بإضافة خالصة إلى ذكرى للبيان أو لأنه مصدر بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله، قال مالك بن دينار ونزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها، وقال مقاتل كانوا يدعون إلى الآخرة، وإلى الله عزَّ وجلَّ وقال السديّ أخلصوا بخوف الآخرة، وقال ابن زيد معناه على الإضافة أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة وجملة إنا أخلصناهُمْ مع ما عطف عليه تعليل لما سبق ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في الخير والأخيار جمع خير كشر وأشرار، وقيل جمع خَيِّر على تخفيفه كأموات جمع مَيُتٍ أو مَيِّتٍ ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه الناس على بني إسرائيل ثم استنبىء، قرأ حمزة والكسائي واليسع بلام مشددة وإسكان الياء تشبيهاً بالمنقول من ليسع والباقون بلام واحدة ساكنة وفتح الياء ﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ ابن عم اليسع أو بشر بن أيوب اختلف في نبوته ولقبه فقيل فرَّ إليه مائة نبي من بني إسرائيل فآواهم وكفلهم، وقيل كفل لعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ حال من مفعول اذكر.

﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي شرف لهم أو هذا الذي تلي عليكم من القرآن ذكر جميل لهم، ثم شرع لما أعدَّ لهم ولأمثالهم فقال ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾ مرجع ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان لحسن مآب أو بدل منه وهي من الأعلام الغالبة لقوله تعالى: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾[1] وانتصب عنها ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ على الحال والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل أي الكون والحصول وقوله ﴿لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ مرفوع على أنه أسند إليه مفتحة والعائد إلى أي الحال محذوف أي مفتحة لهم منها الأبواب أو اللام عوض عن المضاف إليها أي مفتحة لهم أبوابها أو على أنه بدل إشتمال من الضمير المستتر العائد إلى الجنات ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ أي وشراب كثير فحذف إكتفاء بالأول.

وقوله متكئين ويدعون حالان مترادفان أو متداخلان من الضمير في لهم لا من المتقين للفصل والأظهر أن يدْعُون استئناف لبيان حالهم فيها ومتكئين حال من ضميره والإقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعمهم لمحض التلذذ، فإن التغذي للتحلل ولا تحلل ثمه ﴿وَعِندَهُمْ﴾ نساء ﴿قَصِرَتُ الطَّرْفِ﴾ أي قاصرات أطرافهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿أتراب﴾ مستويات الأسنان بنات ثلاث وثلاثين سنة جمع ترب، وعن مجاهد متواخيات لا يتباغضن كما تتباغض الضرات في الدنيا ولا يتغايرن، الجملة الظرفية حال أو خبر لضميرهم ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير هاهنا وفي قٓ بالياء التحتانية على الغيبة والضمير للمتقين، ووافقه أبو عمرو هاهنا، والباقون بالتاء الفوقانية فيهما على الخطاب للمؤمنين ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي لأجله فأن الحساب علة الوصول إلى الجزاء أو للمعنى في ﴿يوم الحساب﴾[2] ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي انقطاع، الجملة حال من رزقنا أو خبر بعد خبر لإنَّ (هذا) أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو خُذ هذا.

﴿وَإِنَّ لِلطَّغِينَ﴾ أي الكافرين ﴿لشر مآب﴾ مرجع ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لشر مئاب﴾ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من جهنم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المهد والمفترش مستعار من

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦١.

(٢) سورة ص، الآية: ٤.

فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم أو مهاد هو جملة ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ عطف أو حال هذا العذاب منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي ليذوقوا هذا فليذوقوه أو مبتدأ خبره محذوف أي هذا نزلهم فليذوقوه أو خبر مبتدأ محذوف أي العذاب هذا فليذوقوه أو مبتدأ خبره ﴿حَمِيمٌ﴾ كذا قال الفراء وعلى هذا جملة فليذوقوه معترضة، وعلى التأويلات السابقة حميمٌ خبر مبتدأ محذوف أي هو حميم، والحميم هو الماء الحار الذي انتهى حره ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ عطف على حميم قرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد على وزن فَعَّالٍ كالخبَّازِ والطبَّاخِ وخففها الباقون على وزن فعَالٍ كالعذاب. واختلفوا في معناه؟ قال ابن عباس هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحّرِها، وقال مجاهد ومقاتل هو الذي انتهى برده وقيل هو المنتن بلغة الترك، وقال قتادة هو ما يغسق أي يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة من قولهم غسقت أي أنصبت والغساق إنصباب، أخرج البيهقي عن عطية قال الغساق الذي يسيل من صديدهم وأخرج مثله عن إبراهيم وأبي رزين، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والضياء عن كعب قال الغساق عين في جهنم تسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع يؤتى بالآدمي فيغمس غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده عن العظام وتعلق جلده ولحمه في كعبيه فيجرُّ لحمه كما يَجُرُّ الرجل ثوبه ﴿وَءَاخَرُ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بضم الهمزة على أنه جمع أخرى مثل الكبرٰى وكُبرُ واختاره أبو عبيد لأنه نعته بالجمع فقال أزواج والباقون بفتح الهمزة وألف بعدها على التوحيد أي عذاب آخر أو مذوق آخر ﴿من شكله﴾ صفة لآخر أو خبر له أي مثل الحميم والغَسَّاق وتوحيد الضمير على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للعذاب ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أجناس خبر لآخر أو صفة له أو للثلاثة أو مرتفع بالجار والمجرور والخبر محذوف أي لهم.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قال ابن عباس هو كلام خزنة النار للقادة من أهل النار وذلك أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل عليهم الأتباع قالت لهم الخزنة، وقيل هو كلام القادة بعضهم لبعض أي هذا يعني الأتباع فوجٌ أي جماعة مقتحم معكم النار، والاقتحام الدخول في الشيء رمياً بنفسه فيه، قال الكلبي: إنهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار خوفاً من تلك المقامع، قلتُ وجاز ان يكون معناه أن النبيّ ﷺ وخلفاءه كانوا يحجزونهم عن النار ويمنعونهم عن ارتكاب موجبات دخولها وهم اقتحموا فيها حيث فعلوا موجبات دخلوها، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفرش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنَه فيقتحمْن فيها قال فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلمَّ عن النار هلمَّ عن النار فتغلبوني تقحمون فيها**»[1] متفق عليه، وجملة ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ الخ بتقدير القول استئناف تقديره يقول بعض الطاغين بعضاً في شأن بعض هذا فوج مقتحمٌ معكم أو يقال للرؤساء في شأن الأتباع هذا فوجٌ إلى آخره فقالت القادة ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي بالأتباع دعاءٌ من المتبوعين على أتباعهم فهذه الجملة بتقدير القول متصل بما سبق ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل بقوله لا مرحباً بهم أي داخلوها بأعمالهم مثلنا وجاز أن يكون مرحباً بهم صفة لفوج أو حال أي مقولاً فيهم لا مرحباً بهم، يقال لمن يدعى له مرحباً أي أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً والرحب السعة وفيه تعظيم للجائي ويقال لمن يدعى عليه لا مرحبًا تحقيراً له وبهم بيان للمدعو عليهم ﴿قَالُوا﴾ استئناف آخر أي قال الأتباع للقادة ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ يعني بل أنتم أحق بما قلتم، أو بما قيل فينا لضلالكم وإضلالكم إيانا وعللوا ذلك بقولهم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي العذاب أو الصلى لنا بدعائكم أيانا إلى الكفر ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي بئس المقر لنا ولكم جهنم ﴿قَالُوا﴾ استئناف آخر أي قالت الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ أي مضاعفاً على ما بهم من العذاب.

﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا﴾ يعني قالت كفار قريش وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ جملة لا نرى حال من ضمير المتكلم في النار والعامل معنى الفعل والأشرار جمع شرير والشر ضد الخير والخير ما يرغب فيه الكل، والشر ما يكرهه يعني كنا نكرههم ونحقرهم في الدنيا يعنون فقراء

(١) أخرجه البخاري في كتاب، الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٣).

المؤمنين نحو عمَّار وخبيب وصهيب وبلال وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين يسترذ لونهم ويسخرون منهم ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي بهمزة الوصل على أنه صفة أخرى لرجالاً أو حال بتقدير قد أو خبر آخر لكنَّا، وقرأ الحجازيون وابن عامر وعاصم بالقطع على الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم في الاستسخار منهم، وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين كما مرَّ في المؤمنين والباقون بكسرها ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فلا نراهم.

قال الفراء هذا من الإستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجب وأم معادلة لهمزة في جملة مقدرة مفهومة من قوله ما لنا لا نرى والتقدير ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخرياً أليسوا هاهنا أم زاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم وهم هاهنا، أو الهمزة أتخذناهم على القراءة الثانية بمعنى أيُّ الأمر ما فعلنا بهم من الإستسخار منهم أم تحقيرهم فإن زيغ البصر كناية عنه والمعنى إنكارهما على أنفسهم أو منقطعة والمراد الدلالة على أن استرذالهم والاستسخار منهم كان لزيغ البصر منَّا وقصور أنظارنا على رثاثة حالهم، وقال ابن كيسان يعني أم كانوا خيراً منا ولم نعرفهم وكانت أبصارنا تزيغ عنهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ بدل من حق أو خبر محذوف، ولما شبه تقاولهم وما جرى بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سماه تخاصماً ولأن قول القادة لا مرحباً بهم وقول الأتباع بل أنتم لا مرحباً بكم تخاصم فسمى التفاؤل كله تخاصماً لاشتماله على ذلك.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ جملة قل مع المقولة مستأنفة وإنَّما لقصر القلب متصل بقوله تعالى: ﴿قال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾[1] يعني لست بساحر كذاب إنما أنا منذر أنذركم بعذاب الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عطف على أنه المتصل بقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾[2] ﴿الوَاحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركة في ذاته ولا في صفة من صفاته ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ على كل شيء فيه وعيد للكفار ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿ٱلْغَفَّـٰرُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب صغائرها وكبائرها لمن يشاء وفي هذه الأوصاف تتميم وتقرير للتوحيد ووعد للموحدين ووعيد للمشركين، ودفع لتوهم إنحصار وصفه بالقهر ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة يعني

---

(١) سورة ص، الآية: ٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٥.

القرآن ﴿نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ وقيل يعني القيامة لقوله تعالى: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾[١] وقيل يعني ما أنبأ تكون من أني نذير من عقوبة من هذا صفته وأنه واحد في الألوهية لا شريك له فهو متصل بقوله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ صفة أخرى لنبأ أي أنتم لتمادي غفلتكم معرضون عنه مع أن العاقل لا ينبغي أن يعرض عن مثله وقد قامت عليه الحجج الواضحة إما على التوحيد فما مرّو إما على النبوة فقوله ﴿مَا كَانَ لِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ أي الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإن الأخبار عن تقاول الملائكة وما جرى بينهم مطابقاً لما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب لا يتصور إلا بالوحي.

وقيل المراد باختصامهم إختصامهم في شأن آدم عليه السلام حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[٢] وفي الحديث عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي يقول قال النبيّ ﷺ: «رأيتُ ربي في أحسن صورة قال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلتُ أنت أعلم أي ربّ مرتين، فقال وضع كفه بين كتفي فوجدتُ برده بين ثديي فعلمتُ ما في السماء والأرض ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ ثم قال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلتُ في الكفارات، قال وما هن؟ قلتُ المشيء بالأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد خلف الصلوات وإسباغ الوضوء أماكنه في المكاره، قال من يفعل ذلك يعش بخير ويمت بخير ويكون خطيئته كيوم ولدته أمه، ومن الدرجات إطعام الطعام وبذل السلام وأن تقوم بالليل والناس نيام، قال قل اللّهم إني أسألك الطيبات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليَّ وإذا أردتَّ فتنةً في قوم فتوفني غير مفتون، فقال رسول الله ﷺ فوالذي نفس محمد بيده إنهن لحق»[٣] رواه البغوي في شرح السنة والتفسير ورواه الدارمي إلى قوله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ وللترمذي عنه نحو ما روى البغوي وللترمذي عن ابن عباس ومعاذ بن جبل بمعناه مع تغير في العبارة، ولعل المراد باختصام الملأ الأعلى في الكفارات أن جمعاً منهم يبتدرون أن يكتبوها، يريد كل منهم أن يهيأ بها وجه الرحمن أوّلاً كما في حديث رفاعة بن رافع «كنا

---

(١) سورة النبأ، الآية: ١ ـ ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص (٣٢٣٥).

نصلّي وراء النبيّ ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال سمع الله لمن حمده، فقال رجل وراءه ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه فلما انصرف قال من المتكلم آنفاً؟ قال أنا، قال رأيت بضعةً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيُّهم يكتبها أول»(١) رواه البخاري، إذ متعلق بعلم أو بمحذوف والتقدير من علم بكلام الملأ الأعلى إذ يختصمون ﴿إن يوحى إلي إلا إنما أنا نذير مبين﴾ إنما مع جملته إما في محل الرفع على أنه أسند إليه يوحى وإما في محل النصب على العلّية، ويوحى حينئذ مسند إلى المصدر المفهوم من الفعل يعني ما أوحي إلى إلاَّ الإنذار المبين أو ما أوحي إليَّ وحي إلا لأجل الإنذار فإنه هو المقصود من الإرسال، وقيل المراد بالنبأ العظيم قصة آدم وإبليس والأنباء به من غير سماع والمراد بالملأ الأعلى أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ بدل من إذ يختصمون مبين له فإن القصة التي دخلت إذ عليها مشتملة على تقاول الملائكة وإبليس في خلق آدم واستحقاقه للخلافة والسجود على ما مرَّ في البقرة، غير أنها اختصِرت اقتصاراً على ما هو المقصود هاهنا وهو إنذار المشركين على استكبارهم على النبيّ ﷺ بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم، هذا ومن الجائز أن يكون مقاولته إياهم بواسطة ملك أو أن يفسر الملأ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: فضل اللهم ربنا ولك الحمد (٧٩٦).

الأعلى بما يعم الله والملائكة، وجاز أن يكون إذ منصوباً باذكر ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي أتممتُ خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أضاف الروح إلى نفسه تشريفاً لآدم أو تشريفاً للروح ﴿فَقَعُواْ﴾ فخروا ﴿لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ وقد مر الكلام فيه في البقرة ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطف على قال ربك ﴿كلهم أجمعون﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظم تعليل للاستثناء ﴿وَكَانَ﴾ أي صار ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باستكباره عن أمر الله تعالى أو استكباره عن المطاوعة أو كان منهم في علم الله تعالى ﴿قَالَ﴾ ربك ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ كلمة بيدي من المتشابهات فالسلف لا يأولونه ويؤمنون به ويكلون مراده إلى الله تعالى والخلف يأولونه ويقولون خلقتُه من غير توسط كأب وأم والتثنية لما في خلقه من مزيد القدرة وترتب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم أو بأنه الذي تشبث به في تركه وهو لا يصلح لكونه مانعاً إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض سيما وله مزيد اختصاص ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ همزة الإستفهام للتربيخ والإنكار دخلت على همزة الوصل يعني أتكبرت من غير استحقاق ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي من الذين استحقوا التفوق توبيخ على الشق الأول وإنكار للشق الثاني قال إبليس ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أبدأ المانع وأستدل عليه بقوله ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ قد سبق الكلام عليه.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة وقيل من السماوات، وقال الحسن وأبو العالية من الخلقة التي أنت فيها، قال الحسن بن الفضل هذا تأويل صحيح لأن إبليس تجبّر وافتخر بالخلقة فغيَّر الله خلقه فاسود وقبح بعد حسنه ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود لست بخير تعليل للأمر بالخروج ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا يظن بأن اللعنة منتهية بيوم الدين بل معناه أن عليه اللعنة وحدها إلى يوم الدين ثم ينضم إليها العذاب ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الفاء للسببية، فان طرده لعداوة آدم سبب لطلبه الإنظار لإغواء بني آدم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ الفاء للسببية فإن سؤاله سبب لهذا المقال والجملة الإسمية تدل على أن إنظاره كان محكوماً عليه في علم الله القديم قبل سؤاله لا إجابة لدعائه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهي النفخة الأولى وقد مرَّ بيانه في الحجر ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ هذه الفاء أيضاً للسببية، فإن إنظاره تعالى إياه سبب لعزمه على إغوائهم ولو لم يكن من الله إنظاراً لم يقدر على إغوائهم أجمعين، أقسم اللعين بعزته أي بسلطانه تعالى وقهرمانه حتى يكون وسيلةً لتسلطه على ما يريد ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم عن الضلالة أو أخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القرائتين، فإن ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر قرأوا بكسر

اللام والباقون بفتحها ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي أنا الحق أو مبتدأ خبره محذوف، فالحق اسم من أسماء الله تقديره الحق يميني أو قسمي والباقون بالنصب بنزع الخافض، أي حرف القسم كقوله تعالى لأفعلن وجاز أن يكون تقديره فأحق الحق ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملة معترضة وقيل تكرار للقسم أقسم الله بنفسه وجواب القسم قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي من جنسك ليتناول الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي لا أترك منكم ومنهم أحداً، والمراد بمن تبعك الكفار وإن كان التقدير أنا الحق أو أحق الحق فهذه الجملة جواب قسم محذوف وأجمعين تأكيد للضميرين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الإنذار أو على القرآن ﴿من أجر﴾ جعل ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي من المتقولين القرآن من تلقاء نفسه أو المدعين لنفسه ما ليس له تكلفاً على ما عرفتم من حالي يعني لا أدعي النبوة بلا حقيقة وجملة قل ما اسألكم إلى آخره مقرى لمضامين الجمل السابقة أخرج البخاري عن عمر قال نهينا عن التكلف[1]، وروى البغوي عن مسروق قال دخلنا على ابن مسعود فقال يأيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ قلتُ قوله ما أنا من المتكلفين تأكيد لمضمون قوله ما أسألكم عليه من أجر فإن من لا يسأل شيئاً من الأجر لا ضرورة له في أن يتكلف في المقال ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي عظة ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ للثقلين أوحي إليَّ وأنا أبلّغه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ يا كفار مكة جواب قسم محذوف ﴿نبأه﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد أو صدقه بإتيان ذلك ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة أي بعد الموت، وقال عكرمة يوم القيامة، قال الحسن ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٧٢٩٣).

سورة الزمر

آياتها خمس وسبعون ـ وقيل اثنان وسبعون وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا أو مبتدأ خبره ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في صنعه، وهو على الأول صلة التنزيل أو خبر ثان أو حال عمل فيها معنى الإشارة أو التنزيل، والظاهر أن الكتاب على الأول السورة وعلى الثاني القرآن ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله، وليس هذا اتكروا لأن الأول كالعنوان للكتاب والثاني لبيان ما فيه ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ مخلصاً له الدين من الشرك والرياء، وتقديم الخبر لتأكيد الإختصاص المستفاد من اللام كما صرح به مؤكداً أو أجراه مجرى العلوم المقرر لكثرة حججه وظهور براهينه فقال ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ جملة معترضة للتنبيه أي أنا هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة فإنه المنفرد بصفات الألوهية والإطلاع على الأسرار والضمائر ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ يعني الكفرة الذين اتخذوا ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي قالوا ما نعبدهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ كذلك قرأ ابن مسعود وابن عباس وحينئذ قالوا المقدر بدل من الصلة أو حال بتقدير قل من فاعل إتخذوا وقوله ﴿زُلْفَىٰ﴾ مصدر بمعنى قربى، قال البغوي اسم أقيم مقام المصدر كأنه قال ليقربونا إلى الله تقريباً أو حال

والموصول مبتدأ خبره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبين المسلمين ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار والضمير للكفرة ومقابليهم وجاز أن يكون خبر الموصول جملة قالوا ما نَعْبُدُهُمْ وجملة إن الله يحكم بينهم مستأنفة، وجاز أن يكون المراد بالموصول المعبودون بالباطل على حذف الراجع يعني الذين اتخذوهم من دونه أولياء من الملائكة وعيسى والأصنام إن الله يحكم بينهم، وجملة ما نَعْبُدُهُمْ بتقدير القول حال، أو بدل للصلة ولا يحتمل كونه خبراً أخرج جويبر عن ابن عباس في هذه الآية قال أنزلت في ثلاثة أحياء عامر وكنانة وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان ويقولون الملائكة بناته فقالوا ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفى، وقال البغوي إنهم كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خلقهكم ومن خلق السماوات والأرض قالوا الله فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأوثان قالوا لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ بنسبة الولد إلى الله وبقوله الأصنام تشفع عند الله ﴿كَفَّارٌ﴾ لإنعام الله حيث يشرك به غيره، يعني إن الله لم يريد ولا يريد أن يهديهم ولو شاء لهداهم فلم يكذبوا ولم يكفروا جملة معترضة.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعموا ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ العائد إلى الموصول ضمير منصوب محذوف والموصول مع الصلة مفعول لاصطفى ومما يخلق حال منه والعائد إلى الموصول فيه أيضاً ضمير منصوب يعني لو أراد الله اتخاذ الولد لاصطفى ما يشاءه مما خلق إذ لا موجود إلا وهو مخلوقه لقيام الأدلة على امتناع وجود واجبين ووجوب إستناد ما عدا الواجب إليه ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقول مقام الولد له، فهذا الكلام في قوة أن يقال لو أراد الله أن يتَّخذ ولداً لا يتصور ذلك فحذف الجزاء وأقيم دليله مقامه وجاز أن يكون العائد إلى الموصول في ممَّا يخلقُ الضمير للمرفوع، والمعنى لو أراد الله أن يَتَّخِذَ وَلَداً إلاَّ أصطفى ولداً يقدر على خلق الأشياء وذا الحال لأنه يستلزم تعدد الآلهة فهو دليل على إمتناع إرادة الله أن يتخذ ولداً ثم قرر ذلك بقوله ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أن يكون له ولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ يعني أن الألوهية التي تتبع الوجوب مستلزم للتوحد في ذاته وصفاته وتنافي المماثلة والمشاركة فأنى يكون له ولد والولد لا يكون إلا من جنس الوالد ناشئاً من بعض أجزائه ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ القهارية المطلقة ينافي المشاركة وقبول الزوال المحوج إلى الولد ثم استدل على ذلك بقوله ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق غير عابث، بل ليكون دليلاً على الصانع ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يغشي كل واحد منهما الآخر كأنه يلف عليه لف اللباس باللابس أو يغيب به كما يغيب الملفوف باللفاف أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً

مثل أكوار العمامة، والحاصل أنه يخلق كل واحد منهما عقيب الآخر، قال الحسن والكلبي ينقص من الليل ويزيد في النهار وينقص من النهار ويزيد في الليل ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى﴾ في الفلك ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ليوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كل شيء ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ حيث لم يعاجل في العقوبة ولم يسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة والمنفعة.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام خلقها من غير أب وأم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ إستدلال آخر بما أوجده في العالم السفلي، وثمَّ للعطف على محذوف هو صفة نفس أعني خلقها أو على معنى واحدة أي من نفس وُحّدت ثم جعل منها زوجها فشفعها بها أو على خَلَقَكُمْ والعطف بثم لتفاوت ما بين الآيتين فإن الأول عادة مستمرة دون الثانية، وقيل معنى قوله: خلقكم من نفس إنه أخرجكم من ظهره كل ذرية ذرأها حين أخذ الميثاق ثم خلق منها حواء زوجها ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي قضى وقسّم لكم فإن قضاياه وقسمه يوصف بالنزول من السماء لما كتب في اللوح أو المعنى أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كأشعة الكواكب والأمطار، وقيل معناه خلق في الجنة مع آدم عليه السلام ثم أنزل منها لكم ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز حال من الأنعام ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ جملة مبينة لما سبق أي يخلق الإنس والأنعام فيه تغليب لذوي العقول على غيرهم ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظاماً ثم يكسى لحماً، ثم ينفخ فيه الروح ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة أو الصلب والرحم والبطن ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي الذي فعل هذه الأفعال مبتدأ خبره ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبر ثان ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ خبر ثالث ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع، أي لا يستحق العبادة أحد غيره لعدم اشتراك أحد في الخلق ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للاستبعاد والتعجب يعني كيف تصرفون عن طريق الحق بعد هذا البيان الشافي وعن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وعن إيمانكم شرط حذف جزاؤه وأقيم دليله مقامه تقديره إن تكفروا يعود وبال كفركم إليكم لا إلى الله تعالى: فإن الله غني عنكم ومن إيمانكم وإنما أنتم تحتاجون إليه لتضرركم بالكفر وانتفاعكم بالإيمان ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ عطف على الشرطية يعني الكفر مبغوض غير مرضي له تعالى وإن كان بإرادته حيث قال: ﴿من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[1] وهو قول السلف، وعليه إجماع أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة، وذكر البغوي أنه قال ابن عباس والسديُّ معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2] وهذا القول مبني على أن يكون الرضاء بمعنى الإرادة مجازاً وإلا فالحق أنه لا يستلزم الإرادة ولا يرادفه، فإن إرادته يتعلق بالخير والشر كله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ويستحيل تخلف المراد عن إرادته قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[3] ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ أي تؤمنوا بربكم وتطيعوه ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ قيل في تفسيره يُثيبكم به وهذا حاصل المعنى فإن الرضاء يستلزم الإثابة أصله يرْضَاهُ سقط الألف بالجزم فقرأ نافع وعاصم وحمزة وهشام باختلاس حركة هاء الضمير إبقاءً على ما كان لأن ما قبله ساكن تقديراً وأبو عمرو وابن كثير وابن ذكوان والكسائي بإشباع الحركة لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك وهي رواية أبي حمدان وغيره عن اليزيدي وفي رواية عن أبي عمرو بإسكان الهاء وبه قرأ يعقوب ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمله فيه اشارة إلى أن وبال كفركم لا يتجاوز عنكم إلى غيركم فلا يتضرر به النبيّ ﷺ فدعوته إياكم إلى الإيمان ليس إلا لأجل أن ينفعكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيجازي على أعمالكم على حسب نياتكم.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ٤٠.

ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ الكافر ﴿ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا﴾ أي راجعاً ﴿إِلَيْهِ﴾ مستغيثاً ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أي أعطاه أو جعله ذا حشم وأتباع والخول الحشم والأتباع قال رسول الله ﷺ في العبيد: «إخوانكم خولكم جعل الله تحت أيديكم»[1] أو تعهده كما في الحديث «كان عليه السلام يتخولنا»[2] أي يتعهدنا بالموعظة من قولهم فلان خائل مال وهو الذي يصلحه ويقوم به كذا في النهاية والقاموس ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ إما مفعول ثان لخوله إن كان بمعنى أعطاه أو مفعول له ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾ أي الضرّ الذي كان يدعوا الله إلى إزالته أو نسي ربه الذي كان يتضرع إليه وما حينئذ بمعنى من كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾﴾[3] ﴿مِن قَبْلُ﴾ النعمة ﴿وجعل لله أنداداً﴾ أي شركاء ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي دين الإسلام، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ودويس بفتح الياء والباقون بضمها والضلال والإضلال لمَّا ترتب على ذلك شُبّه بالعلة الغائيّة كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[4] ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهذا الكافر ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا إلى أجلك أمر تهديد وفيه إقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ولذلك علله على سبيل الإستئناف بقوله ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ قيل نزلت في عيينة بن ربيعة، وقال مقاتل نزلت في أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

﴿أمن هو قانت﴾ أي قائم بوظائف الطاعات، قال ابن عمر القنوت قراءة القرآن وطول القيام قرأ ابن كثير ونافع وحمزة بتخفيف الميم فالتقدير أمن من هو قانت لله كمن جعل له أنداداً، وقرأ الباقون بتشديد الميم فام حينئذ منقطعة والمعنى أمَّنْ هو قانتٌ كمن جعل له أنداداً أو متصلة بمحذوف تقديره أمَّنْ جعل لله أنداداً ولم يشكر نعمته خير أم مَّنْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأيمان والنذور، باب: إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبيﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لاينفروا (٦٨).

(٣) سورة الليل، الآية: ٣.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨.

هُوَ قَانِتٌ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ في الصلاة حالان من الضمير في قانت ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي يخاف عذاب الآخرة إستقصاراً لنفسه في العمل ﴿ويرجوا رحمة ربه﴾ غير معتمد على عمله يعني يجمع بين الخوف والرجاء ولا يجاوز في الخوف حده حتى يكون ﴿آيساً فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ ولا في الرجاء حده حتى يكون آمنًا فإنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، والجملتان واقعتان موقع الحال أو الإستئناف للتعليل، قال البغوي قال ابن عباس في رواية الضحاك نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق.

وأخرج ابن أبي سعيد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال نزلت في عمار بن ياسر وأخرج جويبر عن ابن عباس أنه قال نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وأخرج جويبر عن عكرمة قال نزلت في عمار بن ياسر.

وقال البغوي قال الضحاك نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعن ابن عمر أنها نزلت في عثمان وكذا أخرج ابن أبي حاتم عنه، وعن الكلبي أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان ووجه الجمع بين الأقوال أنها نزلت في جميعهم ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ الله تعالى متصفاً بصفات الجلال والجمال فيحذر عذابه ويرجو رحمته فيعمل في طاعته ويتقي عن معاصيه ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك والإستفهام للإنكار أي لا يستوون فهذه الجملة تقرير للأول على سبيل التعليل، وقيل تقرير له على سبيل التشبيه يعني كما لا يستوي العالم والجاهل كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، وقيل نفيٌ لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيهما باعتبار القوة العملية على وجه الابلغ لمزيد الفضل قيل الذين يعلمون عمار والذين لم يعلموا أبو حذيفة المخزومي ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ بأمثال هذه البيانات.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي آمنوا لو أحسنوا العمل يعني أتوه بالخشوع والخضوع كما قال رسول الله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١] ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بقوله أحسنوا ﴿حَسَنَةٌ﴾ في الآخرة يعني الجنة مبتدأ خبره للذين أحسنوا والجملة تعليل بقوله إتقوا ربكم وقيل في الدنيا ظرف مستقر حال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠).

من حسنة، وهو فاعل للظرف المستقر أعني قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ قال السديّ في هذه الدنيا حسنة الصحة والعافية وهذا القول ليس بسديد فإن الصحة والعافية كما يعطى المؤمن يعطى الكافر أيضاً بل قد ينعكس الأمر ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فلا عذر للمقصرين في الطاعة لمزاحمة الكفار ففيه كناية عن طلب الهجرة من البلد الذي يتعسر فيه الإحسان، ومن ثم قال ابن عباس في تفسيره إرتحلوا من مكة وعن مجاهد أنه قال في هذه الآية قال الله تعالى أرضي واسعة فهاجروا واعتزلوا، وقال سعيد بن جبير يعني من أمر بالمعاصي فليهرب والجملة إما معطوفة على قوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وإما على قوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ لكونها بمعنى هاجروا ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل يعني الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى من الكفار أو صبروا على مفارقة الأوطان والمعارف، قيل نزلت الآية في جعفر بن أبي طالب وأصحابه مهاجري الحبشة حيث لم يتركوا دينهم فإذا اشتد فيهم البلاء صبروا وهاجروا واللفظ عام يعمهم وكل من صبر على البلاء وعلى مشقة الطاعة وحبس النفس عن المعصية، قال البغوي قال علي رضي الله عنه كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرون فإنهم يحثى عليهم حثياً، وروى الأصبهاني عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «تنصب الموازين ويؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلا تنصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصبُّ عليهم الأجر صبّاً بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية أنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء وذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وذكر البغوي نحوه وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند لا بأس به عن ابن عباس قال: «يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ثم يؤتى بالمصدق فينصب للحساب ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان فيصب لهم الأجر صبّاً حتى أن أهل العافية ليتمنون بالموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حيث ثواب الله لهم» وأخرج الترمذي وابن أبي الدنيا عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «**يوُد أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثوابَ لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض**»[1] قلتُ: لعل المراد بأهل البلاء أهل العشق بالله بدليل أن الشهيد لم يعد من أهل البلاء مع أن أشد بلاء الدنيا القتل وهو قد صبر على بذل نفسه في سبيل الله.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٤٠٢).

﴿قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ⑪ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ⑫ قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑬ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ⑭ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⑮ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ⑯ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ⑱ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ⑲ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ⑳﴾.

﴿قل إنى﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي موحداً له ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ⑫﴾ أي أمرتُ بالإخلاص لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة لأن قصب السبق إنما هو بالإخلاص أو لكوني أول من أسلم من قريش ومن دان بدينهم والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقيده بالعلة وللإشعار بأن العبادة المقرونة بالإخلاص، وإن اقتضت لذاتها كونها مأموراً بها فهي أيضاً مقتضية لما يلزمه من السبق في الدين، وجاز أن يكون اللام زائدة كما في أردتُّ لأن أفعل فيكون أمراً بالتقدم في الإسلام والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به فإنه بُعث داعياً للناس إلى الإسلام وذلك يقتضي كونه أول المسلمين فإن دعوة غيره فرع اتصافه بنفسه وفيه إمالة لغيره إلى الإسلام يعني أني لا أدعوكم إلا إلى ما هو خيرٌ إذ لو لم يكن خيراً لما اخترتُه لنفسي وقد اخترتُه أولاً ﴿قُلْ إِنِّيَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك وسوء الأعمال ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه تحذيرٌ للمخاطبين عن العصيان، كما في الآية السابقة وإمالةٌ إلى الإسلام، قال البغوي هذه الآية نزلت حين دُعِي إلى دين آبائه ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ⑭﴾ أمر بالأخبار عن إخلاصه في العبادة بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص خائفاً عى المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم ولذلك رتب عليه قوله.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ تهديداً أو خذلاناً لهم وهذا جواب شرط محذوف تقديره إن لم توافقوني في العبادة لله خالصاً فأعبدوا ما شئتم فسترون ما يترتب عليه من العذاب والخسران ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالضلال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ يعني أتباعهم من

الأزواج والأولاد والخدم بالإضلال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ حين أوردهم النار ظرف لخسروا من خسر التاجر إذا غبن في تجارته فإنهم بالضلال والإضلال بدلوا نصيبهم من الجنة بنصيبهم من النار وهو لازم وجاء هاهنا متعدياً، قال البغوي قال ابن عباس: وذلك (يعني خسران الأهل) أن الله جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة وأهلاً فمن عمل بطاعة الله كان ذلك المنزل والأهل له ومن عمل بمعصية كان ذلك المنزل والأهل لغيره ممن عمل بالطاعة، قلتُ: فعلى هذا معنى خسر أهله أنه فوَّت أهله وقيل خسران الأهل إن كانوا من أهل النار فبالإضلال وإن كانوا من أهل الجنة فلذهابه عنهم ذهاباً لا رجوع بعده ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ أي خسران يوم القيامة ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ دون غير ذلك من أصناف الخسران، فإن خسران الدنيا سهل ويتبدل وفيه مبالغة في خسرانهم لما فيه من الإستئناف والتصدير بألا وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين ثم شرح الخسران بقوله ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إطباق سرادقات من النار ودخانها ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فرش ومهاد من الدار إلى أن ينتهي إلى القعر، سمَّى السافلة ظللاً لكونها ظللاً لمن تحتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب هو الذي ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي اتقوني ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي وعذابي.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ البالغ في الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بني للمبالغة في المصدر كالرحموت ثم وصف به للمبالغة في النعت ولذلك اختص بالشيطان وفسره البغوي بالأوثان لأن تأنيث الضمير في قوله ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ وهو بدل اشتمال من الطاغوت يدل على أن المراد به الأوثان ﴿وَأَنَابُوٓا۟﴾ أي أقبلوا بشراشرهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ عمَّا سواه ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل في الدنيا وعلى ألسنة الملائكة عند حضور الموت يعني هم استحقوا أن يبشروا ولذلك فرع قوله ﴿فبشر﴾ يا محمد ﴿عِبَادِ﴾ قرأ أبو شعيب بياء مفتوحةٍ وصلاً ساكنة وقفا وأبو حمدون وغيره عن اليزيدي مفتوحةً في الوصل محذوفةً في الوقف وهو قياس قول أبي عمرو حيث يتبع الرسم في الوقف والباقون يحذفونها في الحالين، أخرج جويبر بسنده عن جابر بن عبد الله قال لمَّا نزلت ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ الآية أتى رجل من الأنصار النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله إن لي سبعة مماليك وإني قد أعتقتُ لكل باب منها مملوكاً فنزلت ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ يعني يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ويستمعون كلام الرسول، وكلام الكفار فيتبعون كلام الرسول كان حق الكلام فبشرهم فوضع الظاهر أعني عبادي الذين يستمعون الخ موضعه للدلالة على أن مبدأ اجتنابهم من الطاغوت أنهم نقادون للأقوال يميزون بين

الخبيث والطيب والقبيح والحسن وبين الحسن والأحسن، قال عطاء عن ابن عباس آمن أبو بكر رضي الله عنه بالنبيّ ﷺ فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فنزلت فيهم هذه الآية، والأحسن حينئذ بمعنى الحسن إذ لا حسنى في أقوال الكفار، قال ابن زيد نزلت الآيتان في ثلاثة نفر كانوا من الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد بن عمرو بن نفيل أو سعيد بن زيد وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي والأحسن قول لا إله إلا الله، وقال السديُّ يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون به قيل هو أن الله ذكر في القرآن الانتصار من الظالم والعفو والعفو أحسنُ الأمرين وذكر العزائم والرخصَ والعزائمُ أحسن ﴿أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ أي ذوي العقول السليمة عن معارضة الأوهام والعادات وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بخلق الله تعالى وقبول النفس لها.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ في علم الله القديم كذا قال ابن عباس ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني خلقتُ هؤلاء للنار ولا أبالي ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني لا تقدر عليه، قال ابن عباس يريد أبا لهب وولده، الجملة الشرطية معطوفة على جملة محذوفة دل عليه الكلام تقديره وأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه من النار كرّرت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد ووضع مَنُ في النار موضع الضمير لذلك، وللدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف فيه وأن اجتهاد الرسول الله ﷺ في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار ويجوز أن يكون أنأنت تنقذ جملة مستأنفة للدلالة عى ذلك والإشعار بالجزاء المحذوف تقديره أفمن حق عليهم كلمة العذاب تهديد أفأنت تنقذ من في النار فأن من حق عليه كلمة العذاب كأنه في النار حالاً، ثم أستدرك لدفع توهم كون سعيه ﷺ غير مفيد مطلقاً بقوله ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ يعني لكن الذين حق لهم كلمة الرحمة وسبق في علم الله أنهم يتقون ربهم، في إيراده بصيغة الماضي أيضاً إشعار بأن من حكم بأنهم يتقون فهم كالذين وقع منهم التقوى ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ منازل رفيعة في الجنة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ منازل أرفع من الأولى ﴿مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت كل من الفوقانية والتحتانية ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعدهم الله تلك الغرف وعداً مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله لهم غُرَفٌ في معنى الوعد ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لأن الخلف نقص، وهو على الله محال، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر

في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغهم غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين»[١] وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في الباب في تفسير سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً، الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وأنَّ مع جملتها قائم مقام المفعولين لألم تر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ﴿ينابيع في الأرض﴾ الظرف متعلق بسلكه على طريقة قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾[٣] وينابيع حال من الضمير المنصوب، قال الشعبي كل ماء في الأرض فمن السماء، وجاز أن يكون ينابيع مفعولاً ثانياً لسلكه على التوسع على طريقة أدخلته بيتاً في الدار والينبوع جاء للمنبع والنابع فعلى الأول للنابع وعلى الثاني للمنبع ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي أخرج بالماء زرعاً مُخْتَلِفاً ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي ييبس فتراه بعد خضرته ونضرته ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً منكسراً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الأحداث والتغير ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ أي تذكيراً على وجود الصانع القديم القادر الحكيم الذي دبّره وسوّاه وعلى أنه مثل الحياة الدنيا فلا ينبغي أن يغتربها ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إذ لا يتذكر بها غيره ومن لم يتذكر فليس من أولي الألباب بل كالأنعام بل أضل منها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: تائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٠.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يعني أفاض في قلبه نوراً أدرك به الحق حقاً والباطل باطلاً فأذعن بكل ما جاء به النبيّ ﷺ بلا إرتياب، عبَّر عن تلك الحالة بشرح الصدر لأن الصدر محل القلب والروح القابل للإسلام فإذا كان قلبه قابلاً لأحكام الإسلام صار كظرف إنشرح وتفسح حتى حال فيه المظروف ﴿فَهُوَ﴾ أي ذلك الشخص ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي بصيرة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على ما فهم مما سبق من قوله تعالى: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار لكن الذين اتقوا ربهم﴾ فإنه يفهم منه الفرق بين المؤمن والكافر والموصول مبتدأ وخبره محذوف يدل عليه ما بعده والإنكار راجع إلى مضمون الفاء، كأنه قال لما ثبت الفرق بين المؤمن والكافر فليس مَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإِسْلاَمِ وترتب عليه كونه على نور من ربه فآمن واهتدى كمن طبع الله على قلبه فقسى. عن ابن مسعودٌ قال: «تلا رسول الله ﷺ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من رَّبّه» قلنا يا رسول الله كيف أنشرح صدره؟ قال إذا دخل النور القلب انشرح صدره وانفسح، قلنا يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله» رواه البغوي والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ الفاء للسببية ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ متعلق بالقاسية والمعنى من أجل ذكر الله أي إذا ذكر الله عندهم أو تُليت عليهم آياتُه اشتدت قساوتُهم وهو أبلغ من أن يكون عَنْ مكان من لأن القاسية من أجل الشيء أشد تأبياً من القبول من القاسي عنه بسبب آخر وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالإمتناع ذكر شرح الصدر وأسنده إلى الله وقابله بقساوة القلب وأسنده إلى القلب، فهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[1] وقيل بحذف المضاف تقديره من ترك ذكر الله ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله على قوم إلا نزع منهم الرحمة.

روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزل على النبيّ ﷺ القرآن فتلا عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا، وأخرج ابن جرير عن عون بن عبد الله أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا لو حدثتنا فنزلت ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ تقرير لقوله: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾ وما بينهما معترضات وفي الابتداء باسم الله وبناء نَزَّلَ عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزل واستشهاد على حسنه ﴿كِتَٰبًا﴾ بدل من أحسن

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

الحديث أو حال منه ﴿مُتَشَٰبِهٗا﴾ صفة لكتاباً يعني يشبه بعضه بعضاً ﴿مَّثَانِيَ﴾ صفة أخرى جمع مثناة اسم الظرف فإنه ثنى فيه ذكر الوعد والوعيد والأمر والنهي والأخبار والأحكام وصف به الكتاب باعتبار تفاصيله فهو كقولك القرآن سور وآيات والإنسان عروق وعظام ولحم وأعصاب أو جعل تميزاً من متشابهاً كقولك رأيتُ رجلاً جسيماً حسناً شمائل، أو جمع مثنية اسم الفاعل فإن آياته تثني على الله لصفاته الكمال ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ خوفاً لما فيه من الوعيد الجملة صفة ثالثة لكتاباً ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لذكر الله بالرحمة وعموم المغفرة، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه والتعدية بإلى لتضمين معنى السكون والإطمئنان وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها يعني إذا ذكر عذاب الله في آيات الوعيد من القرآن يخاف قلوب المؤمنين وتقشعر جلودهم، والاقشعرار إنقباض وتغير في جلد الإنسان عندالخوف وإذا ذكر الله بالرحمة في آيات الوعد من القرآن تلين جلودهم وتسكن قلوبهم، لمَّا وصف الله القرآن بكونه مَثاني ثنى فيه ذكر الوعيد والوعد وصفه بما يتأثر به المؤمنون عند الوعيد والوعد فكان تقدير الكلام يخاف منه قلوب الذين يخشون ربهم وتقشعر جلودهم ثم تلين جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، عن العباس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحاتت عن الشجر اليابسة ورقها**» رواه الطبراني بسند ضعيف ورواه البغوي، وفي رواية للبغوي إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله حرمه الله على النار.

فإن قيل بعض أهل العشق من الصوفية الكرام يغشى عليه عند استماع القرآن فهل هو من الأحوال الحميدة أو القبيحة وقد شنع عليهم الإمام محيي السنة البغوي رحمة الله عليه في تفسيره فقال: قال قتادة هذا يعني ما ذكر من اقشعرار الجلد من خشية الله نعت أولياء الله نعتَهم الله بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان، أخبرنا عن عبد الله بن الزبير قال قلتُ لجدتي أسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن قالت كانوا كما نعتهم الله عز وجل تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم قال فقلتُ لها إن ناساً إذا قرىء عليهم القرآن خرَّ أحدهم مغشيّاً عليه فقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وروى البغوي أن ابن عمر مرَّ على رجُل (من أهل العراق) ساقِط فقال ابن عمر ما بال هذا؟ قالوا إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط فقال ابن عمر إنا لنخشى الله وما نسقط وقال ابن عمر إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ما كان هكذا

صنيع أصحاب رسول الله ﷺ؟ قلتُ وجه طريان هذه الحالة كثرة نزول البركات والتجليات مع ضيق حوصلة الصوفي وضعف استعداده وإنما لم يوجد هذه الحالة في الصحابة رضي الله عنهم مع وفود بركاتهم لأجل سعة حواصلهم وقوة استعداداتهم ببركة صحبة النبيّ ﷺ وأما غير الصحابة من الصوفية فعدم طريان تلك الحالة عليهم إما لقلة نزول البركات وإما لسعة الحوصلة والعجب من الإمام الهمام محيي السنة البغوي رحمه الله كيف أنكر على أصحاب تلك الحالة وشنع عليهم ونسي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[1] وقد روى هو في تفسير تلك الآية عن النواس بن سمعان رضي الله عنه إذا أراد الله بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفةً أو قال رعدةً شديدة خوفاً من الله فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرئيل الحديث، وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ نحوه بلفظ «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق»[2] الحديث، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾[3].

وقول ابن عمر إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم وكذا استعاذة أسماء محمول على أنهما زعما غشي ذلك الرجل تكلفاً ومكراً ولذا نسباه إلى الشيطان وإنما كان إنكار تلك الحالة منهما لعدم طريان الحالة عليهما وعلى أمثالهما بناءً على وسعة الحوصلة وقوة الإستعداد، ويدل على ما قلتُ أنه ذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن من أوله إلى إخره فإن رمى بنفسه فهو صادق حيث علَّق صدقه على رمي نفسه من ظهر بنية مرتفعة فعُلم منه أنه حمل صرعه على الكذب والتكلف، إعلم أن البشر أقوى إستعداداً وأوسع حوصلة من الملائكة كما يشهد عليه قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾ إلى قوله ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5] الآية، ولأجل ذلك يأتي حالة الغشي على الملائكة كلمَّا سمعوا الوحي دون

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ (٤٧٠١).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

البشر وأما البشر فإذا تم نزوله لا يتغير حاله إلا نادراً وإذا تم عروجه وقصر نزوله يتغير غالباً وإعلم أن الصوفي متى كان في السكر يتغير حاله غالباً عند ذكر المحبوب في الشعر والتغني ولذلك يستحبون السماع لكن تغير الحال عند سماع القرآن أشرف منه حالاً لأن عند استماع القرآن وتلاوته تتنزل البركات الأصلية المتعلقة بالتجليات الذاتية والصفات الحقيقية ولا سبيل إليها لأكثر الصوفية المحتبسين في مقام ولأجل ذلك تراهم يتغير حالهم عند السماع ما لا يتغير عند تلاوة القرآن وأما الذين صعدوا ذروة الأفق الأعلى ثم دنى رب العزة وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، لا يتغير أحوالهم الإ كما كان يتغير حال أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم تدمع عيونهم، تقشعرُّ جلودهم ثم تلين جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخوف والرجاء أو أحسن الحديث ﴿هدى الله يهدي به من يشاء﴾ هدايته ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يخذله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخرجه من الضلالة.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى﴾ الإستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوي الفريقان فَمَنْ يتَّقي ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ أي يجعله وقاية لنفسه، ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيديه يتَّقي بهما وجهه لأنه أعزُّ أعضائه والكافر حين يلقى في النار تكون يداه مغلولتين إلى عنقه فلا يستطيع أن يتَّقي إلا بوجهه، قال مجاهد يجر على وجهه في النار منكوساً فأول شيء منه تمسه النار وجهه، وقال مقاتل هو أن الكافر يرمى في النار مغلولة يده إلى عنقه وفي عنقه صخرة مثل جبل عظيم من الكبريت فيشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه ويده ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كمن هو آمنٌ من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم وضع الظاهر موضع الضمير

تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بموجب ما يقال وهو ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ أي وباله وجملة ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ حال بتقدير قل من فاعل يتقون وجاز أن يكون معطوفاً على مفهوم ما سبق أعني عذب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي قبل كفار مكة كذبوا الرسل في إتيان العذاب ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يخطر ببالهم إتيان الشرُّ منها ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ﴾ أي الذل ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ كالمسخ والخسف والقتل وتسليط الريح والصيحة والرمي بالحجارة والغرق وغير ذلك ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المعد لهم ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لو كان أهل مكة من أهل العلم والنظرة اعتبروا بمن قبلهم أو المعنى لو كان المكذّبون يعلمون وبال التكذيب ما كذبوا.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ﴾ أي لأجل إنتفاعهم وتبصرهم ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون به ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على المدح أو الحال من هذا إن قلنا أن المجرور مفعول به أو بتقدير في تنزيل هذا القرآن حتى يكون مفعولاً لتنزيل المقدر والإعتماد فيها على الصفة كقوله جاء في زيد رجلاً صالحاً ﴿غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾ لا اختلال فيه بوجه ما فهو أبلغ من المستقيم واختص بالمعاني، قال ابن عباس غير مختلف، وقال مجاهد غير ذي لبس يعني لا ريب فيه، وقال السدي غير مخلوق، ويروى ذلك عن مالك بن أنس قال البغوي وحكي عن سفيان بن عيينه عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق يعنون أنه صفة من صفات الله تعالى ليس عين ذاته تعالى فيكون خالقاً ولا غيره منفكاً عنه فيكون حادثاً مخلوقاً، وهذا يدل على أن الكلام اللفظي قديم صفة من صفات الله تعالى إذ الكلام النفسي الذي يدل عليه الكلام اللفظي لا يوصف بكونه عربيّاً وأما تعاقب حروف الكلام اللفظي الدال على حدوثه فإنما لضيق المحل وحدوثه وأما الكلام القائم بذاته فتوهم التعاقب فيه قياس للغائب على الشاهد كما يتوهم النافون للرؤية إشتراط الجهة والمسافة وغير ذلك في رؤية البصر ليس كمثله شيء في ذاته ولا في اتصافه بصفاته ولا في شيء من صفاته وله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي علة أخرى مرتبة على الأولى أو بدل أو بيان للأولى.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ للمشرك والموحد ﴿رَّجُلٗا﴾ بدل من مثل بتقدير المضاف أي مثل رجل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي مختلفون صفة لشركاء وهو فاعل للظرف المستقر أو مبتدأ خبره الظرف والجملة صفة لرجلاً يُعني مثل الشرك على زعمه حيث يدعى آلهةً متعددةً مثل

عبد مشترك في جماعة مختلفين يتجاذبونه ويتعاودونه في مهامهم المختلفة فهو في تحير وتوزع قلب ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي خالصاً ومسلماً ﴿لِرَجُلٍ﴾ لا منازع له فيه، قرأ ابن كثير وأبو عمر وسالماً على وزن فاعلاً والباقون من غير ألف على وزن حسن يعني مثل المؤمن الموحد مثل عبد لواحد لا شريك فيه وليس لغيره إليه سبيل ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي ذانك العبدان ﴿مَثَلًا﴾ أي صفةً وحالاً ونصبه على التميز ولذلك وحده فالإستفهام للإنكار والتقرير يعني حمل المخاطب على الإقرار بأنهما لا يستويان حالاً، فإن الموحد حسن حالاً من المشرك وجملة هل يستويان تقديره قال الله هل يستويان مثلاً بيان لمقصود قوله: ضرب الله مثلاً الحمد لله يعني الحمد كله لله لا يشاركه فيه على الحقيقة أحدٌ غيره لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيشركون به غيره من فرط جهلهم، وقيل تقدير الكلام قل الحمد لله على نعمة التوحيد والإختصاص بالمولى الواحد الحميد وبل حينئذ ليست للإضراب بل هي ابتدائية حكاية عن حال الجاهلين.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت أبرز بلفظ الصفة المشبهة الدالّة على الثبوت حالاً لكونه متيقن الوقوع ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي كفار مكة أو جميع الناس بصدد الموت فلا شماتة بالموت، قال المحلي نزلت لمّا استبطؤا موت النبيّ ﷺ، قال الفراء والكسائي الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت والميُت بالتخفيف من فارقه الروح ولذلك لم يخفف هاهنا ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ يعني أنت وكفار مكة، أو الناس أجمعون ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم وتقول: ﴿يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن محجورا﴾[1] وإنهم كذبوني وكنتُ على الحق في التوحيد وكانوا على الباطل في التشريك واجتهدتُ في الإرشاد والتبليغ ولجوا في العناد والتكذيب ويعتذرون بالأباطيل مثل قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2] وقولهم ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[3] ﴿إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾[4] ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[5] ويختصم الناس بعضهم مع بعض فأول ما يقضى فيه الدماء أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**أول ما يقضى بين الناس**

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

يوم القيامة بالدماء»[1] وأخرج الترمذي وحسنه وابن ماجه والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «**يأتي المقتول متعلق رأسه بإحدى يديه قاتله باليد الأخرى وتشخب أوداجه دماً حتى يأتي العرش فيقول المقتول لرب العالمين هذا قتلني فيقول الله للقاتل تعست ويذهب به إلى النار**»[2] وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «**يجيىء المقتول آخذاً قاتله وأوداجه تشخب دماً فيقول رب سل هذا فلم قتلني فيقول قتلته ليكون العزة لفلان قال هي لله تبارك وتعالى**» وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود فذكر أنه يؤتى بالقاتل والمقتول فيقفان بين يدي الرحمن فيقال له لم قتلته فإن كان قتله لله قال قتلته ليكون العزة لله فيقال فإنها لله فإن كان قتله لخلقه من خلق الله يقول قتلتُه ليكون العزة لفلان فيقال فإنها ليست له فيقتل يومئذ كل خلق الله قتله ظالم غير أنه يذاق الموت عدة الأيام التي أذاقها الآخر في الدنيا، وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير عن أبيه لما نزلت ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير يا رسول الله أيكرر علينا ما بيننا في الدنيا مع خواص للذنوب؟ قال نعم ليكررن عليكم ذلك حتى يصل إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير والله إن الأمر لشديد[3].

وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أول من يختصم يوم القيامة الرجل والمرأة والله ما يتكلم لسانه ولكن يداها ورجلاها يشهدن عليها بما كانت تعيب لزوجها وتشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى الرجل وخدمه مثل ذلك ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثمة دوانيق ولا قراريط ولكن حسنات هذا يدفع إلى هذا الذي ظُلم وسيئات هذا الذي ظلمه يوضع عليه ثم يؤُتى بالجبارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم إلى النار**» وأخرج أحمد بسند حسن عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: «**أول خصمين يوم القيامة الجاران**» وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه فليحلله منها في الدنيا فإنه ليس ثمة دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن حسنات أخذ من سيئات

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة (٦٥٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة، باب: المجازاة بالدماء في الآخرة وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة (١٦٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء (٣٠٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٢٣٦).

صاحبه فتحمل عليه»[١] وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيقتص ويقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فيطرح عليه ثم طرح في النار»[٢].

قلتُ: أراد بالحسنات التي يأخذها المظلوم من الظالم أجر حسناته ما سوى الإيمان إذ المظالم وغيرها من السيئات ما عدا الكفر جزاؤه متناهٍ على أصول أهل السنة والجماعة فإن مرتكب الكبيرة عندهم لا يخلد في النار، والإيمان جزاؤه الخلود في الجنة وهو غير متناهٍ فلا يأتي ما هو فنيت على ما ليس بمتناهٍ، فالحاصل أنه إذا فنيت حسنات الظالم قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا وبقي عنده الإيمان المجرد أخذ من خطايا المظلومين ما عدا الكفر لكونه غير متناه الجزاء فلا يوازن ما هو متناه الجزاء فيطرح على الظالم ثم طرح في النار إن لم يعف عنه حتى إذا انتهت عقوبة تلك الخطايا أدخل الجنة بإيمانه ويخلد فيها وقال البيهقي مثل ما قلتُ، وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى تعاد للشاة الجماء من الشاة القرناء»**[٣] وفيه حتى للجماء من القرناء وللذرة من الذرة، وفي الباب أحاديث كثيرة لم أذكرها، وروى البيهقي عن الزبير بن العوام قال لمَّا نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ قلنا كيف نختصم وديننا وكتابنا واحد حتى رأيتُ بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفتُ أنه نزلت فينا، وعن ابن عمر نحوه وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال كنا نقول ربنا واحد ونبينا واحد وكتابنا واحد فما هذه الخصومة فلمّا كان يوم الصفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا، وعن إبراهيم قال لما نزلت ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قالوا كيف نختصم ونحن إخوان فلمَّا قتل عثمان قالوا هذا خصومتنا، ومقتضى هذه الأقوال أنهم كانوا يزعمون أن الاختصام في الدماء لا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة (٦٥٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤١٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٢).

يكون إلا بين المؤمنين والكافرين فلمّا ظهر البغي والفساد بين المسلمين اتضح لهم أنه يكون بين المؤمنين أيضاً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الفاء للسببية فإن إختصام الكفار مع النبيّ ﷺ سبب لكونهم أظلم الناس، والاستفهام للإنكار يعني لا أحد أظلم ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ فزعم أن له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ أي بما جاء به النبيّ ﷺ من القرآن وغيره ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ من غير لوقف وتفكر في أمره بل مع الشواهد والأدلة القاطعة على صدقه ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي منزلاً ومقاماً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ إستفهام للتقرير فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مع ما يتلوه تسلية للنبيّ ﷺ على تكذيب القوم حتى لا تهتم في الإنتقام منهم فإن جهنم يكفيهم مجازاةً لأعمالهم.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أراد به الجنس ليتناول الرسل والمؤمنين يدل عليه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ بصيغة الجمع ويؤيده قراءة ابن مسعود الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به، قال ابن عباس يعني رسول الله ﷺ جاء بلا إله إلا الله وصدَّق به أيضاً أي بلّغه إلى الخلق وعلى هذا جمعية الخبر بناءً على أن المراد هو ومن تبعه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1] وقال السدي الَّذِيُ جاء بالصدق جبرئيل وصدق به محمد لله تلقاه بالقبول، وقال الكلبي وأبو العالية الَّذِي جاءَ بالصّدقِ رسول الله ﷺ وصَدَّقَ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكذا ذكر الزجاج قول علي رضي الله عنه وكذا روى عن أبي هريرة وقال عطاء وَالَّذِي جاء بالصّدُقِ الأنبياء وَصَدَّقَ به الأتباع، قال صاحب المدارك والبيضاوي والوجه في العربية أن يكون جاء صدَّق لفاعل واحد لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وذا غير جائز أو إضمار الفاعل من

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٤٩.

غير تقدم ذكر بعيد، قلتُ وكيف يحكم بعدم جواز حذف الموصول وقد روى عن علماء التفسير من الكلبي وأبي العالية وقتادة ومقاتل ما ذكرنا وورد في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه فمن يهجو رسول الله منهم ويمدحه وينصره سواء فإن التقدير أمن يهجو ومن يمدحه سواء وقال صاحب البحر المواج يمكن أن يقال أنه من باب اللف والنشر الإجمالي على طريقة ﴿قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾[1] ويقال تقديره والفريق الذي جاء بالصدق وصدَّق به وهو شامل للنبيّ ﷺ وأبي بكر وضمير جاء بالصدق راجع إلى الموصول نظراً إلى النبيّ ﷺ وضمير صدق به راجع إليع نظراً إلى أبي بكر ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾ في الجنة ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ يسترها عليهم بالمغفرة خص الأسوأ بالذكر للمبالغة فإنه كفَّر الأسوأ فغيره أولى فيه، ولمذهب المعتزلة حيث يدل على عفو الكبيرة الإشعار بأنهم لأستعظامهم الذنوب يحسبون كل سيئة عملوها أسوء الذنوب ويقال أفعل هاهنا للتفضيل مطلقاً لا على ما أضيف إليه ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي يعطيهم ثوابهم أي ثواب أعمالهم ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعني يعدلهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم أو يقال أحسن هاهنا للزيادة المطلقة، قال مقاتل يجزيهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾ إستفهام للنفي مبالغة في الإثبات يعني الله كان ﴿عَبْدَهُۥ﴾ محمداً ﷺ وقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي عباده يعني أنبياءه أو محمداً ﷺ وأصحابه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ عطف على معنى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾.

تقديره الله كان عبده ويخوفونك، وجاز أن يكون حالاً بتقدير وهم يُخوفُونكَ ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال البغوي وذلك أنهم خوَّفوا النبيّ ﷺ معرة الأوثان وقالوا لتكفنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنَّك منهم خبل أو جنون وكذا أخرج عبد الرزاق ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا يضر ولا ينفع ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهم إلى الرشاد ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ لاراد لفضله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ الإستفهام للإنكار يعني الله غالب ينفع ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ منتقم من أعدائه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ سألتهم يعني كفار مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية وبداهة عدم صلاح الأوثان لها وكان أهل مكة يعترفون بذلك ﴿قُلْ﴾ يا محمد بعد اعترافهم لذلك ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ يعني أخبروني، بعدما اعترفتم بأن الخالق هو الله لا غير ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ﴾ قرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها ﴿ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ﴾ يعني أوثانكم ﴿كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ عني ﴿أَوْ﴾ إن أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾ عني، قرأ أبو عمرو كاشفات ممسكات بالتنوين فيهما ونصب ضرَّه ورحمته على المفعولية والباقون بالإضافة إستفهام إنكار يعني يلزمهم باعترافهم السابق إنكار كون الأصنام قادرة على كشف ضر أو إمساك برحمة، قال مقاتل فسألهم النبيّ ﷺ عن ذلك فسكتوا فقال الله تعالى لرسوله ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ يكفيني في إصابة الخير ودفع الضرّ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي المؤمنون لعلمهم بأنه نافع ولا ضارَّ إلا هو، عبَّر المؤمنين بالمتوكلين لأن شأنهم التوكل على الله ﴿قل ياقوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي على حالكم اسم للمكان أستعير هنا للحال كما أن حيث وهُنا اسمان للزمان وقد يستعار أحدهما للمكان ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ أي على مكانتي فحذف للإختصار والمبالغة في الوعيد والإشعار بأن حاله ﷺ لا يقف على حد بل الله سبحانه سيزيده على مر الدهور قوةً ونصرةً ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين فقال ﴿فسوق تعلمون﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه دليل على غلبته وقد أخزاهم يوم بدر ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأن يهتدوا به إلى مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً به هذه الجملة متصلة بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وما بينهما معترضات ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالكتاب ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ينتفع نفسه به ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ طريق مصالح ﴿فإنما يضل عليها﴾ لا يتجاوز عنها وبال ضلاله ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي ما وكلت عليهم لتجبرهم على الإهتداء به إنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت فلا يضرك ضلالهم.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ أي يقبضها عن الأبدان إما بأن يقطع تعلقها عنها بالكلية فلا يمكن لها التصرف فيما ظاهراً ولا باطناً وذلك حين موتها ونزعها عنها وإما بأن يقبضها ظاهراً بعض القبض بأن يسلب عنها الحسن والحركة الإرادية وذلك بأن يجعله الله تعالى متوجهاً إلى مطالعة عالم المثال عاطلاً عن عالم الشهادة ليستريح وذلك في المنام، فالتوفي بالمعنى الأول حقيقة بالثاني مجاز فيحمل الكلام هاهنا إما على عموم المجاز وهو القبض مطلقاً إما ظاهراً فقط أو ظاهراً أو باطناً وإما على تقدير الفعل كأنه قال والتي لم تمت يقبضها في منامها أي يقبض حسها وحركتها وما قيل إن للإنسان نفساً وروحاً فعند النوم تخرج النفس ويبقى الروح أريد بالنفس قوتها التي بها العقل والتميز يعني يسلب عنه تلك القوة ويبقى الروح التي بها الحياة والنفس، قال البغوي عن علي كرم الله وجهه قال يخرج الروح عند نومه ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة، إن صح هذا الأثر فالمعنى عندي أن الروح يتوجه إلى مطالعة عالم المثال خارج البدن في عالم الملكوت وذلك خروجه عند نومه ويبقى شعاعه يعني تعلقه بالجسد كما كان فبذلك أي بخروجه يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عاد الروح أي توجه إلى جسده بأسرع من لحظة ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن حتى ينفخ نفخة البعث، قرأ حمزة والكسائي قضِيَ بضم القاف وكسر الضاد على البناء للمفعول والموت بالرفع والباقون على البناء للفاعل مسنداً إلى المستكن الراجع إلى الله والمَوْتُ بالنصب على المفعولية ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النفس النائمة إلى الإفاقة والإحساس ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي الوقت المضروب لموته، في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: كان النبيّ ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول «اللّهم بك أموت وأحيى وإذا استيقظ قال

الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[١] عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«إذ أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم يقول باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»**[٢] وفي رواية ثم ليضطجع على شقه الأيمن ثم ليقل، وفي رواية فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات وإن أمسكت نفسي فأغفر لها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التوفي والإمساك والإرسال ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي دلالات على كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته ﴿لِقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها بالكلي عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيها عن ظواهرها وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفي آجالها فيعلمون أن القادر على ذلك قادر على البعث، وهذه الآية في مقام التعليل لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ أم ابتدائية بمعنى الهمزة للإنكار أو متصلة معطوفة على جملة محذوفة تقديره أجعلوا لله شركاء أم اتخذوا من دونه شفعاء أو منقطعة بمعنى بل للإضراب، عن مضمون قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والهمزة للإنكار ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ الهمزة للإنكار والتقدير أيشفعون لكم ولو كانوا على هذه الصفة التي تشاهدونهم عليها جمادات لا تعقل ولا تقدر، ولما كان هاهنا مظنة أن يقولوا إنا نعبد أشخاصاً مقربين لله تعالى وتلك الأصنام تماثيلهم قال الله تعالى ردَّ لهذا القول وتعليلاً لقوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ لا يملك أحد أن يتكلم في أمر إلا بإذنه ورضائه فهو مالك الشفاعة كلها ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيكون له الملك أيضاً حينئذٍ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ أي نفرت وانقبضت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثان ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي يعرجون، قال البغوي قال مجاهد ومقاتل وذلك حين قرأ النبيّ ﷺ والنجم وألقى الشيطان في أمنيته تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى ففرح به الكفار، وكذا أخرج ابن المنذر عن مجاهد، قال البيضاوي لقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فإن الإستبشار أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا أصبح (٦٣٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: التعوذ والقراءة عند النوم (٦٣١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٢).

يمتلىء قلبه سروراً حتى ينبسط له بشرة وجهه والاشمئزاز أن يمتلىء غمّاً وغضباً حتى ينقبض أديم وجهه والعامل في إذا معنى المفاجأة ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أمر الله سبحانه ورسوله بالإلتجاء إلى الله بالدعاء لمَّا تحير في أمرهم وعجز في عنادهم وشدة شكيمتهم فإنه القادر على الأشياء كلها العالم بالأحوال جميعها ما غاب عنَّا وما شاهدناه ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ فتنصر المحق وتخذل المبطل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ عن أبي سلمة قال سألتُ عائشة بما كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة من الليل قالت: كان يقول «اللّهم رب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل فَاطِرَ السَّماوات والأرض عالم الغَيْبُ الشَّهادةِ أَنْت تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيْ مَاكَانُوا فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ وعيد شديد وإقناط بليغ لهم من الخلاص ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ في مراتب التعذيب فيه مبالغة بليغة في مقابلة قوله تعالى للمؤمنين ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢] قال مقاتل ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة، وجاز أن يكون المعنى أنهم يحتسبون أن الأوثان يشفع لهم أو لا يكون لهم بعث ونشور أو يكونوا في الآخرة أحسن حالاً من المؤمنين فيظهر خلاف ذلك، وقال السدي ظنوا أنها حسنات فبدت لهم أنها سيئات يعني كانوا يزعمون التقرب إلى الله بعبادة الأوثان فلمَّا عوقبوا عليها (بَدَا لَهُمْ مِّنَ الله مَا لَمْ يكونوا يَحْتَسِبُوْنَ)

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠).
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧٠.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي بدأ مساوىء أعمالهم من الشرك والظلم إلى أولياء الله حين يعرض عليهم صحائفهم ﴿وَحَاقَ﴾ أي أحاط ﴿بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ ما موصولة والمراد به العذاب أو مصدرية والمعنى حاق بهم جزاء إستهزائهم.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ الكافر وقيل إخبار عن الجنس بما يغلب فيه ﴿ضُرٌّ﴾ شدة ﴿دَعَانَا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ بالفاء لبيان تناقضهم وتعكيسهم في السبب يعني يشمأزُّون عند ذكر الله وحده ويستبشرون عند ذكر الأصنام فإذا مسهم ضر دعوا مَن اشمأزوا بذكره دون مَن استبشروا به وما بنيهما إعتراض مؤكد لإنكار ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ﴾ أعطيناه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ تفضلاً فإن التخويل مختص به ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجوه كسبه أو بأني أعطيتُه لما لي من استحقاقه أو من الله بي وإستيجابي والضمير لما إن جعلتَ موصولة وإلا فلنعمة والتذكير لأن المراد شيء منها ﴿بَلْ هِىَ﴾ أي النعمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ إمتحان من الله أيشكر أم يكفر أو إستدراج لهم ليكون سبباً لتعذيبهم، وقيل بل الكلمة التي قالها فتنة له موجب للتعذيب ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك قال البيضاوي: هذا دليل على أن المراد بالإنسان الجنس، قلتُ: وإن كان المراد بالإنسان الكافر فالمراد بأكثرهم كلهم أو يقال أن بعضهم كانوا يعتقدون أنهم على الباطل كأحبار اليهود وما كانوا ليؤمنوا تعنتاً وعناداً ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي تلك الكلمة ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال مقاتل يعني قارون حيث قال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[1] وصيغة الجمع بناءً على شموله لمن رضي بقوله ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾ (مِنَ الكُنوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لتنوء بِالْعُصْبَةِ أُولي الْقُوَّةِ)[2] ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي جزاؤها سمى جزاء السيئة سيئة نظراً للمقابلة ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي كفروا ﴿مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من كفار مكة ﴿سيصيبهم سيآت ما كسبوا﴾ كما أصاب أولئك فأصابهم بأن قحطوا سبع سنين وقتل ببدر صناديدهم وأدخلوا النار إلا من تاب وآمن منهم ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين ﴿أولم يعلموا أن يبسط الرزق لمن يشاء﴾ وامتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء إبتلاءً، الإستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أيقولون هذا القول يعني إنَّما أُوتِيتُه على عِلْم ولم يعلموا أن توسعة الرزق وتضيقه من الله تعالى قد يوسع الرزق لمن لا يعلم وجوه الكَسب، وليس له استحقاق الكرامة أصلاً وقد يضيقه على عكس ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادث كلها من الله تعالى والأسباب إنما هي على مجرى العادة في الظاهر.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨. (٢) سورة القصص، الآية: ٧٦.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

روى الشيخان في الصحيحين «أن ناساً من أهل الشرك قَتَلُوا فأكثروا وزَنُوا فأكثروا ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا إن الذي تقول وتدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارة فنزلت ما في سورة الفرقان ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ونزلت ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾»[1] الآية. قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بسكون الياء وحذفها وصلاً لاجتماع الساكنين والباقون بفتحها، وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس أنها نزلت في مشركي مكة كذا ذكر البغوي قول عطاء عن ابن عباس وكذا أخرج الطبراني عن ابن عباس بسند ضعيف أنه بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك وأنتَ تزعم أنه من قتل أو أشرك أو زنى يلقَ أثاماً يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وأنا قد فعلتُ ذٰلك كله فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فقال وحشي هذا شرط شديد لعلي لا أقدر على ذٰلك فهل غير ذٰلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فقال وحشي أراني بعد في شبهة فلا أدري يغفر لي أمره فأنزل الله هذه الآية، زاد البغوي فقال المسلمون هذا له خاصةً أو للمسلمين عامةً؟ قال رسول الله ﷺ: «**بل**

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (٤٨١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢٢).

للمسلمين عامة» وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال كنا نقول ما للمفتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته فلمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية، وذكر البغوي أنه روي عن ابن عمر أنه قال نزلت هذه الآية في عيّاش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا فيه فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكتبها عمر بيده، ثم بعث إلى عيّاش بن ربيعة والوليد بن الوليد وأولئك النفر فأسلموا وهاجروا ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا بالجناية عليها بالكفر والمعاصي، قال البغوي روي عن ابن عمر أنه أراد بالإسراف الكبائر ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تيئسوا من مغفرته وتفضله إذا آمنتم وتبتم عن الشرك وهذا القيد ثابت بالإجماع وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[1] وبالروايات الواردة في سبب نزول الآية فالمعنى لا تتركوا الإيمان إياساً من رحمة الله بناءً على ما أسرفتم من قبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ صغيرها وكبيرها إذا تبتم عن الشرك وآمنتم بالله وحده «فإن الإسلام يهدم ما كان قبله»[2] رواه مسلم عن عمرو بن العاص عن النبيّ ﷺ، ومورد هذه الآية وإن كان خاصاً فإنها نزلت في من أرتكب الكبائر في حالة الشرك ثم أسلم لكن لفظها عام يدل على أن العبد إذا آمَنَ (كما يدل عليه إضافته تعالى العبد إلى نفسه بناءً على عرف القرآن وإن كان ارتكب الكبائر بعد الإسلام) ليرجو أن يغفر الله له إن شاء وإن لم يتب كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[3] والتعليل في هذه الآية بقوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغة المبالغة وإفادة الحضر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في عبادي من الدلالة على الزلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعاً ووضع اسم الله موضع الضمير للدلالة على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجمع والأحاديث الواردة في هذا الباب وإجماع الأمة.

روى مقاتل بن حبان عن نافع عن ابن عمر قال كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

نرى أو نقول ليس شيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[1] قلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا الكبائر والفواحش، قال فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك فنزلت هذه الآية ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ فكففنا عن القولين فكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له، وروي عن ابن مسعود أنه دخل المسجد قاصٌّ يقصُّ وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال يا مذكر لم تقنط الناس ثم قرأ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية، وعن أسماء بنت زيد قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي»[2] رواه أحمد والترمذي وقال هذا حديث حسن غريبُ في شرح السنة يقول بدل يقرأ، وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «**كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعاً وتسعين إنساناً ثم خرج فأتى راهباً فسأله فقال ليس لك توبة قال فقتله وجعل يسأل فقال له رجل رأيت قريةً كذا وكذا فأدركه الموت فَنَاء بصدده نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوصى إلى هذه أن تباعدي فقال قيسوا ما بينهما فوجدوا إلى هذه أقرب بشبر فغفر له**»[3] متفق عليه، وروى مسلم بن الحجاج هذا الحديث وفيه: «فدلَّ على راهب فأتى فقال أنه قتل تسعاً وتسعين نفساً فهل لي توبة فقال لا فقتله وكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفساً فهل له توبة فقال لا فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة إنطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم فلا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختَصَمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأتاهم مَلك في صورة فجعلوه حكماً فقال قيسوا بين الأرضين فإلى أيتهما أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة» وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**كان رجل لم يعمل خيراً قط فأوصى لأهله إذا مات فحرقوه ثم ذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، قال فلمّا مات فعلوا ما أمرهم فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما**

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٣٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٦).

فيه ثم قال له لم فعلتَ هذا؟ قال من خشيتك يا ربّ وأنتَ أعلم فغفر له»[١] متفق عليه.

وروى البغوي عن ضمضم بن حوش قال دخلتُ مسجدَ المدينة فناداني شيخ فقال يا يماني (تعال ولا أعرفه) فقال لا تقولن لرجل والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة فقلتُ من أنتَ يرحمك الله قال أبو هريرة قال فقلت وإن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض لأهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمه قال فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر كان مذنباً فجعل يقول له إقصر عما أنت فيه، قال فيقول خلّني وربي قال حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال اقصر فقال خلني وربي أبعثت عليَّ رقيباً فقال والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الله الجنة أبداً، قال فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده قال للمذنب أدخل الجنة برحمتي وقال للآخر أتستطيع أن تحظر على عبادي رحمتي فقال لا يا رب فقال إذهبوا به إلى النار، قال أبو هريرة والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» وروى أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين**» ذكر الحديث إلى آخره بعينه، وعن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ: «**لا أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية**» رواه أحمد بسند حسن وابن جرير والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان وفيه «فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فنكس ساعة ثم قال والله لا يغفر الله لفلان وإن الله قال من الذي يتألى عليَّ أني لا أغفر لفلان فإني قد غفرتُ لفلان وأحبطتُ عملك» أو كما قال[٢] رواه مسلم، وعن ابن عباس في قوله تعالى: (إلا اللمم) قال رسول الله ﷺ «**إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك لا ألماً**»[٣] رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح غريب.

وفي حديث قدسي طويل عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ «أفعل ما أريد عطائي كلام وعذابي كلام إنما أمري شيء إذا أردتُّه أن أقول له كن فيكون»[٤] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزَّ وجلَّ ليرفع الدرجة للعبد**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ (٧٥٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى (٢٦٢١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة والنجم (٣٢٨٤).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٥).

الصالح في الجنة فيقول يا رب أنّى لي هذا فيقول باستغفار ولدك لك» رواه أحمد، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: **«الميت في القبر كالغريق المتغوث ينتظر دعوة يلحقه من أب أو أم أو أخ أو صديق فإذا ألحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن الله ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال وإن هدية الأحياء إلى الأموات الإستغفار لهم» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغفر لعبده ما لم يقع الحجاب، قالوا يا رسول الله وما الحجاب؟ قال أن تموت النفس وهي مشركة»** رواه أحمد والبيهقي في كتاب البعث والنشور، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: **«من لقي الله لا يعدل به شيئاً في الدنيا ثم كان عليه مثل جبال ذنوب غفر الله له»** رواه البيهقي في كتاب البعث والنشور، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها يعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»**[1] متفق عليه، وروى مسلم عن سلمان نحوه وفي آخره «فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة» وعن عمر بن الخطاب قال قدم على النبيّ ﷺ «سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبيّ ﷺ أترون هذه طارحة ولدها في النار فقلناه وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2] متفق عليه، وعن أبي الدرداء أنه سمع النبيّ ﷺ «يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ قلتُ وإن زنى وإن سرقَ يا رسول الله فقال الثانية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلتُ الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله قال وإن رغم أنف أبي الدرداء» رواه أحمد.

وعن عامر الرام قال بيننا نحن عنده (يعني النبيّ ﷺ) إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله مررتُ بغيضة شجر فسمعتُ فيها أصوات فراخ طائر فأخذتُهن فوضعهُن في كسائي فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي فكشفتُ لها عنهن فوقعت عليهن فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي، قال ضعهن فوضعتهن وأبت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ: **«أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها فوالذي بعثني بالحق لله**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الرجاء مع الخوف (٦٤٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٤).

أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها إرجع بهن فضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن فرجع بهن»[١] رواه أبو داود، وعن عبد الله بن عمر قال كنا مع النبيّ ﷺ في بعض غزواته فمرَّ بقوم فقال من القوم؟ قالوا نحن المسلمون وامرأة تخضب بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج تنحت به فأتت النبيّ ﷺ فقالت أنتَ رسول الله؟ قال نعم، قالت بأبي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين؟ قال بلىٰ، قالت أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها؟ قال بلى، قالت إن الأم لا تلقي ولدها في النار فأكب رسول الله ﷺ يبكي ثم رفع رأسه إليها فقال: «**إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد والمتمرد الذي يتمرد على الله وإلى أن يقول لا إله إلا الله**»[٢] رواه ابن ماجه، وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبدٍ قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلتُ وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلتُ وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلتُ وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر**»[٣] متفق عليه، وفي الباب أحاديث كثيرة تدل على أن مآل المؤمن إلى الجنة لا كما قالت المعتزلة إن مرتكب الكبيرة إن لم يتب يخلد في النار.

وأما إستدلال المرجئة بهذه الأحاديث على أن المعاصي صغائر كانت أو كبائر لا يضر مع الإيمان كما أن الطاعة لا ينفع مع الكفر فباطل مستلزم لإنكار الآيات والأحاديث الواردة في المناهي وكون الصغائر والكبائر مفضية إلى التعذيب والسخط من الله تعالى إلا أن يتداركه المغفرة، فالمذهب الحق قال أهل السنة والجماعة رضي الله عنهم أن الطاعة لا تنفع مع الكفر لأن الطاعة لا يكون طاعةً إلا إذا كانت خالصةً لله وإلا فهي معصية والإيمان شرط للطاعة كالوضوء للصلاة وأما المعصية فهي وإن كانت في نفسها مقتضية للتعذيب لكنها في مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له وإن شاء عذبه فإن غفر له غفر له إما بالتوبة وإما بشفاعة من النبيّ ﷺ أومن أحد من أتباعه وإما بمحض فضل من الله تعالى وإن عذبه لا يكون تعذيبه مؤبداً إن كان المرء مؤمناً لأن الله تعالى وعد بالثواب على كل حسنة قال الله تعالى: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾[٤] والإيمان رأس الحسنات

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٧)، وفيه إسماعيل بن يَحْيَى متفق على تضعيفه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: الثياب البيض (٥٨٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار (٩٤).

(٤) سورة الزلزلة، الآية: ٧.

والخلف في الوعد محال ومحل الثواب الجنة لا محالة لكن المؤمن يرى ذنبه كأنه قاعد تحت جبل والفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه فقال به هكذا بيده فذبه عنه[(1)]، رواه البخاري عن النبيّ ﷺ.

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة من الشرك وأسلموا أي انقادوا ﴿لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في القبر أو بعد البعث فحينئذ لا ينفع الإيمان منكم كما يدل عليه قوله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ عطف على جملة مستأنفة، وتقديره تعذبون ثم لا تنصرون ﴿وأتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني القرآن فإنه أحسن من كل كلام أو المراد به العزائم دون الرخص ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه ﴿أَن تَقُولَ﴾ أي كراهة أن تقول أو لئلا تقول ﴿نَفْسٌ﴾ تنكير نفس لأن القائل به بعض الأنفس أو للتكثير وهو منصوب على العلية لقوله أنيبوا، وقال المبرد تقديره بادروا واحذروا أن تقول نفس ﴿ياحسرتى﴾الحسرة الاغتمام وأصله يا حسرتي انقلبت الياء ألفاً في الإستغاثة وربما ألحقوا به ياء المتكلم بعد ألف الاستغاثة كذلك قرأ أبو جعفر يا حسرتاي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ مامصدرية أي على تفريطي وتقصيري ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، قال الحسن أي قصرتُ في طاعة الله وقال مجاهد في أمر الله وقال سعيد بن جبير في حق الله وقيل في ذات الله على تقدير مضاف أي في طاعته أو في قربه وقيل معناه قصرت في الجانب الذي يردُّني إلى رضاء الله ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أن مخففة من الثقيلة واسمه ضمير الشأن واللام فارقة والجملة في محل النصب على الحال كأنَّه قال وأنا كنتُ ساخراً مستهزءاً بدين الله وكتابه ورسوله والمؤمنين ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ عياناً ﴿لَوْ﴾ للتمني ﴿أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ﴾ منصوب بعد الفاء في جواب التمني ﴿من المحسنين﴾ معناه أتمنى كون بي رجعةً إلى الدنيا فكوني من المحسنين في العقيدة والأعمال والعطف بأو للدلالة على أنه لا يخلو عن مثل هذه الأقوال تحيراً أو تعللاً بما لا طائل تحته.

﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ رد من الله عليه لما تضمنه قوله: ﴿أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ فإن معناه لم يهدني الله فإن كان المراد بها إراءة الطريق فالمعنى بلى قد هديتُكَ حيث أرسلتُ إليك رسولي وجاءتك كتابي فكذبتَ بها وكان قوله لَوْ أَنَّ الله هداني إنكاراً لتبليغ الرسل كما جاء في الحديث «يُدعى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التوبة (٥٩٤٩).

نوح يوم القيامة فيقال له هل بلَّغتَ فيقول نعم فيدعى أمته فيقال لهم هل بلَّغكم فيقولون لا ما جاءنا من بشير ولا نذير وقد ذكرنا الحديث في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾[٢] وإن كان المراد بها خلق الهداية والإيصال إلى المطلوب فقولهم مبني على التشبث بالجبر وإنكار قدرتهم على كسب الإيمان والطاعة فمعنى الآية بلى قد خلقتُ فيك القدرة التي يترتب عليها العذاب والثواب فكذَّبتَ باختيارك لما جاءتك آياتي وهذالا ينافي تأثير قدرة الله في أفعال العباد كما هو مذهب أهل السنة والجماعة فإن قيل فما وجه الفصل بين الرد والمردود، قلنا وجه ذلك أن تقديم هذه الآية مفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وتذكير الخطاب نظراً إلى المعنى ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز كاتخاذ الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ الجملة حال من مفعول ترى لأنه من رؤية البصر ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والجملة تقرير لكونهم يرون ذلك ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ من جهنم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ من الشرك ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بمفازاتهم بالألف على الجمع والباقون بغير ألف على الإفراد أي بفلاحهم وتفسيرها بالنجاة تخصيص بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق للمسبب على السبب والباء للسببية صلة لينجي أو لقوله ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حال أو استئناف لبيان المفازة.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الخير والشر والإيمان والكفر هذه الجملة متصلة بقوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾[٣] وما بينهما معترضات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي الأشياء كلها موكولة إليه وهو القائم بحفظها الجملة عطف أو حال ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾ جمع مقلاد أو مقليد كمفتاح ومفاتيح أو منديل ومناديل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني له مفاتيح خزائن السماوات والأرض بيده ملكوتها لا يتمكن من التصرف فيها غيره، قال قتادة ومقاتل مفاتيح السماوات والأرض بالرزق والرحمة وقال الكلبي خزائن المطر وخزائن النبات، وعن عثمان رضي الله عنه «أنه سأل النبيّ ﷺ عن المقاليد قال تفسيرها لا إله إلا هو والله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على شيء قدير» أخرجه أبو يعلى في مسنده وابن أبي حاتم في تفسيره والعقيلي في الضعفاء والطبراني في الدعاء والبيهقي في الأسماء والصفات من حديث ابن عمر، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، قلتُ: لعل المعنى أن صفات الله تعالى المذكورة في هذه الكلمات تفسير للمقاليد يعني من كان متصفاً بتلك الصفات فهو مالك خزائن السماوات والأرض بيده ملكوتها والتصرف ومن يعتقد بها ويذكرها يتأهل أن يفتح له الخزائن إما عاجلاً أو آجلاً ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ أي بالقرآن وبكلمات تمجيده وتوحيده أو بدلائل قدرته واستبداده بأمر السماوات والأرض ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حصر الخسائر بهم لأن غيرهم ذو حظ من الرحمة والثواب فإن فات عنهم شيء من حظوظ الدنيا فهم مستبدلوها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت من الحظوظ في الآخرة وأما الكفار فإن كان لهم نصيب من خزائن الرزق والمطر في الدنيا فلا نصيب لهم في الشكر فلا نصيب لهم في خزائن الرحمة والحظوظ العاجلة تنقلب عليهم وبالاً واستدراجاً، وجاز أن يكون هه الآية متصلة بقوله ﴿وسيجي الله الذين اتقوا﴾ وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجاز عليها وتغير النظم للإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله وفي خسران الكافرين كفرهم بآيات الله والتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية المكر والله أعلم.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عاس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا هذا لك يا محمد وكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فأعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنة، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ إلى آخر السورة وأنزل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ وأخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصري قال قال المشركون للنبيّ ﷺ تضلل آباءك وأجدادك يا محمد فأنزل الله هذه الآية إلى قوله ﴿مِّنَ

ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقال البغوي قال مقاتل أن كفار مكة دعوه إلى دين آبائه، فنزلت قرأ أهل الشام بنونين خفيفتين وأهل المدينة بنون واحدة خفيفة على الحذف فإنها تحذف كثيراً والباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام والهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف وغَيْرَ مفعول لأعبد قدم عليه لأنه محل الإنكار وتأمروني جملة معترضة تقديره أكفر فغير الله أعهد تأمروني بذلك، وجاز أن ينتصب غير بما دلَّ عليه تأمروني أعبد، لأنه بمعنى تُعَبِّدُونَني من التفعيل على أن أصله تَأْمُرُونَني وأن أعبد غير الله فحذف إن ورفع الفعل كقوله أحضر الوعي، ويؤيده قراءة أعبد بالنصب بالتقدير ألم يتضح عليكم التوحيد بعد تلك الدلائل فَتُعَبِّدُونَني غير الله حيث تأمرونني أن أعبد غير الله ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ كلام على سبيل الفرض والمراد به إقناط الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وبهذه الآية نحكم بأن الردة محبط لثواب جميع الحسنات كما أن الإسلام يهدم ما كان قبله من السيئات فإن أسلم بعد الردة في وقت صلاة صلاها فعليه أداؤه ثانياً وكذا يجب الحج ثانياً على من حج ثم ارتد ثم أسلم كذا قال الإمام ابن الهمام وقال البيضاوي إطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح وأن يكون على التقييد بالموت كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[1] وهذا القول باطل لأن القول بكونها من خصائص الأنبياء شنيع جداً تكاد السماوات يتفطرون من هذا القول إذ الكلام إنما هو على سبيل الفرض المحال وإنما المراد به الإشعار على حكم غيرهم وقوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لا يدل على نفي الحبط إذا لم يوجد الموت على الكفر بل المطلق عندنا يبقى على إطلاقه لا ضرورة في حمله على المقيد والله أعلم.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به والله منصوب باعبد والفاء إما زائدة وإما بتقدير أما وتقديم المعمول لقصد الحصر وبل للعطف على محذوف دل عليه قوله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ الخ تقديره لا تعبد غير الله بل الله اعبد أو بل أمَّا الله فاعبد ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إنعامه عليك، وفيه إشارة إلى موجب الإختصاص.

أخرج الترمذي عن ابن مسعود قال مرَّ يهوديٌّ بالنبيّ ﷺ فقال كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

ذه فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[(١)] يعني ما عرف الناس عظمة الله سبحانه حق عظمته حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به ولم يعبدوه حق عبادته ولم يشكروه حق شكره وأنكروا البعث بعد الموت ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ يعني الأرضين السبع بجميع أبعاضها البادية والغارية ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ القبضة المرة من القبض أطلقت على المقدار المقبوض بالكف تسمية الفعول بالمصدر، أو بتقدير ذات قبضته ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ لهذه الآية من المتشابهات المصروفة عن الظاهر لا يعلم تأويله إلا الله والغرض منه التنبيه على عظمته وكمال قدرته وحقارة الأفعال العظام التي يتخير فيها الأوهام بالإضافة على قدرته وعلى إن تخريب العالم أهون شيء عليه، وقال علماء البيان هذا الكلام وأرد على طريقة التمثيل والتخيل من غير أعتبار القبضة واليمن حقيقة ولا مجازاً كقولهم شابَّت لمة الليل، ووجه نزول الآية بعد قول اليهودي تصديق ما حكاه اليهودي عن التوراة فإن كتب الله تعالى مصدقة بعضها لبعض، وفي الصحيحين حديث ابن مسعود بلفظ جاء حبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال يا محمد إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك أنا الله فضحك النبيّ ﷺ تعجباً ممَّا قال الحبر تصديقاً له ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[(٢)] الآية، لعل وجه التطبيق بين رواية الترمذي ورواية الصحيحين أن الآية نزلت حينئذ فقرأها النبيّ ﷺ كما نزلت على اليهودي، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض**»[(٣)]، وروى مسلم عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله**»، وفي رواية يأخذهن بيده الأخرى ثم يقول أنا الله أنا الرحمٰن أنا الملك أنا القدوس أنا المؤمن أنا المهيمن أنا العزيز أنا الجبار أنا المتكبر أنا الذي بدأتُ الدنيا ولم تك شيئاً أنا الذي أعيدها أين الملوك أين الجبابرة، قال القاضي عياض القبض والطي والأخذ كلها بمعنى الجمع فإن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٣)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾ (٤٨١٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧).

السماوات مبسوطة والأرض مدحوة ممدودة ثم رجع ذلك إلى معنى الرفع والإزالة والتبديل، وقال القرطبي المراد بالطي الإذهاب والإفناء، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال عدت اليهود فنظروا في خلق السماوات والأرض والملائكة فلمّا فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وأخرج عن سعيد بن جبير قال تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا بما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال لمّا نزلت ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قالوا يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف العرش؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعد وأعلا من هذه قدرته عن إشراكهم أو ما يضاف إليه من الشركاء.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يعني النفخة الأولى ﴿فَصَعِقَ﴾ أي مات ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قد ذكرنا المراد بالمستثنى في هذه الآية في سورة النمل في تفسير قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾[1] قال الحسن إلاّ من شاء الله يعني الله وحده ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ أي نفخة أخرى يحتمل النصب والرفع ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ يقلّبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوت أو ينتظرون ما يفعل بهم وبين النفختين أربعون يوماً وقد ذكرنا ما ورد فيه من الأحاديث في سورة النازعات ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ يعني أرض عرصات القيامة، عطف على نُفِخَ فيه أخرى ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بنور خالقها، قال البغوي وذلك حين يتجلّى الربّ

(١) الآية هي: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع﴾ سورة النمل، الآية: ٨٧.

لفصل القضاء بين خلقه فما يتضارون في نوره كما لا يتضارون بالشمس في اليوم الصحو، وقال الحسن والسديُّ أي بعدل ربها قيل سماه نوراً لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما سمى الظلم ظلمة قال رسول الله ﷺ: **«الظلم ظلمات يوم القيامة»**[1] متفق عليه من حديث ابن عمر ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي صحائف الأعمال في أيدي العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع، أخرج البيهقي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال الكتب كلها تحت العرش فإذا كان الموقف بعث الله تعالى ريحاً فتطيرها بالأيمان والشمائل أول خط فيها «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود موقوفاً والديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً عنوان كتاب المؤمن يوم القيامة حسن ثناء الناس ﴿وجيء بالنبيين﴾ قال السيوطي قال العلماء يكون الحساب بمشهد من النبيين، وغيرهم، وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيّب قال وليس من يوم إلا ويعرض على النبيّ ﷺ أمته غدوةً وعشيةً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قال ابن عباس، الذين يشهدون للرسل على تبليغ الرسالة وهم أمة محمد ﷺ، وقال عطاء يعني الحفظة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾[2] ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جزاؤه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال عطاء يعني أنه تعالى عالم بأفعالهم لا يحتاج إلى كاتب وشاهد إنما الكتاب والشهود جرياً على العادة وإلزاماً للكفرة.

ثم فصل الله التوفية وقال ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي أفواجاً متفرقة بعضها على عقب بعض على تفاوت أقدامهم في الضلالة، قال أبو عبيدة والأخفش: زُمَر أي جماعات في فرقة واحدتها زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه أو من قولهم شاة زمرة أي قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة وهي الجمع القليل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ ليدخلوها ﴿فُتِحَتْ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير أي فُتْحَتُ ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ السبعة كلها وكانت مغلقة قبل ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتوبيخاً ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي وقتكم هذا أي وقت دخولكم النار، قال البيضاوي فيه دليل على أنه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الظلم ظلمات يوم القيامة (٢٤٤٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٩).

(٢) سورة ق، الآية: ٢١.

لا تكليف قبل الشرع من حيث أنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وإنذار الكتب، قلتُ: هذه الآية لا تدل على عدم التعذيب على الإشراك بالله عند عدم الرسل بل على كمال التوبيخ بعد تمام الحجج فإن العقل وإن لم يكن مستقلاً في درك الشرائع لكن الدلائل المنصوبة على الوحدانية كافٍ لحكم العقل بالتوحيد فإذا أرسل الله سبحانه الرسل وأنزل الكتب وأوضح الطريق لم يبق العذر بوجه من الوجوه والله أعلم ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي كلمة الله بالعذاب وحكمه في الأزل أنهم من الأشقياء ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وضع المظهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك الحكم بالكفر ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف لما سبق ذكره يعني جهنم والفاء للسببية فإن الكلام السابق سبب للذم، وفيه إشعار بأن مثواهم لتكبرهم عن الحق وذا لا ينافي كون دخولهم فيها لما حقت عليهم كلمة العذاب فإن تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: في حديث طويل: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار»[1] رواه مالك وأبو داود والترمذي.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة﴾ إسراعاً بهم إلى دار الكرامة، وقيل سيق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين ﴿زُمَرًا﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف (٣١٧٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٩١).

﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ حال يعني وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم تعظيماً لهم كيلا ينتظروا ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا يعتريكم مكروه أبداً ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي وهذا أما لعدم إرتكابهم المعاصي أو لطهارتهم عنها بالمغفرة أو بالعقوبة، قال قتادة إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والناس فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هذبوا وطيبوا دخلوا الجنة وقال لهم رضوان وأصحابه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وعن علي رضي الله عنه قال سيقوا إلى الجنة وإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرةً تخرج من تحت ساقها عينان فيغتسل المؤمن من أحداهما فيطهر ظاهره ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه وتلقته الملائكة على أبواب الجنة يقولون سَلاَمٌ عليكم طبتم فأدخلوها خالدين، وقال الزجاج معناه كنتم طيبين في الدنيا عن خبائث الشرك والمعاصي، وقال ابن عباس معناه طاب لكم المقام ﴿فادخلوها﴾ الفاء للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم هذا على التأويلات المتقدمة وأما على قول ابن عباس فطيب مقامهم سبب لدخولهم يعني لمّا كانت الجنة مقاماً طيّباً أستاهل أن تكون محلاً لهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أي مقدرين الخلود.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على محذوف وهو جواب إذا حذف للدلالة على أن لهم مع الدخول من الكرامة ما لا يسعه المقال تقديره حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها كذا ادخلوها ووجدوا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد ولا يسعه المقال وقالوا شكراً لما أنعم عليهم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بدخول الجنة وبما أخفى لهم من قرة أعين ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ اي أرض الجنة وإيراثها تحليهم إياها ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي يتبوأ كل منا في أيّ مقام أراد من جنته الواسعة وإذا أراد زيارة الأنبياء وأصحاب الدرجات العلى تيسر لهم ذلك، أخرج الطبراني وأبو نعيم والضياء وحسنه عن عائشة قالت جاء رجل إلى النبيّ ﷺ يا رسول الله إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي ومن أهلي وولدي وإني لأُكون في البيت فأذكرك ولا أصبر حتى آتيك فأنظر إليك فإذا ذكرت موتي وموتك عرفتُ أنك إذا دخلتَ وقفتَ مع النبيين وإني إن دخلتُ خشيتُ أن لا أراك فلم يرد عليه شيئاً حتى نزل جبرئيل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنة.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ محدقين محيطين حال ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل هذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعب لأن التكليف ساقط حينئذ وجملة يسبحون حال

من فاعل حافين ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، بإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار، قيل بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني يقول ذلك أهل الجنة شكراً حين تم وعد الله لهم، وقيل يقول ذلك الملائكة شكراً لله على إدخال أولياء الله الجنة وأعداء الله النار عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر»[١] رواه الترمذي والنسائي والحاكم.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: (٢٩٢٠).

سورة المؤمن/ غافر

آياتها خمس وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

روى البغوي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث الأول فهذا أعجبُ وأعجبه فقيل له إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن، وقال البغوي قال ابن مسعود إذا وقعتُ في ال حَم وقعتُ في روضات أتأنق فيهن، وفي رواية إذا قرأتُ ال حَم وقعتُ في روضات دمثات، وروى أيضاً بسنده عن ابن عباس قال لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم، وقال البغوي قال إبراهيم كل آل حَم يسمين العرائس، وأخرج الحاكم عن ابن مسعود موقوفاً الحواميم ديباج القرآن ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ قد سبق الكلام في الحروف المقطعات، وقال البغوي قال السدي حم اسم الله الأعظم، وروي عن عكرمة عنه قال الرحم ن حروف الرحمٰن مقطعة، وقال سعيد بن جبير وعطاء الخراساني الحاء افتتاح أسمائه حكيم حميد حي حيان والميم افتتاح اسمائه ملك مجيد منانُ، قال الكسائي قضي ما هو كائن كأنهما أشار إلى أن معناه حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم، قرأ ابن كثير وقالون وحفص وهشام بفتح الحاء في الحواميم كلها ورش وأبو عمرو بين بين والباقون بالإمالة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل الكتاب أو مبتدأ خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه، لعل تخصيص الوصفين بالذكر لما في القرآن من الاعجاز والحكمة الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ للمؤمنين مصدر تاب يتوب توبةً، وقيل التَوبُ جمع توبة مثل دومة ودوم وحومة وحوم، قال ابن عباس غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله قابل التوب ممن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله صفتان لله تعالى والإضافة فيهما معنوية لأنه لم يرد زمان مخصوص بل الاستمرار وتوسيط الواو لإفادة الجمع بين محو الذنب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الإتحاد أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر فيكون الذنب باقياً وذلك لمن لم يتب «والتائب كمن لا ذنب له»[1] رواه ابن ماجه مرفوعاً عن ابن مسعود والحكيم عن أبي وابن النجار عن علي وابن عساكر والبيهقي عن ابن عباس فهو دليل على جواز المغفرة لمن لم يتب ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يقل لا إله إلا الله ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ قال مجاهد أي ذي السعة والغنى، وقال قتادة ذي النعم، وقيل ذي القدرة، وقال الحسن ذي الفضل، قيل غافر الذنب وما بعدها أبدال ليست بصفات وإضافة الثلاثة منها لفظية لا تفيد التعريف فلا تصلح كونها صفات وعلى هذا ذِي الطَّوْلِ أيضاً بدل لامتناع تقدم البدل على الصفة، وقال صاحب الكشاف والبيضاوي هي كلها صفات كالأولين والإضافة فيها حقيقية لما ذكرنا أنه لم يرد زمان مخصوص وأريد بشَدِيدِ العقاب مشددة فالإضافة فيه أيضاً حقيقية إذ هو في الأصل الشديد عقابه فحذف اللام للإزدواج والأمن من اللبس فهو معرف باللام وجعله وحده بدلاً مشوش للنظم وقال الزجاج شديد العقاب بدل ليس بصفة وبه قال صاحب المدارك للقطع بكونه نكرة وحذف اللام لا يجوز وعلى هذا ذي الطول أيضاً بدل، وما قال البيضاوي أولى من حيث المعنى لأن كلها توابع تدل على معانٍ في متبوعها أوردت للمدح والترغيب والترهيب والحثّ على ما هو المقصود منه والمقصود بالنسبة إنما هو الله لا غير ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلي على عبادته، قال صاحب المدارك هذا صفة أخرى كذِي الطول والظاهر أنه إستئناف ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي في دفع آيات الله بالتكذيب أو إثبات التناقض أو في الآيات المتشابهات بتأويلات مخالفة للمحكمات أو مخالفة لما تواتر عن النبيّ ﷺ ﴿إِلَّا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتمادون في القرآن فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم فقولوه وما جهلتم فوكلوه إلى عالمه» رواه البغوي ورواه مسلم بلفظ أن عبد الله بن عمرو (يعني جد عمرو بن شعيب) قال «هَجَّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»[1] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال **«إن جدلاً في القرآن كفر»** رواه البغوي ورواه البيهقي في شعب الإيمان والطيالسي من حديث عبد الله ابن عمر ورواه أبو داود والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «المراء في القرآن كفر» قال البيضاوي لما حقق الله سبحانه أمر التنزيل سجل بالكفر على المجادلين فيه بالطعن وإدحاض الحق كقوله ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ فأما الجدال فيه لحل عقده واستنباط حقائقه وقطع تشبث أهل الزيغ وقطع مطاعنهم فيه فمن أعظم الطاعات ولذلك قال عليه السلام «إن جدالاً في القرآن كفر» بالتنكير مع أنه ليس جدالاً فيه على الحقيقة ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ يا محمد ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ يعني إمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة.

أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ عن أبي مالك أنه قال نزلت في الحارث بن قيس السهمي يعني أنهم مؤاخذون عن قريب بكفرهم كالذين قبلهم كما قال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح كعاد وثمود يعني كذبوا نوحاً وغيره من الرسل هذه معللة بقوله فَلاَ يَغْرُرُكَ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ منهم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ قال ابن عباس أي ليقتلوه ويهلكوه وقيل ليأسروه والعرب يسمى الأسير أخيذاً ﴿وجادلوا بالباطل﴾ أي بمثل قولهم ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[2] و﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[3] ونحو ذلك ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ أي ليزيلوا ويبطلوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك جزاءً لهمهم عطف على جادلوا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي فإنكم تمرون على ديارهم وترون أثره والإستفهام للتقرير والتعجيب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وجوباً مثل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٦).

(٢) سورة يس، الآية: ١٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

وجوب إهلاكهم في الدنيا ﴿حَقَّتْ﴾ أي وجبت في الآخرة ﴿كلمت ربك﴾ أو المعنى كما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة السابقة كذلك حقت كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من قومك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدل من كلمت ربك بدل الكل على قراءة كلمة ربك وبدل البعض على قراءة كلمات أو بدل الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى، وقال الأخفش تقديره لأنهم وبأنهم أصحاب النار.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ أي الطائفون به وهم الكروبيون وهم سادة الملائكة، قال ابن عباس حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمس مائة عام، ويروى أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسماوات إلى حجزتهم وهم يقولون سبحان العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت وسبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وقال ميسرة بن عبد ربه أرجلهم في أرض السفلى ورؤوسهم تحت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من التي تليها والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها، وقال مجاهد بين الملائكة والعرش سبعون حجاباً من نور وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام**»[1] رواه أبو داود والضياء بسند صحيح، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال إن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع ثلاثين ألف سنة والعرش يكسى كل يوم سبعون ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة، وقال مجاهد بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب حجابٌ من نور وحجاب من ظلمة وحجاب من نور وحجاب من ظلمة، وقال وهب بن منبه إن حول العرش سبعون

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الجهمية (٤٧١٤).

ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلّل هؤلاء وكبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم إلى أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رافعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنتَ الله لا إله غيرك أنتَ الأكبر الخلق كلهم راجعون إليك، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنىٰ على اليسرى ليس منهم أحد إلا وهو يسبح بتحميدة لا يسبحه الآخر ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاث مائة عام وما بين شحمة أذنه إلى عاتقه أربع مائة عام، واحتجب الله من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار وسبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور وسبعين حجاباً من در أبيض وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر وسبعين حجاباً من ياقوت أصفر وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر وسبعين حجاباً من ثلج وسبعين حجاباً من ماء وسبعين حجاباً من برد وما لا يعلمه إلا الله تعالى، قال ولكل واحد من حملة العرش ومن حوله أربعة وجوه وجه ثور ووجه أسد ووجه نسر ووجه إنسان ولكل واحد منهم أربعة أجنحة أما جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق وأما جناحان فيهفو بهما كما يهفو هذا الطائر بجناحيه إذا حركه ليس لهم كلام إلا التسبيح والتحميد والتكبير والتمجيد.

﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الله أي يذكرونه بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام متلبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال البيضاوي جعل التسبيح أصلاً والحمد حالاً لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يصدقون بأنه تعالى موجود واجب وجوده خالق للأشياء كلها أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أخبر الله تعالى عنهم بالإيمان إظهاراً لفضله وتعظيماً لأهله وإيماءً بأن الملائكة في العبودية والعجز والإيمان بالغيب كسائر الخلائق لا كما تزعم الكفار أنهم بنات الله ورداً على المسّجمة، عن شهر بن حوشب قال: حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللّهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك قال فكأنهم يرون ذنوب بني آدم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان يوجب النصح والشفقة، وإن تخالف الأجناس لأنها أقوى المناسبات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربنا وجملة يقولون مع ما في حيزه حال من فاعل يستغفرون ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعت كل شيء رحمتُك وعلمُك

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة في عمومها وقدم الرحمة لأنها المقصودة بالذات هاهنا ﴿فَٱغْفِرْ﴾ الفاء للسببية فإن سعة الرحمة سبب للمغرة ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي رجعوا عن الكفر إلى الإسلام ﴿وأتبعوا سبيلك﴾ أي دينك الذي بعثت به رسلك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي احفظهم عنه، تصريح، بعد إشعار للتأكيد، قال مطرف أنصَحُ عباد الله للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق لهم الشياطين ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي إقامة ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ إياها ﴿ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم﴾ من صلح عطف على هم في أدخلهم أو لما وعدتهم يعني وعدتهم ووعدت من صلح من آبائهم، ولعل المراد بالصلاح هاهنا نفس الإيمان فإن المؤمن صالح لدخول الجنة وإن كان مرتكباً للكبائر بغفران الله تعالى فإن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء، وإنما قلنا ذلك ليتحقق التغاير بين لمعطوف والمعطوف عليه ولو كان المراد بالصلاح صلاح العقائد والأعمال والأخلاق جميعاً كان من صلح داخلاً في الذين تابوا وأتبعوا سبيل الله والله أعلم.

قال البغوي قال سعيد بن جبير يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبي أين أمي أين ولدي أين زوجي؟ فيقال إنهم لم يعملوا مثل عملك فيقول إني كنتُ أعمل لي ولهم فيقال أدخلوهم الجنة وهذا موقوف في حكم المرفوع وصريح في أن المراد بالصلاح في الآية نفس الإيمان ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يقدر على كل شيء ولا يمتنع عنه ما أراد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما يقتضيه الحكمة، ومن ذلك الوفاء بالوعد ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي العقوبات أو جزاء الأعمال السيئة وهذا تعميم بعد تخصيص أو مخصوص عن من صلح أو المعنى وقهم السيئات أي عن الأعمال السيئة في الدنيا ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم الجزاء أو في الدنيا ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ دليل على جزاء الشرط المحذوف أقيم مقامه تقديره ومن تق السيئات يفلح إذ قد رحمته وذلك أي الرحمة أو الوقاية أو مجموعهما ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فإن قيل أيُّ فائدة في سؤال الملائكة للمؤمنين بإدخال الجنة بعد ما وعدهم الله تعالى به وإستحالة الخلف في وعد الله وكذا في سؤال المؤمنين للنبي ﷺ «اللّهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاماً محمودا الذي وعدتّه»؟[1] قلتُ الباعث على الدعاء حبهم إياهم لما ألقي الله تعالى في قلوبهم وفائدته إستجلاب مزيد رحمة الله للمدعو لهم واستجلاب رضوان الله ورحمته للداعين لأجل المحبوبين لله تعالى والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الدعاء عند النداء (٦١٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى آخره متصل بقوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وما بينهما معترضات في مدح الملائكة الموصوفين بالإيمان المستغفرين للمؤمنين الذين هم أعداء الكافرين ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي يناديهم خزنة النار يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الأمارات بالسوء حين عرض عليهم سيئاتهم وعاينوا أجزاءها فيقال لهم ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرف لفعل دل عليه المقت الأول لا له لأنه مصدر وخبرة أكبر من مقتكم فلا تعمل في إذ تدعون لأن المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلق شيء يكون في صلته لأن الإخبار عنه يؤذن بتمامه وما يتعلق به يؤذن بنقصانه ولا للمقت الثاني لأنه عند حلول العذاب أو تعليل للحكم وزمان المقتين واحد ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا﴾ موتتين ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ أو مرتين ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي خلقتنا أمواتًا نطفًا في أصلاب الآباء ثم أحييتنا في أرحام الأمهات في الدنيا ثم أمتنا عند انقضاء الآجال ثم أحييتنا يوم القيامة كذا قال ابن عباس وقتادة والضحاك ونظيره قوله تعالى: ﴿كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾[1] وقال السديُّ معناه أمتَّنا في الدنيا ثم أحييتنا في القبر للسؤال ثم أمَتَّنا في القبر ثم أحْيَيْتَنا يوم البعث، ومبنى هذا القول الزعم بأن الإماتة يقتضي الحياة قبل الموت، وهذا ليس سليماً لأن الإماتة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

جعل الشيء عديم الحياة ابتداء أو بالتصير كما قيل سبحان من صغر البيض وكبر الفيل وإن خص بالتصيرُ فاختيار الفاعل أحد مفعوليه بأحد الوصفين تصيرٌ وصرف له عن الآخر والسؤال في القبر لا يستدعي حياةً مثل حياة الدنيا ولو استدعى ذلك لاستدعى عذاب القبر أيضاً مثل ذلك، ولزم انقطاع عذاب القبر عن الكفار إذا أميتوا وفي القبر بعد السؤال وليس كذلك ﴿فاعترفنا بذنبونا﴾ الفاء للسببية ولما كان سبب اعترافهم معاينتهم الحياة الثانية بعد الموت الثانية جعل مجموع الموتتين والحياتين سبباً له ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ واحد أو نوع من الخروج من النار سريع أو بطيء ورجوع إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريق فنسلكه استفهام ومعناه التمني فيُنَادَوْنَ لا سبيل لكم إلى الخروج فحذف هذه الجملة لما يدل عليه قوله ﴿ذَٰلِكُم﴾ ويعني انتفاء سبيل للخروج وما أنتم فيه من العذاب ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي بسبب أنه ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾ أي متوحداً أو توحد وحده فحذف الفعل وأقيم مقامه في الحالية ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ يعني إذا قيل لا إله إلا الله انكرتم وقلتم ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾[1] ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ﴾ غيره ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ تصدقوا بالإشراك وإذا كان هذا سبباً لدخولكم في النار ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ يعني هذا الحكم لله خاصةً الذي هو المستحق للعبادة المنزه عن الشريك وهو قد حكم عليكم بالعذاب الشديد الدائم بسبب كفركم ولو كان له شريك مما عبدتموها أنجاكم من عذابه وكان لكم حينئذ سبيل إلى الخروج ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ من أن يشرك ويسوي به غيره.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ أي مطراً يكون سبباً لرزقكم فيه رد لمعذرتهم بالجهل بعد رؤية ما كان صالحاً للاستدلال على التوحيد ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله ويرجع عن التعصب والعناد وهذه الجملة مبتدئة خطاب للنبي ﷺ بعد ما تم الجواب لأهل النار فادعوا الله يعني إذا سمعتم ما يؤل إليه أمر المشركين ﴿فأدعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي الطاعة والعبادة من الشرك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يعني وإن غاظ ذلك أعداءكم الكافرين ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي رفيع درجات كما له بحيث لا يظهر بجنبها كمال، وقيل الرفيع هاهنا بمعنى رافع درجات أنبيائه في مراتب القرب إليه وفي الجنة بعضها فوق بعض ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ خالقه ومالكه ﴿يلقى الروح﴾ أي ينزل الوحي سماه روحاً لأنه يحيى به القلوب كما يحيى الأبدان بالأرواح ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ قال البغوي قال ابن

---

(١) سورة ص، الآية: ٥.

عباس يعني من فضله فمن للابتداء، وقيل من قوله فمن للبيان ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الثلاثة كلها أخبار لهو مترادفة لموصول دالة على توحيده وعلو صمديته وتمهيد للنبوة وأخبار مبتدأ محذوف أي هو ﴿لِيُنذِرَ﴾ متعلق بيلقي والمستكن فيه لله أو للروح أو لمن وهو أظهر وأقرب، ويؤيده قراءة يعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر أنتَ يا محمد وحذف المفعول للدلالة على عموم دعوته وشمول إنذاره الثقلين ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي يوم يلتقي فيه الخلائق كلها أهل السماوات والأرض، وقال مقاتل وقتادة يوم يلتقي فيه الخالق والخلائق وقال ميمون بن مهران يلتقي فيه الظالم والمظلوم والخصوم، وقيل يلتقي العابدون والمعبودون، وقيل المرء مع عمله، أخرج الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال عن ابن عباس أنه قرأ ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ قال يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير فتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس الحديث بطوله ذكر فيها نزول أهل السماوات السبع بعضهم عقيب بعض ونزول الله تعالى وهو من المتشابهات وذكرنا تأويلها في سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾(١) وفي سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾(٢) ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي خارجون من قبورهم، أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء أو ظاهرة نفوسهم لا يحجبهم غواشي الأبدان أو ظاهرة أعمالهم وسرائرهم ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ﴾ أي من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم ﴿شَىْءٌ﴾ تقرير لقوله ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم وذلك بعد فناء الخلق قبل البعث وحينئذ لا يكون أحد يجيبه فيجيب نفسه ويقول ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ المتوحد في جلال الذات وكمال الصفات المنزه عن الشريك في الألوهية وفي شيء من الممكنات ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي قهر الخلق بالموت وبالتصرف فيها بما أراد.

رواه يعني كون السؤال والجواب من الله بعد فناء الخلق قبل البعث أبو هريرة في حديث طويل عن النبيّ ﷺ رواه الطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وغيرهم وأخرج ابن أبي داود في البعث عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ قال: «**ينادي**

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

مناد بين الصيحة يا أيها الناس أتاكم الساعة ومدّ بها صوته يسمعها الأحياء والأموات وينزل الله إلى السماء الدنيا ثم ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» وأخرج البيهقي عن أنس رفعه في قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصورة﴾ الآية فكان ممن استثنى الله ثلاثة جبرئيل وميكائيل وملك الموت فيقول الله (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرئيل وميكائيل وملك الموت، فيقول توف نفس ميكائيل، ثم يقول (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرئيل وملك الموت، فيقول توف نفس جبرئيل ثم يقول (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك ملك الموت وهو ميت، فيقول مت ثم ينادي أنا بدأتُ الخلق ثم أعيده أين الجبارون المتكبرون ثم ينادي لِمَنِ المُلْكُ اليُومَ، فلا يجيبه أحد فيقول هو لله الواحد القهار ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وسياق الآية يقتضي أنه حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم بعد إحياء الخلق ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ وحكاية لما دل عليه ظاهر الحال في ذلك الوقت من زوال الأسباب وإرتفاع الوسائط وسلب الإضافة المجازي للملك والحُكم إلى غيره تعالى وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني حين يسلب الملك المجازي من غيره تعالى ويكون الملك خاصة له ظاهراً كما هو له خاصة دائماً على الحقيقة ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب بناءً على الوعد ولأن الحاكم حينئذ هو الله وحده ولا يتصور منه الظلم لأن الظلم ما يفعله أحد في غير ملكه بلا إذن مالكه وكل ما يفعله الله يفعله في ملكه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسب الناس كلهم في قدر نصف يوم من أيام الدنيا بناءً على مشيئته وإلا فهو قادر على أن يحاسبهم دفعة في آن واحد إذ لا يشغله شأن عن شأن.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ عطف على الأخبار السابقة بتقدير يقال لك أنذرهم ﴿يوم الأزفة﴾ أي القيامة سمّيَت بها لأزوَافها أي قربها إذ كل ما هو آتٍ قريب ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ إذ بدل من يوم الآزفة ﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترفع عن أماكنها من شدة الهول فتلتصق بحلوقهم فلا يعود حتى يترحوا ولا يخرج فيموتوا ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ مكروبين ممتلئين خوفاً وحزناً والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى تطيق به، الْقُلُوبُ مبتدأ ولَدَى الحَناجِرِ خبره والكاظمين حال من القلوب محمول على أصحابها وإنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصف بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين والضمائر إن كانت للكفار كان هذا وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع مشفع لا مفهوم للوصف، إذ

لا شفيع لهم أصلاً فما لهم من شافعين أوله مفهوم على زعمهم أن لهم شفعاء أي لو شفعوا فرضاً لا تقبل شفاعتهم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي النظرة الخائنة كالنظرة إلى من حرم النظر إليها وإستراق النظر إليها أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة يعني يعلم خيانة الأعين الجملة خبر آخر لهو في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ﴿وما تخفي الصدور﴾ من الضمائر، قيل يعني ما يتفكر الرجل بقلبه في جمال امرأة أجنبية بعدما ينظر إليها بشهوة مسارقة ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه المالك على الإطلاق والحكيم والعليم بما ظهر وما بطن فلا يقضي إلا بما يقتضيه علمه وحكمته ولا يقضي إلا وهو حقه والجملة عطف على يعلم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قرأ نافع وهشام بالتاء للخطاب على الالتفات أو بإضمار قل والباقون بالياء للغيبة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والشياطين والملوك الجبابرة ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لعدم قدرتهم على القضاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه بخائنة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه بأنها لا تسمع ولا تبصر.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ عطف على محذوف تقديره أينكرون وبال الكفر ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ أي ما آل إليه أمر ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة للرسل كعاد وثمود ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً جيء بالفصل لمشابهة أفعل من بالمعرفة في امتناع دخول اللام عليه، قرأ ابن عامر أشد منكم على الإلتفات ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من القلاع والمدائن الحصينة، وقيل المعنى أكثر آثاراً كقوله متقلداً

سيفاً ورمحاً ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأهلكهم بالريح أو الصيحة أو نحو ذلك ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يمنع عنهم من العذاب، حيث لم يلتجؤوا إليه، الجملة عطف أو حال ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات أو الأحكام الواضحات الصحة والصلاح ﴿فكفروا فأخذهم الله إنه قوي﴾ قادر على كل ما يريد غاية القدرة ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي شديد عقابه الجملة تعليل للأخذ القوي.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي المعجزات التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة العطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيماً لشأنه وتخصيصاً بعد تعميم ﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾ يعنون موسى عليه السلام تسليةٌ للنبيّ ﷺ وبيان لعاقبة بعض من كان قبلهم من الذين كانوا أشد بطشاً وأقرب زماناً ﴿فلما جاءهم موسى بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه﴾ أي أعيدوا عليهم القتل ﴿وَٱسْتَحْيُوا﴾ أي استبقوا ﴿نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنتم فعلتم ذلك أولاً كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وضع الظاهرة موضع المضمر للتسجيل على كفرهم ولتعميم الحكم والدلالة على العلة ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي في ضياع فإنهم أرادوا إبطال أمر موسى فرد الله عليهم كيدهم وأهلكم وجعل موسى ومن تبعه ملوك الأرض ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه ﴿ذَرُونِىٓ﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وقال البغوي، إنما قال هذا لأنه كان في خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتل موسى خوفاً من الهلاك كانوا يقولون إنه ليس الذي تخافه بل هو ساحر ولو قتلتَه لظن الناس إنك عجزتَ عن معارضته بالحجة، قال البيضاوي فيه دليل على أنه تيقن بنبوة موسى فخاف من قتله أو ظن وأنه لو حاوله لم يتيسر له ويؤيده قوله ﴿وَلْيَدْعُ﴾ موسى ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا فإنه تجلد وعدم مبالاة بدعائه، وكان قوله ذَرُونِي أَقْتُلُ مُوسٰى تمويهاً على قومه وإيهاماً بأنهم هم الذين يكفونه عن قتله وما كان يكفه إلا ما استقر في قلبه من هول أمر العصا ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كقير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي يغير ما أنتم عليه من عبادة الأصنام لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[1] ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ قرأ يعقوب وأهل الكوفة أو ان والآخرون وأن وقرأ أهل المدينة والبصرة يُظهر بضم الياء وكسر الهاء من الأفعال والفساد بالنصب على المفعولية، والباقون بفتح الياء والهاء من المجرد ورفع الفساد على

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

الفاعلية وأراد بالفساد تبديل الدين وعبادة الأوثان أو ما يفسد للدنيا من التجارب والتهارج.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لقومه لما توعده فرعون بالقتل ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ صدر الكلام بأنَّ تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية وإضافته إليه وإليهم لأن حفظ موسى متضمنٌ متكفل لحفظهم أجمعين وحثّاً لهم على موافقته في الإستعاذة لما في تظاهر الأزواج من إستجلاب الإجابة، ولم يذكر فرعونَ وذكر وصفاً يعمه وغيره لتعميم الإسعاذة ورعاية الحق والدلالة على الحامل له على الشر، وجاز أن يكون هذا خطاباً لفرعون وقومه وفي قوله رَبّكُم تنبيهٌ على التوحيد وإنكارٌ على إشراكهم.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قال مقاتل والسديُّ كان قبطياً إبن عم فرعون وهو الذي حكى الله عنه في سورة القصص ﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى﴾[1] قيل كان اسمه حبيب وقال قوم كان إسرائيلياً ومجاز الآية وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون وكان اسمه حزئيل على ما روى عن ابن عباس وأكثر العلماء، وقال ابن إسحاق كان إسمه خبول ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أي تقصدون قتله ﴿أَن يَقُولَ﴾ أي لأن يقول أو وقت أن يقول من غير رؤية وتأمل في أمره أو مخافة أن يقول ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وحده وهو في الدلالة على الحصر مثل صديقي زيد ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الكثيرة

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠.

الشاهدة على صدقه ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ حيث لا يقدر على إتيان تلك المعجزات إلا الذي خلقكم ورباكم قادر على أن يأخذكم بالعذاب، والجملة حال من فاعل يقول. ثم أخذ الرجل القائل بالاحتجاج من باب الإحتياط فقال ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ كما زعمتم ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه حتى يحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ كما يدل عليه المعجزات والشواهد ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقل أن يصيبكم بعضه وذلك البعض يكفي لهلاككم ففيه مبالغة في التحذير وإظهار الإنصاف وعدم التعصب ولذلك قدم كونه كاذباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج ثالث ذو وجهين: أحدهما أنه لو كان مسرفاً لما هداه الله إلى البينات ولما عضده بالمعجزات وثانيهما إنه كان مسرفاً كذاباً خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ولعله أراد به المعنى الأول وخيَّل إليهم الثاني ليلين شكيمتهم وتعريض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب والنجاة. عن عروة بن الزبير قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بينا رسول الله ﷺ يصلّي بفناء الكعبة إذ أقبل عنقه بن أبي معيط فأخذ بمنكبي رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: «**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم**»[1] رواه البخاري، ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالين حال من كم في لكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يعني لكم الملك والغلبة في الأرض فلا تبطلوا ملككم، وغلبتكم بالتعرض لعذاب الله بقتل نبيه فإنه إن جاءنا لا يمنعنا منه أحد، أدرج نفسه في الضمير لأنه كان منهم في القرابة وليريهم إنه معهم ومساهمهم فيما ينصح لهم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ﴾ من الرأي أي ما أشيركم، وقال الضحاك ما أعلمكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أراه وأعلمه صواباً يعني قتله ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ طريق الصواب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبه والتعرض له ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ تقديره إني أخاف عليكم عذاباً مثل عذاب يوم الأحزاب أي أيام الأحزاب يعني الأمم الماضية المكذبة للرسل وجمع الأحزاب مع التفسير الذي بعده أغنى عن جمع اليوم أو المعنى عذاب يوم حزب من الأحزاب ﴿مِثْلَ﴾ جزاء ﴿دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المؤمن (٤٨١٥).

ونمرود الجبار أي مثل جزاء ما كان عادتهم من التكذيب وإيذاء الرسل، وهذه الآية تدل على أنه كان في قوم فرعون علم بالأولين ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ اللام زائدة لتقوية عمل المصدر والعِبَاد مفعول لظُلماً يعني لا يريد أن يظلم عبداً فيعاقبهم بغير ذنب أو يترك الظالم منهم بغير إنتقام أو ينقص من أجر حسنة لأحد أو يزيد في عقوبة أحد وبعدما خوَّفهم بعذاب الدنيا خَوَّفهم بعذاب الآخرة فقال ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ قرأ ابن كثير التَّنَادِيُ وصلاً ووقفاً باثبات الياء وورش وصلاً فقط واختلف فيهما عن قالون والباقون بحذف الياء في الحالين ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدل من يوم التناد، قال مجاهد يعني فارّين غير معجزين، قيل المراد منه يوم ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قبل نفخة الصعق لما روى ابن جرير في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وعبد بن حميد حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ حديثاً طويلاً وذكر فيه ثلاث نفخات، قال: «فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى.

فيقول الله تعالى انفخ نفخة الفزع فينفخ فيفزع أهل السماوات والأرض إلا ما شاء الله فيأمره فيمدها فيطيلها ولا يفتر إلى أن قال فتذهل المراضع عمّا أرضعت وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربةً من الفزع حتى تأتي الأقطار فتتلقتها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع وتولى الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً وهو الذي يقول الله يوم التناد» الحديث.

وقيل المراد يوم القيامة إذا دعي كل أناس بإمامهم أخرج أبو نعيم عن أبي حازم الأعرج رضي الله عنه أنه قال (يخاطب نفسه) يا أعرج ينادي يوم القيامة يا أهل خطيّات كذا كذا فتقوم معهم ثم ينادي يا أهل خطيّاتِ أخرى فتقوم معهم فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل خطيئة، وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ألا ليقم خصماء الله (وهم القدرية) وإذا يُنادي أصحاب الجنة أصحاب النار وأصحابُ النار أصحاب الجنة وينادي أصحابُ الأعراف كما حكى الله تعالى في سورة الأعراف وإذا ينادى بالسعادة والشقاوة ألا إن فلان ابن فلان سعد سعادةً لا يشقى بعدها أبداً ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً» أخرج البزار والبيهقي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «**يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان ويوكَّل به ملَك فإن ثقلت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعدَ فلان**

سعادةً لا يشقى بعدها أبداً وإن خفت موازينه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً، وإذا ينادي ألا إني جعلتُ نسباً وجعلتم نسباً» أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلتُ نسباً وجعلتم نسباً فجعلتُ أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون، وإذا ينادى حين يذبح الموت يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت»** أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال قال النبيّ ﷺ: «**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي منادي يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم وأهل النار حزناً إلى حزنهم»**[(١)] وعن أبي سعيد نحوه وعند الحاكم وابن حبان عن أبي هريرة نحوه.

وقرأ ابن عباس والضحاك يَوْمَ التَّنَادّ بتشديد الدال أي يوم التنافر وذلك لأنهم هربوا فندوا في الأرض كما تند الإبل إذا شردت عن أربابها، أخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها فتكون الملائكة على حافتها حين يأمرهم الربُّ فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف ثم ينزل الملك الأ على بجنبته اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض نَدُّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه، وذلك قول الله تعالى: ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم﴾.

وذلك قوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجبهنم﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها﴾[(٤)] يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذا سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب، وقيل معنى قوله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٦ ـ ١٧.

تعالى يوم تولون مدبرين يوم تولون منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ﴾ يعصمكم من عذابه يعني غير الله لا يقدر على دفع عذاب الله قطعاً وإنما يدفع عذاب الله رحمته ولا يكون لهم من الله رحمة تعصمهم من عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يضله عن طريق الجنة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ إليه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام على أن فرعونه فرعون موسى طال عمره أو على نسبة أحوال الأباء إلى الأولاد يعني جاء آباءكم يوسف، وقيل المراد يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام أرسل إليهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ قال ابن عباس من عبادة الله وحده مخلصاً له الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي مات يوسف عليه السلام ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي أقمتم على كفركم وزعمتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إضلالاً مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ في العصيان ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك ﴿مُّرْتَابٌ﴾ أي شاك فيما يشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الموصول الأول، لأنه بمعنى الجمع ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ حجة واضحة بل إما بتقليد أو شبهة داحضة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ من عند الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ضمير من وإفراده نظراً إلى لفظه ويجوز أن يكون الذين مبتدأ وخبره كَبُرَ على حذف مضاف تقديره وجدال الذين يجادلون في آيات الله كبر مقتاً والذين مبتدأ وخبره بغير سلطان وفاعل كبر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أن كاف اسم بمعنى مثل أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ استئنافاً للدلالة على موجب جدالهم وجاز أن يكون المعنى كذلك مثل إضلالهم يطبع الله، أي يختم بالضلال ويوثق ﴿عَلَىٰ

﴿كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بحيث لا يدخله نور الإيمان قرأ أبو عمرو وابن ذكوان قلب بالتنوين على وصفه بالتكبر والتجبر لأنه صنيعهما كقولهم رأت عيني وسمعت أذني، أو على حذف المضاف تقديره على قلب كل ذي قلب متكبرٍ جبار والباقون بالإضافة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لوزيره هامان ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي بناءً عالياً لا يخفى على الناظر وأن بعد، ومنه التصريح بمعنى الإظهار ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي الطرق ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي طرقها وأبوابها من سماء إلى سماء وكل ما يؤدي إلي شيء فهو سبب له كالرشاء والدلو للماء وأسباب الثاني بيان للأول وفي إيضاحها بعد إبهامها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ قرأ حفص بالنصب على جواب لعل بالفاء والباقون بالرفع عطفاً على أبلغ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الظاهر أنه أمر بالبناء كبناء نمرود وذكرناه في سورة النمل، وقال البيضاوي لعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه، أو أن يرى الناس فساد قول موسى بأن أخباره من إله السماء توقف على إطلاعه ووصوله إليه وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو ممَّا لا تقوى عليه الإنسان وذلك لجهله بالله وكيفية استنبائه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعوى الرسالة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي تزييناً مثل ذلك التزين يعني تزيين بناء الصرح للإطلاع على رب السماوات ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي كل عمل سيء يأباه العقل السليم يعني أفسد الله بصيرته، فكان يرى كل عمل سيء حسناً ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الرشاد، قرأ الكوفيون ويعقوب بضم الصاد على البناء للمفعول والفاعل على الحقيقة هو الله سبحانه يُضِلُّ مَنْ يَشآء ويهدي من يشاء والباقون بفتح الصاد يعني صَدَّ فرعونُ الناسَ عن الهدى بأمثال هذه الشبهات والتمويهات، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ في إبطال أمر موسى ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي في خسار وضياع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ

مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون ﴿يا قوم اتبعون﴾ قرأ ابن كثير أتبعوني بإثبات الياء في الحالين وقالون وأبو عمرو وصلاً فقط والباقون بحذف الياء في الحالين ﴿أَهْدِكُمْ﴾ أي أدلكم ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي سبيلاً يوصل سالكه إلى المقصود وفيه تعريض إلى أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغيّ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يسير يتمتعون بها مدة يسيرة ثم ينقطع ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ التي لا تزول فعليكم بما ينفعكم في الآخرة ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي في حال الإيمان فإن الإيمان شرط لجزاء كل عمل صالح لأن الله تعالى هو المالك للجزاء فلا بد للإيمان به على ما يرتضيه حتى يجزي ما عمل لوجهه خالصاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة للأعمال بل إضعافاً مضاعفة فضلاً منه ورحمةً ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ﴾ قرأ الكوفيون وابن ذكوان بسكون الياء والباقون بفتحها، والمعنى ما لكم كما تقول مالي أراكم حزيناً يعني أخبروني كيف حالكم على خلاف ما يقتضيه العقل والعرف ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ من النار بالإيمان بالله وحده ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي إلى الشرك الذي يوجب النار، كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنَةِ الغفلة وإهتماماً بالمناولة ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه، لم يعطف النداء الثاني على الأول لأنه بيان لما قبله وعطفه الثالث على الثاني أو على الأول ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدل من تدعونني الأول أو بيان منه تعليل والدعاء بعدي بإلى وباللام كالهداية ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ أي بربوبيته ﴿عِلْمٌ﴾ بل عندي دليل قاطع على إمتناعه ولا بد للإيمان من برهان على وجوده وربوبيّته ولا يصح الإعتقاد إلا عن ايقان ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب القادر على الانتقام ممن كفر به ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ لذنوب من شاء ممن آمن به فهو المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والعلم والإرادة.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قيل لا في لا جرم رد لما دعوه إليه من عبادة الأصنام، وجَرَمَ فعل بمعنى حَقّ وفاعله أنَّ مع جملتها أي حَق عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً في الدارين لأنها جمادات لا دعوة لهم في الدنيا إلى العبادة وفي الآخرة تتبرّأ عن عابديها وليس لها ما يقتضي ألوهيتها أو حق عدم دعوةِ مستجابةٍ لها أو عدم استجابة دعوة لها، قال السديُّ لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في

الآخرة، وقيل جَرَمَ فعل من الجرم بمعنى القطع ولا للنفي كما أن بُدّاً من لا بُدَّ فعل من التبديد بمعنى التفريق والمعنى لاقطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقت مَّا فيكون معناهُ إستَمرَّ كما في ما برَحَ وما زَالَ وحاصل معناه حقّاً، وفي القاموس لا جَرَمَ أي لاَ بُدَّ أو حَقّاً أو لا محالة أو هذا أصله ثم تحول إلى القسم فلذلك يجاب عنه باللام، يقال لاَ جَرَمَ لآتينك وقيل جَرَمَ بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه إلى كسب ذلك الدعاء إليه أن لا دعوه له بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ولا على هذا أيضاً لرد ما دعوه إليه ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعد الموت فيجازي كلاً بما يستحقه ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة الطغيان بالإشراك وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازموها ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي سيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب حين لا ينفعكم الذكر ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصمني من كل سوء، قال ذلك لما توعدوه إذا ظهر مخالفته لدينهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعلم المحق من المبطل.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم خرج المؤمن من بينهم فطلبوه فلم يقدروا عليه وذلك قوله عز وجل ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عطف على جمل محذوفة تقديره فأراد آل فرعون قتله ففرَّ منهم فأرسل فرعون جماعة ليأخذوه فوقاه الله ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي ما أرادوا به ﴿وحاق بآل فرعون﴾ أي بفرعون وقومه واستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك سوء العذاب أي الغرق في الدنيا والنار في الآخرة، وقيل حاق بآل فرعون يعني بالذين أرسلوا لطلب المؤمن من آل

فرعون ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي القتل فإنه لمَّا فرَّ إلى الجبل فأتبعه طائفة فوجدوه يصلّي والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم فرعون.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾ جملة مستأنفة أو النار خبر محذوف ويعرضون استئناف للبيان أو النَّارُ بدل من سُوْءِ العذاب ويُعَرَضُوْنَ حال منها أو من الآل، قال ابن مسعود أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار فيقال يا آل فرعون هذه مأواكم حتى تقوم الساعة، أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم، وقال مقاتل والسديُّ والكلبي يعرض روح كل كافر على النار بكرةً وعشياً ما دامت الدنيا يعني إلى قيام الساعة، ويؤيده ما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مَات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة**»[1] وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر وقد دلت الأحاديث عليه وأنعقد عليه الإجماع ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر بهمزة الوصل وضم الخاء، يعني يقال لهم (ادخلوا يا) ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ وقرأ الباقون بهمزة القطع وكسر الخاء من الإدخال أي يقال للملائكة أدخلوا آل فرعون ﴿أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ قال ابن عباس يريد ألوان العذاب غير الذي كانوا يعذبون به منذ غرقوا يعني في عالم البرزخ.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ﴾ أي أهل النار ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ أي أذكر يا محمد لقومك وقت مخاصمتهم في النار وجاز أن يكون الظرف عطفاً على غدواً ﴿فيقول الضعفاء للذين أستكبروا﴾ تفصيل للحاجة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ﴾ في الدنيا ﴿تَبَعٗا﴾ والتبع يكون واحداً وجمعاً لتابع كَخَدَم جمع خادم على قول البصريين، وقيل معناه ذوي تبع بمعنى أتباع على الإضمار أو التجوز، وقال الكوفيون جمع لا واحد له وجمعه أتباع ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدفع استفهام بمعنى الأمر ونصيباً مفعول لما دل عليه مغنون أوله بالتضمين أو مصدر كشيئاً في قوله تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾[2] فيكون صلة لمغنون ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا﴾ أي نحن وأنتم ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه بالغداة والعشي (١٣٧٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٦٦).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

﴿فِيهَآ﴾ أي في النار فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بدخول أهل الجنّة الجنة وأهل النار النار ولا معقب لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وضع جهنم موضع الضمير للتهويل ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ شيئاً ﴿من العذاب قالوا﴾ أي خزنة جهنم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إستفهام للإنكار والتوبيخ على إضاعتهم أوقات الدعاء وأسباب الإجابة وعطف على محذوف تقديره أما علمتم في الدنيا ما لحقكم في الآخرة من العذاب ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ منذرين به ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جاءتنا رسلنا مبشرين ومنذرين ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أمر على سبيل الإستهزاء ومعناه الإقناط ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي ضياع لايجاب هذا قول من الله ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة وعلى هذا فهو حال أو معترضة.

لمَّا سبق قصة موسى وانتصاره وقومه على فرعون أعقبه ما استحقه الرسل والمؤمنون من النصر عموماً فقال ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الضحاك بالحجة، وقال ابن عباس بالغلبة، والقهر، قال البيضاوي ولا ينتقض ذلك بما كان للكافرين من الغلبة أحياناً امتحاناً إذ العبرة بالعواقب وغالب الأمر.

وقيل بالانتقام من الأعداء في الدنيا ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ يعني يوم القيامة يقوم الحفظة من الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين بدلٌ من يوم يقوم ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لكونها باطلة، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر لا تنفع بالتاء الفوقانية لتأنيث الفاعل والباقون بالياء لكون التأنيث غير حقيقي وللفصل ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي البعد من الرحمة حال من الظالمين ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي الدار السوآى يعني جهنم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ متصل بقصة موسى وبين ذلك اعتراض يعني آتينا موسى ما يهتدي به في الدين أي التوراة وذلك بعد إهلاك فرعون وقومه ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة بعد موسى ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ أي للهداية والتذكرة أو هادياً ومذكراً ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لذوي العقول السليمة.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لك بالنصر ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الخلف واستشهد بحال موسى وفرعون ﴿واستغفر لذنبك﴾ أمر تعبدي ليزيدنه درجته ويصير سنة لما بعده ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صلّ شاكراً لربك ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ قال الحسن يعني صلاة العصر وصلاة الصبح، وقال ابن عباس يعني الصلوات الخمس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ينكرون القرآن ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي حجة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ من الله تعالى ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ﴾ كنى بالصدر القلب لكونه موضعه أي ما في قلوبهم ﴿الإكبر﴾ قال ابن عباس أي ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والعظمة يعني يتكبرون عليك ويتعظمون أنفسهم عن إتباعك ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ قال مجاهد ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لأن الله عز وجل يذلهم وقال ابن قتيبة إن في صدورهم إلا تكبر على محمد وطمع في أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك الكبر ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم تعليل للإستعاذة ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فمن قدر على خلقها مع عظمها أولاً من غير أصل قدر على خلق الناس ثانياً من أصل وهو إزاحة لإشكال ما يجادلون فيه مما نطق به القرآن من أمر البعث ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم وإتباع أهوائهم وتقليد آبائهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا الدجال فقالوا أيكون منا في آخر الزمان فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا وكذا فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال لَخَلْقُ السماوات والأرض أكبر من خلقِ النَّاسِ قال أي من خلق الدجال» وأخرج عن كعب الأحبار قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ قال هم اليهود فيما ينتظرونه من أمر الدجال. عن عمران بن حصين قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«ما بين خلق آدم إلى**

قيام الساعة أمر أكبر من الدجال»[١] رواه مسلم، وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يخفى عليكم أن الله ليس بأعور وأن مسيح الدجال أعور عين اليمنى كأنّ عينه عنبة طافية»**[٢] متفق عليه، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي إلا قد أنذر أمته الأعور الكذاب إلا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك ف ر»**[٣] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه إنه أعور وإنه يجيىء معه مثل الجنة والنار فالتي يقول إنها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه» متفق عليه، وعن حذيفة عن النبيّ ﷺ قال: «إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء بارد طيب» متفق عليه، وزاد مسلم «وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب» وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدجال أعور العين اليسرى جعد الشعر معه جنته وناره فناره جنة وجنته نار»** رواه مسلم، وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ فقال «يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه شابٌ قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فأثبتوا، قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم، قلنا فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال لا أقدروا له قدره». الحديث بطوله رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فيتوجه قِبَلَه رجلٌ من المؤمنين فيلقاه المسالح مسالح الدجال فيقولون له أين تعمد؟ فيقول أعمد إلى هذا الذي خرج قال فيقولون له أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول ما بربنا خفاء، فيقولون اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض أليس قد نهاكم ربكم أن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع (٤٤٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال (٧١٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن، وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٣).

تقتلوا أحداً دونه فينطلقون به إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال فيأمر الدجال به فيشبح فيقول خذوه وشجوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال فيقول أما تؤمن بي؟ فيقول المسيح الكذاب قال فيؤمر به فيوشر بالميشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، قال ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له قم فيستوي قائماً ثم يقول له أتؤمن بي؟ فيقول ما ازددتُ فيك إلا بصيرة، قال ثم يقول يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس قال فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار وإنما ألقي إلى الجنة فقال رسول الله ﷺ هذا أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين»[١] رواه مسلم، وعن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة» رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ «يأتي الدجال وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه رجل وهو خير الناس أو من خيار الناس فيقول أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ فيقول الدجال أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم أحييتُه هل تشكون في الأمر؟ فيقولون لا فيقتله ثم يحييه فيقول والله ما كنتُ فيك أشد بصيرة مني اليوم فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه» متفق عليه، وعن أبي بكرة عن النبيّ ﷺ «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال لما يؤمئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»[٢] متفق عليه.

وعن أبي بكر الصديق قال حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال له خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة»[٣] رواه الترمذي، وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت قال النبيّ ﷺ: «**يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاضطرام السعفة في النار**» رواه البغوي في شرح السنة والمعالم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الدجال من أمتي (لعل المراد بالأمة أمة الدعوة) سبعون ألفاً عليهم التيجان**» رواه البغوي في شرح السنة والمعالم، قال البغوي ويرويه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ويتبع الدجال

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في صفة الدجال وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه (٢٩٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال (٧١٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء من أين يخرج الدجال (٢٢٣٧).

يومئذ سبعون ألف يهودي كلهم ذو تاج وسيف محلى» وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت كان رسول الله ﷺ في بيتي فذكر الدجال فقال: «إن بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء فيها ثُلث قطرها والأرض ثُلث نباتها والثانية تمسك السماء ثُلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلا هلك، وإن من أشد فتنته أن يأتي أعرابياً فيقول أرأيتَ إن أحييت لك ألست تعلم أني ربك؟ فيقول بلى فيمثل له الشياطينَ نحو إبله كأحسن ما يكون ضروعاً وأعظمه أسنمة، قال ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه، فيقول أرأيتَ إن أحييتُ لك أباك وأخاك ألستَ تعلم أني ربك؟ فيقول بلى فيمثل له الشياطينَ نحو أبيه ونحو أخيه، قالت ثم خرج رسول الله لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغم ممّا حدثهم قالت فأخذ بلحمتي الباب فقال مهيم أسماء قلتُ يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال، قال إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن، فقلتُ يا رسول الله إنا لنعجن عجيناً فما نخبره حتى نجوع فكيف بالمؤمنين يومئذ، قال تجزئهم ما يجزىء أهل السماء من التسبيح» رواه أحمد والبغوي في المعالم، وعن المغيرة بن شعبه قال: «ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته وإنه قال لي ما يضرك؟ قلتُ إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء، قال هو أهون على الله من ذلك»[1] متفق عليه.

ولمّا قال الله سبحانه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نبه على أن الجاهل كالأعمى والعالم كالبصير فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ والجاهل والعالم والمحسن والمسيء فلا بد أن يكون لهم محل يظهر فيه تفاوتهما ولا تفاوت لهما في الدنيا فهو ما بعد الموت والبعث وزيادة لا في المسيء لأن المقصود نفي مساواته للمحسن فيما له من الثواب والكرامة، والعاطف الثاني عطف الموصول مع ما عطف عليه على الأعمى والبصير لتغاير الوصفين في المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرون، قرأ الكوفيون بالتاء الفوقانية على تغليب المخاطب أو الإلتفات أو أمر الرسول بالمخاطبة والباقون بالتحتانية لأن أول الآيات وآخرها خبر عن قوم غيب والضمير للناس أو الكفار ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة ﴿لآيته﴾ حتى يظهر تفاوت المحسن والمسيء ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال (٧١٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الدجال وهو أهون على الله عز وجل (٢٩٣٩).

في إتيانها بناءً على استحالة خلف ما أخبر الله به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بها ولا يصدقون وعد الله لغفلتهم وشقاوتهم وقصور نظرهم على المحسوسات.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وقال ربكم ادعوني﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها قيل معناه أعبدوني دون غير ولمّا عبر عن العبادة بالدعاء قال موضع أُثيبكم ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ والقرينة على أن المراد بالدعاء العبادة وبالإستجابة الإثابة قوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جنهم داخرين﴾ أي ذليلين، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو بكر سيدخلون بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء، والظاهر أن المراد بالدعاء والعبادة كليهما السؤال فإن سؤال كل ما يحتاج المرء إليه وعدم التوجه إلى غيره تعالى في شيء من الأمور كمال العبودية والإفتقار الإعتراف بصمديته تعالى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**يسأل أحدكم ربه حاجاته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع**»[1] رواه الترمذي، وزاد في رواية عن ثابت البناني مرسلاً «حتى يسأل الملح وحتى يسأل شسعه إذا انقطع» عن النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (أدعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)**»[2] رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في مسانيدهم وقال الترمذي حديث حسن صحيح ورواه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٦١٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٦٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (١٤٧٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: فضل الدعاء (٣٨٢٨).

ابن شيبة في المصنف والحاكم في المستدرك في صحيحه وابن حبان في صحيحه عنه أنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر فذكر الحديث.

أورد النبيّ ﷺ ضمير الفصل والخبر معرفاً باللام ويقصد في أمثال ذلك حصر المسند على المسند إليه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾[1] أي لا رازق سواه وقد يقصد قصر المسند إليه على المسند كما في قوله الكرم هو التقوى والحسب هو الإيمان يعني لا كرم إلا التقوى ولا حسب إلا الإيمان، وهاهنا يحتمل المعنيين والحصر إنما هو على سبيل المبالغة ولعل المراد هاهنا أن الدعاء والعبادة متحدان بالذات مختلفان بالإعتبار والمفهوم فإن كل دعاء وسؤال فهو عبادة وطاعة لأن في السؤال ذلٌّ وافتقار والعبودية في اللغة إظهار التذلل والافتقار والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولذا لا يستحقه إلا الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2] وكل عبادة وطاعة فهو سؤال، حيث قال رسول الله ﷺ: «**أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» رواه ابن أبي شيبة في المصنف وقال الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] قال الجزري في النهاية إنما سمى التهليل والتحميد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه كالحديث الآخر «إذ اشغل عبدي ثناءه عليَّ عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين»، وروى الترمذي ومسلم «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين»[4] وفي رواية «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي» الحديث.

اعلم أن الدعاء منه ما هو فريضة وهو قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ في الفاتحة في الصلاة أو سنة مؤكدة كالدعاء في القعدة الأخيرة ومواقف الحج وغير ذلك ومنه ما هو حرام أو مكروه وهو قصر السؤال على لذات الدنيا وسؤال ما هو معصية وسؤال ما هو مستحيل أو ما في معناه قال الله تعالى: ﴿منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾[5] وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩٢٦).

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾[(١)] وأما سؤال كل أمر يحتاج إليه العبد في الدنيا والآخرة والاستعاذة من كل شر فمأمور به مستحب بإجماع العلماء، وذهب طائفة من الزهاد إلى أنَّ ترك الدعاء أفضل سلاماً للقضاء، وقال طائفة إن دَعَا للمسلمين فحسن وإن خص نفسه فلا.

والحجة لنا الكتاب والسنة والإجماع عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**»[(٢)] رواه الترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه والحاكم، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»[(٣)] رواه الترمذي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة إنتظار الفرج**»[(٤)] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[(٥)] رواه الترمذي، وابن حبان والحاكم وقال الترمذي حديث غريب، والمراد من هذه الأحاديث أنه من لم يسأل الله تعالى استكباراً غضب عليه حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد» رواه ابن حبان والحاكم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ**: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض**» رواه الحاكم في المستدرك، وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سأل الله شيئاً أحبُّ إليه من أن يسأل العافية**» رواه الترمذي ورواه الحاكم في المستدرك «فتحت له أبواب الجنة».

فصل:

فيما وعد عن الإستجابة لمن يدعو الله منها هذا الحديث عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**من فتح له فلكم باب الدعاء فتحت له أبواب الإجابة**» رواه ابن أبي شيبة، وعن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: فضل الدعاء (٣٨٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (٣٣٧١)، وقد ضعف من أجل ابن لهيعة.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٧١).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٣).

أن يردهما صفرا»[١] رواه الترمذي وأبو داود والبيهقي في الدعوات الكبيرة، وعن أبي سعيد الخدري أن النبيّ ﷺ قال: «**ما من مُسلم يدعو بدعوة ليس فيها أثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إياه بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا إذاً نكثر، قال الله أكثر**» رواه أحمد، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل، قيل يا رسول الله ما الإستعجال؟ قال يقول قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»[٢] رواه مسلم، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء**» رواه الترمذي، ورواه أحمد عن معاذ بن جبل وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كفّ عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**»[٣] رواه الترمذي.

فصل:

فيمن لا ترد دعوته: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم**»[٤] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها إليه فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الربُّ وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**» رواه الترمذي، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملِكَ مؤكل كلّما دعاه لأخيه بخير قال الملك المؤكل به آمين ولك بمثله**»[٥] رواه مسلم، وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «خمس دعوات تستجاب لهن دعوة المظلوم حتى ينتصر ودعوة الحاج حتى

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٥٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (١٤٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي (٢٧٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨١).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في دعوة الوالدين (١٩١١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء بظهر الغيب (١٥٣٥).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٢٧٣٣).

يُصدرو دعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب ثم قال وأسرع الدعوات إجابة دعوة الأخ بظهر الغيب» رواه البيهقي في دعوات الكبير، وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «**إن أسرع الدعاء إجابةً دعوة غائب لغائب**» رواه الترمذي وأبو داود.

فصل:

في شرائط الإستجابة للدعاء منها تجنب الحرام في المأكل والمشرب والمكسوب، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك**»[1] رواه مسلم. ومنها حضور القلب عند الدعاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب لاه**»[2] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، ومنها الجد في الدعاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهمّ إغفر لي إن شئتَ ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[3] رواه مسلم.

فصل:

في سنن الدعاء وآدابه: عن فضالة بن عبيد قال بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلّى فقال اللّهم اغفر لي وارحمني فقال رسول الله ﷺ «عجلتَ أيها المصلّي إذا صليتَ فقعدتَ فأحمد الله بما هو أهله وصل عليَّ ثم ادعه، قال ثم صلّى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلّى على النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «أيها المصلّي ادْعُ تجب»[4] رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، وعن ابن مسعود قال كنتُ أصلّي (والنبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر معه فلمّا جلستُ بدأتُ بالثناء على الله ثم الصلاة على النبيّ ﷺ ثم دعوتُ لنفسي فقال النبيّ ﷺ: «**سل تعطه**» رواه الترمذي، وعن عمر بن الخطاب قال: «إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيك» رواه الترمذي، وعن مالك بن يسار قال قال رسول الله ﷺ «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها، وفي رواية ابن عباس «سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٧٨).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: العزم والدعاء ولا يقل إن شئت (٢٦٧٩).
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٧٧).

فامسحوا بها وجوهكم»[1] رواه أبو داود، وعن عمر قال كان رسول الله ﷺ «إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه» رواه الترمذي، وعن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك، رواه أبو داود، وعن أنس قال كان رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه، وعن السائب بن يزيد عن أبيه أن النبيّ ﷺ كان إذا دعا رفع يديه مسح وجهه بيديه، رواه البيهقي في الدعوات الكبير، وعن عكرمة عن ابن عباس قال المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك أو نحوهما. رواه أبو داود، وعن ابن عمر أنه يقول إن رفعكم أيديكم بدعة ما زاد رسول الله ﷺ على هذا يعني إلى الصدر، رواه أحمد، وعن أبي بن كعب قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعاه بدأ بنفسه، رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب صحيح.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي لتستريحوا فيه بالنوم ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي يبصر فيه، وإسناد الإبصار إليه مجازي مبالغةً ولذلك عدل به عن التعليل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم وعظم الفضل وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم يعني أنهم هم الذين يكفرون ولا يشكرون كقوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2] وجملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ متصل بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[3] والله مبتدأ والموصول خبره أو خبر مبتدأ محذوف والموصول صفة له ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوص بتلك الأفعال المقتضية للألوهية والربوبية، مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ لا غيره ﴿رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الجواهر والأعراض وأفعال العباد ﴿لَّآ إِلَٰهَ﴾ أي لا تستحق العبادة أحد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ ليس أحد غيره موصوفاً بشيء من الصفات المقتضية للألوهية المستوجبة للعبادة ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فكيف ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون من عبادته إلى عبادة غيره الأربعة كلها أخبار مترادفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما أفك كفار مكة ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي مستقراً ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفاً فوقكم استدلال ثان بأفعال آخر مختصة به تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يعني خلقكم منتصب القامة بادي البشرة متناسب الأعضاء متهيئاً لمزاولة الصنائع وإكتساب الكمالات، قال ابن عباس خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده وغيره يتناول بفيه ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (١٤٨٤).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٣.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الأطعمة اللذيذة، الله مبتدأ والموصول خبره أو خبر مبتدأ محذوف يعني هو والموصول صفة والجملة مقررة للجملة السابقة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن كل ما سواه مربوب مفتقر بالذات معترض لزوال ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المتفرد بالحياة الذاتية الذي يقتضي ذاته وجوده الوجوب والوجود وإن كانا صفتي كمال لكنهما ظلان من ظلال ذاته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر ثان لهو أي لا يستحق العبادة إلا من كان هذا شأنه ولا شيء كذلك إلا هو ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ أي فأعبدوه واسألوا منه حوائجكم، الفاء للسببية فإن ما ذكر من الصفات موجبات لعبادته ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ قيل معناه قائلين ذلك، وقال الفراء هو خبر وفيه إضمار الأمر مجازه: «فادعوه وقولوا الحمد لله رب العالمين» وروي عن مجاهد عن ابن عباس قال من قال لا إله إلا الله فليقل على إثره الحمد لله رب العالين فذلك قوله عز وجل: ﴿فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾ والله أعلم.

﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

أخرج جويبر عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة وَشَيبَة بن ربيعة قالوا يا محمد إرجع عما نقول وعليك بدين آبائك وأجدادك فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ أي من الحجج والآيات فإنها مقويّة لأدلة عقلية منهية عنها ﴿وأمرت أن اسلم لرب العالمين﴾ أي أنقاد له وأخلص له ديني ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي أطفالاً والتوحيد لإرادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ اللام متعلق بمحذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وكذا في قوله ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ﴾ ويجوز عطفه على لتبلغوا قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام بضم الشين والباقون بكسرها ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ﴾ أي قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ أي ويفعل ذلك لتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي وقتاً معيناً لا يجاوزونه يريد أجل الحياة إلى الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لتعقلوا ما في ذلك من الحجج والعبر ﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى﴾ أي أراد ﴿أَمْرًا

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج في تكوينه تجشم الفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما سبق من حيث أنه يقتضي قدرةً ذاتية غير متوقفة على العدد والمواد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني يقولون أنها ليست من عند الله أو يتولون خلاف سبيل الرسول والمؤمنين، الإستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وتقرير فيه تعجيب ﴿أنى يصرفون﴾ كيف صرفوا عن الحق، استفهام للتوبيخ وتكرير ذم المجادلة للتأكيد أو لتعدد المجادل أو المجادل فيه، روى عن محمد بن سيرين أن الأولى كانت في المشركين وهذه الآية نزلت في القدرية ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الشرائع بدل من ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ فإن كان المراد به القدرية مجوس هذه الأمة فهم يكذبون ما ثبت بالكتاب والسنة من كون الله سبحانه خالقاً للأشياء كلها من الخير والشر والجواهر والأعراض قادراً على كل شيء يغفر لمن يشاء ما يشاء من الصغائر والكبائر ويعذب من يشاء يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يجب عليه شيء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1] وينكرون الصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك، وجاز أن يكون الذين كذَّبُوا مبتدأ فيه معنى الشرط وخبره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ بالرفع عطف على الأغلال أو مبتدأ خبره ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرون ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ والعائد محذوف أي يسحبون بها وهو على الأول حال، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قرأ والسلاسل بالنصب على المفعولية ويسحبون بفتح الياء على البناء للفاعل قال وذلك أشد عليهم وهم يَسْحَبونَ السَّلاَسِلَ ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

يحرقون من شجر التَّنُّورَ إذا ملأه بالوقود، وقال مقاتل وقد بهم النار، وقال مجاهد يصيرون وقود النار والمراد تعذيبهم بأنواع العذاب ينقلون من بعضها إلى بعض تارة بالحميم وأخرى بالنار، أخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية إلى قوله ﴿يُسْجَرُونَ﴾ فقال: «لو أن رُضافة مثل هذه (وأشار إلى جمجمة) أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمس مائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها أو قعرها»[1].

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿قَالُوا ضَلُّوا﴾ أي غابوا ﴿عَنَّا﴾ فلا نراهم وذلك قبل أن يقرن بهم آلتهم أو المعنى ضاعوا عنا فلم نجد منهم ما كنا نتوقع منهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ قيل هذا إنكار للإشراك مثل قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2] وقيل معناه لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ينفعنا أو يدفع عنا المكروه، وقال الحسن بن الفضل أي لم نصنع من قبل شيئاً أي ضاعت عبادتنا كما يقول من ضاع عمله ما كنتُ أعمل شيئاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إضلالاً مثل إضلال هؤلاء المشركين أو مثل إضلال القدرية ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أجمعين حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تبطرون وتتكبرون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي تتوسعون في الفرح والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ ﴿أدخلوا أبواب جهنم﴾ السبعة المقسومة لكم ﴿خَالِدِينَ﴾ مقدري الخلود فيها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق جهنم وكان مقتضى النظم فبئس مدخل المتكبرين ولما كان الدخول المقيد بالخلود سبب الثواء عبر بالمثوى.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على إيذاء المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وإهلاك الكافرين ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿فإما نرينك﴾ أن شرطية أدغمت في ما الزائدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ﴿بعض الذي نريهم﴾ من القتل والأسر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريهم ﴿فالينا يرجعون﴾ يوم القيامة فنجازيهم على أعمالهم وهو جواب نَتَوَفَّيَنَّكَ وجواب نُرِيَنَّكَ محذوف مثل فذلك، وجاز أن يكون هذا جواباً لهما بمعنى أن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب ويدل على شدته الاقتصار بذكر الرجوع

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

في هذا المعرض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ التنوين للتكثير والتعظيم ﴿مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أخرج أحمد وابن راهويه في مسنديهما وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك من حديث أبي لبابة أن النبيّ ﷺ سئل عن عدد الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» فقيل فكم الرسل منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً» وأخرج ابن حبان من حديث أبي ذر نحوه، والمذكور في القرآن سبعة وعشرون ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية﴾ أي معجزة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بأمره وإرادته ليس لهم إختيار في إتيان بعضها والإستبداد بإتيان المقترح بها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قضاؤه بين الأنبياء والأمم ﴿قضي بالحق﴾ أي بنصر الأنبياء والمؤمنين وتعذيب الكفار ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الكفار المعاندون باقتراح الآيات بغير ظهور الحق بالمعجزات.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ فإن من جنسها ما يؤكل كالغنم ومنها يؤكل ويركب وهو الإبل والبقر الجملة متصلة بقوله هو الَّذِي يُحيي ويُميتُ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها وجلودها ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرة عليها عطف على قوله ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما قال على الفلك. ولم يقل في الفلك مزاوجة وتغير النظم في الأكل لأنه في حيز الضرورة إذ يقصد به التعيش والتلذذ والركوب

والمسافرة عليها قد يكون لأغراض دينية واجبة أو مندوبة أو للفرق بين العين والمنفعة ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وجوده وكمال قدرته وفرط رحمته ﴿فَأَىَّ﴾ آية من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ إستفهام للإنكار على الإنكار، فإنها لكثرتها ولظهورها لا تقبل للإنكار وهو ناصب أيّ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ تقديره ألم يخرجوا فلم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما بقي منهم من القصور والمصانع ونحوها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ يعني فلم ينفعهم ذلك ما الأولى نافية أو استفهامية للإنكار منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة بها ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ عطف على ما أغنى ﴿رسلهم بالبينات﴾ بالمعجزات والآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ واستحقروا علم الرسل والمراد بالعلم ما يزعمون علماً نافعاً وهو في الحقيقة إما جهل مركب كقول اليونانيين وغيرهم من الكفار في الإلهيات وبعض الطبيعيات والرياضيات، وكقول كفار مكة لن نبعث ولن نعذب كذا قال مجاهد وكقول اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾(١) وإما علم متعلق بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾(٢) فلما جاءتهم رسلهم معلوم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبنائها على الإجمال في طلب الدنيا وترك إتباع الشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤوا بها واسهزؤوا بهم واعتقدوا أن علمهم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به، وإما علم بأشياء لا ينفعهم في الآخرة كعلم الطبيعي والرياضي والنجوم والسحر والشعبذة لأهل اليونان والهند وغيرهم. روي أن أفلاطون سأل عيسى بن مريم عليه السلام إمتحاناً لنبوته فقال إن كانت السماوات قسماً والحوادث سهاماً والإنسان هدفاً والرامي هو الله فأين المفر؟ فأجاب عيسى عليه السلام ففروا إلى الله فحينئذ أيقن أفلاطون بنبوته لكن قال إنما الأنبياء لأجل الناقصين ونحن كاملون لا حاجة لنا إلى الرسل، وعن سقراط أنه سمع موسى عليه السلام وقيل له لو هاجرت إليه فقال نحن قوم مهتدون لا حاجة لنا بمن يهدينا، وقيل معناه فَرِحُوا أي ضحكوا استهزاءً بما عندهم أي عند الأنبياء مّنَ العِلمِ ويؤيده قوله تعالى ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ وقيل ضمير فرحوا راجع إلى الرسل يعني لمّا رأى الأنبياء تمادى جهل الكفار وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من الله العلم وشكروا الله تعالى عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡا﴾ أي الكفار ﴿بَأۡسَنَا﴾ أي شدة عذابنا عند الموت ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ أي تبرأنا مما كنا نعبد من الأصنام ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ هذا إما من باب تنازع العاملين وأعمال أحدهما والإضمار في الثاني أو يكون اسم يك ضمير الشأن مستتراً فيه أو يكون يَكُ تامة وبنفعهم بتقدير أن فاعل له ﴿لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ أي عذابنا لامتناع قبوله حينئذٍ ولذلك قال لم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم ﴿سنت الله﴾ منصوب على المصدرية من فعل محذوف للتأكيد، أي سن الله ذلك سنة ماضيةً في العباد أن الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع وأن العذاب نازل على مكذبي الرسل، وقيل منصوب بنزع الخافض كسنة الله، وقيل على الإغراء أي احذروا سنة الله ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي وقت رؤيتهم الباس ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بذهاب الدارين، قال الزجاج الكافر خاسر في كل وقت ولكن يتبين لهم خسرانهم إذا العذاب.

سورة فصلت

آياتها أربع وخمسون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ إن جعلته مبتدأ فخبره ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ وإن جعلته تعديد الحروف فتنزيلٌ خبر محذوف، قال الأخفش تنزيلٌ مبتدأ لتخصيصه بالصفة وخبره ﴿كِتَٰبٌ﴾ وهو على الأولين بدل منه أو خبر آخر أو خبر محذوف، ولعل افتتاح هذه السور السبع بحم وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة في النظم والمعنى قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى» رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي عن معقل بن يسار، وإضافة التنزيل للرحمن الرحيم للدلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي بينت بالأحكام والقصص والمواعظ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح أو الحال من الضمير المجرور في آياته فإنه أضيف إليه فاعل فصلت مثل ميتاً في قوله تعالى: ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1] وفيه امتنان عليهم بسهولة قراءته وفهمه فإنه لو كان بغير لغتهم لما فهموه ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ نزل منزلة اللازم أي لقومٍ ذوي علم ونظرٍ لا لمن أعرض عنها، أو يقال مفعوله محذوف منوى أي لقوم يعلمونَ معانيه ويفهمونه أو يكون على طريقة من يسمع يخل بتقدير مفعوليه أي لقوم

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

يعلمونه حقاً، والجملة صفة أخرى لقرآناً أو صلة لتنزيل أو لفصلت والأول أولى لوقوعه بين الصفات ﴿بَشِيرًا﴾ لأولياء الله ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأعدائه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره وقبوله عطف على فصلت ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يستمعون تعنتاً وعناداً أو لا يقبلون يقال شفعت إلى فلان فلم يسمع قولي يعني لم يقبل والجملة بيان للإعراض.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني مشركي مكة عطف على إعراض ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية جمع كنان ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد فلا نفقه ما تقول ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل وصمم لا نسمع ما تقول والمعنى أنا في ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ خلاف في الدين يمنعنا عن التواصل وللدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ أصلاً.

وهذه تمثيلات لامتناع القبول والمواصلة والمعنى أنا في ترك القبول والتواصل منك بمنزلة من بينهما حاجز قوي ﴿فاعمل﴾ على دينك أو في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك ﴿قُلْ﴾ يا محمد في جوابهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ قال الحسن علمه الله التواضع يعني ما أنا إلا واحد منكم لولا الوحي لم يكن عندي من العلم ما ترونه ولكن أوحي إليَّ ﴿أنما إلهكم إله واحد﴾ فعليكم بإصغائه وتلقيه أو المعنى لستُ بملك ولا جني لا يمكنكم التلقي منه ولا أدعوكم إلى ما يأبى عنه العقول بل أدعوكم إلى التوحيد إلى الدليل يدل عليه العقل والنقل ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي توجهوا إلى الله بالطاعة ولا تميلوا عن طاعته ﴿واستغفروه﴾ مما أنتم عليه من الشرك وسوء الأعمال ثم هددهم على ذلك بقوله ﴿وَوَيْلٌ﴾ كلمة عذاب مبتدأ خبره ﴿لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس الذين لا يقولون لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم عن الشرك بالتوحيد، وقال الحسن وقتادة لا يقرون بالزكاة ولا يرونه واجباً وكان يقال الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ومن تخالف عنها هلك.

وقال مقاتل والضحاك لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم، قال البيضاوي فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع وقد ذكرنا هذه المسألة في تفسير سورة المدثر في قوله تعالى ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[1] الآية ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حال مشعر بأن امتناعهم من الزكاة مبني على إنكارهم للآخرة فإن من لم يعتقد بالآخرة وثواب الزكاة فيها اعتقد إعطاء المال للفقير إضاعة لا محالة جعل الله سبحانه منع الزكاة

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٣.

مقروناً بالإشراك والكفر بالآخرة لأن المال أحب الأشياء إلى الأنفس فبذله في سبيل الله أول دليل على إيمانه ففيه حث للمؤمنين على أيتاء الزكاوة وتهديد شديد على منعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ قال ابن عباس غير مقطوع، وقال مقاتل غير منقوص، وقيل غير ممنون لي لا يمنُّ به عليهم من المن، وقال مجاهد غير محسوب.

وقال السدي نزلت الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم الأجر على حسب ما كانوا يعملون في الصحة، عن عبد الله عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به أكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أطلقه**» رواه البغوي في شرح السنة والتفسير، وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**»[1] رواه البخاري، وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا ابتلي المسلم ببلاء في جسده قال للملك أكتب له صالح عمله الذي كان يعمل فإن شفاه غسله وطهره وإن قبضه غفر له ورحمه**» رواه البغوي في شرح السنة، وعن ابن مسعود أنه قال يكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض، رواه رزين.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قل ائنكم﴾ إستفهام توبيخ، والجملة الإستفهامية مستأنفة في جواب ما أقول لهم إن لم يستقيموا ولم يستغفروا ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي في مقدار يومين سميا بيوم الأحد والاثنين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ ولا يجوز له ند ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين ﴿رب العالمين﴾ أي خالق لجميع ما وجد من الممكنات ومرب لها، جمع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦).

العالم (لاختلاف أنواعه) بالياء والنون تغليباً للعقلاء وجملة ذلك رب العالمين تعليل للتوبيخ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي فوق الأرض مرتفعةً ليظهر للناظرين ما فيها من وجوه الأستبصار ويكون منافعها معرضة للطلاب ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي في الأرض بما خلق فيها من البحار والأنهار والثمار والأشجار والحيوانات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ أي أقوات أهلها أو الإضافة لأدنى ملابسة أي أقوات خلق فيها، قال الحسن: قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم بأت عَيَّنَ لكلٍ ما يصلحه ويعيش به وقد قرأ ابن مسعود «وقسم فيها أقواتها» وقال عكرمة والضحاك قدر في كل بلد ما لم يجعل في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد، قال الكلبي قدر الخبز لأهل قطر والذرة لأهل قطر والسمك لأهل قطر والتمر لأهل قطر ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي في تتمة أربعة أيام يعني في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء ومتصلين باليومين الأولين فهو كقولك سرتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة وإلى كوفة في خمسة عشر ولم يقل في يومين للإشعار باتصالهما باليومين الأولين ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب أي استوت سواءً بمعنى استواءً وقدر تقديراً سواءً والجملة صفة أيام، ويدل عليه قراءة يعقوب بالجر صفة لأربعة، وقيل حال من الضمير في أقواتها أو في فيها، وقرأ أبو جعفر سواءٌ بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلق بمحذوف أي هذا الحصر مبين للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها كذا قال قتادة والسديُّ أو بقدر أي قدر فيها الأقوات للطالبين لها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي قصد نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على غيره والظاهر أن ثم لتفاوت ما بين الخلقتين لا للتراخي في المدة لقوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾[1] فإن دحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ لعله أراد مادتها والأجزاء المتصغرة التي ركبت منها وكان مادة السماء دخاناً بخاراً للماء كذا قال البغوي ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ بما خلقتُ فيكما من التأثير والتأثر وإبراز ما أودعتُكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة أو ليأت كل منكما في حدوث ما أريد توليده منكما، قال طاووس عن ابن عباس أي أعطيا ما خلقتُ فيكما من المنافع لمصالح العباد، وقال ابن عباس قال الله عزَّوجلَّ أما أنت يا سماء فاطلعي شمسك وقمرك ونجومكِ وأنتِ يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثماركِ ونباتكِ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ منصوب على الحال أي طائعتين أو كارهتين أو على الظرف، أي ائتيا وقت طوع أو كرهٍ

(١) سورة النازعات، الآية: ٣٠.

أو على المصدر من طريق ضربتُه سوطاً أي إيتيا إتيان طوع أو كره، قال ابن عباس قال الله تعالى لهما أفعلا ما أمرتكما وإلا ألجأتُكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهاً فأجابتا بالطوع وقالتا أتينا و﴿قالتا أتينا طائعين﴾ ولم يقل طائعتين لأنه ذهب به إلى المساوات والأرض ومن فيهن مجازه أتينا بما فينا طائعين، فيه تغليب للعقلاء أو لما وصفهما بالقول أجراهما في الجمع مجرى من يعقل والأظهر أن الكلام وارد مورد التمثيل وأراد بقوله ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إظهار كمال قدرته ووجوب وقوع مراده وبقوله ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ سرعة تأثرهما بالذات فهو تمثيل بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[(١)].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي فخلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن والضمير للسماء على المعنى أو مبهم وسبع سماوات حال على الأول وتميزٌ على الثاني في يومين يوم الخميس والجمعة، قال المحلي ففرغ منها في آخر ساعة منه وفيها(خلق آدم) ولذلك لم يقل هاهنا سواء، قلتُ: لعل قول المحلى هذا مبني على ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة أنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**»[(٢)] والظاهر أن هذا الحديث وهم فيه الراوي فإن الثابت بالقرآن خلق السماوات والأرض في ستة أيام وذكر في هذا الحديث سبعة أيام، والصحيح أن بدء الخلق من يوم الأحد وهذا الحديث يدل على أنه من يوم السبت ومنطوق هذه الآية أن الله خلق الجبال رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يوم الثالث والرابع وهذا الحديث يدل على أنه خلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين، والظاهر من سياق قصة آدم عليه السلام أن خلق آدم كان بعد زمان طويل من خلق السماوات والأرض ﴿إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[(٣)] الآيات، وفي قصة خلق آدم تعجين طينه أربعين يوماً فلو صح خلق آدم في آخر ساعة من الجمعة فذلك الجمعة بدء الخلق والله أعلم ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال عطاء عن ابن عباس خلق في كل سماء خلقها من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام (٢٧٨٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الملائكة وما فيها من البحار والجبال والبرد وما لا يعلم إلا الله، وقال قتادة والسديُّ، يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها، وقال مقاتل أوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي وقيل أوحى في كل سماء الأمر الذي أمر به من فيها من الطاعة ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي كواكب ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظاً، وقيل مفعول له على المعنى كأنه قال وخصصنا السماء الدنيا بمصابيح زينةً وحفظاً ذلك الذي ذكرت من صنعه ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عطف على قل أئنكم يعني إن أعرضوا أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ أي فحذرهم أن يصيبهم عذاب شديد مهلك والصاعقة المهلكة من كل شيء ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ﴾ يعني عاداً وثمود ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ جملة إذ جاءتهم الرسل حال من صاعقة عاد ولا يجوز جعله صفةً لصاعقة أو ظرفاً لانذرتكم لفساد المعنى ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم وابتهدوا بهم من كل جهة أو من جهة الزمان الماضي بالإنذار عمَّا جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما أعد لهم في الآخرة وكل من اللفظين يحتملهما، أو من قبلهم ومن بعدهم إذ قد بلغهم خبر المتقدمين وأخبرهم هود وصالح عن المتأخرين داعين إلى الإيمان بهم أجمعين ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أن مخففة من الثقيلة بإضمار ضمير الشأن أو مفسرة لأنه بعد ذكر الرسالة وفيه معنى القول أو مصدرية والباء مقدرة أي بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟﴾ أي عاد وثمود ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل لأنزل ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ برسالته ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زعمكم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ إنما أنتم بشر مثلنا لافضل لكم علينا.

روى البغوي عن جابر بن عبد الله قال قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فأتاه فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعتُ الشعر والكهانة والسحر وعلمتُ من ذلك علماً وما يخفى عليَّ إن كان كذلك.

فأتاه فلما خرج إليه قال أنت يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنتَ خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضلّلُ آباءنا فإن كنتَ إنما تريد الرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنتَ رأساً ما بقيتَ وإن كان بك الباءة زوجناك عشر سنوة تختار من أيّ بنات قريش وإن كنتَ تريد المال جمعنا لك من ما تستغني أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت فَلمَّا فرغ قرأ رسول الله ﷺ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حٓم تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم كتاب فصلت آياته قرآناً﴾ إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ الآية فأمسك عتبة على فيه، فناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فاحتبس عنهم.

فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وقد أعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه، فانطلقوا إليه فقال أبو جهل والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً وقال والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيتُه وقصصتُ عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسكت به وناشدتُه بالرحم أن يكف ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفتُ أن ينزل عليكم العذاب.

وقال: قال محمد بن كعب القرظي حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد قال يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضهن فنعطيه ويكف عنا (وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب محمد ﷺ يزيدون ويكثرون) قالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام عتبة إلى رسول الله ﷺ فقال يابن أخي إنك منا حيث علمتَ من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيتَ بأمر عظيم فرقت جماعتهم وسفهتَ أحلامهم وعبتَ آلهتهم وكفّرتَ من مضى من آبائهم فاستمع مني أعرض عليك أموراً لتنظر فيها، فقال رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد، فقال يابن أخي إن كنت إنما

تريد بما جئت المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منَّا مالاً وإن كنت تريد شرفاً سَّودناك علينا وإن كان هذا الذي بك مهيأ تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب أو لعل هذا الشعر جاش به صدرك فإنكم لعمري بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا يقدر عليه غيركم، حتى إذا فرغ فقال له رسول الله ﷺ أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم.

قال فاستمع مني قال أفعل فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً﴾ ثم مضى فيها يقرأ فلمَّا سمع عتبة أنصت وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال قد سمعتَ يا أبا الوليد فأنتَ وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلمَّا جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ بمثله قط ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة يا معشر قريش أطيعوني خلوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأٌ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب به فملكه ملككم وعزه عزُّكم فأنتم أسعد الناس به، فقالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي لكم فأصنعوا ما بدا لكم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي تعظموا على أهل الأرض بغير إستحقاق ﴿وَقَالُوا۟﴾ لما خُوّفوا بالعقاب اغتراراً بقوتهم وشوكتهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يعني ليس أحد أشد قوة منا ندفع العذاب بقوتنا كان أحدهم يقلع الصخرة العظيمة من الجبل يجعلها حيث يشار فقال الله تعالى ردّاً عليهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الاستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أقالوا ذلك ولم يروا أي لم يعلموا ﴿أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا﴾ أي بمعجزاتنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي يعرفون أنها حق وينكرونها عطف على قالوا ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ عطف على كانوا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفاً شديد الصوت شديد البرد من الصر بمعنى البرد أي يصر أي يجمع ويقبض أو الصرة بمعنى الصيحة ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب بسكون الحاء والباقون بكسرها أي مشؤمات ذات نحوس في حقهم، قال الضحاك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ودامت الرياح عليهم من غير مطر، قيل كان آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا يوم الأربعاء ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ أي عذاب الهوان أضاف العذاب إلى الخزي إضافة

الموصوف إلى الصفة مثل رجل الحرب وحاتم الجود بدليل ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الأصل في الحياة الدنيا ولعذاب الأخرة أخرى أخرى عطف على أرسلنا وهو في الأصل صفة المعذب وصف به العذاب للمبالغة مجازاً ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي دللناهم على الخير والشر بإرسال الرسل وبيناهم سبيل الهدى كذا قال ابن عباس ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الجهل والكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي صيحة من السماء مهلكة للعذاب والهوان والذل وإضافتها إلى العذاب ووصفه بالهون للمبالغة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يحشر﴾ قرأ نافع ويعقوب بفتح النون وضم الشين على صيغة المتكلم المبني للفاعل ﴿أَعْدَآءَ ٱللَّهِ﴾ بالنصب على المفعولية والباقون بضم الياء وفتح الشين على البناء للمفعول وأعداء الله بالرفع ﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يساقون ويدفعون إلى النار، وقال قتادة والسديُّ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، قال البيضاوي وهي عبارة عن كثرة أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية ﴿إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حضروها وما زائدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال السديُّ وجماعة المراد بالجلود الفروج وقال مقاتل ينطق جوارحهم، روى مسلم عن أنس قال: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك فقال هل تدرون مما أضحك؟.

قلنا الله ورسوله أعلم، قال من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول بلى، قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني فيقول كفى بنفسِكَ اليَوم

عَلَيْكَ شَهِيدًاً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فينطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكُنَّ وسحقاً فَعنكنَّ أناضل»[١] وفي حديث أبي هريرة عند مسلم «فيختم على فيه ويقول لفخذه أُنطق فينطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله» ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الذين يحشرون إلى النار ﴿لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ بعداً لكن وسحقاً فعنكن أناضل وهذا السؤال سؤال توبيخ ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ذي نطق ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قدَّم الظرف للحصر والإهتمام ورعاية الفواصل وهذه الجملة يحتمل أن يكون من تمام كلام الجوارح وأن يكون استئنافاً مثل ما بعده.

روى الشيخان في الصحيحين والبغوي عن ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر يسمع ما جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا»[٢]، قال البغوي قيل الثقفي عبد يا ليل والقرشيان ختنا ربيعة صفوان ابن أمية فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي آية، قال البغوي معناه تستخفون عند أكثر أهل العلم، وقال مجاهد تتقون، وقال قتادة تظنون يعني ما كنتم تستترون الفواحش من جوارحكم مخافة ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ كما كنتم تستترونها عن الناس مخافة الفضيحة، فالمعنى ما كنتم تظنون أن جوارحكم تشهد عليكم وفيه تنبيه ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك أجرأتم على ما فعلتم ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ أي ظنكم هذا مبتدأ وقوله ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم خبران له ويجوز أن يكون ظَنُّكُمُ بَدَلاً من إسم الإشارة وأرداكم خبره ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ثم أخبر عن حالهم فقال ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ في النار ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ لا خلاص لهم عنها ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي إن طلبوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبون ويسترضون ربهم فما هم بمجابين إلى ذلك ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي بعثنا ووكلنا، وقال مقاتل هيأنا عطف على قوله في صدر السورة ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ وبينهما معترضات ﴿لَهُمْ﴾ أي للكافرين ﴿قرناء﴾ جمع قرين ككرماء جمع كريم يعني نظراء من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر وقيل أصل

---

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ (٧٥٢١)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٥).

القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا وأتباع الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب وإنكار البعث ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب ﴿فِي أُمَمٍ﴾ حال من الضمير المجرور أي كائنين في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ صفة لأمم ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم صفة أخرى لأمم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ بإيثار موجبات العذاب على موجبات الرحمة تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم أو للأمم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ قال ابن عباس كان بعضهم يوصي إلى بعض إذا رأيتم محمداً يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو، وقال مجاهد الفوافيه بالمكاء والصفير، وقال الضحاك أكثروا الكلام فتخلطوا عليه ما يقول، وقال السديُّ صيحوا في وجهه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع المظهر موضع الضمير تسجيلاً للكفر وللدلالة على شمول هذا الحكم لهم ولغيرهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي سيئات أعمالهم أو المعني لنجزينهم جزاء كفرهم الذي هو أسوأ ما كانوا يعملون في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ أي الأسوأ ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبره ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء أو خبر محذوف ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي دار الإقامة ﴿جَزَاءً﴾ منصوب على المصدرية لفعله المقدر أي يجزون والجملة تأكيد لما سبق ﴿بما كانوا بآياتنا﴾ أي القرآن ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي ينكرون الحق أو المعنى يلغون عند قراءة القرآن وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي عذبوا ذلك العذاب.

وقالوا يعني يقولون بعدما يلقون في النار ﴿ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس﴾ يعنون شيطاني النوعين الحاملين إياهما على الضلال والعصيان، وقيل هما إبليس وقابيل بن آدم لأنهما سنا الكفر والمعصية، قرأ ابن عامر وابن كثير ويعقوب وأبو بكر والسوسي أرنا بالتخفيف أي بسكون الراء هاهنا خاصة وقرأ الدوري باختلاس

كسرة الراء والباقون بإشباعها ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ في النار ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ أي في الدرك الأسفل من النار قال ابن عباس ليكونا أشد عذاباً منا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأٓخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي التزموا المنهج المستقيم، قال المحلي نزلت في أبي بكر الصديق وثم لتراخيه عن الإقرار في الرتبة والمراد بالإستقامة الإعتدال وعدم الزيغ والإنحراف عن الحق بوجه من الوجوه لا في الإعتقاد ولا في الأخلاق ولا في الأعمال، قال في القاموس استقام اعتدل وقومته عدلته فهو قويم ومستقيم ومنه الصراط المستقيم للطريق السوي الذي يوصل سالكه إلى المطلوب البتة، فالاستقامة لفظ مختصر شامل لجميع الشرائع من الإتيان بالمأمورات والاجتناب عن المنهيات على سبيل الدوام والثبات، ومن هاهنا أجاب رسول الله ﷺ سفيان بن عبد الله الثقفي حين قال يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك؟ وفي رواية غيرك، قال «قل آمنتُ بالله ثم استقم»[١] رواه مسلم، قال البغوي سئل أبو بكر الصديق عن الاستقامة فقال أن لا تشرك بالله شيئاً، وقال عمر بن الخطاب الإستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب، وقال عثمان بن عفان أخلصوا العمل لله، وقال عليٌّ أدو الفرائض، وقال ابن عباس إستقام على أداء الفرائض، وقال الحسن إستقاموا على أمر الله فاعملوا بطاعته وأجتنبوا معصيته، وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إله إلاّ الله حتى تلحقوا بالله، وقال مقاتل استقاموا على المعرفة فلم يرتدوا، فكلها عبارات عما ذكرنا فإن قول عمر ليستقيم على الأمر

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام (٣٨).

والنهي ولا تروغ روغان الثعالب وقولَ علي وابن عباس، وكذا قول الحسن شامل لجميع ما فرض الله إتيانه أو الاجتناب عنه في العقائد والأخلاق والأعمال، وقول أبي بكر لا تشرك بالله شيئاً وقول عثمان أخلصوا لله العمل بيان لعدم الرياء والسمعة في شيء من الأعمال وهو المعنى من قول مجاهد وعكرمة، فالإستقامة لا تتصور بدون فناء القلب والنفس وحصول المعرفة بالله على ما اصطلح عليه الصوفية وذلك قول مقاتل، وقال قتادة كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال اللّٰهم أنتَ ربُنا فارزقْنَا الإستقامة وكان الحسن رأس الصوفية ينتهي أكثر السلاسل إليه.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت كذا قال ابن عباس، وقال قتادة ومقاتل إذا قاموا من قبورهم، وقال وكيع بن الجراح البشرى تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ أن مفسرة لأن ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ يتضمن معنى الوحي الذي فيه معنى القول أو مخففة من الثقيلة اسمه ضمير الشأن أو مصدرية يعني لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة كذا قال مجاهد ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلفتم من أهلٍ وولدٍ فإنا نخلفكم في ذلك فالخوف غم يلحق لتوقع مكروه والحزن غم يلحق لوقوعه في مكروه من فوات نافع أو حصول ضار، وقال عطاء بن أبي رباح لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم يعني لاتخافوا العقاب ولا تحزنوا على صدور العصيان فإن الله يغفرها لكم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسل، أخرج أبو نعيم عن ثابت البناني أنه قرأ حم السجدة حتى بلغ إلى قوله تتنزَّلُ عليهم الملائكة فقال بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد قال فيأمن الله خوفه ويقر عينه ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني كنا معكم في الدنيا نحفظكم من الشياطين ونلهمكم بالخيرات ﴿وَ﴾ نحن أولياءكم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذات والكرامات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من الأول ﴿نُزُلًا﴾ كائناً ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ نزلاً حال من ما تَدَّعُونَ وفيه إشعار بأن من ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزل للضيف، أخرج البزار وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ، «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخربين يديك مشوياً» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة «إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الطير في الجنة فيخر مثل البختي حتى يقع على خوانه لم تصبه دخان ولا تمسه نار فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير» وأخرجه الترمذي

وحسنه والبيهقي قال قال رسول الله ﷺ «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي»[١] وعند هناد في الزهد عن أبي سعيد قلنا يا رسول الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال إذا اشتهى إلى آخره، وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي سعيد الخدري ولم يرفعه قال إن الرجل من أهل الجنة يتمنى الولد فيكون حمله ورضاعه وفطامه وشبابه في ساعة واحدة، وأخرج البيهقي مرفوعاً بلفظ إن الرجل يشتهي الولد في الجنة فيكون إلى آخره، وأخرج في التاريخ والبيهقي نحوه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ يعني لا أحد أحسن ﴿قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى عبادة الله وتوحيده ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً أو اتخاذاً للإسلام ديناً ومذهباً من قولهم هذا قول فلان لمذهبه، قال محمد بن سيرين والسديُّ هو رسول الله ﷺ، وقال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته (وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين) وقالت عائشة أرى هذه الآية نزلت في المؤذّنين وقال أبو أمامة الباهلي دعا إلى الله يعني أذَّن وَعَمِلَ صالحاً صلّى ركعتين بين الأذان والإقامة، قال قيس بن حازم عمل صالحاً هو الصلاة بين الأذان والإقامة، من عبد الله بن معقل قال قال رسول الله ﷺ: «**بين كل أذانين صلاة بين كل أذانين صلاة قال في الثالثة بين كل أذانين صلاة لمن شاء**»[٢] متفق عليه، وعن أنس بن مالك قال لا أعلم وقد رفعه أنس إلى النبيّ ﷺ قال: «لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة»[٣] رواه أبو داود والترمذي.

فصل في فضل الأذان:

عن معاوية قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[٤] رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يسمع مدى**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: كم بين الأذان والإقامة ومن ينتظر الإقامة (٦٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: بين كل أذانين صلاة (٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الدعاء بين الأذان والإقامة (٥٢٠)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن الدعاء لايرد بين الأذان والإقامة (٢١٢).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (٣٨٧).

صوت المؤذّن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»[١] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن اللهم أرشد الأئمة وأغفر للمؤذنين»[٢].

رواه أحمد وأبو داود والترمذي والشافعي، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «**من أذن سَبع سنين محتسباً كتب له براءة من النار**»[٣] رواه الترمذي وابن ماجه وأبو داود، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة على كثبان المسك عبد أدى حق الله وحق مولاه ورجل أمَّ قوماً وهم به راضون ورجل ينادي بالصلوات الخمس كل يوم وليلة**»[٤] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس وشاهد الصلاة يكتب له خمس وعشرون صلاة ويكفر عنه ما بينهما**»[٥] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «**ثنتان لا تردان أو قلما تردان الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً**» وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من أذّن ثنتي عشرة سنة وجبت له الجنة وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة وبكل إقامة ثلاثون حسنة» رواه ابن ماجه، وعنه قال كنا نؤمر بالدعاء عند أذان المغرب، رواه البيهقي في الدعوات الكبير.

فصل في جواب الأذان:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليَّ فإنه من صلّى عليَّ صلاة صلّى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجوا أن أكون أنا هو فمن**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: رفع الصوت بالنداء (٦٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن (٢٠٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: ما يجب على المؤذن من تعاهد الوقت (٥١٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الأذان في السفر (٢٠٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأذان، باب: فضل الأذان وثواب المؤذنين (٧٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة (٢٥٦٦).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: رفع الصوت بالأذان (٥١٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأذان، باب: فضل الأذان وثواب المؤذنين (٧٢٤).

سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي»[١] رواه مسلم، وعن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم الله أكبر الله أكبر» الحديث، يعني يقول مثل ما يقول المؤذن «وحين يقول حي على الصلاة وحي على الفلاح يقول لا حول ولا قوة إلا بالله دخل الجنة» رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمر قال رجل يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا فقال رسول الله ﷺ «قل كما يقولون فإذا انتهيتَ فسل تعطه»[٢] رواه أبو داود.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفي يعني مهما أمكن للإنسان فلا بد أن يختار الخصلة الحسنة على الخصلة السيئة فليختر الصبر على الغضب والحلم على الجهل والعفو على الإنتقام والسخاء على البخل والشجاعة على الجبن والعفة على العنتِ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي﴾ أي بالخصلة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ المراد بالأحسن هاهُنا الزائد في الحسن مطلقاً إذ لا حسن في السيئة أصلاً، قال ابن عباس أمر بالصبر في مقابلة من يغضب عليه وبالحلم في مقابلة من يجهل عليه وبالعفو في مقابلة من يسيء إليه، وقيل معناه لا تستوي الحسنة في جزئياتها ولا تستوي السيّئة في جزئياتها بل بعضها فوق بعض في الحسن والسوء فإذا اعترضك من بعض أعدائك سيئة فأدفعها بأحسن الحسنات كما لو أساء إليك رجل فالحسنة أن تعفو عنه والتي أحسن أن تحسن إليه ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ إذا للمفاجأة أضيف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة والمعنى فوجىء ذلك وقت صيرورة الذي بينك وبينه عداوة ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ الذي مبتدأ وكأنَّه خبر وإذا ظرف لمعنى التشبيه، وقوله إدفع إلى آخره جملة مستأنفة كأنه قيل كيف أصنع إذا أساء أحد إليَّ فقال ادفع، قال مقاتل بن حبان نزلت في أبي سفيان بن حرب وليس بسديد لأن الآية مكية وإسلام أبي سفيان كان بعد الفتح ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ جملة معترضة أي ما يؤتى هذه الخصلة وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مخالفة النفس والهوى ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من التجليات الصفاتية والذاتية فإن النفس إذا تجلت عليها الصفات الحسنى انسلخت من صفاتها السوأى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ عطف على ادفع وما زائدة اتصلت بأن الشرطية ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ شبه النخس والشيطان ينزغ كأنه ينخس ويبعث على المعصية، وفي القاموس نزغه كمنعه طعن فيه ونزغ بينهم أفسد وأغرى ووسوس وهو فعل الشيطان أسند إلى نزغه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له بالوسيلة (٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن (٥٢٣).

مجازاً على طريقة جد جده وعلى هذا من للابتداء أو أريد بالنزغ المسند إليه الفارغ وصفاً للشيطان بالمصدر مبالغةً ومِنَ الشَّيْطَان بيان له حال منه والمعنى وإن وسوس فيك الشيطان وحملك على الإنتقام ومقابلة الإساءة بالإساءة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ﴾ من شره ولا تطعه هذا جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أي يدفع الله عنك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيتك وصلاحك.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ﴾ فإن كل واحد منها تدل على وجوب وجود صانعها وصفاته الكاملة ووحدانيته ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ الضمير للأربعة المذكورة والمقصود تعليق الفعل بهما إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ويختار ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن السجود يختص لله تعالى وهذا موضع السجود عند الشافعي رحمه الله لاقتران الأمر به وهو مروي عن ابن مسعود وابن عمر، أخرج الطحاوي بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد يذكر أن عهد الله بن مسعود كان يسجد في الآية الأولى من ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وأخرج بسنده عن نافع عن ابن عمر مثله ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإمتثال والسجود وشرط حذف جزاؤه وأقيم علته مقامه تقديره فإن استكبروا لا يضره ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ أي لأن الذين ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية غير متكيفة وهم الأنبياء والملائكة والأولياء ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون﴾ عطف أو حال أي لا يملّون بل يتلذذون به قال رسول الله ﷺ أرحني يا بلال، قال أبو حنيفة رحمه الله هذا موضع السجود وهو المروي عن ابن عباس، أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه والطحاوي عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان يسجد في الآية الأخيرة من ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ تنزيل، وزاد في رواية رأى رجلاً يسجد عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فقال له قد عجلت، وأخرج الطحاوي عن مجاهد قال سألتُ عن ابن عباس عن السجود الذي في ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ قال اسجد بآخر الآيتين، وروى الطحاوي أيضاً بسنده عن أبي وائل

أنه كان يسجد في الآية الأخيرة من حم وروي عن ابن سيرين مثله، وعن قتادة مثله قال صاحب الهداية هذا قول عمر، قال ابن همام كونه قول عمر غريب وأخذ أبو حنيفة هذا القول للاحتياط فإنه إن كان السجود عند تَعْبُدُونَ لا يضره التأخير إلى الآية الأخيرة وإن كان عند لا يسئمون لم يكن السجود قبله مجزياً.

وقال الطحاوي ما حاصله إن السجود في الآية الأخيرة هو مقتضى النظر وذلك أنا رأينا السجود المتفق عليه هو عشر سجدات منها الأعراف وموضع السجود منها قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ومنها الرعد وموضع السجود منها ﴿ولله يسجد من في السماوات ومن في الأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ ومنها النحل وموضع السجود منها عند قوله ﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة﴾ إلى قوله ﴿يؤمرون﴾ ومنها بني إسرائيل وموضع السجود منها عند قوله و ﴿يمزون للأذقان سجداً﴾ إلى قوله ﴿خُشُوعًا﴾ ومنها مريم وموضع السجود منها عند قوله ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ومنها الحج والمتفق عليه فيها عند قوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية ومنها الفرقان وموضع السجود منها عند قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية ومنها النمل وموضع السجود منها ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ. . .﴾ الآية ومنها ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ تنزيل وموضع السجود منها عند قوله ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ الآية ومنها ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ تنزيل وموضع السجود منها مختلف فيه فقال بعضهم ﴿يَعْبُدُونَ﴾ وبعضهم ﴿وهم لا يسئمون﴾.

وكان كل موضع من المواضع المذكورة موضع إخبار يعني من استكبار المتكبرين أو من خشوع الخاشعين ولزمنا مخالفة المتكبرين وموافقة الخاشعين وليس شيء منها بموضع أمر بالسجود وقد رأينا السجود مذكوراً في مواضع أخر بصيغة الأمر منها قوله تعالى: ﴿اقنتي لربك واسجدي﴾[١] ومنها ﴿كن من الساجدين﴾[٢] وليس هناك سجود بالإجماع فالنظر يقتضي أن يكون كل موضع فيها الأمر بالسجود يحمل على الأمر بالعبادة والسجود الصلاتية وكل موضع فيها الأخبار يكون هناك سجدة التلاوة وهذا النظر يقتضي أن لا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٨.

يكون في الحج سجدة ثانية لأنه بلفظ الأمر حيث قال الله تعالى: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾[١] ومن ثم قال أبو حنيفة هي سجدة صلاتية يدل عليها المقارنة بالركوع وأن لا يكون في هذه السورة عند الآية الأولى سجدةً لكونه بصيغة الأمر وأن يكون عند الآية الأخيرة لكونه بصيغة الإخبار، وهذا النظر يقتضي أن يكون في سورة ﴿صٓ﴾ سجدة تلاوة كما قال أبو حنيفة خلافاً لغيره لأن موضع السجود منها إخبار ليس بأمر وهو قوله ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[٢] وكذا في سورة إذا السماء انشقت في قوله ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ فإنه موضع إخبار وليس بأمر، غير أن هذا النظر يقتضي أن لا يكون في سورة النجم واقرأ سجدة لأن موضع السجود منهما قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ وهما بصيغة أمر لكن أبو حنيفة رحمه الله ترك النظر هناك لاتباع ما قد ثبت عنده عن رسول الله ﷺ كما ذكرنا هُناك وقد قال مالك لا سجود في المفصل، قلتُ وقد ذكرنا في سورة الحج ما يدل على أن فيها سجدتين والله أعلم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي دلائل قدرته ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسة غبراء لا نبات فيها مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ أي علت وانتفخت بخروج النبات ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ أي أحيا نباتها ﴿لمحيي الموتى﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإحياء والإماته ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٧.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٤.

﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾ قال مجاهد يلحدُونَ في آياتنا بالمكاء والتصدية واللغو واللغط، وقال قتادة يكذبون آياتنا، وقال السدي يعاندون ويشاقون، قال مقاتل نزلت في أبي جهل، قلتُ: واللفظ يعم من يلحد بالتكذيبُ والإلغاء ومن يلحد بالتحريف والتأويل الباطل المخالف لتأويل السلف ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فلا يأمنوا عن الجزاء والإنتقام ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره يفتخر هؤلاء الكفار ويعجبون بأنفسهم أَفَمَنْ يُلْقَى ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ أبو جهل وأمثاله ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر وقيل من يأتي آمناً هو حمزة وقيل عثمان واللفظ يعمهم وغيرهم، ذكر الله سبحانه الآيتان آمناً في مقابلة الإلقاء في النار مبالغةً وكان القياس أن يقال أفمن يلقى في النار خير أم من يدخل الجنة لأن مفاد الكلام أن الآتي آمناً خير ممن يلقى في النار فكيف من يكرم ويدخل الجنة ﴿اعملوا﴾ أيها الكفار ﴿مَا شِئْتُمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم على ما تعملون فيه تهديد شديد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ أي القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أن مع جملتها بدل من قوله إن الذين يلحدون أو مستأنف وخبر إن محذوف مثل معاندون أو هالكون أو يجازيهم بكفرهم وقيل خبره قوله من بعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ حال أو إستئناف، قال الكلبي عن ابن عباس أي كريم على الله، وقال قتادة أعزّه الله فلا يجد الباطل إليه سبيلاً ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قال قتادة والسديُّ الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه، قلتُ: وهو يعم شياطين الإنس والجن كما أن الروافض زادوا في القرآن عشرة أجزاء فلم يستطيعوا وردّ الله كيدهم وزادوا في بعض الآيات وبعض الألفاظ كما قالوا في قوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1] على ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2] ونحو ذلك فإنهم فعلوا ذلك وأبطل الله عملهم فلم يلتحق بالقرآن، قال الزجاج معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه وعلى هذا معنى الباطل الزيادة والنقصان، وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يجيء بعده كتاب يبطله أو ينسخه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ كامل الحكمة ﴿حميد﴾ يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

نعمة وهو حميد في نفسه لا يحتاج إلى أن يحمده غيره ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قيل هذا تسلية للنبي ﷺ بأنه ما يقول لك كفار مكة قد قيل مثله للأنبياء من قبلك أنه ساحر كذاب فاصبر كما صبروا ولا تغتم به، وقيل معناه ما أوحي إليك إلا مثل ما أوحي إليهم من التوحيد وأصول الدين والوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين وقيل مقول القول قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للمؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للكافرين والجملة على الأول مستأنفة.

ولما قال الكفار اقتراحاً وتعنتاً هل أنزل القرآن بلغة العجم يعنون كما أنزلت التوراة والإنجيل نزلت ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي لو جعلنا هذا الذكر الذي تقرأه على الناس ﴿قرآناً عجمياً﴾ أي مقروءاً بلغة العجم ﴿لَّقَالُوا۟﴾ يعني أهل مكة ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿فُصِّلَتْ﴾ بينت ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بلغة العرب حتى فهمناها هذه الجملة متصلة بجمل واردة في صدر السورة في مدح القرآن أعني كتابٌ آياته ﴿ءأعجمي وعربي﴾ قرأ هشام أعجمي بهمزة واحدة من غير مد على الخبر يعني كتاب أعجميٌّ ورسول عَرَبِيٌّ والباقون بهمزتين على الاستفهام للإنكار فقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بهمزتين محققتين والباقون بهمزة ومدة وقالون وأبو عمرو يشبعانها لأن من قولهما إدخال الألف بين الهمزة المحققة والملينة وورش على أصله في إبدال الهمزة الثانية الفاً من غير فاصل بينهما وابن كثير أيضاً على أصله في جعل الثانية بين بين من غير فاصل وهكذا قرأ حفص وابن ذكوان في هذا المقام خاصة، قال مقاتل وذلك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على يسار غلام لعامر الحضرمي وكان يهوديّاً يكنى أبا فكيهة فقال المشركون إنما يعلمه يسار فضربه سيده وقال إنك تعلّم محمداً فقال يسار هو يعلّمني فأنزل الله هذه الآية، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت قريش لولا أنزل هذا القرآن اعجمياً وعربياً فأنزل الله لقالوا لولا فصّلتُ آياته الآية وأنزل الله بعد هذه الآية فيه لكل لسان، قال ابن جرير والقراءة على هذا أعجمي بلا استفهام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَشِفَآءٌ﴾ التنكير للتعظيم أي هدى وشفاء عظيم لما في الصدور من الجهل ورذائل أوصاف القلب والنفس وقيل شفاء من الأمراض والأوجاع ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي ثقل لقوله ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي ظلمة وشبهة، قال قتادة عموا عن القرآن وصموا عنه فلا ينتفعون به والأخفش جوز العطف على معمولي عاملين والمجرور مقدم فالموصول عنده عطف على الموصول في ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيل لهم في عدم قبولهم وعدم إستماعهم له بمن يُصاح به من مسافة بعيدة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ جواب لقسم محذوف يعني اختلف قوم موسى بالتصديق والتكذيب كما اختلف قريش في القرآن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين إلى يوم القيامة أو إلى أجل معلوم ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي المكذبين ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من التوراة أو من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ مضرته ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا يضيع عمل المحسنين ولا يزيد على جزاء المسيئين أورد صيغة المبالغة تعريضاً على الكفار بأنهم هم الظلامون المبالغون في الظلم والله سبحانه لا يتصور منه الظلم أصلاً لأن الظلم أن يتصرف أحد في ملك غيره بغير إذنه.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها يرد إليه يعني يجب على كل من سئل عنها أن يقول الله أعلم إذ لا يعلمها إلا هو ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها جمع كِم بالكسر، قرأ نافع وابن عامر وحفص ثمراتٍ على الجمع والباقون ثَمرَتٍ على التوحيد بإرادة الجنس، وما نافية ومن الأولى مزيدة للإستغراق وثَمرَاتٍ في محل الرفع ويحتمل أن يكون ما موصولة معطوفة على الساعة ومن بيانية بخلاف قوله ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ فإنها نافية ومن زائدة البتة ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي أنثى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي إلا مقروناً بعلمه حسب تعلقه به والمراد أنه كما لا يعلم بالساعة غيره كذلك لا يعلم بما يخرج من الثمرات وما تحمل أنثى إلا هو، قوله إلاَّ بعلمه إستثناء مفرغ يتوجه إلى الأفعال الثلاثة على سبيل التنازع أعمل الأخير وقدر في الأولين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي يوم ينادي الله المشركين بقوله ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها يسألهم الله تهكما وتوبيخاً أين شركائي التي كنتم تزعمونها آلهة ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي المشركون ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك الآن ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي من يشهد لهم بالشرك الجملة حال يعني يتبرءون عنهم لمَّا عاينوا العذاب أو المعني ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم غابوا عنَّا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾

يعني لا ينفعهم أو غاب عنهم فلا يرون ﴿مَا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ أي يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ ذلك اليوم يعني في الدنيا ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي مهرب، الظن معلق عنه بحرف النفي وقيل جملة النفي سدَّ مسد المفعولين.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿لا يسئم﴾ أي يمل ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ لا يزال يسأم الله تعالى المال والغنى والصحة ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي الشدة من الفقر والمرض ﴿فيؤس﴾ أي فهو يؤس من روح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته ﴿ولئن أذقناه﴾ أي الكافر جواب قسم محذوف ﴿رحمة﴾ مالاً وعافية ﴿مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ جواب للقسم لفظاً وللشرط معنىً يعني هذا حقي لما فيَّ من الفضل والعمل والعلم، أو هذا لي دائماً لا يزول ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي تقوم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع بخلاف عن قالون بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعني لئن قامت القيامة على التوهم لكان لي عند الله الحالة الحسنة من الكرامة وذلك لاعتقاده أن ما له من الدنيا إنما هو لاستحقاقه الكرامة الغير المنفك عنه ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جواب قسم محذوف والفاء للسببية ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ قال ابن عباس لنفتنهم على مساوىء أعمالهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنهم التقصي عنه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ الكافر ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿ونآبجانبه﴾ أي ثنى عطفه، وقيل الجانب كناية عن النفس كالجنب في قوله تعالى: ﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[1] يعني ذهب بنفسه

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

وتباعد عنه بكليته لكمال الغلفة ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير مستعار ممَّا له عرض وسيع للإشعار بكثرته والعرب يستعمل الطول والعرض في الكثرة، يقال أطال في الكلام والدعاء وأعرض أي الكثر والعريض أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الاتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله من ثم قال الله تعالى: ﴿جنة عرضها السماوات﴾[١] ولا منافاة بين قوله ﴿وإذا مسه الشر فيؤس قنوط﴾ وبين قوله ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ لأن الأولى في قوم آخرين ولعل الأولى في الكفار و ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[٢] و﴿من يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون﴾[٣] والثانية في الغافلين من المؤمنين، وجاز أن يكون كلا الآيتين في الكفار والمراد أنهم إذا مسَّهم شر دعوا مخلصين له الدين فإذا رأوا تأخراً في الإجابة يئسوا وقنطوا بخلاف المؤمنين الصالحين فإنهم لا يقنطون ويرون في تأخير الإجابة حكمة، قال رسول الله ﷺ: «**إما أن يعجلها لهم وإما أن يدخرها لهم**»[٤] أويقال يؤُسٌ قَنُوط بالقلب وذُوُ دُعَاءٍ عَرِيُضٍ باللسان أو قنوط الصنم وذو دعاء من الله تعالى.

مسألة:

من أحب أن يستجاب دعاؤه في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء كذا ورد في حديث رواه، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ هذه الجملة متصلة بقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ كان الأصل من أضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم لأنه في تأويل قوله إن كان القرآن من عند الله كان حقاً بلا شبهة وكان الكفر به شقاقاً بعيداً من الحق وأنتم قد كفرتم به فلا أضل منكم ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ قال ابن عباس يعني منازل الأمم الخالية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يعني يوم بدر وكذا قال قتادة، وقيل في أنفسهم البلايا والأمراض، وقال مجاهد والسديُّ في الأفاق ما يفتح القرى على محمد ﷺ والمسلمين ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فتح مكة، وقال عطاء وابن زيد في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٤) أخرجه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأدعية، باب: قبول دعاء المسلم (١٧٢١٠).

الآفاق يعني في أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، قال البيضاوي في الآفاق يعني ما أخبرهم النبيّ ﷺ من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حلّ بهم، أو ما في بدن الإنسان من عجائب الصنع الدالة على كمال القدرة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن من عند الله والرسول مؤيد من الله أو التوحيد مؤيد من الله ودين الله حق أو الله هو الحق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ الباء زائدة وربك في محل الرفع على الفاعلية ولا تزاد الباء في الفاعل إلا مع كفى ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل من الفاعل والمعنى أَوَلَمْ يكْفِ أن ربك على كُلّ شيء شَهِيْدٌ، والإستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أتشك في عاقبة أمرك ولم يكف أنه تعالى على كل شيء شهيد محقق فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة أو أنه تعالى مطلع فيعلم حالك وحالهم أو المعنى ألم ينته الإنسان عن المعاصي ولم يكف له رادعاً أنه تعالى مطلع على كل شيء لا يخفى عليه خافية فيجازيه عليها، وقال مقاتل أولم يكف بربك شاهداً على أن القرآن من الله شهادته على ذلك جعله معجزاً، وقال الزجاج معنى الكفاية أن الله تعالى قد بين من الدلائل ما فيه كفاية يعني أولم يكف بربِك شاهداً لأنه على كل شيء شهيد لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي من البعث والجزاء ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ علماً بإجمالها وتفصيلها مقتدر عليها لا يفوقه شيء منها أو أنه محيطٌ بكل شيء إحاطةً ذاتيةً غير متكيفة لا يفوته شرء منها.

سورة الشورى

آياتها ثلاث وخمسون وهي مكيَّةٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ قال البغوي سئل الحسن بن الفضل لم قِطع حٓمٓ عسق ولم يقطع كهيعص فقال لأنها سورة من سور أوائلها حٓمٓ فجرت مجرى نظائرها، ولأن ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ مبتدأ وعسق خبره ولأنهما عدا آيتين وأخواتها مثل ﴿كهياعص﴾ والمص عدت آية واحدة، وقيل أهل التأويل لم يختلف في كَهيعَصَ وأخواتها أنها حروف للتهجي لا غير واختلفوا في ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلاً معناه حُمَّ أي قضى ما هو كائن، وروى عكرمة عن ابن عباس إنه قال: ح حلمه ومجده ع علمه س سناؤه ق قدرته أقسم الله بها، وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبي رباح: ح حرف يعز فيها الذليل ويزل فيها العزيز من فرس م ملك يتحول من قوم إلى قوم آخر ع عدو لقريش يقصدهم س سيء بكدر فيهم ق قدرة الله النافذة في خلقه، وروى عن ابن عباس أنه قال ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحيت إليه ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ حيث قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب لقهره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المصيب في حكمه أي مثل ما في هذه السورة من المعاني أو إيحاء مثل إيحائها أوحى الله إليك وإلى الرسل من قبلك، ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وأن إيحاء مثله عادته تعالى، قرأ الجمهور يوحى بكسر الحاء على المضارع المبني للفاعل والله فاعله وقرأ ابن كثير بفتح الحاء على البناء للمفعول على أن كذلك مرفوع على الإبتداء أي مثل ذلك ويُوْحَى خبره المسند إلى ضميره أو كذلك منصوب على المصدر

ويُوْحَى مسند إلى إليك والله مرفوع على أنه فاعل لفعل محذوف دل عليه السؤال المقدر يعني من يوحي إليه فقال الله كما في قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومه ....

على البناء للمفعول، والعزيز الحكيم صفتان له مقررتان لعلو شأن الموحي به أو الله مبتدأ والعزيز وما بعد أخبار أو العزيز الحكيم صفتان وكذا قوله ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ صفة بتقدير الذي أو حال ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على خلقه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ حال آخر أو تذييل وهو على الوجوه الأخر جملتان مستأنفتان مقررتان لعزته وحكمته.

﴿تَكَادُ﴾ قرأ نافع والكسائي بالياء التحتانية لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي والباقون بالتاء الفوقانية لتأنيث ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي يتشققن من عظمة الله تعالى وعلو شأنه يدل عليه ذكره بعد قوله: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وقيل يتفطرن من قول المشركين اتخذ الله ولداً نظيره في سورة مريم ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾[1] وقيل يتشققن من كثرة الملائكة قال رسول الله ﷺ: «**أطت السماء وحقها أن تأط والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده**» رواه ابن مردويه عن أنس ورواه البغوي بلفظ «ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد» قرأ البصريان وأبو بكر يَنْفَطِرنَ من الإنفطار ﴿مِن فَوْقِهِنَّۚ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الأول لأنه أعظم الآيات وأدلها على علو شأنه وعلى الثاني ليدل على أن الإنفطار من تحتهن بالطريق الأولى وعلى الثالث لازدحام الملائكة على الفوق، وقيل الضمير للأرض فإن المراد بها الجنس وهذا على الثاني ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ أي ينزهون عما يقول الظالمون من نسبة الولد وكل ما لا يليق بشأنه خضوعاً لما يرون من عظمة الله سبحانه ملابسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أداء لشكر نعمائه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ من المؤمنين أداء لحق المشاركة في الإيمان والجملة حال ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لأوليائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ شركاء وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم يحصى عليهم فيجازيهم بها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم﴾ يا محمد ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بموكل بهم تحصل المطلوب منهم أو موكول إليك أمرهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا

(١) سورة مريم، الآية: ٨٩ ـ ٩٠.

رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الإشارة إلى مصدر يُوحِيْ وقوله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على المفعولية أو هو إشارة إلى معنى الآية المتقدمة فإنه مكرر في القرآن في مواضع فيكون الكاف مفعولاً به وقوله قرآناً عربياً حالاً منه ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي أهلها وهي مكة فإن أكثر قرى العرب خرجت منها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي العرب لينصروه في إعلاء كلمة الله أو قرى الأرض كلها مشرقها ومغربها وجنوبها وشمالها قال رسول الله ﷺ: «**فضلتُ على الأنبياء بخمس بعثتُ إلى الناس كافةً وذخرتُ شفاعتي لأمتي ونصرتُ بالرعب شهراً أمامي وشهراً خلفي وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأحلت لي الغنائم ولم يحل لأحد قبلي**» رواه الطبراني بسند صحيح عن السائب بن يزيد.

وروى مسلم في الصحيح والترمذي عن أبي هريرة قوله ﷺ «فضلتُ على الأنبياء بست أعطيتُ جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً وأرسلت إلى الخُلق كافة وخُتم بي النبيون»[1] ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي لتنذرهم بيوم القيامة الذي يجمع فيه الأولون والآخِرون حذف ثاني مفعولي تنذر الأول وأول مفعولي الثاني للتهويل والتعميم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إعتراض لا محل له من الإعراب ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ تقديره (فريقٌ منهم في الجنَّةِ وفريُقٌ منهم في السَّعِير) وضمير منهم للمجموعين لدلالة الجمع عليه والجملتان منصوبتان على الحال منهم أي وينذرهم يوم يجمعون كائنين متفرقين في داري الثواب والعقاب أو مستأنفتان، عن عبد الله بن عمرو قال خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابض على كفيه ومعه كتابان قال

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في الغنيمة (١٥٥٦).

أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا يا رسول الله فقال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد منهم ولا ناقص منهم من الله عليهم إلى يوم القيامة، ثم قال للذي في يساره هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم من الله عليهم إلى يوم القيامة، فقال عبد الله بن عمرو ففيم العمل إذاً؟ فقال اعملوا وسددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيَّ عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ عمل، ثم قال فريقٌ في الجَنَّةِ وفريق في السعير عدل من الله عزّ وجل»[1] رواه البغوي وكذا روى الترمذي.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ عطف على مضمون فريقٌ في الجنَّةِ أي الأمة أي يفترقون فريقين قال ابن عباس على دين واحد، وقال مقاتل على دين الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[2] ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية إلى دين الإسلام ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي لا يدخلهم في رحمته فلا يكون لهم ولي يدفع عنهم العذاب ولا نصير يمنعهم من النار ولعل تغير المقابلة للمبالغة في الوعيد إذ الكلام في الإنذار ﴿أم اتخذوا﴾ عطف على الظالمون الآية، أم منقطعة بمعنى بل للإضراب والهمزة للإنكار يعني الكافرون لم يتخذوا الله وكيلاً ونصيراً بل إتخذوا ﴿مِن دُونِهِ﴾ كالأصنام والشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لا ينبغي ذلك أو المعنى ليس المتخذون أولياء ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جواب شرط محذوف مثل إن أرادوا أولياء فالله هو الولي يعني هو الحقيق بأن يتخذ ولياً ﴿وهو يحيي الموتى﴾ يجزي كل نفس ما عملت ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذه الجملة في مقام التعليل لقوله هو الولي، وقال ابن عباس فالله وليك وولي من تبعك أي ناصرك وإياهم، والفاء حينئذ لمجرد العطف لا لجزاء الشرط.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ من أمر الدين ﴿فَحُكْمُهُ﴾ مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يحكم يوم القيامة بينهم فيميز المحق من المبطل، وقيل ما اختلفتم فيه من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكم من الله ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي يحكم بينكم ﴿اللَّهُ﴾ أي قل لهم يا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار (٢١٤١).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

محمد ذلكم الله ﴿رَبِّى﴾ بدل من الله أو عطف بيان ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في رد كيد الأعداء وفي الأمور كلها ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي ارجع في المعضلات ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبدعهما، خبر آخر لذلك أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ما بعده ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ من جنسكم ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ نساء ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي جعل للأنعام من الأنعام أزواجاً أو جعل لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً، جملة جعل على التقدير الأولين حال بتقدير قد ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ أي يكثركم من الذرء وهو البث الضمير للمخاطبين والأنعام تغليباً ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً ليكون بينهم توالد وقيل فيه أي في الرحم وقيل في البطن، وقيل في بمعنى الباء أي يذرؤكم به، قيل معناه يكثركم بالتزويج ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ المثل زائد والمعنى ليس هو كشيء فأدخل المثل للتأكيد كقوله ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾[1] وقيل الكاف زائدة ومعناه ليس مثله شيء يزاوجه ويناسبه، قال ابن عباس ليس له نظير، وقيل هذا من باب الكناية نظيره قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المباغة في نفيه عنه فإنه إذا نفى عمَّنْ يناسبه ويسدُّ مسده كان نفيه عنه بالطريق الأولى وإذا كان كناية فلا يقتضي أن يكون له مثل فإن في الكناية لا يشترط تحقق المعنى الحقيقي كما يقال فلان طويل النجاد وإن لم يكن له نجاد أصلاً ونظيره قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[2] كناية عن كونه جواداً مع استحالة الجارحة، وقيل معنى مثله صفته، أي ليس كصفته صفة شيء ﴿وهو السميع البصير﴾ لكل ما يسمع ويبصر وكل سميع وبصير فسمعه وبصره مستعار منه تعالى كأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له كما أنه لا مثل له ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خزائن الرزق في السماوات والأرض، قال الكلبي المطر والنبات ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أي يوسع ويضيق على وفق مشيئته إبتلاء وامتحاناً ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فيفعل على ما ينبغي.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم﴾ يا أمة محمد ﷺ ﴿مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني أن دين الإسلام الذي شرع الله لأمة محمد ﷺ ليس أمراً مبتدعاً بل هو دين الأنبياء كلهم فإن الحق لا يكون إلا واحداً وماذا بعد الحق إلا الضلال وما أنكر من أهل الكتاب إلا تعنتاً وعناداً، عن ابن مسعود قال: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية»، رواه أحمد والنسائي والدارمي، وذلك الدين هو الإيمان بالله وحده وبصفاته وبأنبيائه وكتبه وملائكته والبعث بعد الموت وبكل ما جاء به الأنبياء والإتيان بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى عنه؟.

وهذا أمر جامع للشرائع متفق عليها والنسخ في بعض الأحكام العملية لا يستلزم إختلاف الأديان ألا ترى أن النسخ قد يكون في دين نبي واحد فإن النبي ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم صلّى إلى الكعبة فكما أن هذا لا يقتضي إختلاف الأديان فكذلك الاختلاف في الفروع في شرائع الأنبياء لا يقتضي اختلاف الذين فإن مآل الكل الإتيان بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى عنه ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أن مفسرة لأوحينا ووصينا فإن فيها معنى القول أو مصدرية والمصدر منصوب بدل من ما وصى مفعول شرع أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف أي هو يعني خذوا ما آتاكم الرسول بلا زيغ وانحراف ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ باتباع الآراء والأهواء أو بالتعصب والعناد فإن افتراق أمة محمد ﷺ إلى ثلاث وسبعين فرقة إنما نشأ باتباع الآراء والأهواء وهو المراد بما ذكرنا من حديث رسول الله ﷺ أنه خط خطاً وقال هذا سبيل الله وخطوطاً وقال: «هذه سبل على كل منها شيطان» وترك اليهود والنصارى الإيمان بمحمد ﷺ إنما نشأ من العناد والتعصب وعن علي رضي الله عنه قال لا تتفرقوا فالجماعة رحمة والفرقة عذاب.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: **«من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة**

الإسلام من عنقه»[١] رواه أحمد وأبو داود، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: **«يد الله مع الجماعة»**[٢] رواه الترمذي بسند حسن، وعن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاذة والقاصية والناحية وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة»** رواه أحمد ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من الدين القويم الناطق بالتوحيد وترك الأصنام ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ﴾ أي يصطفى ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى دينه أو إلى ما تدعوهم إليه أو إلى نفسه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ سواء وجد من المجتبى سعي وإرادة أولا ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي يقبل إليه قالت الصوفية من يجتبيه ويجذبه إلى نفسه من غير اختياره فهو مراد الله وهم الأنبياء والصديقون ومن أناب إلى الله فهداه الله فهو المريد وهم أولياء الله الصالحون من عباده.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ عطف على شرع، قال ابن عباس يعني أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ من الكتب السّماوية السابقة بأن دين الأنبياء كلهم واحد وأن الذي أوحى إلى محمد ﷺ هو الذي جاء به إبراهيم وموسى وعيسى ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ قال عطاء بغياً بينهم على محمد ﷺ يعني تكبراً واستطالة، قال في القاموس بغى عليه يبغي بغياً علا وظلم وعدل واستطال ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى دار الجزاء ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين من آمن ومن كفر في الدنيا باستئصال المبطلين واستيلاء المحقين ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد أنبيائهم، وقيل بعد الأمم الخالية، وقيل المراد مشركي مكة الذين أورثوا الكتاب أي القرآن من بعدهم أي بعد أهل الكتاب ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من كتابهم لا يعلمونه كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان أو من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي للتفرق من أهل الكتاب ﴿فادع﴾ الفاء في جواب أما المحذوف تقديره أما أنت فادع الناس إلى إقامة الدين وعدم التفرق وإتباع ما أوتيت ﴿واستقم﴾ أنت عليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائفة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي بجميع الكتب المنزلة لا كما قالت اليهود والنصارى ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٣] ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بالعدل ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الخوارج (٤٧٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٩٦).

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

والحكم بين المتخاصمين الأول إشارة إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالق الكل ومتولي أمورهم ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ كل يجزي على حسب عمله ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي لا خصومة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لأن أعمالكم لا يضرنا وأعمالنا لا يضركم إنما ندعوكم إلى الإسلام نصحاً لكم فلا وجه للخصومة والعداوة كان نزول هذه الآية في مكة قبل الأمر بالقتال والمعاداة فنسختها آية القتال، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[1] إلى قوله: ﴿بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾[2] ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة فيحكم بيننا ﴿وإليه المصير﴾.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال لما نزلت ﴿إذا جاء نصرالله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ قال المشركون بمكة لمن كان بين أظهرهم من المؤمنين قد دخل الناسُ في دين الله أفواجاً فأخرجوا من بين أظهرنا، فعلى كم تقيمون بين أظهرنا فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في دينه، وأخرج عبد الرزاق أنه قال قتادة هم اليهود والنصارى قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم ﴿من بعدما استجيب له﴾ أي بعدما استجاب الناس دعوته فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته وحسن دعوته ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي خصومتهم باطلة زائلة أو المعنى ما يزعمونه حجة فهو في الحقيقة شبهة باطلة ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ من الله لمعاندتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي جنس الكتب ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي متلبساً به بعيداً من الباطل وبما يحق به إنزاله من العقائد الحقة والأحكام ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ قال قتادة ومجاهد ومقاتل بالعدل سمى العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية، وقال ابن عباس أمر الله تعالى بالإيفاء ونهى عن البخس، وقيل المراد به الشرع فإنه توازن به الحقوق وتسوى بين الناس ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ قال الكسائي أي قريب إتيانها فاتبع الكتاب وأعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن نفاجئك الساعة يوزن حينئذٍ أعمالك ويوفى جزاؤك، وقيل تذكير القريب كأنه بمعنى ذات قرب أو لأن الساعة بمعنى البعث وجملة لعل الساعة قريب سد مسد المفعولين ليدريك ولعل علق الفعل عن العمل، قال مقاتل ذكر النبيّ ﷺ الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا تكذيباً متى الساعة فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ إستهزاء وظناً أنها غير آتية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها لاحتمال العذاب ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي يجادلون فيها ويشكون في إتيانها، في القاموس المرية بالكسر والضم الشك والجدل وما رآه مماراة شك، وأصل ذلك من مرنت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد إلى تجويزه مع كمال قدرة الله بعد دلالة الكتاب والسنة عليه وشهادة العقل على دار الجزاء فهو أبعد من الاهتداء إلى ما وراءه ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ قال ابن عباس حفيّ بهم، قال عكرمة بارّبهم، قال السديُّ رفيق، وقال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جزاء لمعاصيهم، وقيل لطيف في إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه بلطف إدراكه، قيل لطيف بالغوامض علمه وعظيم عن الجرائم حلمه وينشر المناقب ويستر العيوب ويعطي العبد فوق الكفاية ويكلفه بالطاعة دون الطاقة ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ وما يشاء فيختص كلاً من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته وكل من يرزق من مؤمن وكافر وذات روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه، قال جعفر بن محمد عليهما السلام اللطيف في الرزق من وجهين أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات والثاني أنه لم يدفعه إليك بمرة واحدة ﴿وَهُوَ

﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهر قدرته ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب والجملة حال أو تذييل.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ويقال للزرع الحاصل منه، وفي القاموس الحرث الكسب وجع المال والزرع والمراد هاهنا ثواب الآخرة شبهه بالزرع من أنه ثمرة للعمل في الدنيا ولذلك قيل الدنيا مزرعة الآخرة أو شبهه بالكسب أي ما حصل منه فإنه يحصل بما يكسب في الدنيا ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي في كسبه وزرعه فنعطيه بالواحد عشراً إلى سبع مائة ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾[1] ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يريد بعمله نصيباً من الدنيا ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ شيئاً على ما قسمنا له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ عطف على نؤته عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[2] متفق عليه، وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «**بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصرة والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب**»[3] رواه البغوي.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار يعني بل الهم ما زعموا شركاء لله سبحانه خصص الشركاء بهم لأنهم اتخذوها شركاء ﴿شَرَعُوا۟﴾ أي تلك الشركاء ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس شرعوا ديناً غير دين الإسلام يعني الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا والجملة متصلة بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ وقيل أم متصلة معادلة لجملة محذوفة مصدرة بالهمزة تقديرها أيقبلون ما شرع الله أم يقبلون ما شرع لهم شركاؤهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة كما قال: ﴿بل الساعة موعدهم﴾[4] ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ولكل امرئ ما نوى (٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (١٩٠٧).

(٣) رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان وصححه السيوطي.
انظر الجامع الصغير (٣١٤٣).

(٤) سورة القمر، الآية: ٤٦.

وفرغ من تعذيب من كذبك في الدنيا والجملة معترضة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة وضع المظهر موضع المضمر لبيان استحقاقهم والتقدير أنهم لهمْ عَذابٌ أليمٌ لما كانوا ينكرونه ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مفعول ثان لترى أوحال ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي من جزاء ما كسبوا من الشرك والمعاصي ﴿وَهُوَ﴾ أي جزاء ما كسبوا ﴿واقع بهم﴾ لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا حال مقدرة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ أي أطيب بقاعها وأنزهها ﴿لهم ما يشاءون﴾ أي ما يشتهونه ثابت لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من نعيم الجنة ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يصغر دونه ما لهم في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي يبشر بالتخفيف من البشرة والباقون من التفعيل ﴿الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. ﴿قُل﴾ يا محمد لا ﴿أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما أتعاطاه من التبليغ والبشارة ﴿أَجْرًا﴾ أي نفعاً ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حال من المودة أي إلا أن تؤدوني لقرابتي منكم والجملة معترضة، روى البخاري في الصحيح بسند عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعتُ طاووساً أنه قال سئل ابن عباس عن المودة في القربى فقال سعيد بن جبير القربى آل محمد، فقال ابن عباس عجلتَ إن النبيّ ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال إلا أن تصلوا بيني وبينكم من القرابة[1]. قال البغوي وكذلك روى الشعبي عن ابن عباس قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (٤٨١٨).

المودة في القربى يعني أن تحفظوني قرابتي وتودوني وتصلوا رحمي، وإليه ذهب مجاهد وعكرمة ومقاتل والسدي والضحاك قال عكرمة لا أسألكم على ما أدعوكم أجراً إلا أن تحفظوني وقرابتي بيني وبينكم وليس كما يقول الكذابون، قال البغوي قال قوم هذه الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأمرهم بمودة رسول الله ﷺ وصلة رحمه فَلمَّا هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار ونصروه أحب الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء عليهم السلام حيث قالوا ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[1] فأنزل الله ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ فهي منسوخة بهذه الآية وبقوله ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾[2] وغيرهم من الآيات وإلى هذا ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل، قال البغوي وهذا قول غير مرضي لأن مودة النبيّ ﷺ كف الأذى عنه وكذا مودة أقاربه من فرائض الدين، قلتُ: لا شك أن مودة رسول الله ﷺ وأقاربه فريضة محكمة لا يحتمل النسخ لحديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[3] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[4] روى الحديثين الشيخان في الصحيحين وعلى ذلك انعقد الاجماع، لكن يمكن أن يقال أن المنسوخ إنما هو ما أمر الله تعالى رسوله بسؤاله الأجر وروى ابن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في معنى الآية إلا أن تودوا الله وتتقربوا إليه بطاعته، وهذا قول الحسن قال هو القربى إلى الله يقول إلا التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقال بعضهم معناه إلا أن تودوا قرابتي وعترتي وتحفظوني وهو قول سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قيل يا رسول الله من قرابتك؟ هؤلاء قال علي وفاطمة وأبناءهما.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب: وجوب حبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان (١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

وأستدل الروافض بهذه الآية مع هذا الحديث على حصر الخلافة في علي وبطلان خلافة الخلفاء الثلاثة المرضيين رضي الله عنهم أجمعين، وجه احتجاجهم أنهم قالوا وجب حب عليّ بهذه الآية مع هذا الحديث وحب غير عليّ ليس بواجب ووجوب المحبة يستلزم ووجوب الطاعة فهو الإمام لا غير، وقولهم هذا باطل بوجوهٍ: أحدها إن هذا الحديث غير صحيح في إسناده حسين الأشعري شيعي غليط وهذه الآية مكيَّة ولم يكن لفاطمة حينئذ ولد، وثانيها إنا نسلم أن حب على وفاطمة وأبناءهما واجب لكن لا نسلم أن حب غيرهم ليس بواجب كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «**حب أبي بكر وعمر إيمان وبغضهما كفر**» رواه ابن عدي عن أنس، وقال رسول الله ﷺ: «حب أبي بكر وعمر من الإيمان وبغضهما كفر، وحب الأنصار من الإيمان وبغُضهم كفر وحب العرب من الإيمان وبغضهم كفر ومن سب أصحاب فعليه لعنة الله ومن حفظني فيهم فأنا أحفظه يوم القيامة» رواه ابن عساكر عن جابر، وقال رسول الله ﷺ: «**حب الأنصار آية الإيمان وبغض الأنصار آية النفاق**»[1] رواه النسائي عن أنس، وقال رسول الله ﷺ: «**حب قريش إيمان وبغضهم كفر وحب العرب إيمان وبغضهم كفر ومن أحب العرب فقد أحبني ومن أبغض العرب فقد أبغضني**» رواه الطبراني في الأوسط عن أنس، وقولهم إن من وجب محبته يكون إماماً مفروض الطاعة باطل.

وقيل هذه الآية لوجوب محبته من حرم عليهم الصدقة وهم بنوا هاشم وبنوا المطلب الذين لم يتفرقوا في الجاهلية ولا في الإسلام، وقيل هم آل علي وعقيل وجعفر وعباس وفيهم قوله ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي» عن زيد بن أرقم قال قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً بما يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا يا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي» قال البغوي قيل لزيد بن أرقم من أهل بيته؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل عباس[2] فإن قيل كيف أمر رسول الله ﷺ بسؤال مودته أو مودة

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: علامة الإيمان (٥٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٨).

أقربائه أجراً على تبليغ الرسالة مع أن التبليغ كان عليه فريضةً ولا يجوز طلب الأجرة على أداء الفريضة بل على العبادة النافلة أيضاً لما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾[١] قوله ﷺ «من عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يك له للآخرة نصيب»[٢] قلنا إطلاق الأجر على ما أمر النبي ﷺ بسؤاله على التبليغ إنما هو على المجاز والمشاكلة فإن الأجر للسائل على الحقيقة ليس إلا ما يكون نافعاً له مسؤولا لانتفاعه به وهاهنا ليس كذلك بل إنما سأل النبيّ ﷺ أمته مودته ومودة أقربائه وأمره الله سبحانه أن يسأل ذلك لكي ينتفع الناس بمحبته فإن محبة النبيّ ﷺ مثمرةٌ لمحبة الله تعالى وقربه وولايته وموجبة لكمال الإيمان، ومن هاهنا أقول إن الأولى أن يقال في تأويل الآية لا أسألكم أجراً إلا أن تودوا أقربائي وأهل بيتي وعترتي وذلك لأنه صلّى الله عليه وسلم كان خاتم النبيين لا نبي بعده وإنما انتصب للدعوة إلى الله بعده ﷺ علماء أمته من أهل الظاهر والباطن ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر أمته بمودة أهل بيته لأن علياً رضي الله عنه والأئمة من أولاده كانوا أقطاباً لكمالات الولاية ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**» رواه البزار والطبراني عن جابر وله شواهد من حديث ابن عمر وابن عباس وعليّ وأخيه وصححه الحاكم، ومن أجل ذلك ترى كثيراً من سلاسل المشايخ تنتهي إلى أئمة أهل البيت ومضى كثير من الأولياء في السادات العظام منهم غوث الثقلين محيى الدين عبد القادر الجيلي الحسني الحسيني وبهاء الدين النقشبندي والسيد السند مودود الجشتي وسيد معين الدين الجشتي وأبو الحسن الشاذلي وغيرهم ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي**».

وقال أكثر علماء التفسير الإستثناء منقطع والأجر مستعمل في معناه الحقيقي فالمعنى لا أسألكم أجراً قط ولكني أذكركم المودة في القربى وأذكركم قرابتي منكم كما ورد في حديث زيد بن أرقم «أذكركم الله في بيتي» ومما يدل على أن سؤال ﷺ مودة نفسه وأقربائه كان لينتفع بها أمته قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي من يكتب حسنةً والمراد بها حب رسول الله ﷺ ونوابه وإلا فلا مناسبة لهذه الجملة بما سبق لكن اللفظ عام يعم كل حسنة

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك. انظر الجامع الصغير (٣١٤٣).

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ وذلك أن حب آل رسول الله ﷺ (وهم مشايخ الطريقة) مثمر للمزيد في حب النبيّ ﷺ وحبه ﷺ مثمر للمزيد في حب الله تعالى من هاهنا قالت الصوفية يحصل للصوفي أولاً الفناء في الشيخ ثم الفناء في الرسول ثم الفناء في الله تعالى، والفناء عبارة عن شدة الحب بحيث يذهل نفسه عند ذكر المحبوب حتى لا يرى من نفسه ولا من غيره عنها ولا أثراً ما عدا المحبوب وقيل هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ومودته للنبي ﷺ، وقال البخاري في الصحيح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «إرقبوا محمداً في أهل بيته»[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر ذنوب من يحب رسوله وأولياءه لعل هو المراد بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2] أي من ذنب أوليائك وأحبائك ﴿شكور﴾ على طاعته ومحبته.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم كمقطعة والجملة متصلة بقوله ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ومعنى الهمزة الإنكار والتوبيخ وبل للإضراب عن أداء الأجر يعني أنهم لا يؤدون أجر الرسالة بل أيقولون يعني كفار مكة ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ محمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة أو القرآن ﴿فأن يشأر الله يختم على قلبك﴾ جملة معترضة أوردت إستبعاداً لله للافتراء عن مثله بالإشعار على أنه لا يجترىء عليه من كان مختوماً على قلبه جاهدةً بربّه فأمّا من كان ذا بصيرة معرفة بربه فلا وكأنه قال إن يشأ الله وضع كلمة خذلانك يختم على قلبك لتجتري بالإفتراء عليه، وقال مجاهد يربط على قلبك بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم وقولهم إنك مفتر، وقال قتادة يعني طبع على قلبك فينسينك القرآن وما أتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله لفعل به ما أخبر في هذه الآية ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ إستئناف لنفي الافتراء عما يقوله بأنه لو كان مفتر لمحاه إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه أو بوعده بمحق باطلهم وإثبات حقه بالقرآن أو بقضائه الذي لا مرد له، قال الكسائي فيه تقديم وتأخير مجازه والله يمحو الباطل وهو في محل الرفع وليس بمجزوم عطفاً على يختم لأن المحو غير معلق بالشرط بل هو وعد مطلق وإنما حذفت الواو في الخط باتباع اللفظ كما حذفت في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾[3] و ﴿سندع الربانية﴾[4]

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٣٧١٣).

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١.

(٤) سورة العلق، الآية: ١٨.

وقد فعل ذلك فمحى باطلهم وأعلى كلمة الإسلام، بما أنزل من آياته ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قال البغوي قال ابن عباس وكذا أخرج عنه الطبراني بسند ضعيف أنه قال لما نزل ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ وقع في قلوب قوم منها شيء وقالوا هذا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فنزل جبرئيل فأخبره أنهم اتهموه وأنزل الله هذه الآية فقال القوم يا رسول الله فإنا نشهد أنك صادق فنزل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس يريد أولياءه وأهل طاعته يقال قبلتُ منه الشيء إذا أخذته وجعلتَه مبدأ قبول وقبلتُ عنه أي عزلتُه عنه. قيل التوبة ترك المعاصي نيةً وفعلاً والإقبال على الطاعة نيةً وفعلاً، وقال سهل بن عبد الله التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة، وذكر البيضاوي عن علي كرم الله وجهه هي إسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما إذبتها في المعصية فإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلوة المعصية والبكاء بدل ضحك ضحكت، وروى البغوي في شرح السنة عن ابن مسعود موقوفاً الندم توبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

فصل

عن حارث بن سويد قال دخلتُ على عبد الله أعوده فقال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده من رجل (أظنه قال) في برية مهلكةٍ معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل فنام فاستيقظ وقد هلكت راحلته فطاف عليها حتى أدركه العطش قال أرجعُ إلى حيث كانت راحلتي فأموت عليه فرجع فأغفى فاستيقظ فإذا هي عنده عليها طعامه وشرابه» رواه البغوي، وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فأنقلبت وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد يئس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[1] وروى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا اعترف ثم تاب الله عليه**»[2] متفق عليه، وروى مسلم أيضاً عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**من**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: باب: تعديل النساء بعضهن بعضاً (٢٦٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» وروى ابن ماجه والبيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[١].

﴿ويعفواعن السيئات﴾ صغيرها وكبيرها بالتوبة وبلا توبة لمن شاء، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «قال رجل (لم يعمل خيراً قط) لأهله إذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه...... ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين فلما مات فعلوا ما أمرهم فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال له لم فعلتَ هذا؟ قال من خشيتك يا رب وأنتَ أعلم فغفر له»[٢] وروى أحمد عن أبي الدرداء أنه سمع النبيّ ﷺ يقول على المنبر _لمن خافَ مَقَامَ رَبِهِ جَنَّتَانِ) قال قلتُ وإن زنى وإن سرقَ يا رسول الله؟ فقال الثانية (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه جَنَّتَانِ) فقلتُ الثانية وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال الثالثة ولمن خَافَ مَقَامَ رَبِهِ جَنَّتَانِ، فقلتُ الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال وإن رغم أنف أبي الدرداء» ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بالتاء الفوقانية قالوا هو خطاب للمشركين والباقون بالياء التحتانية لأنه بين خبرين عن قوم غيب قبله (عن عباده وبعده ويزيدهم من فضله) ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ عطف على يقبل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يستجيب الله دعاءهم إذا دعوا فحذف اللام كما حذف في وإذا كالوهم، وقال عطاء عن ابن عباس معناه ويثبت الذين آمنوا، قال البيضاوي معنى الاستجابة الإثابة على الطاعة فإنها كدعاء وطلب ومنه قوله ﷺ «أفضل الدعاء الحمد لله»[٣] أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر والله أعلم روي عن إبراهيم بن أدهم إنه قيل له ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال لأنه تعالى دعاكم فلم تجيبوه ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ أي يعطيهم زائداً على ما سألوه أو استحقوه ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس يشفعهم في إخوانهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ في إخوان إخوانهم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في مقابلة ما للمؤمنين من الثواب والفضل والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٥٠٦).

وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء باب: فضل الحامدين (٣٨٠٠).

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ قال البغوي قال خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا نظرنا إلى بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنَّيناها فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ ﴿لَبَغَوْا۟﴾ أي لتكبروا وأفسدوا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بطراً أو لبغى بعضهم على بعض إستيلاءً واستعلاء، وقال ابن عباس بغيهم طلبهم منزلةً بعد منزلةٍ ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس وأصل البغي التجاوز عن الإقتصاد فيما يتجزى كمية وكيفية ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ أرزاقهم ﴿بِقَدَرٍ﴾ يقتضيه حكمته ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ الموصول مفعول لينزل وبقدر حال منه مقدم عليه ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلم خفايا حالهم وما يؤل إليه أمرهم، أخرج الحاكم وصححه عن علي رضي الله عنه قال نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة وذلك أنهم قالوا لو أن لنا فتمنوا الغنى، وأخرج الطبراني عن عمرو بن حريث مثله روى البغوي بسنده عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ عن جبرئيل عن الله تعالى قال يقول الله عز وجل: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث المجرد وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضتُ عليه وما زال عبدي المؤمن يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنتُ له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيتُه وما ترددتُ في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه، وإن من عبادي المؤمن لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه لا يدخله عجب فيفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو افتقرتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححتُه لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي في قلوبهم إني عليمٌ خبير»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم الترمذي وابن مردويه وابن عساكر. انظر كنز العمال (١١٦٠).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾ عطف على قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ وما ذكر من الشرطية معترضة، قرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ أي المطر النافع الذي يغيثهم من الجدب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أي أيئس الناس من نزوله (وينشر رحمته) أي مطره أو رزقه في السهل والجبل من النبات والحيوان ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه وينشر ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد في نفسه وعلى إحسانه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي من دلائل وجوده ووحدته وقدرته وصفات كماله ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنها بذواتها، وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطف على السماوات أو على الخلق ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من حيّ، على إطلاق إسم المسبب للسبب فحينئذ يشتمل الملائكة والجن والشياطين والإنس وسائر الحيوانات أو المراد مما يدب على الأرض وما يكون في أحد الشيئين يصدق أنه فيهما في الجملة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فيجمعهم يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب معاصيكم وما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط وكذلك جيء بالفاء في خبره على قراءة الجمهور، وقرأ نافع وابن عامر بما كسبته بغير الفاء وكذا هو في مصاحف المدينة والشام لم يذكر الفاء استغناء بما في الباء من معنى السببية ﴿ويعفوا عن كثير﴾ عطف على الجملة الإسمية أو معترضة، قال الحسن لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا إختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر**»[1] وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «وصب المؤمن كفارة لخطاياه» رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي، وروى البغوي بسنده عن علي رضي الله عنه قال: «ألا أخبركم بأفضل آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ حدثنا بِهَا رسول الله ﷺ (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) وسأفسرها لك يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله عزَّ وجلَّ أكرم من أن يثنى عليهم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحكم أن يعود بعد عفوه»[2] رواه أحمد وغيره، قال البيضاوي الآية مخصوصة بالمجرمين فإن ما أصاب غيرهم فلأسباب أخر منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه عن البراء بن عازب. انظر: في القدير (٨٠٨١).

(٢) رواه أحمد وفيه أزهر بن راشد وهو ضعيف.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: التفسير، باب: سورة حم عسق (١١٣٢٨)، وقد روى الترمذي وابن ماجه قريباً منه.

عليه، قال البغوي قال عكرمة ما من نكبة أصاب عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها أو درجة لم يكن الله ليبلغه إلا بها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب حال من مفعول أصابكم أو عطف على جملة ما أصابكم وعطف على هذا قوله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يحرسكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ (٣٣) أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ (٣٤) وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (٤٣)﴾.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾ قرأ ابن كثير الجواري بالياء وصلاً ووقفاً ونافع وأبو عمرو وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ السفن الجارية فيه ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي كالجبال صفة للجوار وكذا الجملة الشرطية التالية على طريقة وَلَقَدْ أَمرُّ على اللئيم يسبني ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجري بها ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ أي يبقين بعد سكونها رواكد أي ثوابت ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ أي ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ جملة معترضة أي آيات لكل مؤمن لأن من صفة المؤمن الصبر في الشدة والشكر في الرخاء قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر**» رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾ عطف على فَيَظْلَلْنَ أي أو إنْ يشأ يُسكِنِ الريح فيوبقْهُنَّ بدوام السكون أي يهلك أهلهن بإغراقها، وقيل عطف على يُسكن الريح والتقدير أو يرسلها عاصفة فيُوبِقْهُنَّ ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي بسبب ما كسب أهلها من المعاصي ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ أي وينج ناساً على العفو منهم، جملة معترضة أو معطوفة على ما سبق والتقدير إن

يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد أو يرسلها عاصفة فيوبقهن أو طيبةً فَيَعْفُ عَنْ كَثير، وإنما حذف ما حذف اقتصاراً على المقصود ﴿وَيَعْلَمُ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع على الإستئناف والباقون بالنصب عطفاً على علة مقدرة لإسكان الريح والإيباق أي إن يشأ يسكن الريح لينتقم من أهل السفينة وليعلم ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب والإبطال، وقيل هو معطوف على الجزاء ونصب نصب الواقع جواباً للأشياء الستة بتقدير إن عطف المصدر على المصدر يعني إن يشأ الله تعالى إسكان الريح وإهلاك قوم وإنجاء قوم وعلم من يجادل في آياتنا بأنه ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ من العذاب، الجملة سدَّت مسد المفعولين ليعلم معلق عنها يَعْلَمَ بحرف النفي أي يَعْلَمَ الذين يكذبون بالقرآن ولم يعتبروا بآيات الرحمن إذا صاروا إلى الله بعد البعث أن لا مهرب لهم من العذاب أو يعلموا حين يحيط بهم الرياح في البحر إن لا مهرب لهم من الغرق.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي فهو مَتاعُ الحياة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ أي تمتعون به مدة حياتكم القريبة الفانية ليس منها زاداً للمعاد فأجملوا في طلبها وأقتصروا على ما يكفيكم عمَّا يلهيكم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب في دار الجزاء ﴿خير﴾ منها كمّاً وكيفاً وخالص منفعةً بلا شوب مشقة ﴿وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ روي عن علي رضي الله عنه أنه تصدَّق أبو بكر بما له كله فلامه جمع فنزلت هذه الآية، ما الأولى موصولة تضمنت معنى الشرط من حيث أن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية، وفي الآية بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع لهما يتمتعان بها فإذا صاروا إلى الآخرة كان ما عند الله خيراً للمؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ عطف على قوله ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قرأ حمزة والكسائي كبير الإثم على الواحد هاهنا وفي سورة النجم والباقون كبائر بالجمع ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هي الكبائر وقال السديُّ هي الزنى، وقال مقاتل ما يوجب الحد وقد ذكرنا الكبائر، في سورة النساء ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ عطف على يجتنبون والظرف متعلق بيَغْفُرُوْنَ وبناء يغفرون على ضميرهم خبراً للدلالة على أنهم أحقاء بالمغفرة حال الغضب والجملة معطوفة على الصلة والموصول إما مجرور عطفاً على الَّذِيْنَ آمَنُوا أو منصوب على المدح أو مرفوع ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ﴾ مصدر كالفتيا بمعنى التشاور أي يتشاورون ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيما يبدو لهم ولا يعجلون ولا شك أن المؤمن إذا استشار مؤمناً يشيره بما هو خير له في الدارين يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر قال رسول الله ﷺ: «**المستشار**

مؤتمن» رواه مسلم عن أبي هريرة والترمذي عن أم سلمة وابن ماجه عن ابن مسعود، وروى الطبراني في الأوسط بسند حسن عن علي رضي الله عنه «المستشار مؤتمن فإذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه» وروى الطبراني في الكبير بسند حسن عن سمرة بن جندب «المستشار مؤتمن إن شاء أضار وإن شاء لم يشر» ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير عطف أو حال.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي الظلم والعدوان ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن ظلمهم من غير أن يعتدوا، قال ابن زيد جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون عن ظالميهم وصنفاً ينتقمون منهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية، قال إبراهيم في هذه الآية أنهم كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا قال عطاءهم المؤمنون الذين أخرجوا من مكة بغياً عليهم يعني من غير حق إلا أن يقولوا ربنا الله وثم مكنهم الله في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم، وقال البيضاوي وصفهم بسائر أمهات الفضائل منها كراهة التذلل وهو لا يخالف وصفهم بالغفران فإنه يُنبىء عن عجز المغفور والإنتصار عن مقاومة الخصم والحلم عن العاجز محمود عن المتغلب مذموم لأنه أجراء وإغراء على البغي، قلتُ: الباغي إن كان ظالماً متعدياً على حق الله تعالى على عامة المؤمنين فالأولى بل الواجب هناك الإنتقام وسدُّ باب الفتنة، وإن كان متعدياً على نفس أحد فالانتصار والإنتقام ومن غير اعتداء له من جائز لكن العفو والإصلاح ودفع السيئة بالحسنة أفضل والله أعلم.

ولمَّا ذكر الله سبحانه جواز الانتصار منعهم عن التعدي فيه فقال ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ جملة معترضة سمى الجزاء سيئة لتشابههما في الصورة أو لأنه تسوء بمن تنزل به أو لأنه أسوأ من العفو، قال مقاتل يعني القصاص في الجراحات والدماء، وقال مجاهد والسديّ هو جواب القبيح إذا قال أخزاك الله فيقول أخزاك الله وإذا شتم أحد شتمه بمثلها من غير أن يعتدي، وقال سفيان بن عيينة قلتُ لسفيان الثوري ما قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ إن كان يشتمك رجل تشتمه أو يفعل بك فتفعل به فلم أجد عنده شيئاً فسألتُ هشام بن حجيرة عن هذه الآية فقال الجارح إذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك فتشتمه ويؤيد قول هشام قوله ﷺ «المستبَّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان» رواه أحمد والبخاري في الأدب بسند صحيح عن عياض بن حمار وقوله ﷺ «لا يكون اللعَّانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»[1] رواه مسلم وأبو داود عن أبي الدرداء، لكن

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٨).

قوله ﷺ «المستبَّان ما قالا فعلى البادي منهما حتى يعتدي المظلوم»[1] رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة يدل على كون البادي أظلم والمجيب له نوع رخصة ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن ظلم صاحبه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين ظالمه ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي أن الله يأجره لا محالة، قال البغوي قال الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان أجره على الله فليقم فلا يقوم إلا من عفا ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المبتدين بالسبّ والمتجاوزين على المثل في الانتقام، وقال ابن عباس الذين يبدؤون بالظلم.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول أي بعد ظلم الظالم إياه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المنتصرين ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاينة والمؤاخذة ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالعقاب في الآخرة والمعاتبة والمؤاخذة في الدنيا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبدؤونهم بالإضرار ويؤذونهم في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم بغير حق ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ في القاموس بغي يبغي بغياً عَلا وظلم وعدا عن الحق واستطال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَن صَبَرَ﴾ عطف على مَنِ انْتَصَر وبينهما اعتراض أي من صبر على ظُلْم من ظَلَمَ عليه ﴿وَغَفَرَ﴾ الظالم ولم ينتصر مبتدأ حذف خبره أي فهو أفضل الناس وأقيم علته مقامه وهي قوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والغفران ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من معزوماته بمعنى المطلوبات شرعاً، قال مقاتل يعني من الأمور التي أمر الله وقال الزجاج الصابر يؤتى بصبره الثواب فالرغبة في الثواب أتم عزم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن السباب (٢٥٦٨٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: المستبان (٤٨٨٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الشتم (١٩٨٧).

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ناصرٍ يتولاه أي يلي هدايته ويمنعه من عذاب الله ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد خذلان الله إياهم جملة معترضة ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيها المخاطب ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي حين يرون العذاب ذكر بلفظ الماضي تحقيقاً ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ الجملة قائم مقام المفعولين لترى أي تراهم قائلين هذا القول استفهام لفظاً ومعناه السؤال يسألون الرجعة إلى الدنيا ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار يدل عليها العذاب ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي خائفين متذللين متقاصرين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي مما يلحقهم من التذلل ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال بعد حال من فاعل يُعْرَضُونَ ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يبتدىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالصبور ينظر إلى السيف بمسارقة النظر خوفاً وذلةً في نفسه، وقيل من بمعنى الباء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ يعني من تبعهم في الكفر بالتعريض للعذاب المخلد وقيل المراد بالأهل الحور فإنهم خسروهن بعدم وصولهم إليهن المعدة لهم في الجنة لو آمنوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف للخسران والقول في الدنيا أو للقول أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحال ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم تمام كلامهم أو تصديق من الله بهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ أي يدفعون العذاب عنهم ﴿من دون الله﴾ حال من أولياء ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الوصول إلى الحق في الدنيا وإلى الجنة في العقبى قد انسدَّ عليه طرق الخير كلها.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي أجيبوا داعي الله محمداً ﷺ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يرده الله بعد ما حكم به ومن صلة لمرد وقيل صلة يأتي أي من قبل أن يأتي يوم من الله لا يمكن رده وذلك يوم الموت أو يوم القيامة ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ مفر يلجئون إليه ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون في صحائف أعمالكم ويشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم أو ما لكم من منكر بغير ما بكم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عن إجابتك يا محمد ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ حذف جزاء الشرط وأقيم تعليله مقامه تقديره فلا تحزن لأن (ما أرسلناك عليهم رقيباً مؤاخذاً) على إعراضهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد بلغت تعليل لقوله: ﴿ما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أراد به الجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي نعمة في الدنيا، قال ابن عباس يعني الغنى والصحة ﴿فَرِحَ بِهَا وَإِن

﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ من القحط أو الفقر أو المرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب معاصيهم التي قدموه وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال بها ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفران لما تقدم من نعم الله عليه ينسى ويجحد بأقل شيء من الشدة جميع ما أسلف عليه من النعم ويذكر البليّة ويعظّمها ولا يتأمل في سببها، وهذا الحكم وإن اختص بالمجرمين جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه وتصدير الشرطية الأولى بإذا والثانية بأن لأن إذاقة النعمة محققة من حيث أنها عادة الله تعالى يقتضيه رحمته الذاتية بخلاف إصابة البليّة وأقيم علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع الضمير في الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فله التصرف فيها كيف يشاء من إنعام وإنتقام، الجملة متصلة بقوله ومن آياته الجوار ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تعليل لما سبق وقوله ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ الآية، قيل بيان للخلق يعني يهب لبعض الناس أنثى لا يكون له ولد ذكر، قيل من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر لأن الله تعالى بدأ بالإناث ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فلا يكون له أنثى ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فيجمع له بينهما فيولد له الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فلا يولد له، وقيل الجملة بدل من يخلق بدل البعض ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بما يخلق ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يشاء فيفعل بحكمته واختياره.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قال البغوي: قالت اليهود للنبي ﷺ ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه فقال لم ينظر موسى إلى الله عزَّ وجلَّ فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ما صح له ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ وحياً وما عطف عليه منصوب على المصدرية لأن من وراء حجاب صفة كلام محذوف والإرسال نوع من الكلام وهو ما كان بتوسط الرسول وجاز أن يكون منصوباً على الحال ويكون المصدر بمعنى المفعول تقديره إلا موحي أو مستمعا من وراء حجاب أو مرسلا والوحي في اللغة الإشارة السريعة، والمراد هاهنا كلاماً خفيا غير مركب من حروف مقطعة متعاقبة يلقيه تعالى في قلب النبي ﷺ المنام أو

اليقظة ويعبر عنه بالإلهام وهو تعم المشافهة به كما روى في حديث المعراج وما وعد به في حديث الرؤية في الآخرة والمهتف به كما أتفق لموسى على طوى والطور لكن قوله ﴿أو من وراء حجاب﴾ يخصه بالأول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها، قلتُ: لكن ما ذكر البغوي في شأن نزول الآية يدل على نفي النظر إلى الله عند الوحي في الدنيا فالمراد بالوحي هاهنا إلقاء كلام بسيط في القلب وبقوله مِنْ ورآي حجاب كلام مسموع بلا توسط الملك بغير معاينة كما أتفق لموسى في طوى والطور كذا قال البغوي ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إما جبرئيل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ قرأ الجمهور يُرسِلَ فَيُوحِيَ بالنصب عطفاً على وحياً بتقدير أن المصدرية وقرأ نافع بضم اللام وسكون الياء رفعاً على الاستئناف فتكلم الله حينئذ ينحصر فيما كان بلا واسطة الملك ويقابله إرساله الملك بكلامه إلى الأنبياء.

عن عائشة رضي الله عنها قالت إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليَّ فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»[(١)] متفق عليه، وعن عبادة بن الصامت قال كان النبيّ ﷺ «إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه»[(٢)] رواه مسلم، وعن ابن عباس قال: «أقام رسول الله بمكة خمس عشر سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً وثمان سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشراً وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة» متفق عليه، وعن عائشة قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم» الحديث متفق عليه، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما يقتضيه حكمته فتكلم تارةً بغير وسيط وتارة بوسيط.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي إيحاءً كإيحائنا إلى سائر الرسل أو كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ أي كتاباً وهو القرآن كذا قال الكلبي ومالك بن دينار، وقال السديُّ سماه روحاً لأن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: طيب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: حد الزنى (١٦٩٠).

القلوب يحيى به كما يحيي الأبدان بالأرواح، وقال الربيع الروح جبرئيل والمعني أرسلنا إليك جبرئيل وما قال ابن عباس أنه النبوة وقال الحسن الرحمة فالمراد به أيضاً القرآن فإنه أثر النبوة والرحمة ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نوحيه إليك ظرف مستقر لروح أي روحاً كائناً من أمرنا ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي حال من كاف إليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ سدَّ مسد المفعولين لتدري وحرف الاستفهام علقه عن العمل ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ يعني شرائعه ومعاملة التي لا طريق إليه غير السمع فقال محمد بن إسحاق المراد بالإيمان في هذه المقام الصلاة كما في قوله تعالى ﴿ما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1] وهذا التفسير مبني على أن أهل العلم اتفقوا على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا ملهمين من الله تعالى بالإيمان بالصانع المتوحد بصفات الكمال المنزه عن النقص والزوال، وما قيل إن النبيّ ﷺ كان قبل الوحي يعبد الله على دين إبراهيم فشيء لا يصاعده العقل والنقل فإنه ﷺ كان أمياً لم يقرأ الكتاب ولم يكن دين إبراهيم شائعاً في قريش كانوا يعبدون الحجارة غير أنه صلى الله عليه وسلم يرغب إلى الخلوة، قلتُ: ويمكن أن يقال أنه ﷺ كان مؤمناً كاملاً محققاً بحقيقة الإيمان لكن لم يدر أنّ هذه الحالة إيمان والله أعلم.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ وقال ابن عباس يعني الإيمان وقال السديُّ يعني القرآن ﴿نُورًا﴾ لظلمة الجهل ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي نوصل به إلى العقيدة الحقة في الدنيا وإلى الجنة وإلى مراتب القرب في الآخرة (وإنّك) يا محمد ﴿لتهدي﴾ الناس كافة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وسواه دين الإسلام الموصل إلى الجنان والمراد إلى الجنان والمراد بالهداية هاهنا إراءة الطريق ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الأول ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي أمور الخلائق كلها في الآخرة بارتفاع الوسائط والتعلقات وفيه وعد للمطيعين ووعيد للمجرمين والله أعلم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

سورة الزخرف

آياتها تسع وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أي القرآن الذي هو مبين أي مظهر بإعجازه طريق الهدى من الضلالة فإنه يقتضي الإيمان به والإيمانُ به يوجب العلم بما يحتاج إليه الناس من الشرائع المثمرة للفلاح في الدنيا والآخرة، الواو للقسم أو للعطف إن كان حٰمٓ مقسما به وجواب القسم ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً وهو من البدائع لتناسب المقسم به والمقسم عليه كقول أبي تمام، وثناك أنها أعريض ولعل إقسام الله تعالى بالأشياء استشهاد بما فيها من الدلالة عليه ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ أي لكي ﴿تَعْقِلُونَ﴾ أي صيرناها مقروءاً بلغتكم لتفهموا معانيه وإلا فالقرآن من صفاته تعالى غير مخلوق ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن عطف على إنا ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اللوح المحفوظ فإنه أصل كل كتاب لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾[1] قال ابن عباس أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب بما يريد أن يخلق فالكتاب عنده ثم قرأ وإنَّه في أم الكتاب ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا عندية وقرباً غير متكيف ولا مكاني، قيل تقديره محفوظاً لدينا من التغير ﴿لَعَلِىٌّ﴾ رفيع شأنه من أن يدركه أحد أو رفيع شأنه في الكتب السماوية لكونه معجزاً من بينها، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه القرآن في سائر الكتب السماوية بمنزلة المركز من الدائرة يرى كذلك بنظر الكشف فالمركز أصل وإجمال للدائرة بل هو

---

(١) سورة البروج، الآية: ٢١ ـ ٢٢.

أفضل وأوسع من تمام الدائرة وإنما يظهر بنظر الكشف أخصر لكونه أرفع وأبعد من الناظر كما أن القمر يظهر للناظر مركزاً لدائرة الهالة مع كونه أوسع منها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخهِ غيره وهما خبران لأن وفي أم الكتاب متعلق بعليّ واللام لا يمنعه أو ظرف مستقر حال منه، ولدينا بدل منه أو حال من أم الكتاب أو من المستكن في قوله في أم الكتاب.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقدير أنهملكم فنضرب عنكم الذكر أي القرآن يقال ضربتُ عنه وأضربتُ عنه إذا تركتَ وأمسكتَ عنه، وصفحاً مصدر من غير لفظه يقال صفحتُ عنه إذا أعرضتَ عنه والترك والإبعاد إعراض أو مفعول له أو حال بمعنى صافحين وأصله أن توفي الشيء صفحة عنقك والإنكار راجع إلى الإهمال وترك الذكر وهو إنكاره يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه ويمكن أن يكون العطف على جملة أنه في أم الكتاب لعلي حكيم والإنكار راجع إلى معنى الفاء أي بعد كون القرآن كذلك فضرب عنكم الذكر ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي إن بكسر الهمزة على إن الجملة الشرطية مخرجة للمحق مخرج المشكوك استجهالاً لهم وإشعاراً بأن الإسراف أمر لا يجوز العقل إتيانه فكأنَّه محال مفروض والجزاء محذوف دل عليه ما قبله والمعنى إن كنتم قوماً مسرفين نهملكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً، وقرأ الباقون بفتح الهمزة تقديره لأن كُنتُمْ مسرفين وهو في الحقيقة علة للإعراض وأورد عليها همزة الإنكار والمعنى أفنترك عنكم الوحي ونمسك من إنزال القرآن فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل إسرافكم في الكفر، قال البغوي قال قتادة والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل لهذه الأمة لهلكوا ولكن الله عاد عليهم لعائدته ورحمته فكرره عليهم عشرين سنة أو ما شاء، وقال مجاهد والسديُّ معناه أفنعرض عنكم ونترككم فلا نعاقبكم بكفركم.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾ يعني أرسلنا فيهم كثيراً من الأنبياء ﴿وما يأتيهم﴾ أي وما كان يأتيهم على حكاية الحال الماضية عطف أو حال ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ من زائدة ونبي في محل الرفع ﴿إلا كانوا به يستهزؤون﴾ المستثنى المفرغ منصوب على الحال من المفعول أي الإكائنين على على صفة الإستهزاء أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي ما يأتيهم من نبي إتياناً إلا إتياناً كانوا به يستهزؤون أو على الظرف أي ما يأتيهم نبيٌّ في زمان إلاَّ كانُوا فيه يَسْتَهْزِؤُونَ به كاستهزاء قومك بك تسليّة لرسول الله ﷺ ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي من المسرفين يعني أهل مكة فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة أَشَدَّ حال من

مفعول أهلكنا المحذوف. . . . . . تقديره فأهلكنا الأولين حال كونهم أشد من مشركي مكة ﴿بَطْشًا﴾ أي قوةً تميز نسبة أشد أو مفعول مطلق لأهلكنا من غير لفظه ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سبق في القرآن قصتهم العجيبة في إهلاكهم التي حقها أن يسير مسير المثل، وفيه وعد للرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين بمثل ما جرى على الأولين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ⑨ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ⑪ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ⑫ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ⑬ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ⑭﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي كفار مكة جواب قسم محذوف ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لعله لازم لقولهم أو ما دل عليه إجمالاً أقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجة عليهم فإنهم قالوا الله كما حكى عنهم في مواضع أخرى وهو الذي من صفته ما ذكر من الصفات ويجوز أن يكون هذا مقر لهم وما بعده إستئناف ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي فراشاً كالمهد للصبي ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ يسلكونها ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا إلى مقاصدكم أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار ينفع ولا يضر ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم أي حيينا ﴿بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي إخراجاً وإنشاءً مثل ذلك الإنشاء أي إنشاء الأرض بالمطر ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تنشرون من قبوركم أحياء أي كذلك تخرجون جملة معترضة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما بين النفختين أربعون، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون عاماً؟ قال أبيتُ ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق»[1] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جرير عن سعيد بن جبير قال يسيل وادٍ من أصل العرش فتنبت منه كل دابة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ⑱﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

على وجه الأرض ثم يطير الارواح فيؤمر أن يدخل الأجساد فهو قوله تعالى: ﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك﴾ وأخرج أحمد وأبو يعلى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء طش عليهم».

﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أي أصناف الخلائق ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي ما تركبونه على تغليب المتعدى بنفسه على المتعدي بغيره إذ يقال ركبتُ الدابة وركبتُ في السفينة أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أي ظهور ما تركبون وجمعه للمعنى ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بتمليك المركب في البر والبحر وتسخيرها ﴿وَتَقُولُوا﴾ بالسنتكم حامدين على النعمة ﴿سُبْحَانَ﴾ أي أسبح سبحان ﴿الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين من أقرن الشيء إذا أطاقه وأصله وجده قرينه إذ الصعب لا يكون قريناً للضعيف جملة ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ حال من هذه أو من ضمير لنا ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي راجعون، وجه إتصاله بما سبق أن الركوب للنقل والنقلة العظمى هو الإنقلاب إلى الله أو لأنه مخطر فينبغي أن لا يغفل عنه ويستعد للقاء الله هذه الجملة حال آخر، روى أبو داود والترمذي والنسائي والبغوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لمَّا وضع رجله في الركاب قال بسم الله فلمَّا استوى قال الحمد الله ثم قال (سبحان الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ثم حمد الله ثلاثاً وكبر ثلاثاً ثم قال لا إله إلا أنتَ ظلمتُ نفسي فأغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنتَ، ثم ضحك فقيل له ما يضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال رأيتُ رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت وقال مثل ما قلتُ ثم ضحك، فقلنا ما يضحكك يا نبي الله؟ قال: عجبتُ لعبد إذا قال لا إله إلا الله ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1]، قوله ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ مع ما عطف عليه من الموصولات ومع صلاتها صفات للعزيز العليم وعلى تقدير الاستئناف أخبار لمبتدأ محذوف أو مفعول لأعني.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء ما يقول إذا ركب الناقة (٣٤٤٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا ركب (٢٦٠٠).

وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ أي وصفوه بأن له جزءاً معطوف على قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ وجه إتصاله به أن بين الكلامين تناقض فإنهم بعدما اعترفوا أنه خالق السماوات والأرض وصفوه بأن له جزءً وما يتجزى يستحيل أن يكون واجباً ويستحيل أن يكون خالقاً، والمراد به قولهم الملائكة بنات الله إذ لا شك أن الولد ما يخلق من نطفة الوالد والنطفة جزءٌ منه ولذلك سمي الولد جزء أو بضعة قال رسول الله ﷺ: «**فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني**»[1] رواه البخاري عن المسور بن مخرمة وعند أحمد والحاكم بلفظ «فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها ويبسطني ما يبسطها وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وصهري» ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ رأي جهول ﴿مبين﴾ ظاهر الكفران ومفرط الجهل حيث لم يعرف ما ينبغي أن يسب إلى الله سبحانه وما لا ينبغي.

﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ الله سبحانه ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ عطف على يخلق أو حال من فاعله والجملة مستأنفة مقدرة بالقول تقديره قل لهم أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، ومن ثم جاز الخطاب وأصفاكم وإلا فهو واقع بين كلامين مسندين إلى الغيب أعني ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً وإذا بشر أحدهم﴾ وأم منقطعة بمعنى الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجبُ، بل للإضراب عن قولهم إن لله ولداً يعني أنهم لم يقنعوا على إن جعلوا الله جزءاً حتى جعلوا له من مخلوقاته أجزاءً خسيسة مما اختير لهم وأبغض الأشياء إليهم بحيث إذا بشر أحدهم بها اشتد غمهم كما قال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ ومنقبة فاطمة عليها السلام (٣٧١٤).

﴿مَثَلًا﴾ أي بالجنس الذي جعل له مثلاً إذ الولد لا بد أن يماثل الوالد أو المراد بالمثل الوصف والحال والمعنى إذا بشر أحد بالوصف الذي جعل للرحمن وصفاً أي كونه أما أنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ شديد السواد من غاية الكآبة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء قلبه من الكرب الجملة الشرطية بتقدير المبتدأ حال من ضميرهم في المقدر تقديره وقل لهم أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وهم إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴿أو من ينشؤا في الحلية﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين أي يربَّي، والباقون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين أي يُنْبت ويكبر في الحلية، يعني النساء فإن حسنهن منحصر في الصورة فيتزين بالحلية ليزددن حسنهن بخلاف الرجال فإن حسنهم غالباً بالمعاني والأوصاف وذلك غير محتاج إلى الحلية، وفيه إشمام بأن النشأ في الزينة من المعايب فعلى الرجال أن يجتنبوا من ذلك ويتزينون بلباس التقوى ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ أي في المحاجة باللسان وبالسنان ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي غير مظهر حجتهن لنقصان عقلهن وضعف أبدانهن وقلوبهن، قال قتادة ما يتكلم امرأة تريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. من ينشؤا منصوب معطوف على بَنَاتٍ والهمزة كررت لتأكيد الإنكار والتوبيخ والتعجيب والمغايرة وإنما هي لاختلاف الصفات والمعنى أم اتخذ من مخلوقاته بناتٍ مبغوضات مكروهاتٍ موجبات لسواد الوجه ناشئات في الحلية ضعيفاتٍ قلباً وقالباً وعقلاً، وجاز أن يكون مرفوعاً مبتدأ محذوف الخبر معطوف على مبتدأ محذوف تقديره أمن كان شأنه ما ذكر ومن يُنَشَّؤُ في الحلية ومن هو في الخصام غير مبين ولد الله سبحانه.

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ قرأ نافع وابن كثير عِنْدَ بالنون ساكنة وفتح الدال على الظرف والباقون بالباء المفتوحة والألف، وضم الدال على أنه جمع عبد والجملة عطف على قوله وجعلوا له من عباده جزءاً يعني أنهم وصفوا الله سبحانه بما لا يليق به تعالى من أنه له ولد من خلقه، وذلك تحقير لشأنه تعالى ووصفوا الملائكة الذين هم خيار عباد الله ومقربوه قرباً غير متكيف بكونهم إناثاً وذلك تحقير لشأنهم ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ قرأ أهل المدينة أشهدوا بهمزتين الأولى للإنكار وتعليل التشنيع المذكور والثانية همزة الأفعال مضمومة مسهلة وسكون الشين على ما لم يسم فاعله وقالون من رواية أبي نشيط بخلاف عنه يدخل بين الهمزتين ألفاً والباقون بهمزة واحدة مفتوحة للإستفهام وفتح الشين، والمعنى على القراءة الأولى أحضروا خلقهم وعلى الثانية حضروا خلقهم حين خلقوا إناثاً ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ على الملائكة أنهم بنات الله

﴿ويسألون﴾ عنها يوم القيامة توبيخاً، أخرج ابن المنذر عن قتادة قال قال ناس من المنافقين إن الله صاهر الجن فخرجت بينهم الملائكة فنزلت فيهم ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾ وقال البغوي قال الكلبي ومقاتل لمَّا قال أهل مكة هذا القول سألهم النبيّ ﷺ ما يدريكم أنهم بنات الله قالوا سمعنا من آبائنا ونحن نعلم أنهم لم يكذبوا فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها في الآخرة.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف قوله وجعلوا الملائكة ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أن لا نعبد الملائكة ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعنون الملائكة قاله قتادة ومقاتل والكلبي، وقال مجاهد يعنون الأوثان استدلوا بنفي مشيئة عدم العبادة على إمتناع النهي أو على حسنها وذلك باطل لأن المشية يرجح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منهيًّا حسناً كان أو قبيحاً ولذلك جهلهم فقال ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما يدعون من أنها بنات الله أو أنها راضٍ بعبادتها ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستند إلى حسٍ أو عقلٍ موجب للعلم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ تأكيد لما سبق أي يقولون قولاً باطلاً بالظن والتخمين، أبدى الله سبحانه وجوه فساد زعمهم وحكى شبهتهم المزيفة ثم نفي أن يكون لهم ها علم من طريق الحسن أو العقل ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل فقال ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أم متصلة معادلة بقوله ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ يعني أشهدوا وقت خلقهم أم علموا بكتاب سماوي آتيناهم ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن أو قبل إدعائهم ينطق على صحة ما قالوه ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي بذلك الكتاب ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾ عطف على قول أم أتيناهم يعني ما شهدوا خلقهم وما أتيناهم كتاباً بل يتفوهون هذا القول تقليداً حيث قالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على دين وملة سميت أمة لأنها يؤم كالرحلة للمرحول إليه وقال مجاهد على إمام ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ يعني لا حجة لهم عقلية ولا نقلية وإنما جنحوا فيه إلى تقليد أبائهم الجهلة وسموا ذلك التقليد اهتداء ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ﴾ إستثناء مفرغ صفة لقرية أي إلا في قرية قال ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ أي منعموها ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثارهم مقتدون﴾ تسلية لرسول الله ﷺ بأن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم وأن مقدّميهم أيضاً لم يكن لهم علم مستند إلى شيء من أسباب العلم، وفي تخصيص المترفين إشعار بأن التنعم سبب للبطالة والصرف عن النظر الصحيح إلى التقليد ﴿قَٰلَ﴾ قرأ حفص قال بصيغة الماضي على أنه خبر عما قاله النذير والباقون بصيغة الأمر حكايةً لأمر ماضٍ أوحى من قبل إلى النذير أو خطاب لرسول الله ﷺ ويؤيد الأول سياق الكلام حيث قال ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بلفظ الماضي ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ قرأ أبو جعفر جئناكم على الجمع والباقون جئتكم على الإفراد والهمزة

لإستفهام الإنكار والواو للحال تقديره أتتبعون آباءكم ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ أي بدين وطريقة أهدى ﴿مما وجدتم عليه آباءكم قالوا﴾ أي قال الكافرون في جواب المنذرين ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي بما أرسلت به أنت ومن قبلك ﴿كَٰفِرُونَ﴾ وإن كان ذلك أهدى إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالاستئصال ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكذلك ننتقم ممن كذبك فلا تهتم بتكذيبهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء﴾ أي بريء مصدر وضع موضع النعت مبالغةً ولذا لا يثني ولا يجمع ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي من عبادتكم أو من معبودكم يعني أذكر وقت قوله ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالبرهان أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنهم يعترفون به أشرف آبائهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي خلقني إستثناء منقطع أو متصل على أن يعم أولى العلم وغيرهم فإنهم كانوا يعبدون الأوثان أو صفة على أن ما موصوفة أي إنني برآء من آلهة تعبدونها غير الذي خلقني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي سيثبتني على الهداية أو يرشدني فوق ما أرشدني إليه ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي جعل إبراهيم هذه الكلمة أي كلمة التوحيد المفهومة من قوله إنني برآء إلى سيهدين ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي ذريته، قال قتادة لا يزال في ذريته من يعبد الله وحده وقال القرطبي جعل الله تعالى وصية إبراهيم باقية في نسله وذريته وقال ابن زيد يعني قوله ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وقرأ ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2] ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي أذكر قول إبراهيم لعل أهل مكة يرجعوا إلى دين إبراهيم ووصيته ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ إضراب عن قوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار مكة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

المعاصرين للنبيّ ﷺ ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ الذين ماتوا على الشرك يعني لم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن، وقال الضحاك الإسلام ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الرسالة بالمعجزات أو مظهر التوحيد بالحجج والآيات أو مظهر أحكام الله سبحانه ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن قالوا هذا أي القرآن ﴿سِحْرٌ﴾ سموه سحراً لعجزهم عن معارضته ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

أخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس قال لما بَعَثَ الله محمداً ﷺ أنكرت العرب ذلك وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وأنزل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ فلمَّا كررت الآية عليهم قالوا وإن كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة وحينئذ ﴿قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين﴾ أي من إحدى القريتين مكة والطائف ﴿عَظِيمٌ﴾ بالجاه والمال فإن الرسالة من الله منصب عظيم لا يليق إلا لعظيم ولم يعلموا أنها رتبة روحانية يستدعي عظم النفس بالتجلي بالفضائل والكمالات القدسية وكمال الإستعداد للتجليات الذاتية والصفاتية لا التزخرف بالزخارف الدنيوية، وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال قال الوليد بن المغيرة لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل عليّ هذا القرآن وابن مسعود الثقفي فنزلت هذه الآية، وقال البغوي قال مجاهد يعنون عتبة بن ربيعة من مكة وعبد يا ليل بالطائف وقيل الوليد من مكة ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ويرى هذا عن ابن عباس قال الله تعالى رداً عليهم ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ يعني النبوة استفهام إنكار فيه تجهيل وتوبيخ وتعجيب من تحكمهم ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي ما به عيشهم من الأرزاق ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تعليل للتجهيل والتوبيخ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ تميز عن النسبة، يعني رفعنا درجات بعضهم فوق بعض بالمال والجاه فجعلنا بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً وبعضهم مالكاً وبعضم مملوكاً ﴿لِّيَتَّخِذَ﴾ متعلق برفعنا ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ مسخراً في العمل له والياء للنسبة، قال قتادة والضحاك أي يملك بعضهم بما لهم بعضاً بالعبودية والملك ولا يقدر أحدهم أن يزيد في معيشته وينقص في معيشة غيره ولا أن يعترض على الله فيما فعل من القبض ﴿ورحمت ربك﴾ يعني النبوة وما يتبعها ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإذا لم يقدر أحدهم أن يختار لنفسه الرفعة في الدنيا فأنى لهم أن يجعلوا النبوة التي هي أعلى مراتب الإنسانية حيث شاءوا والعظيم عند الله من رزق النبوة لا من رزق متاع الدنيا والجملة عطف أو حال.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولمَّا كانت العظمة عند الكفار بكثرة حطام الدنيا بين الله سبحانه كون الدنيا عند الله حقيراً مبغوضاً بقوله ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾ كلهم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني كفاراً لحبهم الدنيا العاجلة وغفلتهم عن الأخرى الآجلة أن مع صلته مبتدأ وخبره محذوف أي حاصل وجواب لولا قوله ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ أو علة كقولك وهبتُ له ثوباً لقميصه ﴿سَقْفًا﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر بفتح السين وسكون القاف على الواحد بإرادة الجنس والباقون بضم السين والقاف على الجمع للسَّقْفِ مثل رَهْنٍ ودُهُنٍ، قال أبو عبيدة ولا ثالث لهما وقيل هو جمع سقيف وقيل جمع سَقُوْفي جمع الجمع ﴿مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي مصاعد ودرج من فضة لم يذكر الصفة هاهنا إكتفاء بذكرها في المعطوف عليه أعني سقفاً ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون السطوح ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ جمع سرير أي وجعلنا لهم سرراً من فضة ﴿عليهم يتكؤن وزخرفاً﴾ أي زينة عطف على سقف أو ذهباً كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾[1] فهو معطوف على محل من فضة، وذلك أي تخصيص الدنيا بالكفار لكونها مبغوضة عند الله والكافر مبغوضاً فيعطى المبغوض للمبغوض ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكورات من سقف الفضة ومعارجها وأبوابها وسررها وزخرفها ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام بخلاف عنه لمَّا مشددةً فإن نافية ولمَّا بمعنى إلا والمعنى وما ذلك الإمتاع الحياة الدنيا لا بقاء لها ولا اعتداد لها عند الله الباقون بتخفيف لَمَا فإن مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما زائدة ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي الدار الآخرة متحققة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في علمه وقضائه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي فيه دلالةٌ على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا وإشعاراً بما لأجله لم تجعل زخارف الدنيا كلها للمؤمنين وجعل بعضها لأعداء الله وذلك أنها مبغوضة لله تعالى حريَّة أن تجعل كلها للكافرين لولا مخافة إجتماع الناس على الكفر ولو كانت حسنة مرضية لله تعالى يعط الكافر منها شيئاً.

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة**

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

ما سقى كافراً منها شربة ماء وفي رواية قطرة من ماء»[1] رواه الترمذي والضياء، وعن المستورد بن شداد أحد بني فهر قال كنتُ في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها؟ فقالوا من هوانها ألقوها، قال رسول الله ﷺ فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[2] رواه البغوي، وأخرج أبو نعيم عن داود بن هلال الضبي قال مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم إني قد قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك ما خلقتُ أهون عليَّ منك كل شأنك صغير وإلى الغنا تصير قضيتُ عليك يوم خلقتُك أن لا تدومي لأحد ولا يدوم لك أحد وإن بخل بك صاحبك وشح عليك طوبى للأبرار الذين أطلعوني عن قلوبهم على الرضاء وأطلعوني من ضميرهم على الصدق والإستقامة طوبى لهم ما عندي من الجزاء إذا وفدوا إليَّ من قبورهم يسعى إمامهم والملائكة حافُّونَ بهم حتى أبلغ بهم إلى ما يرجون من رحمتي، وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ما كان من الله عزَّ وجلَّ» رواه الضياء، وروى ابن ماجه عن أبي هريرة والطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه بلفظ «إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً»[3] والبزار عن ابن مسعود نحوه بلفظ «إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله» والطبراني في الكبير بسند صحيح عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه بلفظ «إلا ما ابتغي به وجه الله عزَّ وجل» وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له» رواه أحمد والبيهقي بسند صحيح ورواه البيهقي عن ابن مسعود موقوفاً، وعن ابن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وسنته فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة» رواه أحمد والطبراني والحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[4] رواه أحمد ومسلم في الصحيح والترمذي وروى البيهقي والحاكم عن سلمان والبزار عن ابن عمر، يعني أن المؤمن وإن كان في نعيم فالدنيا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٢).

(٤) أخرجه مسلم في أول كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٥٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤).

بالنسبة إلى ما أعد له في الآخرة من الثواب سجن وسنة والكافر وإن كان في ضر وبلاء فالدنيا بالنسبة إلى ما أعد له في الآخرة من العذاب جنة والله أعلم.

فإن قيل روى صاحب مسند الفردوس عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا والدنيا والآخرة حرام على أهل الله» ما معنى ذلك قلتُ معناه عندي والله أعلم أن حب الدنيا حرام على أهل الآخرة يعني على المؤمنين لا الإنتفاع بمتاع الدنيا حيث قال الله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾[1] فمن ارتكب بحب الدنيا أضر بآخرته قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى» رواه أحمد والحاكم في المستدرك بسند صحيح عن أبي موسى والآخرة يعني حظوظ الآخرة حرام على أهل الدنيا يعني من همه الدنيا لا غير يعني الكفار وفيهم قال الله تعالى: ﴿منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾[2] والدنيا والآخرة يعني حبهما حرام على أهل الله وهم الذين امتلأ قلوبهم من حب الله تعالى لا تلتفت قلوبهم إلى شيء من الدنيا والآخرة غير الله سبحانه. روي أن رابعة البصرية أخذت في إحدى يديها ظرفاً من ماء وفي الأخرى قطعة من نار فقيل لها أين تريدين قالت أريد أن أطفأ نار جهنم وأحرق الجنة كيلا يعبد الناس الله تعالى طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار بل خالصاً لوجهه تعالى، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه وكان هذا مبنياً على السكر منها بل لا بد للمؤمن أن يطمع في الجنة لا لنفسها بل لكونها محلاً لرحمة الله تعالى ويتعوذ من النار لكونها محلاً بسخط الله تعالى ولا لحق العبد جائز لما ذكرنا وطلب المعاش جائز بل فريضة حيث قال رسول الله ﷺ: «**طلب الحلال فريضة بعد الفريضة**» رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود فما معنى الدنيا وحبها قلتُ معنى حب الدنيا إيثارها على الآخرة والإنهماك في اكتسابها ولذاتها بحيث يغفل عن إكتساب الثواب واجتناب العذاب والحرص على جمع المال وطول الأمل وزعم الأغنياء خيراً من الفقراء وتعظيم الأغنياء فوق تعظيم الفقراء لأجل غناه لا لدفع مضرة أو مكافأة إحسان أو لغير ذلك من غرض مشروع أو أن يريد عُلواً في الأرض أو فساداً، وأما طلب المعاش وكسب الأموال من ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٢) الآية هي: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾. سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾[١] للإنفاق على نفسه حتى يتقوى على عبادة ربه وعلى عياله إداء لحقوقهم وللإنفاق في سبيل الله فليس بمكروه بل منها ما هو واجب ومنها ما هو مُستحب ومنها ما هو مباح، قال رسول الله ﷺ «أيما رجل كسب مالاً من حلال فأطعم نفسه أو كساها فمن دونه من خلق الله كان له به زكاةً» رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي سعيد ولكن المسنون الإجمال في طلب الدنيا قال رسول الله ﷺ: «**أجملوا في طلب الدنيا فإن كلاً ميسر لما خلق له**»[٢] رواه ابن ماجه والحاكم.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي من يعرض عن القرآن ويتعامى عنه لفرط إشتغاله باللذات وإنهماكه في الشهوات يقال عشوتُ إلى فلان عشواً إذا قصدته مهتدياً وعشوتُ عنه إذا أعرضت عنه كما يقال عدلتُ إلى فلان وعدلتُ عنه أي ملتُ إليه وعنه ورغبتُ فيه ورغبتُ عنه، قال الخليل بن أحمد أصل العشو النظر ببصر ضعيف ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قرأ يعقوب يُقَيّضُ بالياء التحتانية على صيغه الغائب والضمير فيه راجع إلى الرحمن والباقون بالنون على التكلم والتعظيم أي نصبتُه له شيطاناً ونضمه إليه ونسلط عليه ﴿فَهُوَ﴾ أي الشيطان ﴿له قرين﴾ لا يفارقه ويزين له السيئات ويخيل إليه أنه على الهدى ﴿وإنهم هم﴾ أي الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي يمنعونهم جمع الضمير نظراً إلى معنى من الموصولة وهم

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٢)، في الزوائد: في إسناده يزيد الرقاشي والحسن بن محمد بن عثمان وإسماعيل بن مهرام.

العاشين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الهدى جملة معترضة ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي العاشون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي على الهداية الجملة حال من الضمير المنصوب من ليصدونهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ غاية لحسبانهم، قرأ أهل العراق غير أبي بكر جائنا على الإفراد يعني إذا جاء العاشي والباقون جائنا على التثنية يعني إذا جاء العاشي وشيطانه وقد جعلا في سلسلة واحدة ﴿قَالَ﴾ أي العاشي لشيطانه ﴿يا﴾ للتنبيه أو المنادي محذوف تقديره يا قرين ﴿ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ أي بعد المشرق من المغرب فغلَّب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما أو المراد مشرق الصيف ومشرق الشتاء ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت لي، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشيطان فلا يفارقه حتى يصير إلى النار، قال الله تعالى ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الآخرة ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ إذ تبين لكم أنكم أشركتم وظلمتم أنفسكم في الدنيا وإذ بدل من اليوم ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في موجبه ويجوز أن يسند الفعل إليه يعني لن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في أمر صعب معاونتهم في تحمل إعيائه وتقسمهم بمكائده شدائده لأن لكل واحد منكم ومن شياطينكم الحظ الأوفي والأوفر من العذاب وجاز أن يكون جملة ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ حالاً من فاعل قال يا ليتني ويكون فيها إلتفاتاً من الغيبة إلى الخطاب.

﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين والإستفهام للإنكار والتعجب والفاء للعطف على محذوف تقديره أنت تريد أن تهديهم فأنت تسمع الصم يعني لست تقدر على هداية هؤلاء الكفار بعد تمرنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال بحيث صار ظلمة الكفر عليهم غشاوةً على أعينهم ووقراً في آذانهم كأنهم لا يسمعون كلامك ولا يبصرون طريقاً تهديهم إليه ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ إن شرطية إتصلت بما الزائدة المؤكدة بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة والمعنى فإن نقبضك قبل تعذيبهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعدك في الدنيا وفي الآخرة علة لجزاء محذوف أقيم مقامه يعني لا تحزن ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ في الدنيا ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ نحو ما ذكر يعني لا تعجب فإنا على تعذيبهم مقتدرون لا يفوتوننا نعذبهم متى شئنا والمراد به مشركوا مكة إنتقم الله منهم يوم بدر وهذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن وقتادة عنى به أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ وقد كان بعد النبيّ ﷺ نقمة شديدة فأكرم الله نبيه ﷺ وذهب به ولم يره في أمته إلا الذي يقر عينه وأبقى النقمة بعده وروي أن النبيّ ﷺ أرى ما يصيب

أمته بعده فما رُئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله، قلتُ: لعل ذلك مقتل حسين عليه السلام وما فعل بعد ذلك بنوا أمية، وعن عبد الرحمن بن مسعود العبدي قال قرأ علي بن أبي طالب هذه الآية فقال قد ذهب نبيه وبقيت نقمته في عدوه ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾ من الوحي المتلو وغير المتلو فاحفظه وأعمل به الفاء للسببية والجملة متصلة بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[1] وبينهما معترضات ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج له، هذه الجملة في مقام التعليل للأمر بالإستمساك.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ أي شرف لك ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ قريش الجملة حال من فاعل استمسك قال البغوي روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك لم يجب بشيء حتى نزلت هذه الآية وكان بعد ذلك إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك قال لقريش، وكذا روي عن علي رضي الله عنه وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي إثنان»[2] وعن معاوية قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»[3] وقال مجاهد القوم هم العرب والقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص عن العرب حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم، وقيل ذلك شرف لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك المؤمنين بما هداهم الله ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عن القرآن وعما يلزمكم من القيام بحقه جملة معترضة ﴿واسأل﴾ عطف على فاستمسك ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ قال البغوي اختلف العلماء في هذا المسؤول؟ قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنها أنه لمَّا أسري بالنبيّ ﷺ بعث الله له آدم وولده من المرسلين فأذن جبرئيل قم أقام وقال يا محمد تقدم فصل بم فلمَّا فرغ من الصلاة قال جبرئيل سل يا محمد ﴿من أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ لا أسأل قد اكتفيتُ، وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد قالوا جمع له الرسل ليلة أسرى به أن يسألهم فلم يشك ولم يسأل وقال أكثر المفسرين معناه وأسأل أمم من أرسلنا من قبلك وعلماء دينهم يعني مؤمني

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش (٣٥٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش (٣٥٠٠).

أهل الكتاب وهذا قول ابن عباس في سائر الروايات ومجاهد وقتادة والضحاك والسديّ والحسن والمقاتلين ويدل عليه قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب وسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعباده غير الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين﴾ يريد باقتصاص تسلية الرسول ﷺ ومناقضة قولهم: ﴿لولا نزل على رجل من القريتين عظيم﴾[1] والإستشهاد بدعوة موسى إلى التوحيد ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ الدالة على رسالته منها العصا واليد البيضا ﴿إذاهم منها يضحكون﴾ استهزاء بها أول ما رأوها بلا تأمل فيها لمَّا ظرف مضاف إلى جملة بعدها متعلقة بمعنى المفاجأة الذي هو عامل في إذا يعني لما جاءهم بآياتنا فوجىء وقت كونهم يضحكون وجملة فوجىء عطف على قوله ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من آيات العذاب كالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس فإنها كانت آيات على صدق موسى عليه السلام ﴿إِلَّا هِىَ﴾ أي إلا آية هي ﴿أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي من قرينه التي كانت قبلها وجملة ما نريهم حال من ضمير منها والأ ظهر أن يقال أن كل واحدة منها كانت بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر إلى كل واحدة منها أنها أكبر من غيرها والمراد وصف الكل بالكبر كقولك رأيتُ رجالاً كل واحد منهم أفضل من غيره، وكقول الشاعر:

من تلق منهم فقد لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

أو يقال بأن كل واحد منها مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الإعتبار ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾ يعني آل فرعون ﴿بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لكي يرجعوا عن كفرهم وجملة وأخذناهم عطف على﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني قال فرعون وقومه لموسى ﴿يا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

أيه السحر﴾ قرأ ابن عامر بضم الهاء في آية وصلاً والباقون بفتحها على الأصل وقرأ أبو عمرو والكسائي بالألف وقفاً على الأصل والباقون آية بغير ألف، أطمعوا موسى عليه السلام في إيمانهم وعلقوا بهدايته على دعائه وكشف الضرّ عنهم ومع ذلك لم يسموه نبيّاً وسموه ساحراً كما كانوا يسمونه قبل ذلك وذلك من شدة شكيمتهم على الكفر وفرط حماقتهم، قال الزجاج دعوه بذلك الاسم لما تقدم له عندهم من التسمية، وقيل إنما قالوا هذا تعظيماً وتوقيراً له لأن السحر كان عندهم علماً عظيماً وصفة ممدوحة كأنّهم قالوا يا أيها العالم الكامل الحاذق وهذا عندي غير سديد لأنهم إتهموه بالسحر أول مرة حين أنكروا نبوته و﴿قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾[1] وقيل معناه يا أيها الذي غلبنا بسحره ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أن يكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ متعلق بأدع أي بما أخبرتنا عن عهده إليك بكشف العذاب إذا دعوته ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف عنا العذاب هذه جملة مستأنفة فدعا موسى عليه السلام بكشف العذاب عنهم فكشف الله العذاب قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ بدعاء موسى عليه السلام ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجئوا نقض عهدهم بالإيمان وأصروا على كفرهم حين كشفنا عنهم العذاب.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مجمعهم وفيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمن بعضهم، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس عطف على ملك مصر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني من تحت قصوري أو تحت أمري أو بين يدي في البساتين حال وجاز أن يكون هذه مبتدأ والأنهار صفة له

(١) سورة يونس، الآية: ٧٦ ـ ٧٧.

وتجري خبره والجملة حال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ بهذه المملكة والبسطة من ﴿هَٰذَا﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرياسة من المهانة وهي القلة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يفصح كلامه للثقة التي كانت في لسانه عليه السلام بعدما زالت معظمها بدعائه عليه السلام حين قال: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾[1] وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها للتقرير إذ قدم من أسباب فضيلته، وقال البغوي أو بمعنى بل على قول أكثر المفسرين، وقال الفراء الوقف على قوله أم وفيه إضمار تقديره أفلا تبصرون أم تبصرون وبعده كلام مبتدأ فَلَمْ على هذا متصلة، وقيل أم متصلة على إقامة المسبب مقام السبب فإن قوله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أم تبصرون فتعلمون أني خير ﴿فلولا ألقي عليه﴾ أي على موسى ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ الفاء للسببية فإنَّ طعن فرعون في موسى عليه السلام بالحقارة كان سبباً لتنديهم على فوات العز والجاه قرأ حفص ويعقوب اسورة جمع سوار والباقون أساورة جمع الجمع قيل أصله أساوير عوض التاء من الياء وقد قُرِىء به، قال مجاهد كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سودوه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالةً لسيادته فقال فرعون فهلاَّ ألقي رب موسى على موسى أسورة من ذهب إن كان سيداً يجب علينا طاعة ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين يتابع بعضهم بعضاً يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره.

﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾ أي فرعون عطف على نادى ﴿قَوْمَهُۥ﴾ القبط أي وجدهم جهالاً، وقيل حملهم على الخفة والجهل يقال استخف رأيه إذا حمله على الجهل وأزاله عن الصواب، وقيل أي طلب منهم الخفة في مطاوعته ﴿فأطاعوه﴾ فيما أمرهم به من نقض العهد مع موسى عليه السلام ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعو ذلك الفاسق ﴿فلما اسفونا﴾ أي أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان يقال أسف فلان إذا اشتد غضبه الظرف متعلق بقوله ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وهو معطوف على أطاعوه وعطف عليه قوله ﴿فأغرقناهم﴾ في بحر النيل ﴿أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام قال الفراء هو جمع سليف كرُغُفٍ ورَغيْفٍ من سلُف يسلُف بضم اللام فيهما أي تقدم أو جمع سالف كصُبُرٍ جمع صابر أو جمع سلف كخَشَبٍ والباقون بفتحهما مصدر نعت به أو جمع سالف كخَدَم وجمع خَادِمٍ يعني جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ﴿وَمَثَلًا﴾ عبرةً وعظةً ﴿للآخرين﴾ وقيل سلفاً لكفار هذه الأمة إلى النار ومثلاً لمن بقي بعدهم وقيل مثلاً للآخرين أي قصة

---

(١) سورة طه، الآية: ٢٧ ـ ٢٨.

عجيبة يسير مسير الأمثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون والله أعلم.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

أخرج أحمد بسند صحيح والطبراني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «**إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير**»، فقالوا ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً وقد عُبدَ من دون الله فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه قريش مثلاً، وأخرج ابن مردويه والضياء في المختار عن ابن عباس قال جاء عبد الله بن الزبعري إلى النبي ﷺ فقال يا محمد إنك تزعم أن الله قد أنزل إليك ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال نعم قال قد عُبِدَتِ الشمس والقمر والملائكة وعزير فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا فنزلت؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ونزلت ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ إلى قوله ﴿خَصِمُونَ﴾ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قرأ أهل المدينة والشام والكسائي يَصُدُّوْنَ بضم الصاد أي يعرضون عنه ويكون لازماً ومتعدياً أي يعرضون عنه ويمتنعون أو يمنعون الناس عنه والباقون بكسر الصاد وقيل معناه مثل معنى مضموم العين، قال الكسائي هما لغتان مثل يعرشُونَ بضم الراء وكسرها أي يصيحون كذا قال سعيد بن المسيب، وقال الضحاك يتعجبون، وقال قتادة يجزعون وقال القرطبي يضجرون، قال قتادة لَمَّا ضُرِبَ ابنُ مريم مثلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّوْنَ يقولون ما يريد منا محمد إلا أن نعبده ونتخذه إلهاً كما عَبَدَت النصارى عيسى ﴿وقالوا ءآلهتنا﴾ قرأ الكوفيون بتحقيق الهمزتين وألف بعدهما والباقون بتسهيل الثانية وبعدهما ألف ولم يدخل أحدهم الفاً بين المحققة والمسهلة ﴿خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون محمداً ﷺ فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا، وقال ابن زيد والسديُّ أم هُوَ يعنون عيسى عليه السلام قالوا يزعم محمد أن كل مَن عبد من دون الله في النار نرضى أن يكون آلهتنا مع

عيسى وعزير والملائكة في النار ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي للجدل والخصومة بالباطل لا للتميز بين الحق والباطل لأنهم قد علموا أن محمداً ﷺ لا يريد عبادة نفسه أو قد علموا أن قوله ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ المراد منه الأصنام فإن ما لغير ذوي العقول ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شداد الخصومة حراص على اللجاج إعتادوا بالخصومة، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما منك قوم بعد هدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾»[1] رواه البغوي وكذا روى أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرك.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ لله ليس ابنه ﴿أنعمنا عليه﴾ بالنبوة والزلفى ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي أمراً عجيباً كالمثل السائر وآية وعبرة يعرفون به قدرة الله على ما يشاء حيث خلقه من غير أب ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إلى آخره جملة معترضة لبيان قدرة الله تعالى ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي لخلقنا منكم أي من الإنس أو المعنى لأهلكناكم وجعلنا بدلك ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي يخلفونكم في الأرض يعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعوني، وقيل يخلف بعضهم بعضاً يعني أن حال عيسى وإن كان عجيباً فنحن قادرون بما هو أعجب منه وإن الملائكة مثلكم من حيث أنها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً فمن أين لها استحقاق الألوهية والإنتساب إلى الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها قرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة (وإنه لعلم الساعة) بفتح العين واللام أي أمارة وعلامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**»[2] رواه الشيخان في الصحيحين، وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «اطلع النبيّ ﷺ ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون؟ قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدآبة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزخرف (٣٣٧٣)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: اجتناب البدع والجدل (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى بن مريم عليهما السلام (٣٤٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكماً مبشراً بنبينا محمد ﷺ (١٥٥).

بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، وفي رواية وفي العاشرة وريح تلقى الناس في البحر» رواه مسلم، وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فذكر حديثاً طويلاً في قصته إلى أن قال: «إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كتفه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ»[1] «الحديث» رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً عدةً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتّى لا يقبل أحد حتى يكون السجدة الواحد خيراً من الدنيا وما فيها» رواه الشيخان في الصحيحين وأخرجه مسل من حديثه أيضاً «لينزلَنَّ ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرنَّ الصليب وليقتلنَّ الخنزير وليضعنّ الجزية وترك القلاص فلا يسعى عليها وليذهبنَّ الباغض وليد عنَّ إلى المال فلا يقبله أحد»، وروى مسلم من حديث جابر «فيقول أميركم تعال صل لنا فيقول إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة» وذكر البغوي «فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلّي على شريعة محمد ﷺ ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به»، وقال الحسن وجماعة الضمير راجع إلى القرآن يعني أن القرآن لعَلَم للساعة يعلّم بقيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ الفاء للسببية يعني لما كان عيسى سبباً للعلم بقيام الساعة أي فلا تشكنَّ فيها قال ابن عباس لا تكذبوا بها ﴿وأتبعون﴾ قرأ أبو عمرو بالياء وصلاً فقط والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً يعني إتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي وقيل هو قول الرسول الله ﷺ أمر أن يقوله تقديره وقل إتبعوني ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه تعليل لقوله أتبعوني ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ أي لا يمنعكم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن متابعتي، الجملة معطوفة على قوله اتَّبِعُونِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر عداوته حيث أخرجكم عن الجنة وعرضكم على البلية ويصدكم عن إتباع الحق والوصول إلى الجنة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات أو بآيات الإنجيل أو بالشرائع الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالعلوم الحقة الباء بمعنى مع أو للتعدية ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ متعلق بمحذوف تقديره وجئتكم لا بين لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وذلك أن اليهود صاروا بعد موسى عليه السلام إحدى وسبعين فرقة باختلاف الأهواء فلمّا جاء عيسى عليه

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

السلام صدهم عن العقائد الباطلة وهداهم إلى الحق والصواب، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إفترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»[1] رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح، قال الزجاج الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه وبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الفاء للسببية فإن مجيء عيسى بالحكمة سبب للتقوى ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلّغه عنه ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه﴾ دون غيره بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو إعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى مجموع الأمرين وهذا تتمة كلام عيسى أو إستئناف من الله تعالى يدل على المقتضى للطاعة في ذلك.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة عطف على قال قد جئتكم ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي بين قوم عيسى كما مرَّ في الحديث أنهم تفرقوا إلى اثنين وسبعين فرقة أو من بين النصارى واليهود ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي هلاك عظيم ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم باتباع الهوى ورفض ما نطق به الكتاب والسنة من المتحزبين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي من نار جهنم، الفاء للسببية فإن إختلافهم سبب للويل والهلاك عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي كما أتى على نبي إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى أن من كان منهم من أتى أمه

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: شرح السنة (٤٥٨٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠).

وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: افتراق الأمم (٣٩٩١).

علانية لكان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفرتق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله؟ قال ما أنا عليه وأصحابي»[1] رواه الترمذي وفي رواية أحمد وأبي داود عن معاوية «ثنتان وسبعون في النار واحدة في الجنة وهي الجماعة» ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يعني قريشاً أو الذين ظلموا يعني لا ينتظرون شيئاً ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من ا لساعة أي إتيانها يعني أنها آتية لا محالة فكأنهم ينتظرون إتيانها ﴿بَغْتَةً﴾ فجاءه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي غافلون عنها لاشتغالهم بالدنيا وإنكارهم لها والجملة حال من فاعل ينظرون أو مفعول تأتيهم ﴿الأخلاء يؤمئذ بعضهم لبعض عدو إلا﴾ المتحابين ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ روى البغوي عن علي رضي الله عنه قال في هذه الآية خليلان مؤمنان وخليلان كافران فمات أحد المؤمنين فقال يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني إني ملاقيك يا رب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول ليثن أحدكما على صاحبه فيقول نعم الأخ ونعم الخليل ونعم الصاحب، قال ويموت أحد الكافرين فيقول يا رب إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك فيقول بئس الأخ وبئس الخليل وبئس الصاحب»، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»[2] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبدين تحابا في الله عزَّ وجلَّ واحد في المشرق وآخر في المغرب لجمع الله بينهما يوم القيامة يقول هذا الذي كنت تحبه فيَّ» رواه البيهقي في شعب الإيمان والله أعلم.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ هذه الجملة بتقدير القول مستأنفة أخرى تقديره يقول الله للمتحابين المتقين يومئذ ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ روى البخاري عن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال سمعتُ أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع فنادى مناد ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، فيرجوا الناس فيتبعها ﴿الذين آمنوا بآياتنا﴾ صفة للمنادى ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حال من فاعل آمنوا أي الذين آمنوا مخلصين غير أن هذه العبارة آكد فيئس الناس

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: في فضل الحب في الله (٢٥٦٦).

كلهم منها غير المسلمين ﴿أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم﴾ أي نساؤكم المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره على وجوهكم أو تزيَّنون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً بليغاً والحبرة فيما وصف مجمل، وهذه الجملة أيضاً خطاب للمنادى أنتم مبتدأ وأزواجكم معطوف عليه وتحبرون خبره وجاز أن يكون أنتم تأكيداً للضمير المستتر في ادخلوا وأزواجكم معطوف على الضمير المستتر وجملة تحبرون حال من ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أي يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴿بِصِحَافٍ﴾ جمع صحفة وهي القصاع الواسعة ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهو إناء مستدير مدور الرأس لا عرى به، الجملة مستأنفة وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وَفِيهَا﴾ أي في الجنة عطف على يطاف ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ قرأ أهل المدينة والشام وحفص هكذا وكذا هو في مصاحفهم والباقون تشتهي بحذف ضمير المفعول ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي لكل واحد منهم ما تشتهيه نفسه فالصوفي الذي مشتهاه الوصل والعريان بلا كيف ودوام رؤية الله سبحانه فله ذلك وأما غيره فله من نعماء الجنة ما يشتهيه، روى البغوي عن عبد الرحمن بن سابط قال قال رجل يا رسول الله أفي الجنة خيل فإني أحب الخيل؟ فقال «إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير في أيّ جنة شئتٍ ولا فعلتَ، قال أعرابي يا رسول الله في الجنة إبل فإني أحب الإبل، فقال يا أعرابي إن يدخلك الله الجنة أصبتَ فيها ما اشتهتْ نفسك ولذت عينك»[1] وروى الترمذي والبيهقي عن بردة نحوه، وأخرج الطبراني والبيهقي بسند جيد عن عبد الرحمن بن ساعدة والترمذي عن أبي أيوب الفصل الأول أعني ذكر الخيل ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ الجنة خبر للمبتدأ والموصول صفة لها أو الجنة صفة للمبتدأ والموصول خبره والجملة حال من فاعل أدخلوا، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كل من أهل النار يرى به منزلته من الجنة حسرة فيقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين وكل من أهل الجنة يرى منزلته من النار فيقول ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله يقول شكراً» قال وقال رسول الله ﷺ «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله تعالى وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ الجملة الظرفية حال، أخرج البزار والطبراني عن ثوبان قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا ينزع

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة خيل الجنة (٢٥٤٤).

رجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أعيد في مكانها مثلها» أخرج البزار عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى لمَّا أخرج آدم من الجنة زوَّده من ثمار الجنة وعلمه كل شيء فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير» وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود أنه كان بالشام فذكروا الجنة فقال إن العنقود من عناقيدها من هاهنا إلى صنعاء وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال إن الثمرة من ثمار الجنة طولها إثنى عشر ذراعاً ليس لها عجم.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكاملين في الإجرام وهم الكافرون لأنهم جعلوا قسيماً للمؤمنين ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ هذه الجملة وما بعده مستأنفتان ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ أي أيسون من النجاة ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟﴾ عطف على خبر إن ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ اسم لخازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾ أي ليمتنا ربك فنستريح ﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو قال مالك بعد ألف سنة ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ مقيمون في العذاب لاخلاص لكم بموت ولا غيره، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس في هذه الآية قال يمكث عنهم ألف سنة ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ وأخرج هناد والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال إن أهل النار ينادون مالكاً «يا مالك ليقض علينا ربك» فيذرهم أربعين عاماً لا يجيبهم ثم يرد عليهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ ثم ينادون ربهم «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» فيذرهم مثل الدنيا مرتين لا يجيبهم ثم يجيبهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال فما يتكلم القوم بعدها بكلمة وما هو إلا الزفير والشهيق، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن محمد بن كعب إنه قال لأهل النار خمس

دعوات يجيبهم الله في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) فيجيبهم ﴿ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ ثم يقولون: (ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) فيجيبهم الله ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثم يقولون: (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) فيجيبهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، ثم يقولون: (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) فيجيبهم الله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ثم يقولون: (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضآلين) فيجيبهم الله ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فلا يتكلمون بعدها.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزال وهذا تتمة الجواب إن كان في قال ضمير الله وإلا فجواب عنه فكأنّه تعالى تولّى جوابهم بعد جواب الملائكة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لما في إتباعه خلاف النفس ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ﴾ أم منقطعة بمعنى الهمزة للإنكار والإضراب عن كراهة الحق والترقي فيه يعني بل أحكموا ﴿أَمْرًا﴾ مكراً برسول الله ﷺ أو أمراً في تكذيب الحق ورده ولم تقتصروا على كراهيته ﴿فإنا مبرمون﴾ محكمون أمراً في مجازاتهم.

أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال الآخر إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أم منقطعة للإنكار والإضراب يعني بل أيحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾ سرهم أي حديث نفسهم بذلك ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي تناجيهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي الملائكة الحفظة أيضاً ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمون ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وسكون الدال ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ منكم فإن النبي أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن يعظم الوالد يعظم ولده قال رسول الله ﷺ: «**فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها**» وفي رواية «فمن أغضبها أغضبني»[1] رواه البخاري عن مسور، ولا يلزم من ذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ي، باب: مناقب فاطمة عليها السلام (٣٧٦٧).

جواز البنوة لله سبحانه وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١) غير أن لو مشعرة بانتفاء الطرفين وإن لا يشعر به ولا بنقيضه فإنها لمجرد الشرط، والمقصود أن إنكاره ﷺ للولد ليس لعناد بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به كذا قال السديُّ، وقيل معناه إن كان لله ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله الموحدين له من أهل مكة يعني لستُ قائلاً كما زعمتم، وقيل العابدين بمعنى الآنفين أي الجاحدين المنكرين لما زعمتم، وقيل معناه أنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد، في القاموس عَبَدٌ بالتحريك الغضب والحرب الشديد والندامة وملامة النفس والحرص والإنكار عَبِدَ كَفَرِحَ في الكل والمناسب في المقام الغضب والإنكار، قال البغوي وروى عن ابن عباس إن كان بمعنى ما كان للرحمن ولد فأنا أولُ العابدين الشاهدين بذلك يعني أن نافية ليست بشرطية ﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ من كونه ذا ولد فإن هذه الاجسام لطول بقائها براء عما يتصف به سائر الاجسام من توليد المثل فما ظنك بمبدعهما وخالقهما ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَخُوضُواْ﴾ في باطلهم مجزوم في جواب الأمر ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ فيه العذاب يعني يوم القيامة وهو دليل على أن قولهم جهل وإتباع هوىً وإنهم مطبوع على قلوبهم يعذبون في الآخرة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ قال قتادة يعني يعبد في السماء والأرض لا إله غيره أي لا مستحق لأن يعبد فيهما غيره والظرف متعلق به لأنه بمعنى المعبود أو متضمن لمعناه كقولك هو حاتم في البلد ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم هذا بمنزلة الدليل على استحقاقه العبادة وهذه جملة معترضة مؤكدة لما سبق وكذا ما عطف عليه ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من كائنات الجو

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي العلم بوقت قيامها ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للجزاء، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي يدعونه الكفار وهم الأصنام ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي دون الله ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاء عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ منهم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يقول لا إله إلا الله إستثناء منقطع، وجاز أن يكون متصلاً والمراد بهم الملائكة فإنهم كانوا يعبدون الملائكة أيضاً ويقولون أنها بنات الله ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي يعتقدون بقلوبهم ما يشهد ألسنتهم ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ أي الكفار العابدين لغير الله ﴿مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ لتعذر إسناد الخلق إلى الجمادات ﴿فإنى يؤفكون﴾ يعني إذا اعترفوا بأن الله خالقهم لا غير فأين يصرفون عن عبادته إلى غيره ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالجر وكسر الباء عطفاً على الساعة يعني عنده علم الساعة وعلم قوله والباقون بالنصب وضم الباء عطفاً على سرهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله يعني قال محمد ﷺ شاكياً إلى ربه قيله ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ويعني كفار مكة ﴿قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي فأعرض عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ يعني بيننا وبينكم متاركة تسلمون منا ونسلم منكم ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ جزاء عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم تسلّية لرسول الله ﷺ. قرأ أهل المدينة والشام بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة، قال مقاتل نسختها آية السيف.

سورة الدخان

آياتها تسع وخمسون وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ المظهر للحلال والحرام أي القرآن والواو للعطف إن كان حٰمٓ مقسماً به وإلا فللقسم والجواب قوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ويعني القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ لما فيها نزول القرآن السبب للمنافع الدينية والدنيوية وفيها نزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعاء وهي ليلة القدر كذا قال قتادة وابن زيد قالا أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا ثم نزل به جبرئيل عليه السلام على النبيّ ﷺ نجوماً في عشرين سنة، وما قيل إنها ليلة النصف من شعبان فليس بشيء لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[2] وما روى عن القاسم بن محمد عن أبيه أو عمه عن جده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل الله جلَّ ثناؤه ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لكل نفس إلا إنساناً في قلبه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة القدر، الآية: ١.

شحناء أو مشركاً بالله»[1] رواه البغوي لا يدل على نزول القرآن في تلك الليلة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الناس عن عذاب الله في القرآن جملة مستأنفة أو بدل إشتمال من قوله إنا أنزلناه.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ أي يفعل ويقضى ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي محكم أو متلبس بالحكمة أو إسناده مجازي يعني حكيم صاحبه وجملة مستأنفة أو صفة ثانية لليلة وفيه تنبيه على أن كونها مفرق الأمور المحكمة يستدعي أن ينزل فيه القرآن الذي هو من عظمائها، قال البغوي قال ابن عباس يكتب من أم الكتب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشرر الأرزاق والآجال حتى الحجاج يحج فلان ويحج فلان وقال الحسن ومجاهد وقتادة يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزقٍ وما يكون في تلك السنة، وقال عكرمة هي ليلة النصف من شعبان يبرم فيه أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد، روى البغوي عن محمد بن الميسرة بن الأخفش أن رسول الله ﷺ قال: «يقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له ولقد أخرج اسمه في الموتى» وروى أبو الضحى عن ابن عباس أن الله يقضي إلا قضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا وهو مزيد تفخيم الأمر ويجوز أن يكون حالا من كُلُّ أمر أو من الضمير المستكن في حكيم وجاز أن يكون مفعولاً به ليُفرقُ بدلاً من كل أمر، وجاز أن يكون المراد بالأمر طلب الفعل على سبيل الإستعلاء وقع مصدراً ليُفرَق أو لفعله مضمراً من حيث أن الفرق به أو حالاً من إحدى ضميري أَنزَلْنَاهُ يعني أمرين أو مأموراً به ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمداً ﷺ ومن قبله من الرسل بدل اشتمال لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الإنذار وإرسال الرسل بالكتب إلى العباد ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له للإرسال ولتفريق كل أمر حكيم أو مفعول به لمرسلين، قال ابن عباس رأفة مني بخلقي ونقمة عليهم بما بعثنا عليهم من الرسل ووضع المظهر موضع الضمير للإشعار بأن الرّبوبية إقتضت ذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾أي يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم وهو وما بعده تحقيق لربوبيته فإنها لا تحق إلا لمن له هذه الصفات ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ أهل الكوفة رب بالجر على أنه بدل من قول ربك والباقون بالرفع على أنه خبر آخر لإن أو صفة للسميع العليم أو خبر

---

(١) رواه ابن زنجويه والبزار وحسنه، والدارقطني والبيهقي في شعب الإيمان.
انظر: كنز العمال (٧٤٦٢).

مبتدأ محذوف أي هو ﴿إن كنتم موقنين﴾ شرط حذفت جزاؤه يعني إن كنتم من أهل الإيقان في العلم أو ﴿إن كنتم موقنين﴾ في إقراركم إذا سئلتم من خلقها فقلتم الله علمتم أن الأمر كما قلنا أو إن كنتم مريدين اليقين فأيقنوا ذلك أو إن كنتم موقنين بأن الله رب السماوات والأرض فأيقنوا أن محمداً رسول الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يستحق العبادة غيره إذ لا خالق سواه جملة مقررة لقوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو خبر آخر لإن ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ كما تشاهدون خبر آخر لأن أو حال من هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبر آخر لإن أو بدل من هو ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ من البعث أو من القرآن إضراب من الإيقان ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالمن الضمير في الظرف أي يلهون بالقرآن ويستهزءون بك يا محمد فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿فأرتقب﴾ يا محمد، الفاء للسببية ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يوم مفعول به لارتقب. واختلفوا في هذا الدخان؟ قال ابن عباس وابن عمرو الحسن رضي الله عنهم أنه من أشراط الساعة، أخرج ابن جرير والثعلبي والبغوي من حديث حذيفة يقول قال النبيّ ﷺ أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا قال حذيفة يا رسول الله ما الدخان؟ فتلا هذه الآية يوم تأتي السماء بدخان مبين يملأها بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلةً فأمَّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر كمنزلة السكران تخرج من منخره وأذنيه ودبره.

وأخرج الطبراني بسند جيد عن أبي مالك الاشعري قال قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل سمع فيه والدابة والثالثة الدجال» له شواهد قوله ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾ مقدر بالقول وقع حالاً وقوله ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وعد منهم بالإيمان إن كشف عنهم العذاب تقديره يقول الكافرون من الناس هذا القول ﴿أنى لهم الذكرى﴾ أي من أين لهم التذكر والإتعاظ بهذه الحالة الإستفهام للإنكار والجملة مستأنفة قول من الله تعالى في جواب هل يتذكرون ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ يعني والحال أنه قد جاء أمثالهم قبل ذلك ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن ظاهر البرهان ﴿مبين﴾ يظهر لهم ما هو أعظم منها في إيجاب الإدكار من الآيات والمعجزات ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ يعني قال بعضهم هو معلم علمه بشر وهو غلام أعجمي لبعض ثقيف وقال بعضهم هو مجنون ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ بقدر أربعين يوماً جواب لقولهم ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ ﴿قَلِيلًا﴾ أي كشفاً

قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم أو ما بقي من عمر الدنيا ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر تعليل لقلة زمان الكشف.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إلى يوم القيامة ظرف لما دلَّ عليه قوله ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لمنتقمون لأن إن يحجز عنه وأنكر ابن مسعود هذا التفسير، روى البغوي عن أبي الضحى عن مسروق قال بينما رجل يحدث في كندة فقال يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ففزعنا فأتيتُ ابن مسعود وكان متكئاً فغضب فجلس فقال من علم فليقل ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وإن قريشاً أبطؤا عن الإسلام فدعا عليهم النبيّ ﷺ فقال: «اللّهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حتى أهلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد جئتَ تأمر بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ إلى قوله ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ﴾ حتى استسقى لهم النبيّ ﷺ ثم عادوا إلى الكفر كما قال الله تعالى: ﴿إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ أي يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وأخرج البغوي عن ابن مسعود قال خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان، وروى البخاري في الصحيح عن ابن مسعود قال: «إن قريشاً لما استعصوا على النبيّ ﷺ دعا عليهم بنين كسني يوسف فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله استسق لمصر فإنها قد هلكت فاستسقى فسقوا فنزلت ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فلمَّا أصابتهم الرفاهية عادوا إلى ما كانوا فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ يعني يوم بدر[1].

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (٤٨٢١).

﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي امتحنا وبلونا جواب قسم محذوف ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل كفار مكة ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ معه ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن عطف أو حال ﴿كَرِيمٌ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه وهو موسى عليه السلام ﴿أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أن مصدرية أي بأن أدوا إليَّ بني إسرائيل وأرسلوهم معي وأطلقوهم ولا تعذبوهم أو بأن أدوا إليَّ حق الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله والمراد بعباد الله فرعون وقومه، وجاز أن يكون أن مفسرة لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة ففيه معنى القول أو مخففة من الثقيلة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه أو غير متهم لدلالة المعجزات على صدقي والجملة تعليل لأدوا ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾ عطف على أدُّوا أي لا ترفعوا عليَّ بالإمتهانة وترك الطاعة وأن كالأولى في وجوهها ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي برهان بين على صدقي الجملة علة للنهي ولذكر الأمين مع الأداء وتعليّ مع السلطان مناسبة بينه فلما قال ذلك توعدوه بالرجم فقال ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ أي من أن ترجموني، قرأ ورش بالياء وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين، قال قتادة أن تقتلوني بالرجم، وقال ابن عباس تشتموني وتقولوا ساحر والظاهر هو الأول لأن موسى عليه السلام لو استعاذ من الشتم لما شتموه وقد قالوا ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ قرأ ورش بفتح بالياء والباقون بإسكانها أي إن لم تصدقوني ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ قرأ ورش بالياء والباقون بحذفها أي فكونوا بمعزل مني لا عليَّ ولا لي ولا تتعرَّضوا إلي بسوء ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥ﴾ بعدما كذبوه ولم يتركوه وأذوه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي مشركون تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سمى دعاءً.

﴿فَأَسْرِ﴾ الفاء جزائية والجملة مقدرة بالقول يعني فأجاب الله وقال إن كان الأمر كذلك فأسر، قرأ نافع وابن كثير يوصل الهمزة من سرى يسري والباقون بهمزة القطع من الإسراء ﴿بِعِبَادِي﴾ أي المؤمنين وهم بنوا إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه إذا علموا بخروجكم جملة مستأنفة ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ إذا خرجت عنه وأصحابك ﴿رَهْوًا﴾ حال من البحر أي مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته ولا تضربه بعصاك حتى يلتئم قال قتادة لمَّا قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه حتى يلتئم وخاف

أن يتبعه فرعون وجنوده فقيل له اترك البحر رهواً كما هو قيل رهواً مصدر بمعنى الفاعل ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ الجملة مستأنفة في مقام التعليل ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ أي تركوا كثيراً ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي محافل مزينة ومنازل حسنة ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي متنعمين جملة كم تركوا معترضة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال الكلبي معناه كذلك فعل بمن عصاني وقيل معناه الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ عطف على المقدر تقديره سلبناها منهم وأورثناها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي بني إسرائيل أو عطف على تركوا ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي أهلكوا كفاراً فما بكت وهذا مجاز عن عدم الإكتراث بهلاكهم وعدم الإعتداد بوجودهم كقولهم في نقيض ذلك ﴿بَكَتْ عَلَيْهِمُ﴾ السماء وكسفت عليهم الشمس وقيل هو على الحقيقة وذلك بخلاف المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، روى الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فإذا مات فقداه وبكيا عليه»[١] وروى ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض) قال نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء ينزل منه رزقه ويصعد فيه علمه فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء فقد بكى عليه وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلّي فيها ويذكر الله فيها بكى عليه، وأخرج البغوي وأبو يعلى وابن أبي حاتم عن أنس عن النبيّ ﷺ نحوه وحديث ابن عباس رواه الترمذي وفي آخره وتلا ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أخرج ابن جرير عن شريح بن عيينة الحضرمي قال قال رسول الله ﷺ: «ما مات مؤمن غربة غابت عنه فيها مواكبه إلا بكت عليه السماء والأرض ثم قرأ رسول الله ﷺ فما بكت عليهم السماء والأرض ثم قال إنهما لا يبكيان على كافر» ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ ممهلين إلى وقت أخر عطف على هلكوا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الدخان (٣٢٥٥).

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ يعني قتل الأبناء واستبقاء النساء وإستعباد الرجال وإستعمالهم في الأعمال الشاقة ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل إشتمال من العذاب أو جعله عذاباً لإفراطه في التعذيب على المجاز أو على حذف المضاف أي من عذاب فرعون فهو بدل الكل أو حال من العذاب أي واقعاً من جهتيه أو خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ أي متكبراً ﴿من المسرفين﴾ في العتو والشرارة وهو خبر ثان أي كان متكبراً مسرفاً أو حال من الضمير في عالياً أي كان رفيع الطبقة من بينهم والجملة معترضة أو مستأنفة ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ يعني موسى وبني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال أي عالمين بأنهم أحقاء بذلك أو اخترنا بني إسرائيل على علم منّا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ أي على عالمي زمانهم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ قال قتادة نعمة بينة وقال ابن زيد ابتلاؤهم بالرخاء والشدة وقرأ ﴿نبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[١].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار قريش إذا الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والإنذار عن مثل ما حل بهم ﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ولا قصد فيه إلى إثبات موتة ثانية كما في قولك حج زيد الحجة الأولى ومات، وقيل لمّا قيل لهم أنكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا إن هي أي الموتة التي تعقبها الحياة إلا الموتة الأولى دون الثانية ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي مبعوثين بعد الموت ﴿فأتوا بآبائنا﴾ الذين ماتوا خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين جزاء شرط محذوف أي إن كان البعث بعد الموت (ممكناً فأتوا بآبائنا) ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّا نبعث بعد الموت، شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والشوكة والكثرة من قوم تبع ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ خير منهم إستفهام إنكار وتقرير يعني لستموا خيراً من قوم تبع وقوم تبع كانوا خيراً منهم، وتبع اسم رجل سمي تبع لكثرة أتباعه قيل كانت التبابعة رجالاً كل واحدٍ سمى تبعاً لأنه يتبع صاحبه، ذكر محمد بن إسحاق وغيره عن ابن عباس وغيره قالوا كان آخر التبابعة هو أسعد أبو كرب بن مليك ذكر البغوي قصته في تفسير هذه الآية وذكرتُ القصة في تفسير سورة قٓ لأني قد سبق مني تفسير تلك السورة، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه لأنه قد أسلم وكذّبه قومه وقال محمد بن إسحاق في المبتدأ وابن هشام في التيحان أن بيت أبي أيوب

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مقدمة المدينة بناه تبع الأول إسمه تَبان بن سعد وذكرتُ قصته في سورة الجمعة والله أعلم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من الأمم الكافرة كعاد وثمود ونحوهم عطف على قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ إستئناف أو حال بإضمار قد أو خبر للموصول إن إستؤنف به ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ أي مشركين تعليل وبيان للجامع المقتضي للإهلاك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي بين الجنسين ﴿لَٰعِبِينَ﴾ أي لاهين فاعلين فعلاً عبثاً باطلاً والجملة ما خلقنا السماوات الخ حال من مضمون الكلام السابق المتضمن لإنكار البعث تقديره أنكروا البعث والحال أنه ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين بل خلقنا هما للإستدلال بهما على وجودنا وصفات كما لنا والإمتلاء ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لإظهار الحق من التوحيد ووجوب الطاعة لنثيب المطيع ونعذب العاصي هذه الجملة تأكيد ومقرر لما سبق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها خلقت للإستدلال والإبتلاء لقلة نظرهم وإنهماكم في الدنيا ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾أي يوم القيامة الذي يفصل فيها الحق من الباطل والمحق من المبطل بالجزاء ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ أي ميقات حشرهم وجزائهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ هذه الجملة مقررة لما سبق من أن خلقها للإستدلال والإبتلاء ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ بدل من يوم الفصل أو ظرف لما دلَّ عليه الفصل لا له للفصل أي يوم لا ينفع ﴿مَوْلًى﴾ من قرابة أو غيره ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أي مولى كان ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء يجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي يمنعون من العذاب والضمير لمولى الأول باعتبار المعنى لأنه عام ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ بالعفو وقبول الشفاعة وهم المؤمنون، فإنه يشفع بعضهم لبعض ويؤذن لهم في الشفاعة ومحل المستثنى الرفع على البدل من المسترفي يُنصَرُوْنَ أو النصبُ على الإستثناء ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يستطيع واحد أن ينصر من أراد تعذيبه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال ان أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد فنزلت ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ أي كثير الإثم وهو الكافر هذه الجملة إلى آخرها وما بعدها وهو قوله إن المتقين إلى آخرها بيان لما سبق من ذكر الفصل، والفرق بين المحق والمبطل ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ خبر آخر لأن وهو ما يذوب في النار من المعدنيات وقيل دردى الزيت الأسود كذا في القاموس ﴿يَغْلِى﴾ خبر آخر لإن قرأ ابن كثير وحفص بالياء التحتية على أن الضمير للطعام أو الزقوم لا للمهل إذ الجملة حال من أحدهما والباقون بالتاء الفوقانية على أن الضمير للشجرة ﴿فِى ٱلْبُطُونِ﴾ أي بطون الكفار ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ أي غلياناً مثل غليانه، روى البغوي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس أتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامه ليس له طعام غيره»[1] وأخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي نحوه وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم عن أبي عمرو الخولاني في هذه الآية قال بلغنا أن ابن آدم لا تنهش منها نهشة إلا نهشت منه مثلها ﴿خُذُوهُ﴾ أي يقال للزبانية حذُوُهُ أي الأثيم وجملة يقال خبر آخر لأن ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر وأبو عمرو بكسر التاء والباقون بضمها وهما لغتان أي إدفعوه قهراً والعتل الأخذ بجامع الشيء وجرُّه بقهر ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وسطه ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾ فقيل صُبُّوُا فوق رأسِهِ عَذَاباً هُوَ الحمِيُمُ للمبالغة أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف وزيدت من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع ﴿ذُقْ﴾ تقديره قائلين ذُق هذا العذاب ﴿إِنَّكَ﴾ قرأ الكسائي بفتح الهمزة أي لأنك والباقون بكسرها على الإبتداء ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ في زعمك، قال البغوي قال مقاتل إن خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه عن دماغه فيصبُّ فيه ماءً حميماً قد انتهى حرُّة ثم يقال ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ وذلك أن أبا جهل كان يقول أنا أعزُّ أهل الوادي وأكرمهم، ويقول هذا خزنة النار على طريق الإستخفاف والتوبيخ، وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال لقي رسول الله ﷺ أبا جهل فقال إن الله أمرني أن أقول لك ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤﴾ قال فنزع ثوبه من يده وقال ما يستطيع لي أنتَ ولا صاحبك من شيء لقد علمت

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥)، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٢٥).

أني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون وتمارون فيه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾ قرأ أهل المدينة والشام بضم الميم على أنه مصدر ميمي أي في إقامة والباقون بفخ الميم أي موضع إقامة ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن فيه صاحبه عن الآفات والإنتقال ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من مقام جيء به للدلالة على نزاهته وإشتماله على ما يستلذ به المآكل والمشارب ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير في الجار والمجرور أو استئناف السُّنْدُسُ مارقّ من الحرير والإستَبرَقُ مَا غلظ منه، أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن كعب قال لو أن ثوباً من ثياب الجنة ليس اليوم في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم، وأخرج الصابوني في الماتين عن عكرمة قال إن الرجل من أهل الجنة ليلبس الحلة فتكون في ساعته سبعون لوناً ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الجملة حال بتقدير قد أو عطف على خبر إن أي ألزمناهم وقرنّاهم بهن ولذلك عدي بالياء وليس من عقد التزويج لأنه لا يقال زوجتُه بامرأة، قال أبو عبيدة جعلناهم أزواجاً بهن كما تزوج النعل بالنعل أي جعلناهم إثنين إثنين والحور النساء النقيات البياض يحار فيهن الطرف من بياضهن وصفاء لونهن جمع حوراء والعين جمع العيناء وهي العظيم العينين، أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «خلق الحور العين من الزعفران» وأخرج البيهقي مثله عن أنس مرفوعاً وعن ابن عباس موقوفاً وعن مجاهد كذلك، وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال إن الله تبارك وتعالى لا يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافورٍ وزعفرانٍ، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن حوراً بزقت في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها» وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال لو أن حوراً أخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها ولو

أخرجت نصيفها لكان الشمس عند حسنه مثل الفتيلة في الشمس لا ضوء لها ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض» وأخرج هناد عن حبان بن أحيلة قال إن نساء أهل الدنيا إذا أدخلن الجنة فضلن على الحور العين بأعمالهم في الدنيا.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ إشتهوها ﴿ءَامِنِينَ﴾ من نفادها ومضرتها الجملة حال آخر، أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر في تفاسيرهما عن ابن عباس قال ما في الدنيا تمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بل يحيون دائماً حال آخر ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الاستثناء منقطع أو متصل والضمير للآخرة والموت أول أحوالها أو الجنة والميت يشارفها بالموت ويشاهدها عنده فكأنه فيها، أو الإستثناء للمبالغة في تعميم النفي وإمتناع الموت فكأنَّه قال لا يذقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموت الأولى في المستقبل كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[1] ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الجملة حال من فاعل لا يذوقون بتقدير قد أو عطف على إخبار إن ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر لفعله المقدر أي فضلوا فضلاً منه وأعطوا كل ذلك عطاءً منه لاحقاً على الله تعالى، عن جابر قال قال رسول الله ﷺ «لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة الله»[2] رواه مسلم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ حال من الضمير المنصوب أي متلبساً بلغتك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يفهموا أو يتذكروا الجملة متصلة بقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[3] وهو فذلكة للسورة ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ جزاء شرط محذوف تقديره وإن لم يتذكروا، فأرتقب أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك أو فانتظر نصرك أنهم منتظرون قهرك بزعمهم، روى الترمذي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك»**[4] وروى

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٧).

(٣) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل حم الدخان (٢٨٨٨).

أيضاً عنه بسند ضعيف قال قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غفر له**» وروى ابن الضرير عن الحسن مرسلاً «من قرأ سورة الدخان في ليلة غفر له ما تقدم من ذنبه» وروى الطبراني بسند ضعيف عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ «من قرأ ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ الدخان في ليلة جمعة أو يوم جمعة بنى الله له بيتاً في الجنة».

سورة الجاثية

آياتها سبع وثلاثون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إن جعلت حمٓ مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأن جعلتها تعديداً للحروف وكان تنزيل مبتدأ خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في إنتقامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره وعلى التأويل الأول من الله صلة لتنزيل، وقيل حمٓ مقسم به وتنزيل الكتاب صفة وجواب القسم ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ دالة على قدرة الله ووحدانيته ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن تكون الآية على ظاهرها وأن يكون المعنى إن في خلق كما في قوله ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ أي في خلق كل منكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى أن صار إنساناً ﴿وما يبث من دابة﴾ جاز أن يكون عطفاً على الضمير المجرور والأحسن أن يقال أنه معطوف على خلقكم فإن بثه وتنوعه واستجماعه لما يتم به معاشه إلى غير ذلك ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلائل على وجود الصانع المختار ووحدته وكمالاته قرأ حمزة والكسائي ويعقوب آيات منصوباً بكسر التاء عطفاً على اسم إن والباقون بالرفع عطفاً على محلها، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أنه لا إله إلا الله وأن البعث حق ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ صيفاً وشتاءً وفي ذهابها ومجيئها ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي مطر سماه رزقاً لكونه سببه ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي جعلها

مخضرة بعد يبسها ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بأختلاف جهاتها وأحوالها، قرأ حمزة والكسائي الريح على الأفراد باعتبار الجنس والباقون على الجمع بأعتبار جهاتها قبولاً ودبوراً وجنوباً وشمالاً ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الدلائل فيؤمنون أو المعنى لقوم أولي عقل فإن الكفار كالأنعام بل هم أضل قرأ حمزة والكسائي ويعقوب آيات منصوباً بكسر التاء والباقون بالرفع وهو عطف على معمولى عائلين مختلفين كلمة في مع معنى الإبتداء أو كلمة إنَّ والمجرور مقدم ألا يضمر في أو ينصب آياتٍ على الاختصاص أو ترفع بإضمار هي، قال البيضاوي اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور والظاهر أنه لتفنن العبارة وإلا فالإيمان والإيقان واحد وهو من ثمرات العقل فإن العقل السليم يقتضي الإيمان بمبدع السماوات والأرض وما بينهما ﴿تِلْكَ﴾ الآيات آيات الله دلائل قدرته مبتدأ وخبر ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حال عاملها معنى الإشارة أو خبر ثان ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متلبسين به أو متلبسة به ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ الفاء جزائية تقديره فإن لم تؤمنوا بآيات الله فبأي حديث بعد الله أي بعد كتاب الله ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وجوده ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي كفار مكة أي لا يؤمنون قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب بالتاء الفوقانية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والباقون بالتحتانية على الغيبة.

﴿ويل لكل أفاك﴾ كذاب ﴿أثيم﴾ كثير الإثم أريد به النضر بن الحارث هذه الجملة إلى آخرها معترضة ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفه لأثيم ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال من الآيات أو من الضمير المرفوع ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ عطف على يسمع وثم لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة وحذف ضمير الشأن أي كأنه ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الجملة في موضع الحال أي يصر مشابهاً لغير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الفاء للسببية والبشارة خبر يظهر السرور على بشرته وأستعمل هاهنا تهكماً في خبر يظهر الحزن على بشرته ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ عطف على يسمع ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ يعني إذا بلغه شيء من القرآن الظرف متعلق بقوله ﴿اتخذها﴾ الضمير لشيء لأنه بمعنى الآية أو لآياتنا بمعنى آياتنا كلها هُزُواً مهزوّاً به يعني بادر إلى الإستهزاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ أي لكل أفاك ﴿عذاب مهين﴾ ذو إهاته في القبور، جملة مستأنفة ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ حال من هم في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ والوراء اسم للجهة التي يوازيها الشخص من خلف أو قدام وجهنم قدام باعتبار أنهم متوجهون إليه وخلفه من حيث أنه بعد آجالهم ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ أي لا يدفع ﴿عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا﴾ يغني عنهم ﴿مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ما عبدوه من الأصنام أو الذين إتبعوهم من الرؤساء ما مصدرية أو موصولة وجملة لا يغني

إلى آخرها حال آخر من ضمير لهم في أولئك لهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ حال آخر ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿هُدًى﴾ أي ما به البداية من الضلالة جملة معترضة ﴿والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز﴾ وهو أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالرفع على أنه صفة عَذَابٌ والباقون بالجر على أنه صفة رجُزٍ وجملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على هذا هدىً.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ مبتدأ وخبر أي جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ الأرزاق بالتجارة والغوص والصيد من فضله حال من المفعول المحذوف لتبتغوا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عطف على لتبتغوا أي لتشكروا هذه النعمة وجملة ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ متصل بما سبق من أيات قدرته تعالى وما بينهما معترضات ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ عطف على سخر ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وماء وثلج وغيرهما ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوان ونبت ومعدن وعين ونهر ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد أو حال يعني جعلها مسخراتٍ لأمورٍ يعود نفعها إليكم ﴿مِّنْهُ﴾ حال من ما أي سخرها جميعاً كائنة من تعالى أو خبر لمحذوف، أي هي جميعاً منه أو خبر لما في السماوات مع ما عطف عليه سخَّرَ لكم وتكرير لتأكيد الأول أو خبر لما في الأرض قال ابن عباس جميعاً منهُ أي كل ذلك رحمة منه وقال الزجاج كل ذلك تفضل منه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عجائب صنعه تعالى فيؤمنون.

قال البغوي قال ابن عباس وقتادة أن رجلاً من بني غفار شتم عمر رضي الله عنه بمكة فهم عمر أن يبطش به فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حذف المقول لدلالة جواب الأمر عليه وهو قوله ﴿يَغْفِرُوا﴾ أي قل لهم إغفروا إن تقل لهم إغفروا يغفروا أي يعفوا ويصفحوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يتوقعون ولا يخافون ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي وقائعه بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعهم يعني لا يتوقعون الأوقات التي وقتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم،

وقال البغوي قال القرظي والسديُّ نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين، قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية ثم نسختها آية القتال ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالنون على التكلم والتعظيم والباقون بالياء التحتانية أي ليجزي الله وقرأ أبو جعفر بضم الياء التحتانية وفتح الزاء على البناء للمفعول والفعل حينئذ مسند إلى مصدره أي ليجزى الجزاء كذا، قال الكسائي والمراد بالجزاء ما يجزى به فإن الإسناد إلى المصدر سيما عند وجود المفعول به ضعيف وقال أبو عمرو وهو لحن والجار والمجرور متعلق بقوله يغفروا ﴿قَوْمًا﴾ يعني يجزي المؤمنين على صبرهم على أذية الكفار أو يجزي الكافرين جزاءً كاملاً لا ينقص منه بالإنتقام في الدنيا أو يجزي كليهما ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الخير أو الشر ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي يعمل لنفسه فإن ثوابه لها ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي يعمل عليها لأن وباله يعود عليه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يعني بعدما استحققتم الثواب أو العقاب بالأعمال ترجعون إلى ربكم فيجازيكم عليها إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة والإنجيل والزبور ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ حيث جعلنا فيهم أهل الحكم من العلماء والملوك ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ خصها بالذكر لكثرة الأنبياء فيهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المن والسلوى وغيرهما من الأطعمة اللذيذة الحلال ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ بمراتب القرب إلى الله تعالى إرجاع الضمير إلى بني إسرائيل بأعتبار كون الأفضلين بعضهم وهم الأنبياء ﴿على العالمين﴾ أي على عالمي زمانهم، قال ابن عباس لم يكن من العالمين أحد في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم وهذه الآية تدل على أن

خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي أدلة بينة في أمر الدين بحيث حصل لهم العلم بكل ما يجب به العلم والإعتقاد وحصل لهم العلم بمبعث محمد ﷺ وعلاماته حتى عرفوه (كما يعرفون أبنائهم) ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في أمر الدين أو في أمر محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي عداوة وحسداً أو اتباعاً للهوى والشهوات لا بناءً على علم مستند إلى دليل وهذا يدل على أن افتراق اليهود والنصارى إلى إحدى وسبعين فرقة أو اثنان وسبعين فرقة لم يكن مبنيّاً على دليل وكذلك افتراق أمة محمد ﷺ إلى ثلاث وسبعين ليس مستنداً إلى دليل بل إنما هو باتباع الوهم في مقابلة النصوص القاطعة كالمعتزلة تشبثوا بأذيال الفلاسفة زعماً منهم بأن العقل كاف في كثير من الإدراكات والمجسمة قالوا الموجود لا يكون إلا جسماً أو باتباع الحسد والعناد كالروافض والخوارج ونحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ بالمؤاخذة والمجازاة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي طريقة حقة وصراط مستقيم بعث عليها الرسل كلها على شَرِيْعَةٍ مفعول ثان لجعلنا ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي أمر الدين ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي يا محمد الشريعة الحقة الفاء للسببية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمراد به الخطاب لأمته يعني لا يتبع أمتك أهواء الذين ليس لهم علم من الكتاب سواء كان لهم جهل مركب كالفلاسفة أو جهل بسيط مثل رؤساء قريش كانوا يقولون للنبي ﷺ ارجع إلى دين أبائك فإنهم كانوا أفضل منك أو كان لهم علم لكنهم تركوا العمل بالكتاب عمداً أو أوّلوه بتأويلات فاسدة فكأنَّهم لا يعلمون مثل أحبار اليهود وعلماء الفرق الضآلة بالأهواء من أهل الإسلام ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني إن الذين يستتبعونك إلى غير الطريق الحق إن اتبعتَهم ﴿لَن يُغْنُوا۟﴾ أي لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ منصوب على المفعولية ومِنَ الله حال مقدم عليه بيان له أو على المصدرية أي شيئاً من الإغناء وَمِنُ في مِنُ عَذَابِ الله للتبعيض الجملة في مقام التعليل للنهي عن اتباع أهوائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ المجانسة علة الإنضمام فلا تتخذ انتَ منهم أولياء ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فاتخذه ولياً بالتقوى وإتباع الشريعة قيل هذان الجملتان كناية عن قوله وإنهم لا يضرونك لأن الظالمين بعضهم أولياء بعضهم والله ولي المتقين وكم بين الولايتين فلا يضرنك لقوة ولاية الله ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن أو اتباع الشريعة ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ أسباب تبصر ﴿لِلنَّاسِ﴾ يظهر به وجوه فلاحهم في الدارين ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بأنه من الله تعالى.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ عطف على ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان والتوبيخ ومعنى بل الإضراب عن إيقانهم بأن القرآن بصائر وهدى يعني أنهم لا يوقنون ذلك بل حسب ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟﴾ أي اكتسبوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي نجعلهم مثلهم وهو ثاني مفعولي نجعل نزلت في نفي من مشركي مكة قالوا للمؤمنين أن كان ما تقولون أي البعث حقاً لنفضِلن عليكم في الآخرة كما فُضّلنا في الدنيا ﴿سَوَآءً﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بالنصب على البدل من قوله ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل إشتمال أو على الحال من الضمير في الكاف أو على المفعولية والكاف حال محياهم ومماتهم فاعل لسَوَاءً والضميران للموصول الأول وإن كان الضميران للثاني فسواء حال من الموصول الثاني وجاز أن يكون الضمير أن للفريقين وسَوَآء بدل من كالذين آمنوا أو حال من الموصول الثاني وضمير الأول، وقرأ الباقون سَوَآءٌ بالرفع على أنه خبر محياهم ومماتهم مبتدأ والجملة بدل من المفعول الثاني وجاز كون الجملة مفعولاً ثانياً أو استئناف يبين المقتضى للإنكار أو حال والضميران للفريقين والمعنى إنكار أن يستووا بعد الممات في الكرامة أو ترك المؤاخذة كما استووا في الرزق والصحة في الحياة الدنيا، وقيل الضميران للفريقين والجملة مستأنفة والمعنى المؤمن مؤمن محب لله تعالى في الدنيا والآخرة والكافر مبغوض لله تعالى في الدنيا والآخرة ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا بالمساواة قال البغوي قال مسروق قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري لقد والله ذات ليلة أصبح أو كرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد ويبكي ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ليدل على وجوده وقدرته وصفات كماله كأنه دليل على ما سبق يعني خلق هذه الأشياء ليس على سبيل اللهو والعبث بل هو متلبس بالحق المقتضى إنتصار المظلوم من الظالم والتفاوت بين المسيء والمحسن فإذا لم يكن ذلك في المحيا لا بد أن يكون بعد الممات ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ عطف على قوله بالحق لأنه في معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليستدل الناس بها على الصانع وقدرته وعدله وليقوموا على طاعته ولتجزى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ محسنة ومسيئة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو تضعيف عذاب وتسميته ظلماً مع أن فعل الله تعالى لا يكون ظلماً لأجل المشاكلة فإنه لو فعله غيره لكان ظلماً كالإبتلاء والاختيار.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ

غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الفاء للعطف على محذوف تقديره أتهتم أن تهديهم فرأيت ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ومن شرطية وجملة إتَّخذَ مع ما عطف عليه شرط علقت رأيت عن العمل ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ جزاؤه وهواه مفعول أول لاتخذ وإلهه مفعول ثان يعني جعل هواه معبوده، فإنه ترك إمتثال أو امر الله والانتهاء عن مناهيه واتبع هواه فكأنَّه يعبده، قال ابن عباس والحسن وقتادة ذلك الكافر إتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركب لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحرم ما حرم الله، وقال الآخرون معناه إتخذ معبوده هواه فيعبد ما يهواه نفسه أخرج ابن جرير وابن المنذر وكذا أذكر البغوي قول سعيد بن جبير أنه كانت العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة فإذا وجدوا أحسن من الأول رموه وكسروه وعبدوا الآخر فنزلت هذه الآية قال الشعبي إنما سمى الهوى لأنَّه يهوي صاحبه في النار ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي عالماً بضلاله وفساد استعداده وقيل على ما سبق في علمه بأنه ضآل قبل أن يخلقه. روى أحمد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي فقالوا له ما يبكيك ألم يقل لك رسول الله ﷺ «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني» قال بلى ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزَّ وجلَّ قبض بيمينه قبضة والأخرى باليد الأخرى وقال هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي» ولا أدري في أيّ القبضتين أنا[1] ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار، قرأ حمزة غَشْوَةَ بفتح الغين وسكون الشين والباقون غشاوةً وجاز أن يكون من موصولة وهي مع صلتها أول مفعولي رأيت وثانيهما محذوف، تقديره أرأيته تهتدى وعلى هذا قوله ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ معطوف على قوله رأيت والإستفهام للإنكار ومعناه لا تهديه أحد بعد إضلال الله إياه وجملة أفرأيت معترضة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ عطف على محذوف تقديره ألا تعقلون فلا تذكرون.

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: القدر، باب: فيما سبق من الله سبحانه في عباده وبيان أهل الجنة وأهل النار (١١٧٧٨).

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة قال كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي ضل الكافرون باتباع الهوى وقالوا ﴿مَا هِىَ﴾ أي الحياة شيئاً ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ﴾ في بعض الأوقات ﴿وَنَحْيَا﴾ في بعضها بيان لقصر الحياة على الحياة الدنيا، وقوله نموت ونحيا لا يدل على تعاقب الحياة بعد الموت فإن الواو للجمع المطلق كذا قال الزجاج ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ عطف على نَمُوتُ وَنَحْيَا أي ما يهلكنا الأمر والزمان فإن بمرور الزمان يهرم المرء ويموت وحاصل ذلك إنكار الصانع الواجب وجوده والدهر في الأصل مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ثم يعبر عنه عن كل مدة مديدة بخلاف الزمان فإنه يطلق على المدة قليلةً كانت أو كثيرةً ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فإن العلم إنما يحصل بالبداهة أو بالبرهان ولا شيء من ذلك بل البرهان قائم على وجود الصانع القديم الحكيم الجملة حال من فاعل قالوا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي يحكمون بلا علم وبلا دليل تأكيد لما سبق، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[1] رواه مسلم، وروى البغوي بلفظ، «قال الله تعالى لا تقل ابن آدم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أرسل الليل والنهار وإن شئتُ قبضتها»، ومعنى الحديث أن سب الدهر منكم مبني على زعمكم أن الدهر فاعل للنوائب والحوادث، وجالب الحوادث ومُنَزّلها في الواقع هو الله تعالى لا غيره فسبّكم يرجع إلى الله تعالى، وقيل معنى قوله عليه السلام فإن الله هو الدهر إن الله داهر دهرٍ أي خالق الدهر وما فيها فسبُّكم الدهر زعماً منكم بأنه الخالق للأشياء مشرك فاجتنبوه والله أعلم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي حال كونها واضحات الدلالة على خلاف معتقدهم وعلى البعث بعد الموت أو مبينات لذلك ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ متشبث لمعارضها شيئاً ﴿إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ في دعوى البعث وهذا شرط مستغن عن الجزاء بما مضى سماه حجةً على حسبانهم أو على أسلوب قوله: تحيتهم بينهم ضرب وجيع، وأنه يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً وجملة إذا تتلى عليهم عطف على ﴿قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ إلى أيّ وقت شاء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا أراد كما دلت الحجج ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ للجزاء إلى ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كلمة إلى زائدة أو بمعنى اللام أي ليوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأن وعد الله حق ومن قدر على الإبداء قادر على

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

الإعادة، والحكمة تقتضي المجازاة والجملة تأكيد لما سبق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله على ذلك لقلة تفكرهم وقصور نظرهم على ما يحسبونه جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ إلى آخرها مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعميم للقدرة بعد تخصيصها والجملة عطف على خلق الله السموات والأرض ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من الأول والظرف متعلق بقوله ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي يظهر خسرانهم بأن يصيروا إلى النار ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ عطف على يخسر قال البغوي جاثيةً يعني باركةً على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، قال علي رضي الله عنه أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى وقد ذكرنا في سورة الحج في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[1] قال سلمان الفارسي إن في القيامة ساعة وهي عشر سنين يخر الناس فيها جثاةً على ركبهم حتى إبراهيم ينادي نفسي لا أسألك إلا نفسي، وقيل معنى ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة، ذكر الجزري في النهاية حديث ابن عمر أن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً أي جماعة تتبع نبيها وتروى هذه اللفظة جثى بتشديد الياء جمع جاث وهو الذي يجلس على ركبتيه، وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والبيهقي عن عبد بن ثانية قال: قال رسول الله ﷺ: «كأني أراكم بالكرم دون جهنم جاثين ثم قرأ سفيان وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثية» قال ابن حجر المراد بالكرم المكان العالي الذي عليه أمة محمد ﷺ ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ قرأ يعقوب بالنصب على أنه يدل من كل أمّةٍ أو تأكيد وما بعده صفة أو مفعول ثان والجمهور بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي صحيفة أعمالها ﴿إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[2] عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الكتب كلها تحت

(١) سورة الحج، الآية: ١٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

العرش فإذا كان الموقف بعث الله الريح فتطيرها بالأيمان والشمائل أول خط فيها إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» رواه البيهقي ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ صفة ثانية أو خبر ثان لقوله ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ بتقدير القول أي يقال لهم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ إلى قوله ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ومستأنفة ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أي صحائف أعمالكم التي كتبها الكرام الكاتبون بأمرنا أضاف إلى نفسه لتلك الملابسة وكِتَابُنَا صفة لهذا والخبر ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم بما عملتم أو هما خبران لهذا أو ينطق حال والعامل معنى الإشارة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق بلا زيادة ونقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي نستكتب الحفظة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقيل معنى نستنسخ أي نأخذ نسخة وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان فيثبت الله منه ما كان له ثواب أو عقاب ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم وأذهب وهذه الجملة في مقام التعليل لينطق.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي جملتها الجنة والجملة تفصيل لما أجمل في قوله اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الظفر الظاهر لخلوصه عن الشوائب ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الإستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفي والفاء للعطف على محذوف تقديره ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف قوله، فيقال لهم، وقوله ألم يأتكم رسلي اكتفاءً بالمقصود واستغناءً للقرينة ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها هذه الجملة مع ما عطف على مضمون ما سبق يعني قد أتاكم رسلي وتُليت عليكم آياتي فاستكبرتم عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي قوماً عادتكم الكفر والإجرام وكانت المقابلة يقتضي أن يكون الكلام وأما الذين كفروا في غضبه الذي من جملتها جهنم لكن عدل إلى هذا تنبيهاً على موجب الغضب.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ عطف على قوله استكبرتم يعني وإذا قيل لكم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ يحتمل الموعود والمصدر يعني الموعود أو متعلق الوعد وهو البعث حَقٌّ لا محالة ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ قرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن والباقون بالرفع عطفاً على محله ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي في إتيانها لاستحالة الخلف فيما أخبر الله به ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي أيّ شيء الساعة إستغراباً لها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصله نظن ظناً فأدخل حرف النفي والاستثناء لإثبات الظن، ونفي ما عداه كأنَّه قال ما نحن إلا نظن ظنّاً أو ننفي ظنهم فيما سوى ذلك أو يقال تنكير الظن للتحقير ومعناه أن نظن إلا ظناً ضعيفاً في مرتبة الوهم فإن الظن قد يطلق على العلم كما في قوله تعالى: ﴿الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾[1] وقد يطلق على الوهم فالمراد بالأول مطلق العلم وبالثاني الوهم وأكَّد نفي الظن بقوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ في الدنيا أي ظهر لهم قبحها أو جزاء ما عملوا عطف على مضمون ما سبق يعني أما الذين كفروا فيدخلهم ربهم في غضبه ويبدُلهم سيئات ما عملوا ﴿وَحَاقَ﴾ أي نزل ﴿بهم ما كانوا به يستهزون﴾ أي جزاء استهزائهم.

﴿وَقِيلَ﴾ عطف على بدالهم ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ أي نترككم في العذاب ترك المنسي ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي كما تركتم عدته ولم تبالوه وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه أي يوم لقاء ربكم أو يوم لقاء جزاء أعمالكم ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها هذان الجملتان إما معطوفتان على مقول قبل أو حالان من مفعول ننساكم ﴿ذَٰلِكُم﴾ للترك في العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ أي بسبب أنكم ﴿اتخذتم آيات الله هزوا﴾ أي مهزواً بها يعني استهزأتم بها ولم تتفكروا فيها ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي حسبتم أن لا حياة سواها ولا حساب جملة ذلكم إلى آخرها مستأنفة ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول عطف على قوله وأمَّا الذين كفروا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ العتبى بالضم الرضا هكذا في القاموس والإستعتاب الاسترضاء، أي لا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة لفوات أوانه قال رسول الله ﷺ لا بعد الموت من مستعتب» أي ليس بعد الموت من إسترضاء لأنها بالأعمال وقد انقضت زمانها، وفي النهاية العتبى الرجوع عن الذنب والإساءة، قال البغوي أي لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعه الله تعالى وتقديم المسند إليه مع أن الخبر فعل يدل على التخصيص فإن الكفار لا يستعتبون بخلاف المؤمنين ﴿فَلِلَّهِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥ ـ ٤٦.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أي الوصف بالجميل على وفائه الوعد في المؤمنين والمكذبين ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل من الله ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كرر لفظ الرب لأن ربوبية كل شيء نعمة مستقلة من الله تعالى دالَّة على كمال قدرته، ذكر العاطف بين الأرض والسماوات لتغايرهما وترك العاطف في رب العالمين للإتحاد معنى فإن السماوات والأرض معظم أفراد العالم فكأنَّه بمعنى العالمين ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي آثار عظمته وكبريائه ظاهرة فيهما أو يقال الظرف متعلق بمحذوف أي يحكم بهذا الحكم أهل السماوات وأهل الأرض فيهما ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغلبه أحد ولا يجوز لأحد أن يستكبر عليه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قدر وقضى، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة أزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار» وفي رواية «قذفته في النار»[1] رواه مسلم.

---

(١) هذه رواية أبي داود والترمذي أما رواية مسلم فهي: «العز إزاره والكبرياء رداؤه» في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر (٢٦٠٢).

سورة الأحقاف

آياتها خمس وثلاثون وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ مرَّ تفسيره في سورة الجاثية ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا﴾ خلقا متلبّساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ دليلاً على وجود الصانع القديم الحكيم وعلى البعث للمجازاة على ما يقتضيه الحكمة والعدالة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي بتقدير أجل مسمى ينتهي إليه السماوات والأرض أي يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ أي عن الإنذار وعما أنذروا به في القرآن من عذاب يوم القيامة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون في جوازه عقلاً ووجوبه سمعاً بشهادة المعجزات ولا يستعدون لحلوله ويدعون من دون الله آلهة بلا دليل ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَءَيْتُم﴾ الإستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ أي ما تعبدونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أصناماً ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ ما استفهامية في محل النصب على أنه مفعول لخلقوا أو في محل الرفع بمعنى أيُّ شيء الذي خلقوه ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بيان لما ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أم منقطعة أي بل ألهم مشاركة مع الله ﴿فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الموصول مع صلته مفعول أول لأرأيتم وجملة أروني إلى آخرها مفعول ثان والمعنى أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل هل يتعقل أنهم خلقوا شيئاً من أجزاء العالم أو يتصور منهم أن يكونوا شركاء لله في الخلق يعني لا يتصور ذلك فكيف تحكمون باستحقاقها للعبادة وتخصيص الشرك بالسماوات إحتراز عمَّا يتوهم أن للوسائط شركة في

إيجاد الحوادث السفلية ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ﴾ من عند الله ناطق بالشرك ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ القرآن الناطق بالتوحيد ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾ أخرج أحمد عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أو أثارة من علم قال الخط، قال مجاهد وعكرمة أي رواية، وقال قتادة خاصة، وقال الكلبي بقية، في القاموس الأثر البقية من الشيء ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ الأنبياء الأولين مستنداً إلى الوحي القطعي يدل على الشرك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن الله أمر بعبادة الأوثان شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني لا دليل على استحقاقها العبادة عقلاً ولا نقلاً.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ عطف على مقولة القول يعني لا أحد أضل ﴿ممن يدعوا﴾ أي يعبدو يطلب حاجاته ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إذا دعاه لو سمع دعاءهم فرضاً أن يعلم سرائرهم ويراعي مصالحهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ما دامت الدنيا ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ لأنها إما جمادات لا يسمع ولا يعقل وإما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم كعيسى وعزير والملائكة ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يوم القيامة عطف على لا يستجيب ﴿كَانُوا۟﴾ أي كانت المعبودون ﴿لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ مكذبين قائلين تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون يعني ليسوا في الدارين على منفعة إذ لا ينفعهم في الدنيا ويضرهم في الآخرة فلا أضل ممن عبده او ترك عبادة الله المسيع البصير الخبير القادر المجيب، وقيل الضمير في قوله كانوا بعبادتهم كافرين للعابدين القائلين (والله ربنا ما كنا مشركين)[1].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أو على يدعوا في ممن يدعوا يعني ومن أضل ممن قال للحق هذا سحر مبين إذا تتلى عليه ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي لأجله وفي شأنه والمراد به الآيات ووضعه موضع ضميرها، ووضع الذين كفروا موضع ضمير المتلو عليهم للتسجيل عليها بالحق وظهور الصدق وعليهم بالكفر والإنهماك في الضلالة ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي فوراً حين مجيئها إليهم من غير نظر وتأمل ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿سحر مبين﴾ ظاهر في كونه سحراً ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ محمد من قبل نفسه، أم منقطعة استفهام للإنكار والتعجيب وإضراب عن قولهم أنه سحر إلى قولهم أنه مفترى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ فرضاً لكي تتبعوني ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لا تقدرون أن تردوا عني شيئاً من عذاب الله فكيف أجترأ على الله وأعرض نفسي للعقاب من غير توقع نفع ولا دفع ضرر من قبلكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي الله أعلم ﴿بِمَا تُفِيضُونَ﴾ أي تخوضون ﴿فِيهِ﴾ من تكذيب آياته والقول بأنه سحر أو مفترى ﴿كَفَىٰ بِهِ﴾ الباء زائدة والضمير في محل الرفع على الفاعلية ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني أن الله يشهد لي بالصدق والبلاغ بخلق المعجزات وعليكم بالكذب والإنكار وهو وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلمه عنهم وعدم استعجالهم بالتعذيب مع عظم جرمهم.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي بديعاً مثل نصف ونصيف يعني لستُ بأول الرسل أدعي ما لم يدعه أحد قبلي بل قد بعث قبلي كثير من الرسل فلم تنكرون نبوتي بعد شهادة المعجزة، أولستُ أقدر عليٍ ما لم يقدر الرسل من قبلي وهو الاتيان بالمقترحات كلها ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ما إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة ولا لتأكيد النفي المشتمل على ما يُفْعَلُ بي والتقدير ما أدري ما يفعل بي ولا ما يفعل بكم، قيل معناه ما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بِكُمُ يوم القيامة، فلما نزلت هذه الآية فرح المشركون وقالوا واللات والعزى ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وما له علينا مزيةٌ وفضلٌ ولولا أنه ابتدع ما يقول من ذات نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به فأنزل الله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] فقالت الصحابة هنيئاً لك يا نبي الله قد علمنا ما يفعل بك وإذاً ما يفعل بنا فأنزل الله ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾[2] الآية وأنزل ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٥.

﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝٤٧﴾[١] فبين الله ما يفعل به وبهم، قال البغوي وهذا قول أنس وقتادة والحسن وعكرمة قالوا إنما قال هذا قبل أن يخبره بغفران ذنبه عام الحديبية فنسخ ذلك وهذا القول عندي غير مرضي إذ لا يخلو سورة من القرآن غالباً (مكيةً كان أو مدنية) من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين، وكان من أول ما يوحي إلى رسول الله ﷺ أن ﴿أنذر عشيرتك الأقربين﴾[٢] يعني بعذاب الله إن لم يؤمنوا وفي هذه السورة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾. ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة﴾ الآية وكيف يكون عاقبة المسلمين والمشركين غير معلوم له ﷺ مذكور في الكتاب فإنه يقتضي اعتراض الكافرين ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وما نرى لك علينا من فضل فأيُّ فائدة في ترك دين الآباء وإتباع الرسل ونزول قوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٣] وقوله ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾[٤] بعد بضع عشر سنة تأخير للبيان عن وقت الحاجة وذلك محال، فإن قيل روى البغوي بسنده عن خارجة بن يزيد قال كانت أم العلاء الأنصارية تقول لما قدم المهاجرون اقترعت الأنصار على سكناهم فطار لنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه في السكنى فمرض فمرضناه ثم إنه توفِّي فجاء رسول الله ﷺ فدخلتُ فقلتُ رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي أن قد أكرمك الله فقال النبيّ ﷺ «ما يدريك أن الله قد أكرمه» قلتُ لا والله لا أدري، فقال النبيّ ﷺ أما هو فقد أتاه اليقين من ربّه وإني لأرجوا له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم، قالت فوالله لا أزكي بعد أحداً أبداً، قالت ثم رأيتُ لعثمان بعد في النوم عيناً تجري فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «ذاك عمله»[٥] وهذا الحديث يؤيد قول من قال معناه ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة وإلا فما معنى لهذا الحديث؟ قلنا مقتضى هذا الحديث أنه لا يجوز الحكم قطعاً على شخص معين بالنجاة أو بالهلاك لأنه إدعاء وعلم الغيب ولا علم على البواطن والسرائر إلا لله سبحانه غير أن الرجل إذا كان ظاهر حاله خيراً يرجو له الخير ومعنى قوله ﷺ «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم» أنه قد علمني

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٥.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: العين الجارية في المنام (٧٠١٨).

الله علوم الأولين والآخرين ومع ذلك ما أدري تفصيلاً ما يُفْعَلُ بي ولا بكُمُ في جزاء كل عمل مخصوص فكيف دريت أنتِ في حق رجل معين أن الله قد أكرمه، وقيل مثل هذا التأويل في الآية أيضاً قالوا معنى الآية ما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكُمُ في الدارين إذ لا علم لي بالغيب وهذا لا يقتضيه سياق الآية بل سياق الآية أن الكفار كانوا يريدون من النبيّ ﷺ أن يتبعهم في الدين ويطمعونه بجمع الأموال له وإنكاح الأزواج بلا سوق مهر ويؤذونه ويخوّفونه على ترك الإتباع فمقتضى سياق الآية أن النبيّ ﷺ أخبرهم بأنه لا يطمع منهم ولا يخافهم ويعلم أنهم غير قادرين على ما أرادوا بل الخير والشر كلاهما من الله تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد فمعنى الآية ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بِكُمُ من النصر والخذلان وأنا لا أتبعكم على شيء من التقادير.

﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ من القرآن لا أتركه أبداً، قال البيضاوي جواب عن إقتراح الكفار الإخبار عمّا لم يوح إليه من الغيوب أو عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذى المشركين وبه قال البغوي، قال جماعة قوله ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا وأما في الآخرة فقد علم أنه في الجنة ومن كذَّبه فهو في النار. ثم اختلفوا فقال ابن عباس لمَّا اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى رسول الله ﷺ فيما يرى النائم وهو بمكة أرض سبا ونخل رفعت له يهاجر إليها فقال له أصحابه متى تهاجر إليها فسكت فأنزل الله هذه الآية ﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أنزل في مكاني أو أخرج وإياكم إلى الأرض التي رفعت لي، وقال بعضهم معنى ما أدرى ما يُفْعَلُ بي ولا بكُم أي إلى ماذا يصير أمري في الدنيا إما أن أُخْرَجَ كما أخرجت الأنبياء من قبلي منهم إبراهيم عليه السلام أو أُقْتَلَ كما قتل بعض الأنبياء من قبلي منهم يحيى عليه السلام، وأنتم أيها المصدقون تخرجون معي أو تتركون أم ماذا يفعل بكم، وما أدري ما يُفْعَلُ بكم أيها المكذبون أترمون بالحجارة كما رمي قوم لوط أم يخسف بكم كما خسف بقارون أم أيُّ شيء يفعل بكم مما فعل بالأمم المكذّبة ثم أخبره الله عزَّ وجلَّ أن يظهر دينه على الأديان كلها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[1] وقال في أمته: ﴿ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾[2] فأخبره ما يصنع به وبأمته هذا قول السديّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ للكافرين من عذاب الله ﴿مبين﴾ بين الإنذار

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

بالشواهد المبينة والمعجزات المصدقة يعني لستُ مدعياً لعلم الغيب ولا مسلطاً عليكم أكرههم على الإيمان.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ماذا حالكم ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال بتقدير قد أي وقد كفرتم به أيها المشركون ويجوز أن يكون الواو للعطف على فعل الشرط وكذا الواو في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال قتادة والضحاك هو عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. روى البخاري والبيهقي عن أنس ومحمد وبن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام عنه والإمام أحمد ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سلام والبيهقي عن موسى بن عقبة وعن ابن شهاب قال عبد الله بن سلام لَمَّا سمعتُ رسول الله ﷺ وعرفتُ صفته وأسمه وهيئته والذي كنا نتوقع له فكنتُ مسرّاً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلمَّا قدم نزل معنا في بني عمر وبن عوف فأخبر رجل بقدومه وأنا في رأس نخلة أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلمَّا سمعتُ بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرتُ فقالت لو كُنُتَ سمعتَ بموسى بن عمران ما زدتَّ، قال قلتُ لها أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به قالت فذاك إذن، قال ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فلمَّا أن رأيتُ وجهه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب فكان أول ما سمع من النبيّ ﷺ قوله: «يا أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»، فقال يا محمد إني سائلك عن ثلاث يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه وما هذا السواد الذي في القمر؟ فقال أخبرني بهن جبرئيل آنفاً، قال جبرئيل، قال نعم، قال ذاك عدو اليهود من الملائكة قالك أما أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة نزعت وأما السواد الذي في القمر فإنهما كانا شمسين قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فالسواد الذي رأيت هو المحو فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلَموا وكتم إسلامه.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال أرى اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم وإنهم قوم بُهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي من قبل أن تسألهم عني بهتوني ويقولون فيَّ ما ليس فيَّ فأحب أن تدخلني بعض بيوتك، فأدخلَه رسول الله ﷺ

بعض بيوته وأرسل نبي الله ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه فقال «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله وقد جئتكم بالحق فأسلموا فقالوا ما نعلمه، فقال أيُّ رجل فيكم عبد الله؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال أرأيتم إن أسلم، قالوا أعاذه الله من ذلك، قال لابن سلام: أُخرج عليهم، فخرج فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا معشر اليهود اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقّاً تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة اسمه وصفته فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه، قالوا كذبتَ أنت شرنا وابن شرنا وانتقصوا، قال هذا الذي كنتُ أخاف يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بُهت أهل غدر وكذب وفجور فأظهر إسلامه وإسلام أهل بيته وأسلمت عمته ابنة الحارث فحسن إسلامها[١].

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عوف بن الأشجعي قال انطلق النبيّ ﷺ وإني معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم انصرف فإذا رجل من خلفه فقال كما أنت يا محمد وأقبل، فقال أيُّ رجل تعلموني منكم يا معشر اليهود؟ قالوا والله ما نعلم فينا رجلاً كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال فإني أشهد بالله أنه لنبي الله الذي تجدونه في التوراة قالوا كذبتَ ثم ردوا عليه وقالوا شرّاً فأنزل الله تعالى هذه الآية.
وأخرج الشيخان عن سعيد بن أبي وقاص قال ما سمعتُ النبيّ ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[٢] قال الراوي عن مالك (وهو عبد الله بن يوسف شيخ البخاري لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث، وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن سلام قال فِيَّ نزلت وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إسرائيل وعلى هذا التقدير الآية مدنية لأن إسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة ولفظة مثل في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ زائدة والضمير للقرآن والمعنى شَهِدَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم (٣٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام (٣٨١٢) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه (٢٤٨٣).

شَاهِدٌ عليه أي على كونه يعني القرآن من عند الله أو المعنى وَشَهِدَ شَاهِدٌ على مثل ما قلتُ أي على كون القرآن من عند الله ﴿فآمن﴾ عبد الله بن سلام ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان يا معشر اليهود.

وأنكر مسروق نزول الآية في عهد الله بن سلام وقال والله ما نزلت فيه لأن آل حم نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة، ونزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله ﷺ لقومه، ومعنى قوله: ﴿شهد شاهد من بني إسرائيل﴾ أنه شهد موسى وشهادته ما في التوراة خبر بعثة محمد ﷺ على مِثْلِهِ أي مثل القرآن وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن فَآمَنَ موسى عليه السلام وَاستكبرتم عن الإيمان يا معشر قريش وجواب الشرط وهو قوله (إن كان من عند الله) محذوف تقديره فمن أضل منكم أو ألستم ظالمين يدل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهي جملة مستأنفة فإن قيل أفعال الشرط أعني كَانَ مِنْ الله وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ كلها مجزوم وقوعها، فما وجه استعمال حرف إنْ فيها وهي تستعمل في موضع الشك؟ قلتُ: إن الواو في الجمل كلها للجمع وأستعمل كلمة إنْ للتوبيخ وإيراد المجزوم موقع الشك للدلالة على أنه لا يجوز عند العقل السليم الكفر مع كونه من عند الله والإستكبار مع شهادة أهل العلم وإيمانه فهو نظير قوله: ﴿أن كنتم قوماً مسرفين﴾[1] والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ الآية ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منهم أي في حقهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ دين محمد ﷺ ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال قال أناس من المشركين نحن أعزُّ ونحن خير فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان فنزلت هذه الآية، وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها رنين فكان عمر يضربها على إسلامها حتى تفتن، وكان كفار قريش يقولون لَوْ كَانَ خَيراً ما سبقتنا إليه رنين فأنزل الله في شأنها هذه الآية، وأخرج ابن سعد نحوه عن الضحاك والحسن وقال البغوي بناءً على نزول الآية السابقة في عبد الله بن سلام أنه قال الذين كفروا من اليهود للذين آمنوا من اليهود لو كان دين محمد خيراً ما سبقونا إليه يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أي وهو معطوف على قوله قَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا وعطف على محذوف تعلق به الظرف قوله ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ الفاء للسببية فإن هذا القول مسبب لظهور عنادهم وضلالهم وهو كقولهم (أساطيرُ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥.

الأَوَّلِينَ) يعني أكاذيب الأولين يعني اختلف هذا أهل الزمان السابق ثم تلقاه منهم محمد.

﴿ومن قبله﴾ أي قبل القرآن وهو خبر لقوله ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى به حال من الضمير المستكن في قبله﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله على الناس ليفوزوا إلى فلاح الدارين والجملة معترضة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ من الله تعالى ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لمحمد ﷺ بإعجازه صفة لكتاب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير كتاب في مصدق أو منه لتخصيصه بالصفة وعاملها معنى الإشارة وفائدتهما الإشعار بالدلالة على أن كونه مصدقاً للتوراة كما دل على أنه حق دل على أنه وحي وتوقيف من الله، أو مفعول به لمصدق بحذف مضاف أي مصدق ذا لسان عربي وهو محمد ﷺ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرأ نافع والبزي بخلاف عنه وابن عامر ويعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر يا محمد والباقون بالياء للغيبة أي لينذر الكتاب أو الله أو الرسول متعلق بمفهوم هذا كتابٌ أي أنزل لتنذر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ مصدر لفعل محذوف أي وليُبشر بشرى أو مفعول له معطوف على محل لينذر وهذا لا يجوز إلا على قراءة لِيُنْذِرَ بصيغة الغائب ويكون الضمير لله تعالى حتى يكون فاعله وفاعل الفعل المعلل به واحداً وهو أنزل وجاز أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً أي هو والجملة عطف على جملة قبلها ﴿للمحسنين﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قد ذكرنا تفسير الإستقامة في تفسير ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ السجدة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الموت عن لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على

فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكن في أصحاب والعامل فيه معنى الإشارة والجملة في مقام التعليل لنفي الخوف ﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدر لفعل دلَّ عليه الكلام أي جوزوا جزاءً ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من إكتساب الفضائل العلمية والعملية.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ اللام للعهد والمراد به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في أبي بكر وهو المروي عن علي رضي الله عنه قال نزلت في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع من المهاجرين أبواه في الإسلام غيره، وقال السديّ والضحاك نزلت في سعد بن أبي وقاص وقد ذكرنا قصته في تفسير سورة العنكبوت، وقيل اللام للجنس وإن كان نازلاً في أبي بكر أو سعد وذلك لا يقتضيه سياق الآية كما سنشير إليه ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ متعلق بمحذوف أي أن يحسن بوالديه وهما أبو قحافة عثمان بن عمرو أم الخير بنت الخير بن الصخر بن عمر ﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾ كذا قرأ الكوفيون من الأفعال فهو منصوب على المصدرية وقرأ الباقون حُسُناً من المجرد فهو بدل اشتمال لقوله ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ منصوب على محله ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا﴾ أي ذات كره فهو حال من فاعل حملته أو حملاً ذاكره فهو مصدر وهو المشقة قرأ أهل الحجاز وهشام وأبو عمر وبفتح الكاف في الموضعين والباقون بضمها وهما لغتان، وقيل المضموم إسم والمفتوح مصدر ﴿وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًاۖ﴾ جملتان معترضتان في مقام التعليل للأمر بالإحسان وفيه إشعار بمزية إستحقاق الأم في الإحسان قال رسول الله ﷺ: «صل أمَّك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك» وقد مر الحديث في سورة العنكبوت.

﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ وهو الفطام والمراد به الرضاع تسمية الملزوم باسم اللازم وقرأ يعقوب وفَصْلُه وهما بتقدير المضاف مبتدأ بعده خبره أي مدة حمله ورضاعه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ معترضة أخرى لبيان شدة المشقة في مدة طويلة يستدل بهذه الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾[1] فإنه إذا ذهب منها عامين بقي للحمل ستة أشهر وعليه أتفق الأئمة في أقل مدة الحمل. وأختلفوا في أكثرها؟ فقال أبو حنيفة سنتان وعن مالك روايات أربع سنين وخمس سنين وسبع سنين، وقال الشافعي أربع سنين وعن أحمد روايتان المشهور كمذهب الشافعي والأخرى كمذهب أبي حنيفة، وجه قول أبي حنيفة قول عائشة الولد لا يبقى في بطن أمه أكثر من سنتين ولو بقدر فلكة مغزل وفي

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

رواية ولو بقدر ظل مغزل، قال ومثله لا يقال إلا سمعاً إذ المقدرات لا تدرك بالرأي، قلتُ: يحتمل أن يكون قولها على تقدير الصحة مبنيّاً على التجربة في جريان العادة كقول مالك والشافعي، قلتُ: والإستدلال بهذه الآية على أقل مدة الحمل مبني على كون اللام في الإنسان للجنس وإن كان للعهد فلا لأنها حينئذ بيان لواقعة حال، والاستدلال بهذه الآية على مذهب أبي حنيفة أن مدة الرضاع ثلاثون شهراً لا يجوز وقد مرَّ الكلام فيه وفي غيرها من مسائل الرضاع في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾[1] روي عن عكرمة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أنه قال إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعته أحد وعشرين شهراً وإذا حملت ستة أشهر رضعته أربعة وعشرين شهراً والله أعلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ متعلق بفعل محذوف معطوف على وضعته تقديره وربّاه حَتّى إذا بلغ ﴿أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ عطف على بلغ يعني وبلغ كمال عقله كان أبو بكر صحب النبيّ ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنةً وذلك بلوغ الأشد وكان النبيّ ﷺ دعا ربه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ قرأ ورش والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها والمعنى ألهمني وقيل معناه الكف أي إجعلني بحيث أزع نفسي يعني أكفه من الكفران ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ الهداية للإسلام أو ما يعمه وغيره ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ نكر صالحاً للتعظيم أو لأنه أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضاء الله، قال ابن عباس فأجابه الله تعالى فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه ودعا أيضاً ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ فأجابه الله فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً فأجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً كذا قال ابن عباس، وأدرك أبو قحافة صحبة النبيّ ﷺ وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عبد الرحمان أبو عتيق ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ عن الكفر وعن كل ما لا يرضاه الله أو يشغل عنه ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المخلصين قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ إلى آخره دليل على أن اللام في الإنسان للعهد فإنه لو كان للجنس لا يستقيم ذلك لأن تأخير النعمة القديمة إلى بلوغ أربعين سنة لا يجوز فالآية حكاية عن الواقع فإنه رضي الله عنه آمَنَ وهو ابن أربعين سنة والمعتبر من الشكر ما كان بعد الإيمان، فإن قيل المروي أن أباه أبا قحافة أسلم يوم الفتح وكان أبو بكر حينئذ ابن ستين سنة وكان نزول الآية قبل الهجرة لأن السورة مكية وحين بلغ أبو بكر أربعين سنة

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

كان أبو قحافة كافراً فكيف يوصي الله بالإحسان به وكيف يقول أبو بكر ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؟ قلنا: قد روي أن أبا بكر أسلم وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وأسلم أبواه بعد ذلك بسنتين وكان أبو بكر حينئذ ابن أربعين سنة فلعل هذه الرواية هي الصحيحة وعلى تقدير نزول الآية بمكة وإسلام أبي قحافة بعد الفتح قلنا الوصية بالإحسان للوالدين الكافرين أيضاً جائزة قال الله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾(١) والمراد حينئذ بنعمتك أنعمت علي ما يعم نعمة الدين والدنيا والله أعلم، قلتُ: وعلى تقدير كون اللام للجنس يقال معنى الآية أنه إذا بلغ الإنسان أشده يعني بلغ مبلغ الرجال شكر الله تعالى على كمال جسده ثم إذا بلغ أربعين سنة شكر الله سبحانه على كمال عقله والله أعلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إن كان المراد بالإنسان الجنس، فالإشارة إلى عامة الموصوفين بالصفات المتقدمة ظاهر وإن كان المراد به أبو بكر أو سعد فالمشار إليه هو ومن كان مثله في الصفات المذكورة فذكر حكم أبي بكر وسعد في ضمن العموم على سبيل الكناية وهو أبلغ من الصريح فإنه كدعوى الشيء مع بينة وبرهان ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فإن المباح حسن ولا يثاب عليها أو هي من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها يعني نتقبل عنهم ما عملوا أحسن مما عمله غيره ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فلا نعاقبهم على شيء منها، قرأ حمزة والكسائي وحفص مَقبَّلُ ونَتَجَاوَزْ بالنون على التكلم والتعظيم وأحْسَنَ منصوباً على المفعولية والباقون بالياء على الغيبة والبناء للمفعول وأحُسَنُ مرفوعاً على أنه مسند إليه ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ خبر بعد خبر لأولئك أو حال من الضمير المجرور في عنهم وعن سيئاتهم أي كائنين في أعدادهم أو مثابين أو معدودين فيهم ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه فأن يتقبل ويتجاوز وَعْدٌ أي وعدتُ وعد الصدق وإضافة الوعد إلى الصدق من قبيل حاتم الجود ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا والجملة مستأنفة لبيان جزاء الإنسان المذكور.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ إذا دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار الموصول مبتدأ خبره أولئك والجملة مستأنفة أُخرى لبيان حكم من خالف المذكورين ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ وهي كلمة كراهية، قرأ نافع وحفص بالتنوين وكسر الفاء وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الفاء بغير تنوين والباقون بكسر الفاء بغير تنوين ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ قرأ هشام بنون واحدة مشددة والباقون بنونين مكسورتين وقرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها والاستفهام للإنكار

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٨.

والتوبيخ في مقام التعليل للتأفيف ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري حيّاً بعد الموت ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ الجملة حال من فاعل اخرج وهاهنا جملة محذوفة معطوفة على هذه الجملة تقديره ولم يخرج أحد منهم ﴿وَهُمَا﴾ أي أبواه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي يقولان الغياث بالله منك أو يسألانه تعالى أن يغيثه بالتوفيق للإيمان الجملة حال من والديه ﴿وَيْلَكَ﴾ مصدر لفعل محذوف أي هلكت هلاكان والجملة مقدرة بالقول أي ويقولان له وَيْلَكَ أَمِنُ بالله وبالبعث بعد الموت ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ لهذه الجملة في مقام التعليل للأمر بالإيمان ﴿فَيَقُولُ﴾ ذلك الولد الكافر لوالديه ﴿مَا هَذَا﴾ الوعد ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ﴾ أي أكاذيب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾.

أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهك قال كان مروان على الحجاز استعمل معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا فقال مروان هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن أنزل عذري[1]. وروي أنه غضب عبد الرحمن بن أبي بكر بقول مروان وقال هذا سنة الهراقلة أن يرث الأبناء ملك الآباء، وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ وعن ابن عباس مثل قول مروان وقال نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ثم أسلم عبد الرحمن وحسن إسلامه، وقال البغوي قال ابن عباس والسديُّ ومجاهد نزلت في عبد الله وقيل في عبد الرحمن بن أبي بكر كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى ويقول أحيوا لي عبد الله بن جدعان وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون، قلتُ وقول من قال أنها نزلت في عبد الرحمٰن بن أبي بكر إنما نشأ من قول مروان وقد سمعتَ أن قول مروان إنما كان مبنيّاً على العناد. قال البغوي وأنكرت عائشة أن يكون هذا في عبد الرحمن بن أبي بكر وقالت إنما نزلت في فلان سمت رجلاً، وقال الحافظ ابن حجر ونفي عائشة أصح إسناداً وأولي بالقبول، وقال البغوي والصحيح أنها نزلت في كافر عاق لوالديه المسلمين كذا قال الحسن وقتادة، وقال الزجاج قول من قال نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، يبطله قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ﴾ أي وجب وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بأنهم أهل النار فإن عبد الرحمن كان

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: (والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج) (٢٨٢٧).

من أفاضل المسلمين ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم كافرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيان لأمم وجملة قَدْ خَلَتْ صفة لأمم وفي أمم متعلق بحقَّ وهو صلة للموصول والموصول خبر لاسم الإشارة والجملة خبر لقوله ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تذييل.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي من جزاء ما عملوا من الخير أو من أجل ما عملوا قال البغوي قال ابن عباس يريد من سبق إلى الإسلام فهو أفضل ممن يخلف عنه ولو بساعة وقال مقاتل ولكل فضائل بأعمالهم فيوفيهم جزاء أعمالهم، وقيل ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين درجات منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم فجازيهم عليها قال ابن زيد في هذه الآية درجات أهل النار يذهب سفالاً ودرجات أهل الجنة يذهب علُوّاً ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام وعاصم بالياء على الغيبة والباقون بالنون على التكلم والتعظيم وهو معطوف على علة محذوفة لفعل محذوف تقديره فعلنا ذلك أو فعل الله ذلك لِحكَم ومصالح وليوُفّيهُم ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي جزاء ما عملوا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وزيادة عقاب حال من الضمير المنصوب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي يعذبون بها أصله يعرض النار عليهم فقلب مبالغة كقولهم عرضتُ الناقة على الحوض ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ مقدر بالقول أي يقال لهم أذهبتم وهو ناصب اليوم، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ءأذهبتم بالاستفهام فقرأ ابن ذكوان بهمزتين محققتين بغير مد وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وهشام بهمزة ومد وهشام أطول مداً على أصله وابن كثير يسهل الثانية على أصله والباقون بهمزة واحدة على الخبر،

قال البغوي كلاهما فصيحتان لأن العرب تستفهم للتوبيخ وتترك الاستفهام ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ ولذائذكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ باستيفاء ما كتب لكم حظّاً منها في الدنيا ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيء ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ الفاء للسببية عطف على استمتعتم ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي العذاب الذي فيه ذل وهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله.

قال البغوي وبّخ الله الكافرين بالتمتع في الدنيا فأثر النبيّ ﷺ وأصحابه الصالحون اجتناب اللذات للدنيا رجاءً لثواب الآخرة، روى الشيخان في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه قال دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثّرَ الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف، قلتُ يا رسول الله أدع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، فقال أو في هذا أنت يا ابن الخطّاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، وفي رواية «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[(١)] وفي الصحيحين عن عائشة ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ، وروى البخاري عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل وقال خرج النبيّ ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير[(٢)]، وروى عن عائشة قالت لقد كان يأتي علينا شهر ما توقد فيه نار وما هو إلا الماء والتمر غير أن جزى الله النساء من الأنصار خيراً ربما أهدين لنا شيئاً من اللبن، وروى أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير[(٣)]، وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «لقد أخِفْتُ في الله وما يخاف أحد ولقد أوُذَيتُ وما يؤذى أحد ولقد أتت عليَّ ثلاثين من بين ليلة ويوم ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال» قال الترمذي ومعنى الحديث حين خرج النبيّ ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال إنما كان مع بلال من الطعام ما تحمل تحت إبطه، وروى البخاري عن أبي هريرة قال رأيتُ سبعين من أصحاب الصفة ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها (٢٤٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأطعمة، باب: ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون (٥٤١٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٣٦٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة، باب: خبز الشعير (٣٣٤٧).

منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته[١]، وروى البخاري عن أنس أنه مشى إلى النبيّ ﷺ بخبز شعير وإهالة سبخة، ولقد رهن النبيّ ﷺ درعاً بالمدينة عند يهودي وأخذ منه الشعير لأهله ولقد سمعتُه يقول ما أمسى عند آل محمد صاع بر ولا صاع حب وإن عنده تسع نسوة[٢] وروى الترمذي عن أبي طلحة قال شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه عن حجرين[٣]، وقال الترمذي هذا حديث غريب، وروى مسلم عن عبد الرحمن قال «جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو وأنا عنده فقالوا يا أبا محمد والله ما نقدر على شيء لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان وإن شئتم صبرتم فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً، قالوا فإنا نصبر نسأل شيئاً»[٤] وروى أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما بعث به إلى اليمن قال: «إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» وروى البيهقي في شعب الإيمان عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من رضي من الله باليسر من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل» وروى البغوي عن عبد الرحمن بن عوف أنه أتي بطعام وكان صائماً فقال قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه وإن غطي رجلاه بدا رأسه قال وأراه قال وقتل حمزة وهو خير مني ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال أعطينا الدنيا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام، وروي عن جابر بن عبد الله أنه رأى عُمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يديَّ فقال ما هذا يا جابر؟ قلتُ «اشتهيتُ لحماً فاشتريتُه فقال عمر فكلما اشتهيت يا جابر اشتريت أما تخاف هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، وقد روى القصة من حديث ابن عمر، وفي رواية من حديث جابر أما يجد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه، وروى رزين عن زيد بن أسلم قال استسقى يوماً عمر فجيء بماء قد شيب بعسل فقال إنه طيب لكني أسمع الله عزَّ وجلَّ نفى على قومه شهواتهم فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: نوم الرجال في المسجد (٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: شراء النبي ﷺ بالنسيئة (٢٠٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ (٢٣٧١).

(٤) أخرجه مسلم في أول كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٧٩).

واستمتعتم بها فأخاف أن تكون حسناتنا عجلت لنا فلم يشربه.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هود عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ عاداً، إذ مع ما أضيف إليه بدل إشتمال من أخا عاد أي اذكر وقت إنذاره ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي في الأحقاف قال ابن عباس: الأحقاف بين عمان ومهرة، وقال مقاتل منازل عاد كان باليمن في حضرموت بموضع يقال لها مهرة تنسب إليها الإبل المهرية وكانوا أهل عهد سيارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة آدم، قال قتادة ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن كانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال له يشجر والأحقاف جمع حقف وهو المستطيل المعوج من الرمال قال ابن زيد هي ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون جبلاً، وقال الكسائي هي ما استدار من الرمال ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي مضت الرسل جملة معترضة أو حال من فاعل أنذر يعني والحال أنه أنذر ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي قبل هود نوحٌ وغيره ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي بعده صالحٌ وإبراهيم ولوط وغيرهم مثل إنذار هود ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن مفسرة لأنذر أو مصدرية بتقدير أنباء فإن النهي عن الشيء إنذار عن مضرته ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غير الله ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي عظيم بلاؤه ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ إستفهام تقرير ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ أي لتصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعيدك شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ لوقت عذابكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي يأتيكم في وقت مقدر له من المستقبل ولا يستلزم عدم وقوع العذاب الآن كوني كاذباً ولا مدخل لي فيه فاستعجلوا ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم من التوحيد والأحكام والأخبار بنزول العذاب أن لم تؤمنوا ﴿وَلَٰكِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون أن الله هو العليم القدير والرسل إنما بعثوا منذرين مبلغين لا معذبين ولا مقترحين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير عائد إلى ما تعدنا وهو العذاب أو مبهم تفسيره ﴿عَارِضًا﴾ أي هيئة سحاب يعرض أي يبدو في عرض السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ وقد كانوا قد حبس عنهم المطر قبل ذلك سنتين (وقد مرَّ قصتهم في سُورة الأعراف وغيرها) استبشروا بها ﴿قالوا هذا﴾ الذي نراه ﴿عارض﴾ سحاب عرض ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر قال الله تعالى أو قال هود ليس هذا سحاباً ممطراً كما زعمتم ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي أو بدل من الموصول ﴿فِيهَا عَذَابٌ﴾ صفة لريح ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة عذاب ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي تهلك ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ مرت به من أنفسهم وأموالهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾

أي رب الريح فجاءت الريح الشديد تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة وأول ما عرفوا أنها عذاب إذا رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من رجال عاد وأموالهم تطير بهم الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح ففلقت أبوابهم وصرعتهم وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال وكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ﴾ عطف على قال الله أو قال هود المحذوف، قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بضم الياء للغيبة على البناء للمفعول ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالضم عندهم على أنه مفعول ما لم يسم فاعله والباقون بالتاء للخطاب يعني لا ترى يا محمد أو يا مخاطب مطلقاً وَمَسَاكِنَهُمْ عندهم بالنصب على المفعولية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي جزاء مثل جزائهم ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ روي أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح اعتزل بالمؤمنين في الخطير، عن عائشة قالت: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه»[1] متفق عليه، وفي رواية عند البغوي فقلتُ يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء إن يكون فيها المطر وإذا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقال «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا»، وعنها قالت: «كان النبيّ ﷺ إذا عصت الريح قال اللّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلتْ به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطِرت سري عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال عاد فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا، وفي رواية ويقول إذا رأى المطر رحمةً»[2] متفق عليه، وفي رواية عند أبي داود والنسائي وابن ماجه والشافعي كان النبيّ ﷺ إذا أبصرنا شيئاً من السماء ترك عمله واستقبله وقال إني أعوذ بك من شر ما فيه»[3] الحديث، وعن ابن عباس ما هبت الريح قط إلا جثا النبيّ ﷺ على ركبتيه وقال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم) (٤٨٢٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الغيم والريح والفرح بالمطر (٨٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله ﴿فلما رأه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح والغيم (٨٩٩).

(٣) أخرجه الشافعي في الباب السادس عشر في الدعاء (٥٠١٠).

«اللّهم إجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً» الحديث، رواه الشافعي والبيهقي.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ﴾ يعني عاداً ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ﴾ من القوة والمال ما موصولة أو موصوفة وإن نافية وهي أحسن هاهنا من ما لئلا يلزم التكرار لفظاً أي في الذي (أو في شيء مكّنّاكم فيه)، أو شرطية والجواب محذوف والتقدير ولقد مَكَّنَّاهُم في الذي أو في شيء إنْ مَكَّنَّاكُمْ فيه كان بغيكم أكثر أو زائدة يعني مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا مَكَّنَّاكُمْ فيه والأول أظهر لقوله تعالى ﴿أَحْسَنُ أَثَـٰثًا﴾[1] ﴿وكانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً﴾[2] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ بمعنى إسماعاً ﴿وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ قلوباً ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانحها ويواظبوا على شكرها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من زائدة يعني لم ينفعهم شيء منها شيئاً من النفع ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ ظرف جرى مجرى التعليل من حيث أن الحكم مرتب على ما أضيف إليه فهو علة لما أغنى ﴿وَحَاقَ﴾ أي نزل ﴿بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ من العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحجر ثمود وأرض سدوم قرى قوم لوط والمراد أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي كررنا الحجج والبينات ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لكي يرجعوا يعني أهل مكة عن كفرهم تعليل للصرف وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ فهلا منعهم من عذاب الله ﴿الذين أتخذوا﴾ أي الذين اتخذوهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي آلهة يتقربون بها إلى الله حيث قالوا: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)[3]، أو مفعولي اتخذوا الراجع إلى الموصول محذوف وثانيهما قُرباناً وآلهة بدل أو عطف بيان أو

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٨٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٨.

آلهة مفعول ثان، وقرباناً حال أو مفعول له على أنه بمعنى التقرب أو مفعول مطلق أي إتخاذ تقرب إلى الله ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرهم عند نزول العذاب وأمتنع أن يستمدوا بهم امتناع الإستمداد بالضآل ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذ الذين هذا شأنهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ كذبهم وصرفهم عن الحق.

وقيل ذلك إشارة إلى انتفاء نصرهم وهو به يقول أو إفكهم بحذف المضاف خبره والمعنى وذلك أي انتفاء نصرهم أثر إفكهم أي افترائهم والجملة معترضة لبيان سبب المشار إليه ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي إفتراؤهم أنها آلهة.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال إن الجن هبطوا على النبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا أنصتوا قالوا صه وكانوا تسعة أحدهم رذبعة فأنزل الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾ أي أهلنا ﴿إِلَيْكَ﴾ هذه الجملة إلى آخرها معترضة لتسلية للنبي ﷺ نفراً وهي جماعة دون العشرة وجمعه أنفار ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال ابن عباس كانوا سبعة من جن نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم وقال الآخرون كانوا تسعة.

قال البغوي روى عاصم عن زر بن حبيش أن رذبعة من التسعة الذين إستمعوا القرآن ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ حال من نفر ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن أو الرسول ﴿قَالُوا أَنصِتُوا﴾ قال بعضهم لبعض اسكتوا نسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي أتم وفرغ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ أنصرفوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ من الجن ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مخوّفين داعين بأمر رسول الله ﷺ وقد ذكرنا القصة بوجوهها في سورة الجن لما سبق مني تفسيرها ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، قال عطاء كان دينهم اليهودية، قلتُ: لعل معنى قولهم أنزل من بعد موسى ناسخاً للتوراة

بخلاف الإنجيل والزبور فإنهما لم يكونا ناسخين لكثير من أحكام التوراة حيث قال الله تعالى في عيسى عليه السلام ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾[١] وقال حكاية عنه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[٢] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية حال من فاعل أنزل أو صفة ثانية لكِتَاباً وكذا قوله ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من الشرائع ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ محمداً ﷺ إلى الإسلام ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وما كان حقاً لله بخلاف المظالم فإنها لا يغفر بالإيمان ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأستجاب من قومهم نحو سبعين رجلاً من الجن فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن فأمرهم ونهاهم وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس جميعاً وقد ذكرنا اختلاف العلماء في حكم مؤمن الجن في سورة الجن ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يعجز الله فيفوته إذا أراد الله تعذيبه ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يمنعونه من عذاب الله هذه الجملة حال من فاعل ليس بمعجز والجملة الشرطية أعني من لا يجب داعي الله إلخ معترضة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الذين لم يجيبوا داعي الله ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإن الهداية منحصرة في اتباع الرسول.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكرون هؤلاء الكفار عن البعث بعد الموت ولم يروا أي لم يعتقدوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ﴾ أي لم يتعب ولم يعجز ﴿بِخَلْقِهِنَّ﴾ فإن قدرته ذاتية لا ينقص ولا ينقطع بالإيجاد أبد الآبدين ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ الباء زائدة وإسم الفاعل في محل النصب على أنه مفعول ثان ووجه دخول الباء على خبر أنَّ المفتوحة إنّ إنّ مع جملتها قائم مقام مفعولي يَرَوْا والنفي في أفعال القلوب يتوجه إلى المفعول الثاني، هذا قراءة الجمهور وفي قراءة ابن مسعود قادراً بغير الباء وقرأ يعقوب يقدر بصيغة الفعل المضارع ﴿على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوب بقول مضمر تقديره يقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى العذاب بالنار الذي ينكرونها في الدنيا ﴿بِٱلْحَقِّ قَالُواْ﴾ أي الكفار في الجواب ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ يقسمون بالله ويعترفون به حين لا ينفعهم الإقرار ﴿قَالَ﴾ أي يقول الله تعالى حينئذ ﴿فذوقوا العذاب﴾ الفاء للسببية فإن كونها حقاً مع إنكارهم إياها في الدنيا سبب للذوق ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم في الدنيا ومعنى الأمر هو الإهانة والتوبيخ وجملة ويوم يعرض الخ متصلة بقوله ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾[1] وما بينهما معترضات.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى الكفار الفاء للسببية يعني إذا عملتَ أنهم يذوقون عذاب النار فاصبروه تهتم للانتقام ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ أي صبراً مثل ﴿أولوا العزم﴾ أي أولي الصبر والثبات والجد ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قبلك فإنك من جملتهم. واختلفوا فيهم؟ قال ابن زيد كل رسول كان صاحب عزم فإن الله لم يبعث نبيّاً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل ومن للتبيين، وقال بعضهم الأنبياء كلهم أولوا عزم إلا يونس بن متى لعجلة كانت منه ألا ترى أنه قيل للنبي ﷺ (ولا تكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ)[2] وقيل إلا يونس وإلا آدم لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[3] وقال قوم هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً. قال الله تعالى بعد ذكرهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[4] وقال الكلبي هم الذين أمروا بالجهاد واظهروا المكاشفة مع أعداء الله وقيل هم ستة: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء، وقال مقاتل هم ستة: نوح صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهب بصره، ويوسف صبر في البئر والسجن، وأيوب صبر على

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤٨.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

الضرّ، وقال ابن عباس وقتادة هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع مع محمد ﷺ وعليهم أجمعين خمسة، قال الشيخ محيى السنة البغوي ذكرهم الله على التخصيص في قوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾(١) وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾(٢)، وقال الشيخ أحمد المجدد للألف الثاني رضي الله عنه هم ستة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسيد الرسل محمد ﷺ أجمعين وسلم، أما الخمسة فلما ذكر من تخصيصهم للميثاق وكونهم أصحاب الشرائع ومن جاء خلفهم أيّدَ شرائعهم وأما آدم فلا جرم يكون هو صاحب شريعة جديدة لكونخه مقدماً على غيره.

روى البغوي عن مسروق قال قالت لي عائشة قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم إلا الصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم وقال فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرُّسُلِ وإني والله ما بدا لي من طاعته وإني والله لأصبرنَّ كما صبروا وأجهدن كما جهدوا ولا قوة إلا بالله».

عن ابن مسعود قال: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيّاً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(٣) متفق عليه، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لا تدع على كفار قريش بنزول العذاب عليهم فإنه نازل بهم في وقته لا محالة، كأنه ضجر وضاق قلبه بكثرة مخالفات قومه فأحب أن ينزل العذاب يمن أبى منهم فأمر بالصبر وترك الاستعجال ثم أخبر عن قرب العذاب فقال ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ في الدنيا زماناً ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ استقصروا من هوله مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة ولأن ما مضى وإن كان طويلاً فهو إذا انقضى صار كأن لم يكن وجملة كأنهم واقع موقع التعليل لعدم الاستعجال في تعذيب الكفار ثم قال ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا الذي وعظتم به أو هذه السورة أو هذا القرآن

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد (١٧٩٢).

وما به من البيان بلاغ من الله إليكم أي كفاية أو تبليغ الرسول وتنكير البلاغ للتعظيم والتفخيم، وقيل بلاغ مبتدأ خبره لهم وما بينهما إعتراض أي لهم وقتٌ يبلغون إليه كأنهم إذا بلغوه رأساً رأوا ما فيه استقصروا مدة عمرهم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ الإستفهام للإنكار أي لا يهلك بالعذاب أحد ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن الإتعاظ أو الطاعة، قال الزجاج تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلاَّ القَوْمُ الفاسقون، ولهذا قال قوم ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية.

سورة محمد

صلّى اللّه عليه وسلّم وهي سورة القتال

آياتها ثمان وثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي منعوا الناس عن الدخول في الإسلام إذ امتنعوا عن الدخول فيه وسلوك طريقه ﴿أَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أي جعلها ضائعة محبطة حيث لم يقصدوا بها وجه الله، ولم يجعل لها ثواباً وإنما يجزون بها في الدنيا فضلاً من الله وأراد بالأعمال ما كان منها حسناً في الظاهر كإطعام الطعام وصلة الأرحام وفك الأسارى وحفظ الجوار وقال الضحاك أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ وجعل الدبرة عليهم ﴿والذين آمنوا وعملوا الصلحات وآمنوا بما نزل على محمد﴾ صلّى الله عليه وسلم تخصيص للمنزل عليه مما يجب الإيمان به تعظيماً له وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم بدونه وأنه الأصل منه وشامل لجميع الإيمانيات ولذكل أكده بقوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ إعتراضاً على طريقة الحصر وجاز أن يكون حالاً، قيل حقيقته كونه ناسخاً لا ينسخ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي غفرها وسترها بالإيمان وأعمالهم الصالحة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم في الدنيا

بالنصر على الأعداء وتوفيق الطاعة والحفظ عن المعاصي وتسلط الشيطان وفي الآخرة بالخلود في النعيم ورضوان الله تعالى، وقال ابن عباس يعني عصمهم أيام حياتهم، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله» هم مشركوا مكة، «والذين آمنوا عملوا الصالحات» هم الأنصار، وقلتُ واللفظ عام ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي الشيطان ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي القرآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي ضرباً مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي يبين ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ الضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب لأجل الناس حتى يعتبروا أمثال الفريقين جعل الله تعالى اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخيبتهم واتباع الحق مثلاً للمؤمنين تكفيراً لسيئات مثلاً لفوزهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه مضافاً إلى المفعول للتأكيد والإختصار عبر به عن القتل إشعاراً بأنه ينبغي أن يضرب الرقبة ما أمكن فإنه مفض إلى القتل غالباً دون غيره من الجراحات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أكثرتم قتلهم واغلظتموهم من الثخين بمعنى الغليظ ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي فأمسكوا عنهم وأسروهم وشدوا وثاقهم وأحفظوهم كيلا يفروا والوثاق بالفتح والكسر ما يوثق به ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي فاما تمنون عليهم بالإطلاق بعد الأسر وشد الوثاق منّا أو يفدون فداءً، قال البغوي اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾[2] وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسديُّ وابن جريج وهو قول الأوزاعي وبه قال أبو حنيفة رحمه الله في رواية، قلتُ قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ لا يصلح ناسخاً لهذه الآية وقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ مخصوص بالبعض حيثُ جاز استرقاق الأسارى بالإجماع واستبقاؤهم ذمة لنا عند أبي حنيفة ومالك فبقي ظني الدلالة في الباقي فلا يصلح ناسخاً لهذه الآية لكونها قطيعة، وذهب الآخرون إلى أنها محكمة والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو بمن عليهم فيطلقهم بلا عوض أو

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٧.

يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين وإليه ذهب ابن عمرو به قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال ابن عباس لما كثر المسلمون وأشتد سلطانهم أنزل الله عزَّ وجلَّ في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وهذا هو الأصح والاختيار لأنه عمل به رسول الله ﷺ والخلفاء بعده قلتُ فهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[١] فإنها نزلت في غزوة بدر سنة اثنين وقد منَّ رسول الله ﷺ على الأسرى بعد ذلك في الحديبية سنة ست وغير ذلك، عن أنس «أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غزوة النبيّ ﷺ وأصحابه فأخذهم سلماً فاستحياهم وفي رواية فأعتقهم فأنزل الله تعالى: (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم)[٢] رواه مسلم وقد ذكرنا مسائل أحكام الأسارى وأختلاف العلماء وما ورد في الباب من الأحاديث في سورة الأنفال في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[٣].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ﴾ أي أهل الحرب أي المحاربين ﴿أَوْزَارَهَا ۚ﴾ يعني أثقالها وهي الأسلحة يعني ينقطع الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم، وقيل الأوزار الآثام والمعنى يضع أهل الحرب من المشركين أثامها بأن يتوبوا من كفرهم ويؤمنوا بالله ورسوله، وقيل حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا والمعنى اثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يدخل أهل الملل كلها في الإسلام جعل الله سبحانه إنقطاع الحرب غاية للضرب أو الشد أو المن أو الفداء أو للمجموع يعني هذه الأحكام جارية حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم وذلك عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام. عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناولهم. حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[٤] رواه أبو داود، وروى البغوي عن النبيّ ﷺ بلفظ «الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال» ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي الأمر فيهم ذلك أو مبتدأ خبره محذوف أي

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (١٨٠٨).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في دوام الجهاد (٢٤٨٢).

ذلك ثابت أو مفعول لفعل محذوف أي افعلوا بهم ذلك فهو تأكيد لما سبق ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لانتقم من الكفار بأن يهلكهم من غير تعب منكم في الجهاد ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ﴿ليبلوا بعضكم ببعض﴾ أي ليبلوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم بالعقوبة بأيديهم كي يرتدع بعضهم من الكفر ويستوجب بعضهم النار، والجملة بيان لحكمة شرعية القتال مع القدرة على استيصالهم بلا تجشم قتال من المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ قَٰتَلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قرأ أهل البصرة وحفص قُتِلُوا بضم القاف وكسر التاء على البناء للمفعول من المجرد وهم الشهداء والباقون قَاتَلُوا بالألف من المقاتلة وهم المجاهدون ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خبر للمبتدأ الموصول المتضمن لمعنى الشرط أي لا يبطل أعمالهم بارتكاب المعاصي بل يكفر سيئاتهم ويثيب على حسناتهم، أخرج البزار والبيهقي والأصفهاني في الترغيب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء ثلاثة: رجل خرج بنفسه وماله محتسباً في سبيل الله يريد أن يقاتل ويقتل يكثر سواد المسلمين فإن مات أو قتل غفرت له ذنوبه كلها وأجير من عذاب القبر ويؤمن من الفزع الأكبر ويزوج من الحور العين ويحل حلة الكرامة ويوضع على رأسه تاج الوقار، والثاني رجل خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يَقْتُلَ فإن مات أو قُتل كانت ركبتيه مع إبراهيم خليل الرحمن بين يدي الله في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ، والثالث رجل خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يقتل ويقتل فإن مات أو قتل جاء يوم القيامة شاهراً سيفه واضعه على عاتقه والناس جاثون على الركب يقولون ألا افسحوا لنا فإنا بذلنا لنا دماءنا وأموالنا لله حتى يأتوا منابر من نور تحت العرش فيجلسون عليها ينظرون كيف يقضي بين الناس لا يجدون غمّ الموت ولا يفتنون في البرزخ ولا يفزعهم الصيحة ولا يهمهم الحساب ولا الميزان ولا الصراط ولا هم يسألون شيئاً إلا أعطوا ولا يشفعون في شيء إلا شفعوا ويعطون من الجنة ما أحبُّوا ويتبؤون من الجنة حيث أحبُّوا» والله أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال ذكر لنا أنه نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يوم أحد وقد نشب فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون بوعيد أعل هبل فنادى المسلمون الله أعلى وأجل، فقال المشركون إن لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا الله مولانا ولا مولى لكم**»[1].

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا إلى الرشد وفي الآخرة إلى الدرجات العلى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة أحد (٤٠٤٣).

حالهم في الدارين أما في الدنيا فلمن لم يقتل أدرجوا في القتلى تغليباً، أو لأنهم لما خرجوا للقتال ورضوا بأن يقتلوا أعطوا ثوابهم في الدارين وأما في الأخرى فلمن قُتل ولمن لم يُقْتَلُ بأن يكفر سيئاتهم ويقبل حسناتهم ويرضى خصمائهم. أخرج أبو نعيم في الحلية عن سهل بن سعد والبزار والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قالا قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يقضي الله تعالى عنهم يعني ديونهم يوم القيامة رجل خاف العدو على بيضة المسلمين وليس عنده قوة فادَّان ديناً فابتاع به سلاحاً وتقوى به في سبيل الله فمات قبل أن يقضيه هذا يقضي الله عنه، ورجل مات عنده أخوه المسلم فلم يجد ما يكفنه منه فاستقرض فاشترى به كفناً فمات وهو لا يقدر على قضائه فهذا يقضي الله عنه يوم القيامة، ورجل خاف على نفسه العنت فتعفف بنكاح امرأة فمات ولم يقض فإن الله يقضي عنه يوم القيامة» وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن قال قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى الخلائق يوم القيامة فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادي يا أهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم على الله تعالى ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ أي يبين لهم منازلهم في الجنة حتى يهتدوا إلى مساكنهم من غير استدلال كأنهم سكانها منذ خلقوا فيكون المؤمن أهدى إلى منزله ودرجته وزوجته وخدمه منهم إلى منزله وأهله في الدنيا هذا قول أكثر المفسرين، عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يقول: «**والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم**» رواه في حديث طويل ابنَ جرير في تفسيره والطبراني وأبو يعلى والبيهقي في البعث وغيرهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي تنصروا دينه ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ مصدر لفعل واجب إضماره وسمعاً أي فتعسوا تعساً والجملة خبر للموصول أو مفسر لناصبه، قال ابن عباس معناه بُعداً لهم، وقال أبو العالية سقوطاً لهم، وقال الضحاك خيبة لهم، وقال ابن زيد شتّاً لهم، قال الفراء نصب على المصدر على سبيل الدعاء، وقيل معناه في الدنيا العثرة وفي الآخرة التردي في النار ويقال للعاثر إذا لم يريدوا قيامه تعساً وضده، وفي القاموس التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والإنحطاط ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ لأنها كانت في طاعة الشيطان عطف على ناصب تعساً ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني القرآن لما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه وأشتهته أنفسهم ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ كرره إشعاراً بأن ذلك من لوازم الكفر.

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألم يخرجوا فلم يسيروا في الأرض ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ جواب للنفي أو معطوف عليه أي فلم ينظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة للرسل ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ﴾ أي إستأصل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم جملة مستأنفة ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني أهل مكة وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على كفرهم ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أي أمثال تلك العاقبة أو العقوبة أو الهلكة لأن التدمير يدل عليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر للمؤمنين والقهر على الكافرين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وليهم وناصرهم فيؤيدهم ويوفقهم ويسدد أمرهم ويدفع عنهم خطرات الشيطان حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[1] ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين قدر عليهم الكفر وسلطان الشيطان ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ﴾ صفة لمصدر محذوف وما مصدرية أي أكلاً، كأل ﴿ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ حريصين غافلين عن المنعم تاركين شكره غير خائفين عن العاقبة ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى﴾ أي منزل ومقام ﴿لَّهُمْ﴾ الجملة حال من فاعل تأكلون ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي كثير مبتدأ ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي أهل قرية حذف المضاف وأجرى على المضاف إليه أحكام المضاف فقال ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ صفة أخرجك أهلها أسند الإخراج إليهم باعتبار التسبيب فإن النبيّ ﷺ إنما خرج من مكة لأجل إيذاء أهلها، أخرج أبو يعلى وذكره البغوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لمَّا خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ خبر مبتدأ روعي في الضمير فإن المراد من القرية أهلها ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

حكاية حال ماضية أي فلم يكن لهم حينئذ ناصر ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوي المؤمن الذي الله مولاه والكافر الذي لا مولى له أصلاً فمن كان على ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على يقين مستندٍ إلى حجة من عند ربه أي إلى القرآن أو ما يعمه والحجج العقلية كالنبي ﷺ والمؤمنين ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾ أي زين لهم الشيطان ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ فعبدوا الأوثان بلا شبهة لهم فضلاً عن حجة.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾ المضير الراجع إلى الموصول محذوف أي وُعِد بها المتقون، مثل الجنة أي صفتها العجيبة مبتدأ محذوف الخبر تقديره يتلى عليكم فيما بعد وقيل خبره كَمَنْ هو خالدٌ في النار وتقدير الكلام أمثل أهل الجنَّة كمثل مَنْ هُوَ خالِدٌ في النار أو أمثل الجنة كمثل جزاء مَنْ هُوَ خَالِدٌ في النَّارِ فعري عن حرف الإنكار وحذف ما حذف استغناءً يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع للهوى بمكابرة من يسوي بين الجنة والنار وقيل خبره ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ صفة لأنهار ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الجملة إن لم يكن خبر المثل فهو إما استئناف لشرح المثل أو حال من العائد المحذوف أي مثل الجنة التي وعد بها المتقون كائنة فيها أنهار من ماء غير آسن، قرأ ابن كثير بالقصر والباقون بالمد وهما لغتان أي غير متغير طعمه ولا ريحه كما يتغير مياه الدنيا بطول المكث ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما يتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾ أي لذيذة تأنيث لذّ أو مصدر نعت به بإضمار أي ذات لذة أو تجوز للمبالغة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لا يكون فيها كراهة ريح ولا غائلة سكر وخمار بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل وغيرها.

عن معاوية بن حيدة قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم يشق الأنهار منها»[١] رواه الترمذي وصححه والبيهقي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة يفجر من جبل مسك» رواه ابن حبان والحاكم والبيهقي والطبراني وابن أبي حاتم، وعن مسروق قال أنهار الجنة تجري من غير أخدود، رواه ابن المبارك والبيهقي، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض لا والله إنها سابحة على وجه الأرض حافتاه خيام اللؤلؤ وطينها المسك الأزفر»، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة»[٢] رواه مسلم، وعن عمرو بن عوف قال قال رسول الله ﷺ «أربعة أنهار الجنة النيل والفرات وسيحان وجيحان وأربعة جبال من جبال الجنة أحد والطور ولبنان ودرقان»[٣] وعن كعب الأحبار قال نهر النيل هو نهر العسل ونهر دجلة نهر اللبن ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة ونهر سيحان نهر الماء في الجنة، رواه البيهقي وذكر البغوي قول كعب نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ونهر الفرات نهر لبنهم ونهر مصر نهر خمرهم ونهر سيحان نهر عسلهم وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ صنف عطف على فيها أنهار، عن ابن عباس قال ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر في تفسيرهما، وعن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ومسدد في مسنده وهناد في الزهد والبيهقي، وعن ثوبان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أعيد في مكانها مثلها»[٤] ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فهو راضٍ عنهم أبداً مع إحسانه إليهم بما ذكر بخلاف السيد للعبد في الدنيا فإنه قد يسخط عليه عطف على الصنف المحذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم مغفرة من ربهم ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ هذا على تقدير كون مثل الجنة مبتدأ محذوف الخبر أو كون خبره فيها أنهار خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد في تلك الجنة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة أنهار الجنة (٢٥٧١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمه وأهلها، باب: ما في الدنيا من أنهار الجنة (٢٨٣٩).

(٣) أخرجه ابن عدي وابن مردويه وابن عساكر، وأورده ابن الجوي في الموضوعات.
انظر: كنز العمال (٣٥١٢١).

(٤) رواه الطبراني والحاكم والبزار، وقال الهيثمي: رجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات.
انظر: فيض القدير (١٩٧٦).

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أو بدل من قوله كمن زيّنَ له وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من زُيّنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ممن هو على بينة من ربه في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ عطف على هو خالدٌ نظراً إلى لفظة من، وجمع سُقُوا نظراً إلى معناه ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ لشدة الحر فخرجت من أدبارهم.

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون عند النبيّ ﷺ فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ويستمع المنافقون ولا يعونه فإذا خرجوا سألوا المؤمنين ماذا قال آنفاً فنزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ عطف على والذين كفروا يتمتعون وما بينهما معترضات وهم المنافقون يستمعون قول النبيّ ﷺ فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً أو لما لا يعتقدونه حقاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟﴾ إفراد ضمير يستمع نظراً إلى لفظة من وجمع ضمير خرجوا وقالوا نظراً إلى المعنى ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا﴾ أي ما الذي ﴿قَالَ﴾ محمد ﴿ءَانِفًا﴾ الساعة من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار جارحة الأنف ومنه إستأنف وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتنفاً أو حال من الضمير في قال، قرأ ابن كثير في رواية بالقصر والباقون بالمد ومعناهما واحد قالوا ذلك استعلاماً أو استهزاءً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلذلك تهاونوا بكلام الرسول الله ﷺ ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ ولذلك استهزءوا به ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ بكلام الرسول الله ﷺ وهم المؤمنون ﴿زَادَهُمْ﴾ الله بكل كلام من الرسول الله ﷺ ﴿هُدًى﴾ علماً وبصيرة وشرح صدر ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي وفقهم للعمل بما أمروا به أو بين لهم مايتقون به من النار، قال سعيد بن جبير أتاهم ثواب تقواهم.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون يعني كفار مكة ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدل اشتمال من الساعة والإستفهام للإنكار والمعنى أن الساعة آتية بغتة لا محالة فهم لا ينتظرون إلا الساعة، والجملة الاستفهامية جزاء شرط محذوف تقديره إن لم يتوبوا ولم يتسارعوا في الطاعة فلا ينتظرون للتوبة والطاعة إلا وقت إتيان الساعة وحينئذ لا ينفعهم التوبة ولا يستطيعون الطاعة، عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما ينتظر أحدكم إلا غنىً مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال والدجال شر غائب منتظر أو الساعة والساعة أدهى وَأَمَرُّ»[1] ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تعليل على إتيان الساعة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في المبادرة بالعمل (٢٣٠٦).

أي اماراتها وعلاماتها منها شق القمر قال الله تعالى: ﴿أقتربت الساعة وأنشق القمر﴾[١] ومنها الدخان ومنها مبعث النبيّ ﷺ، روى مسلم وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: «رأيتُ النبيّ ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام «بعثتُ أنا والساعة كهاتين»[٢] وروى أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه عن أنس نحوه، وعن أنس قال لأحدثنكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنى ويكثر شرب الخمر ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد»[٣] وفي رواية «يقل العلم ويظهر الجهل» متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: «بينما النبيّ ﷺ يحدث إذ جاء إعرابي فقال متى الساعة؟ قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال كيف إضاعتها؟ قال إذا وُسّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٤] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا اتخذ الفيء دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وتعلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعق أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه وظهرت الأصوات في المساجد وساد القوم فاسقهم وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ولعن آخر هذه الأمة أولها فأرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلةً وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات تتابع كنظام قطع سلكه فتتابع»[٥] رواه الترمذي، وعن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بهم البلاء ـ وعد هذه الخصال ـ ولم يذكر ويعلم العلم لغير الدين وقال وبرَّ صديقه وجفا أباه وقال شرب الخمر ولبس الحرير» رواه الترمذي وهذه الجملة كالعلة لإتيانها بغتةً ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ الساعة ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ الفاء جزائية لشرط محذوف والمعنى أن تأتيهم الساعة بغتة فكيف يكون لهم ذكرهم أي وقت مجيئها كيف يتذكرون إذ حينئذ لا ينفعهم الذكر.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والنازعات (٤٩٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٠)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: اجتناب البدع والجدل (٤٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين» يعني السبابة والوسطى (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين، باب: إثم الزناة (٦٨٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: رفع الأمانة (٦٤٩٦).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف (٢٢١٠).

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الفاء للسببية أي إذا علمتَ سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت أنتَ يا محمد على ما أنتَ عليه من العلم بالوحدانية وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها النافع يوم القيامة ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ هضماً لنفسك وإظهار للتقصير في العبادة بالنسبة إلى جلال ربك وعظمته وليستن به أمتك وقد فعله ﷺ حيث قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[١] رواه مسلم وأحمد وأبو دواد والنسائي من حديث الأغر المزني، قلتُ: لعل غين القلب كناية عمّا يرى الصوفي في نفسه من ظلمات الامكان بعدها يسند كمالاته إلى جناب الرحمن، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه معرفة الله تعالى حرام على من لم ير نفسه شرّاً من الكافر الفرنجي قيل عليه كيف يتصور ذلك مع ما يرى نفسه مؤمناً حقّاً لا أقل منه ويرى الكافر كافراً لا محالة ومعرفة فضل الإيمان على الكفر من ضروريات الدين، أجاب عنه بأن كل ممكن موجود فهي لا يخلو عن ظلمة الإمكان ونور الوجود المستعار من الرحمن فالعارف بالله يرى في نفسه غالباً جانب العدم والإمكان وما يه من الوجود وأتباعه من الكمالات يجده مستعاراً من الملك المنان امتثالاً لأمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٢] ويرى في من سواه غالباً جانب الوجود المستفاد من الرحمن فلا جرم يرى نفسه شرّاً من كل من سواه وهذه المعرفة لا يزاحم معرفة فضل الإيمان على الكفر باختلاف الألحاظ والحيثيات وسعة العلم والإدراكات بخلاف الغافل يرى وجوده وكمالاته مستنداً إلى نفسه وينادي أنا خير منه ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي استغفر لذنوبهم بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعي لغفرانهم وفي إعادة الجار وحذف المضاف إشعار لفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم وأنها جنس آخر، قال البغوي هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمة حيث أمر نبيهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ قال ابن عباس متقلبكم مصرفكم ومنتشركم في أعمالكم في الدنيا ومثواكم مصيركم في الآخرة إلى الجنة أو النار، وقال مقاتل وابن جرير منصرفكم لاشتغالكم بالنهار ومثواكم مأواكم إلى مضاجعكم بالليل، وقال عكرمة متقلبكم من أصلاب الأباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم مقامكم في الأرض، وقال ابن كيسان متقلبكم من ظهر إلى بطن ومثواكم مقامكم في القبور والمعنى أنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والاستغفار، باب: استحباب الاستغفار والإكثار منه (٢٧٠٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار (١٥١٤).

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٨.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حرصاً منهم على الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ تأمر بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي أمر بالجهاد قيل معنى محكمة مبينة لا يحتمل وجهاً إلا وجوب القتال، وقال قتادة كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة لأن وجوب القتال نَسَخَ ما كان قبل ذلك من الصلح والمهادنة ولا يرد عليه النسخ وهو ماض إلى يوم القيامة وكل سورة ذكر فيها القتال كانت هي أشد القرآن على المنافقين ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي ضعف وجبن ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ جبناً ومخافة ﴿نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم﴾ أي خير لهم ﴿طَاعَةٌ﴾ أي الله ورسوله في الجهاد ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي قول سمعنا وأطعنا ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي جد الأمر أي جد أصحاب الأمر على القتال فالإسناد إليه مجاز أو المعنى لزم وفرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وجملة لو صدقوا جزاء شرط، وقيل جزاء الشرط محذوف وهذه مستأنفة تقديره فإذا عزم الأمر لم يصدقوا الله ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب أي فهل يتوقع منكم أيها أصحاب الجبن ﴿إن توليتم﴾ أي أعرضتم عن متابعة الرسول شرط مستغن عن الجزاء لوقوعه في جملة تدل على الجزاء ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾ بالكفر والمعاصي لأجل مخالفة الرسول ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي تخالفوا أقرباءكم المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، وأن مع جملته فاعل لعسيتم والإستفهام للإنكار، يعني لا تكونوا بحيث يتوقع منكم الفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وقطع الأرحام.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني المفسدين في الأرض والقاطعين الأرحام مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن ملاحظته هذه الجملة في مقام التعليل للإنكار في قوله ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وقيل المراد بالذين في قلوبهم مرض المنافقون والمرض الشك والنفاق وقوله ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي فويل شديد لهم أفعل من الويل أو من الولي بمعنى القرب أو فعلى من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم

المكروه أو يؤل إليه أمرهم، وطاعة وقول معروف مبتدأ محذوف الخبر أي وطاعة وقول معروف خير لهم أو حكاية عن قولهم أي يقولون طاعة أي أمرنا طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله فيما قالوا إن أمرنا طاعة لكان خيراً لهم لكنهم كذبوا فهل عسيتم إن توليتم أمر الناس يعني تأمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض بالظلم، نزلت في بني أمية وبني هاشم يدل عليه قراءة علي بن أبي طالب إن توليتم بضم التاء والواو على البناء للمفعول أي إن وليتم ولاة جائرةً خرجتم معهم في الفتنة وعاديتموهم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، قال ابن الجوزي إنه روى القاضي أبو يعلى في كتابه المعتمد الأصول بسنده عن صالح بن أحمد بن حنبل أنه قال قلتُ لأبي يا أبت يزعم بعض الناس أنا نحب يزيد بن معاوية فقال أحمد يا بني هل يسوغ ممن يؤمن بالله أن يحب يزيد ولم لا يلعن رجل لعنه الله في كتابه، قلتُ يا أبت أين لعن الله يزيد في كتابه قال حيث قال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فاصمهم وأعمى أبصارهم﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي لا يتصفحونه ما فيه من المواعظ والزواجر فيتضح لهم الحق، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أيغفلون فلا يتدبرون القرآن ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ إقفال القلوب استعارة بالكناية شبه القلوب بالخزائن وأثبت لها ما يناسب الخزائن من الأقفال على وجه التخييل وأضاف الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مناسبة لها مختصة بها لا تجانس الأقفال المعهودة وهذا الكلام كناية عن عدم الاستعداد ونفي قابلية القلوب للاتعاظ بالكلية فلا يفهمون مواعظ القرآن وأن تدبروا فرضاً، وتنكير قلوب لأن المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة أو لفرط جهالتها كأنها مبهم مكنوزة، روى البغوي عن هشام بن عروة عن أبيه قال تلا رسول الله ﷺ «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» فقال شاب من أهل اليمن بل على قُلُوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها فما زال الشابُّ في نفس عمر حتى ولي فاستعان به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ

حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي على ما كانوا عليه من الكفر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ قال عروة هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ بعد ما عرفوه ووجدوا نعته في التوراة وقال ابن عباس والضحاك والسديُّ هم المنافقون ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي سهَّل لهم اقتراف الكبائر من السوال وهو الاسترخاء، وقيل حملهم على الشهوات من السول وهو التمني ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ قرأ أهل البصرة بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء على ما لم يسم فاعله من الماضي، وقرأ مجاهد بإسكان الياء على صيغة المضارع المتكلم من الافعال وروى هذه القراءة عن يعقوب والمعنى وأنا أملي لهم أي امهلهم والواو للحال أو الاستئناف والباقون بفتح الألف أي أملى الشيطان يعني مدلهم في الآمال والأماني وجملة إنَّ الذين ارتدوا مستأنفة في جواب ما سبب ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تسويل الشيطان وإمهال الله سبحانه ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي قال اليهود الذين كفروا بالنبي ﷺ بعدما تبين لهم نعته من التوراة للمنافقين أو قال المنافقون لهم أو أحد الفريقين للمشركين ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي في بعض أموركم أو في بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد أو الموافقة لهم في الخروج معهم أن أخرجوا أو على التعاون على عداوة محمد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ حال من فاعل قالوا، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بكسر الهمزة على المصدر والباقون بفتحها على أنه جمع السر ومن إسرارهم قولهم لهذا الذي أفشاه ﴿فَكَيْفَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للتعجيب ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ﴾ الظرف متعلق بفعل محذوف تقديره فكيف يحتالون إذا توفتهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ حال من الملائكة ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ بمقامع من حديد ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفي على هذا التوجه ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي بسبب أنهم ﴿أتبعوا ما اسخط الله﴾ قال ابن عباس بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد ﷺ ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي ما يرضاه من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لذلك.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي نفاق، أم منقطعة بمعنى بل والهمزة والكلام متصل بقوله الشيطان سول لهم أو بقوله أم على قلوب أقفالها ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾

أي لن يظهر الله لرسوله والمؤمنين أحقادهم عليهم، أم منقطعة للإضراب عما سبق والإستفهام للإنكار على حسبانهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي لأعلمناكهم وأعرفناكهم جملة معترضة أو حال بتقدير ونحن لو نشاء لأريناكهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ بإعلامنا ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بعلاماتهم التي نسمهم بها واللام لأمر الجواب كررت في المعطوف، قال البغوي قال أنس فما خفي على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جواب قسم محذوف ولحن القول إزالة الكلام عن جهته إلى تعريض وتورية والمعنى أنك تعرفهم فيما يعرضون من تهجين أمرك وأمر المسلمين والاستهزاء بهم والذم بصورة المدح، قال البغوي فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبيّ ﷺ إلا عرفه بقوله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ الحسنة من القبيحة فإن حسن الأعمال وقبحها فيما سوى ما فيه قبح ذاتي كالكفر والزنى يتعلق بالنيات ولا يعلمها إلا الله فيجازيكم على حسب قصدكم ونيتكم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بأن نأمركم بالجهاد وجواب قسم محذوف ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ علماً بعد الوجود كما كنا نعلم قبل الوجود بأنه سيكون أو المعنى حتى نُميّز أو المعنى حتى يعلم أولياؤنا ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاق الجهاد ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها أو قبحها أو أخباركم عن إيمانكم وموالاتكم المؤمنين في صدقها وكذبها، قرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الله تعالى فيوافق قوله تعالى الله يعلم والباقون بالنون على التكلم ونبلوا بسكون الواو على تقدير ونحن نبلوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي منعوا الناس عن الإيمان وإتباع الرسول ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي خالفوه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ هم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر كانوا أثنا عشر رجلاً من كفار مكة يطعمون عسكر الكفار في يوم نوبته ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم ﴿شَيْـًٔا﴾ من المضرة إنما يضرون أنفسهم ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فلا يجدون عليها ثواباً في الآخرة ولا يترتب عليه منفعة في الدنيا، قال ابن عباس هم المطعمون يوم بدر نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ قال ابن عباس وعطاء: لا تبطلوها بالشك والنفاق أو العجب، وقال الكلبي بالرياء والسمعة، وقال الحسن بالمعاصي والكبائر، وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضرُّ مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا أن يبطل العمل بالذنب وكذا ذكر البغوي عنه، وقال مقاتل لا تمنوا على رسول الله بإسلامكم فتبطل أعمالكم.

مسألة:

من شرع في صلاة أو صوم أو حج أو عمرة أو غير ذلك تطوعاً يجب عليه الإتمام ولا يجوز له الإفساد في ظاهر الرواية عن أبي حنيفة إلا بعذر كذا ذكر صاحب الهداية والقدوري وغيرهما، وهل الضيافة عذر لإفطار الصوم تطوعاً قيل نعم وقيل لا وقيل عذر قبل الزوال لا بعده إلا إذا كان في عدم الفطر عقوق الوالدين، فإن أفسد الصلاة أو الصوم بعد الشروع تطوعاً يجب عليه القضاء عند أبي حنيفة وعند مالك وفي رواية المنتقى عن أبي حنيفة يباح للمتطوع بالصوم الإفطار بغير عذر ويجب عليه القضاء، وقال الشافعي وأحمد يجب في العمرة والحج الإتمام والقضاء إن أفسد بخلاف الصلاة والصوم وغيرهما من النوافل فإنه يستحب عندهما الإتمام وله قطعهما ولا قضاء عليه. لنا هذه الآية فإنها وإن كانت واردة في النهي عن إبطال العمل بالشك والنفاق أو بالمعاصي أو بالرياء والسُّمعة والعُجب لكنها بصيغتها يعم الإبطال، قبل إتمامها بالإفساد لأن القدر المؤدى قربةٌ وعملٌ وكذا بعده بفعل ما يحبطه من الكبائر أو الرياء والسمعة أو العجب، ولنا أيضاً الأحاديث منها حديث عروة عن عائشة قالت أهديت لحفصة شاة ونحن صائمتان فأفطرتني فلمَّا دخل علينا رسول الله ﷺ ذكرنا ذلك له فقال: «أبدلا مكانه» رواه أحمد من طريق سفيان بن حسين عن عروة عن عائشة والترمذي من طريق جعفر بن برقان عن عروة عنها

بلفظ قالت كنتُ وحفصة صائمتين فعرض لنا طعام اشتهيناه فأكلنا منه فجاء رسول الله ﷺ فبدرتني إليه حفصة فقالت يا رسول الله إنا كنا صائمتين فعرض طعام اشتهيناه فأكلنا منه قال «اقضيا يوماً آخر مكانه»[1] وكذا أخرج أبو دواد النسائي عن زميل عن عروة عنها وأعله البخاري بأنه لا يعرف لزميل سماع من عروة ولا ليزيد سماع من زميل، وقال الترمذي روى هذا الحديث صالح بن أبي الأخضر ومحمد بن علي بن أبي حفصة عن الزهري عن عروة عن عائشة، وروى مالك بن أنس ومعمر وعبيد الله بن عمرو وزياد بن سعد وغير واحد من الحفاظ عن الزهري عن عائشة مرسلاً ولم يذكروا فيه عروة وهذا أصح لأنه روي عن ابن جريج قال سألتُ الزهري أحدَّثك عروة عن عائشة قال لم أسمع من عروة في هذا شيئاً ولكن سمعنا في خلافة سليمان بن عبد الملك من ناس عن بعض من سأل عائشة عن هذا الحديث انتهى.

قال ابن همام قول البخاري مبني على اشتراط العلم بذلك والمختار الاكتفاء بالعلم بالمعاصرة ولو سلم إعلاله وإعلال الترمذي فهو قاصر على هذا الطريق فإنما يلزم لو لم يكن طريق آخر لكن رواه ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة قالت أصبحتُ أنا وحفصة صائمتين متطوعتين الحديث، ورواه ابن أبي شيبة من طريق آخر غيرهما عن خصيف عن سعيد بن جبير أن عائشة وحفصة الحديث ورواه الطبراني في معجمه من حديث خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أن عائشة وحفصة كانتا صائمتين الحديث، ورواه البزار من طريق آخر عن الحماد بن وليد عن عبيد الله بن عمر وعن نافع عن ابن عمر قال أصبحت عائشة وحفصة صائمتين الحديث، لكن الحماد بن الوليد ضعيف وأخرج الطبراني من غير الكل في الأوسط حدثنا موسى بن هارون حدثنا محمد بن مهرن الجمال قال ذكره محمد بن أبي سلمة المكي عن محمد بن عمروية عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال أهديت لعائشة وحفصة هدية وهما صائمتان فأكلتا منها فذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اقضيا يوماً مكانه ولا تعودا» قال ابن همام فثبت هذا الحدث ثبوتاً لا مرد له ولو كان كل طريق من هذه الطرق ضعيفاً لتعددها وكثرة مجيئها كيف وبعض طرقه مما يحتج به، قلتُ: والمرسل عندنا حجة وما قال ابن الجوزي إن الأمر بالإبدال يوماً مكانه محمول على الاستحباب خروج عن مقتضاه بغير موجب بل

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في إيجاب القضاء عليه (٧٢٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصوم، باب: من رأى عليه القضاء (٢٤٥٥).

هو محفوف مما يجب مقتضاه ويؤكده وهو قوله تعالى: ﴿لا تبطلوا أعمالكم﴾ فإن الآية تدل على منع الإفطار بعد الشروع ولا دلالة فيها على وجوب القضاء والحديث يدل على جواز الإفطار مع وجوب القضاء، قلنا دلالة الآية على منع الإفطار دلالة على وجوب القضاء فإن منع الإبطال عبارة عن وجوب الإتمام ووجوب الشيء يقتضي وجوب قضائه بالمثل المعقول عند الفوات إن كان له مثل وليس في الحديث دلالة على جواز الإفطار بل على وجوب القضاء فقط ووجوب القضاء يترتب على وجوب الإتمام وحرمة الإفطار وقوله ﷺ «لا تعودا» صريح في حرمة الإفطار وهذا هو ظاهر الرواية عن أبي حنيفة رحمه الله.

وفي الباب أحاديث أخر منها ما رواه الدارقطني عن طلحة بن يحيى عن عمته عائشة عن عائشة أم المؤمنين قالت دخل علينا رسول الله ﷺ فقال إني أريد الصوم وأهدي له حيس فقال: «إني آكل وأصوم يوماً مكانه»، قال الدارقطني لم يرد هذا اللفظ عن ابن عيينة غير محمد بن عمرو أبو العباس الباهلي ولم يتابع على قوله وأصوم يوماً مكانه ولعله شبه عليه، قال الحافظ لكن رواه النسائي عن محمد بن منصور عن ابن عيينة وكذا رواه الشافعي عن ابن عيينة وذكر أن ابن عيينة زادها قبل موته بسنة انتهى، قال الحافظ ابن حجر ابن عيينة كان في الآخر قد تغيّر ومنها. ما رواه الدارقطني بسنده عن محمد بن أبي حميد عن إبراهيم بن عبيد قال صنع أبو سعيد الخدري طعاماً فدعا النبيّ ﷺ وأصحابه فقال رجل من القوم إني صائم فقال رسول الله ﷺ «صنع لك أخوك أفطر وصم يوماً مكانه» قال الدارقطني هذا مرسل وقال ابن الجوزي محمد بن أبي حميد ليس بشيء وقال النسائي ليس بثقة وقال ابن حبان لا يحتج به. ومنها ما رواه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال صنع رجل من أصحاب رسول الله ﷺ طعاماً فدعا النبيّ ﷺ وأصحابه فلمّا أتى الطعام تنحى أحدهم فقال له النبيّ ﷺ «تكلف لك أخوك وصنع ثم تقول إني صائم كل وصم يوماً مكانه» فيه عمر بن حليف قال ابن عدي كان متهماً بوضع الحديث وكذا قال ابن حبان، ومنها ما رواه الدارقطني من حديث ثوبان قال كان رسول الله ﷺ صائماً في غير رمضان فأصابه غم أذاه فتقيأ فقاء فدعا بوضوء فتوضأ ثم أفطر فقلتُ يا رسول الله أفريضة الوضوء من القيء؟ قال لو كان فريضة لوجدته في القرآن، قال ثم صام الغد فسمعتُه يقول: «هذا مكان إفطاري أمس» فيه عتبة بن السكن قال الدارقطني متروك الحديث، ومنها ما رواه الدارقطني بسنده عن محمد بن أبي حميد عن الضحاك بن حمزة عن منصور عن أم سلمة أنها صامت يوماً تطوعاً فأفطرت فأمرها رسول الله ﷺ أن تقضي

يوماً مكانه، قال يحيى الضحاك ليس بشيء وقال أبو زرعة محمد بن حميد كذاب.

احتج الشافعي وأحمد بأحاديث الأول: حديث جويرية أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال لها أصمتِ أمس؟ قالت لا، قال «أتصومين غداً؟ قالت لا، قال: فأفطري»[1] رواه البخاري، وروى أحمد عن أبي عمر أن رسول الله ﷺ دخل على جويرية فذكر الحديث نحوه. الثاني حديث عائشة أن النبيّ ﷺ كان يأتيها فيقول أصبح عندكم شيء تطعمونيه؟ فنقول لا ما أصبح عندنا شيء فيقول إني صائم ثم جاءها بعد ذلك فقالت أهديت لنا هدية فخبأنا لك فقال ما هي؟ قالت حيس، قال: «قد أصبحتُ صائماً» فأكل[2] رواه مسلم، ورواه الدارقطني والبيهقي بلفظ أنه دخل عليها فقال هل عندكم شيء؟ قلتُ لا، قال فإني إذاً صائم، قالت ودخل عليّ يوماً آخر فقال أعندكم شيء» قلتُ نعم، قال: «إذن أفطر وإن كنتُ قد فرضتُ الصوم» الثالث حديث أم سليم أن النبيّ ﷺ كان يصبح صائماً؟ فيقول: بلى ولكن لا بأس أن أفطر ما لم يكن نذراً أو قضاء رمضان» رواه الدارقطني وفي سنده محمد بن عبيد الله العَرزمي ضعيف، الرابع حديث أبي جحيفة قال أخى النبيّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مبتذلة فقال لها ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا فجاء أبو الدرداء وصنع له طعاماً فقال كل فقال إني صائم، فقال أما إني لا آكل حتى تأكل فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال نم فنام ثم ذهب يقوم قال نم فلما كان آخر الليل قال سلمان قم الآن، فصليا فقال له سلمان إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقّاً فأعط كل ذي حق حقه فأتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك فقال النبيّ ﷺ «صدق سلمان» قلتُ هذه الأحاديث لا تدل إلا على جواز الإفطار للصائم وأما على عدم وجوب القضاء فلا وحديث جويرية إنما يدل على كراهة الإفراد بصوم الجمعة كما ورد في حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «لا تصوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم»[3] متفق عليه، وفي لفظ نهى رسول الله ﷺ أن يفرد يوم الجمعة بصوم رواه مسلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: صوم يوم الجمعة (١٩٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال وجواز فطر الصائم نفلاً من غير عذر (١١٥٤).

(٣) في الصحيحين «لا يصومن أحدكم يوم الجعة إلا يوماً قبله أو بعده» أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: صوم يوم الجمعة (١٩٨٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: كراهة صيام يوم الجمعة منفرداً (١١٤٤).

وللشافعي أحاديث أخر ضعاف: منها حديث أم هانىء وله طرق وألفاظ منها ماروواه النسائي من حديث حماد بن سلمة عن سماك بن حرب عن هارون بن أم هانىء عنها أن رسول الله ﷺ شرب شراباً فناولها لتشرب فقالت: إني صائمة لكن كرهتُ أن أرد سؤرك، فقال إن كان قضاء من رمضان فاقضي يوماً مكانه وإن كان تطوعاً فإن شئتِ تقضي وإن شئت فلا تقضي، وروى أحمد والترمذي وغيرهما من طرق عن سماك عن هارون عنها بلفظ كنتُ قاعدة عند رسول الله ﷺ فأتى بشراب فشرب منه ثم ناولني فشربتُ منه فقلت أذنبتُ قال ماذاك؟ قلتُ كنتُ صائمة فأفطرت، قال أمن قضاء كنتِ تقضيه؟ قلتُ لا، قال فلا تضرك، وسماك بن حرب ليس بمعتمد عليه إذا انفرد كذا قال النسائي وقال البيهقي في إسناده مقال وقال ابن القطان هارون مجهول لا يعرف، قلتُ: وهارون قيل ابن أم هانىء وقيل ابن ابنه وقيل ابن بنته ولفظ أحمد والترمذي لا يدل على عدم وجوب القضاء، وروى أبو داود والدارمي وغيرهما من حديث جرير عن يزيد بن زياد عن عبد الله بن الحارث عن أم هانىء قالت لما كان يوم الفتح فتح مكة جاءت فاطمة فجلست عن يسار رسول الله ﷺ وأم هانىء عن يمينه، قالت فجاءت وليدة بإناء فيه شراب فناولته فشربتُ منه فقالتُ يا رسول الله ﷺ أفطرتُ وكنتُ صائمة، فقال لها أكنتِ تقضين شيئاً؟ قالت لا، قال: «لا يضركِ إن كان تطوعاً» ورواه أحمد ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن حجة عن أم هانىء وهي جدته أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوم الفتح فأتى بإناء فشرب ثم ناولني فقلتُ: إني صائمة فقال: «إن المتطوع أمير نفسه فإن شئتِ فصومي وإن شئتِ فأفطري» ورواه من حديث أبي داود الطيالسي ثنا شعبة عن جعدة عن أبي صالح عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها فشرب ثم ناولها فشربت وقالت يا رسول الله إني كنتُ صائمة فقال رسول الله ﷺ «الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر» قال الذهبي جعدة عن أبي صالح لا يعرف وقال البخاري فيه نظر وذكر يوم الفتح علة أخرى للقدح في الحديث إذ لا شك أن يوم الفتح كان في رمضان فكيف يتصور قضاء رمضان في رمضان ولا التطوع فيه.

واختار ابن همام رواية المنتقى عن أبي حنيفة فقال يجوز للمتطوع في الصوم الإفطار بلا عذر لما احتج به الشافعي ويجب عليه القضاء بالإفساد لما احتج به أبو حنيفة جمعاً بين الأحاديث، وقال المراد بالإبطال في قوله تعالى ﴿لا تبطلوا أعمالكم﴾ إخراجها من أن يترتب عليه فائدة وجعلها كأنها لم توجد أصلاً وأما الإبطال بقصد القضاء فلا دلالة للآية على منعه، قلتُ المصدر في قوله تعالى لا تبطلوا منكر تحت النفي فيشتمل

كل إبطال ومن أفسد صلاته أو صومه بعد الشروع فلا شك أنه أبطل هذا العمل وأما القضاء فعمل آخر تدارك لهذا العمل فلا يجوز الإبطال بلا عذر بهذه الآية والأحاديث وإن دلت على جواز الإفطار لكن عند التعارض يجب تقديم الآية على أحاديث الآحاد لاسيما الآية محرمة والأحاديث مبيحة للفطر فيجب تقديم المحرم على المبيح احتياطاً، ولنا أيضاً القياس على الحج والعمرة النافلتين فإنه لا يجوز إفسادهما ويجب فيهما القضاء بالإفساد إجماعاً والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ هذه الجملة متصلة بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية فيما سبق قبل هذه الآية نزلت في أصحاب القليب وحكمه عام في كل من مات على كفره.

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة بكسر السين والباقون بفتحها وتدعوا مجزوم بتقدير لا أي لا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء أو منصوب بتقدير أن في جواب لا تهنوا نهى الله سبحانه عن طلب الصلح ابتداءً لأنه دليل الجبن والضعف ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي الغالبون القاهرون بنصر الله تعالى الموعود للمؤمنين الصالحين حال من فاعل تدعوا ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معية بلا كيف فإن الإيمان يقتضي حب الله والمرء مع من أحب والواو للعطف فهو حال من فاعل تدعوا أو للحال من فاعل أعلون وكذا قوله ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم من وتره يتره إذا نقص حقه، قال ابن عباس ومقاتل وقتادة والضحاك لن يظلمكم أعمالكم الصالحة أي لا يبطلها.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي باطل لا يترتب عليها فائدة معتدة بها ما لم يكن فيها ذكر الله قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله» ﴿وَلَهْوٌ﴾ يشغلكم عمَّا يفيدكم في الحياة الدائمة ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ بالله ورسوله في الدنيا ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ عذاب الله بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقواكم في الآخرة فحينئذ تكون حياتكم الدنيا مزرعة الآخرة ولا يكون لعباً ولهواً ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ فإنه غير محتاج إلى شيء إنما يأمركم بالطاعة والإيمان ليثيبكم عليها الجنة نظيره قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾[1] وقيل معناه لا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلها في الصدقات

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٧.

إنما يسألكم جزءاً يسيراً وهو ربع العشر أو أقل كشاة من مائة وعشرين شاة من نماء مال فطيبوا بها نفساً، وإلى هذا القول ذهب ابن عيينة ويدل عليه سياق الآية فهذه الجملة لدفع توهم نشأ ممَّا ذكر من ذم الحياة الدنيا ومدح الإيمان والتقوى فإنه يوهم أن الله تعالى يأمر بصرف جميع متاع الدنيا في سبيل اللهولدفع ذلك الوهم قال ولا يسألكم أموالكم أي جميعها، ثم ذكر في مقام تعليل عدم السؤال بالكل قوله ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي جميعاً ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي يجهدكم بطلب الكل والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في الحديث «أحفوا الشوارب»[١] أي استأصلوها في القطع عطف على الشرط ﴿تَبْخَلُواْ﴾ بها فلا تعطوها جزاء للشرط ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي يظهر بغضكم والضمير في يخرج لله تعالى ويؤيده القراءة بالنون أو للبخل فأنه سبب الأضغان، قال قتادة علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان.

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ ها حرف تنبيه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره وهؤلاء منادى بحذف حرف النداء وخبر المبتدأ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أو هؤلاء اسم موصول وتدعون صلته والموصول مع الصلة خير لأنتم ﴿لِتُنفِقُواْ﴾ ما فرض الله عليكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي ناس يبخلون بما فرض الله عليهم من الزكاة وغيرها ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فإن نفع الإنفاق وضرر البخل إنما يعودان إليه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله ما منّا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»[٢] رواه البخاري والنسائي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللّهم أعط ممسكاً تلفاً»[٣] متفق عليه، وعن أسماء قالت قال رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك ولا توعي فيوعي الله عليك فارضحي ما استطعت»[٤] متفق عليه، وعن أبي هريرة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة (٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما قدم من ماله فهو له (٦٤٤٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الوصايا، باب: الكراهية في تأخير الوصية (٣٦٠٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ (١٤٤٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: في المنفق والممسك (١٠١٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة فيما استطاع (١٤٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث في الإنفاق وكراهة الإحصاء (١٠٢٩).

قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى أنفق يا ابن آدم أنفقْ عليك»[١] متفقه عليه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن صدقاتكم وطاعاتكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ فإنما أمركم بما أمركم لاحتياجكم في الدنيا والآخرة، جملة والله الغني وأنتم الفقراء في مقام التعليل للحصر في قوله إِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نفسه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي إن تعرضوا أيها العرب عن طاعة الله وطاعة رسوله والإنفاق في سبيله عطف على إن تؤمنوا ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ أي يقيم مقامكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ليؤمنوا ويتقوا ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ بل يكونوا أطوع لله منكم، قال الكلبي هي كندة والنخع، وقال الحسن هي العجم، وقال عكرمة فارس والروم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب على فخذ سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من فارس»[٢] رواه البغوي ورواه الترمذي والحاكم وصححاه وابن حبان. والحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وأله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النفقات، باب: فضل النفقة على الأهل (٥٣٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة محمد ﷺ (٣٢٦١).

سورة الفتح

مدنيّة وهي تسع وعشرون آية وأربع ركوعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾.

روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ، فقلت ثكلتك أمك يا عمر نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن يكون نزل في القرآن فيما لبثت أن سمعت صراخاً يصرخ بي فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[1] وأخرج الحاكم وغيره من المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، قال نزلت سورة الفتح في شأن الحديبية بين مكة والمدينة من أولها إلى آخرها. واختلفوا في

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية (٣٩٤٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الفتح (٣٣٨٢).

هذا الفتح؟

روي عن أبي جعفر الرازي عن قتادة عن أنس أنه فتح مكة فهي عدة بالفتح جيء بلفظ الماضي لأنها في تحققها بمنزل الكائنة ففيه معجزة والصحيح أنه صلح الحديبية، رواه أحمد وابن سعد وأبي داود والحاكم وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فلما انصرفنا عنها إلى كراع المغميم فإذا رسول الله ﷺ عند كراع الغميم فاجتمع الناس إليه فقرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أو فتح هو؟

قال: «والذي نفسه بيده إنه لفتح مبين»[1] وسنذكر قول أبي بكر الصديق ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية وكذا ذكر البغوي عن البراء. ووجه تسميته فتحاً إما أنه مقدمة الفتح وإما أن معنى الفتح فتح المنغلق وذلك ما يصلح مع المشاركين بالحديبية وقيل الفتح بمعنى القضاء أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابل، قال الشعبي فتح الحديبية فيه غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأطعموا نخلة خيبر وبلغ الهدي محله وظهرت الروم أي من عام قابل على فارس وخرج المؤمنون لظهور أهل الكتاب على المجوس، قال الزهري لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام، قال الضحاك فتحاً مبيناً بغير قتال وكان الصلح من الفتح، وقال البيضاوي سماه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلح وتسبب بفتح مكة وفرغ به رسول الله ﷺ لسائر العرب فقرأهم وفتح مواضع وأدخل في الإسلام خلقاً عظيماً ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ علة غائية للفتح من حيث أنه مسبب عن جهاد الكفار والسعي في دحرو إزاحة الشرك وإعلاء الدين وتكميل النفوس الناقصة قهراً ليصير ذلك بالتدريج إختيار أو تخليص الضعفة عن أيدي الظلمة، وقيل اللام لام كي أي لكم يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة والفتح، وقال حسين بن الفضل اللام متعلق بقوله تعالى في سورة محمد ﷺ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[2] كما قيل كذلك في تعلق ﴿لا يلاف قريش﴾ بقوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ في سورة الفيل وهذا بعيد جداً، وقيل اللام متعلق بمحذوف تقديره فاشكر ليغفر لك الله أو فاستغفر ليغفر لك الله كذا قال محمد ابن جرير

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: فيمن أسهم له سهماً (٢٧٣٤).

(٢) سورة محمد، الآية: ١٩.

حيث قال هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ أي قوله ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾(١) ليغفر لك الله ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك قديماً في الجاهلية قبل الرسالة وحديثاً، بعد الرسالة أي نزول السورة مما يصح أن يعاتب عليه وهذا لا يستلزم إرتكاب المعصية قال حسنات الأبرار سيأت المقربين، وقال سفيان الثوري ما تقدم يعني ما علمت في الجاهلية وما تأخر كل شيء لم يعمله يذكر مثل ذلك على طريق التأكيد كما يقال أعط لمن رآه ومن لم يره وضرب من لقيه ومن لم يلق، وقال عطاء الخراساني ما تقدم من ذنبك يعني ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك وما تأخر ذنوب أمتك بدعوتك ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ وعد بإتمام النعمة وإكمال الدين وإظهار كلمة الإسلام وهدم منارها يتم بحيث محجو أو يقهروا مطمئنين لا يخالطهم أحد من المشركين الذي ذكر إنجازها في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾(٢) وتمام النعمة هذه مسبب للفتح فتح مكة وصلح الحديبية. ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الملك والنبوة والرياسة، قيل معنى يهديك يهدي بك وقيل معنى يهديك يثبتك عليه أو المعز ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى كمال الدين بحيث لا يجوز نسخه بعد ذلك.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ فإن قيل ينصرك الله معطوف على يغفر وهو مترتب على الفتح، إما لكونه مسبباً عن جهاد الكفار وبذل السعي، وإما لكونه سبباً للشكر والإستغفار؟ المقدرين فلا بد أن يكون النصر أيضاً مترتباً على الفتح وليس كذلك بل هو سبب للفتح سابق عليه قلنا: إن كان المراد بالفتح صلح الحديبية فالصلح إمتثالاً لأمر الله تعالى سبب للنصر الذي هو سبب للفتح وإن كان المراد منه فتح مكة فالآية وعد بالفتح والوعد سبب للنصر السابق على الفتح كما لا يخفى.

﴿نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ يعني معزاً يعزيه المنصور فوصفه مبالغة أو المعنى نصراً فيه عزو منيعة. روى الشيخان في الصحيحين والترمذي والحاكم عن أنس قال: قال نزلت على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ إلى آخر الآية مرجعه من الحديبية وأصحابه فخالطوا الحزن والكآبة، فقال عليه السلام، نزلت عليَّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا فلما تلى نبيّ الله ﷺ قال رجل من القوم هنيئاً مرياً رسول الله قد بين الله لك ماذا يفعل بنا

(١) سورة النصر، الآية: ٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

فنزلت ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ إلى قوله (فوزاً عظيماً)[١] والمراد بالسكينة الثبات والطمأنية على امتثال أمر الله تعالى من صلح الحديبية ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى يثبتوا حيث تعلق النفوس وتدحض الأقدام حين جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ متعلق بأنزل، قال الضحاكم يقيناً مع يقينهم يعني برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها، وقال الكلبي هذا في أمر الحديبية حين صدق الله رسوله الرويا بالحق، قال ابن عباس بعث الله رسوله بشهادة أن لا إله إلا الله فلما صدقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ثم الجهاد ثم أكمل لهم دينهم فكلما أمروا بشيء فصدقوه إزدادوا تصديقاً إلى تصديقهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني لبس الأمر بالصلح بالحديبية لضعف بالمسلمين بل لما يقتضيه علمه تعالى وحكمته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ مع ما عطف عليه من قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟﴾ أو بدل اشتمال من قوله ليزدادوا أو معطوف عيه بحذف العاطف متعلق بقوله تعالى: أنزل أو بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا﴾ وجملة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ معترضة بينهما، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لأنه منتهى ما يطلب من جلب نفع أو دفع ضرر وعند الله حال من الفوز والجملة معترضة ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ﴾ عطف على يدخل داخل في علة إنزال السكينة من حيث أن المنافقين والكفار غاظوا المؤمنين وطعنوا في دينهم حين امتثلوا أمر الله سبحانه في الصلح وغير ذلك وظنوا ظن السوء وكان ذلك سبباً لتعذيبهم وأن كان قوله ليدخل متعلقاً بفتحنا فالأمر ظاهر. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني ظانين أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين ولا يرجع النبي عليه السلام إلى المدينة سالماً أو أن له تعالى شريكاً فالمفعولان محذوفان، وقوله ظن السوء أي ظن الأمر السوء منصوب على المصدرية والسوء عبارة عن رداۃ الشيء وفساده يقال فعل سوء أي مسخوط فاسد ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ جملة دعائية يعني يجعل الله عليهم دائرة الهلاك والعذاب لا يتخطاهم أو دائرة ما يظنون ويتربصون بالمؤمنين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السوء بالضم وهما لغتان غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدران، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطف لما استحقوه في الآخرة عليها إستوجبوه في الدنيا ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم

(١) سورة الفتح، الآية: ٥.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادى بنبيه والمؤمنين بما شاء منه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً فلا يرد بأسه عن الكافرين ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبَّر ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿شَٰهِدًا﴾ على أمتك حال مقدرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمطيعين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعصاة بالنار ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة وكذا الأفعال الثلاثة المعطوفة عليه والضمير عائدة إلى الناس أجمعين وقرأ الباقون الأفعال الأربعة بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ والأمة والخطاب بالجمع بعد الخطاب بالإفراد شبه بالإلتفات ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعدوه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي تنزهوه عما لا يليق بشأنه أو اتصلوا له، والضمائر المنصوبة راجعة إلى الله سبحانه ومعنى تقووه دينه ورسوله قلتُ جاز أن يكون معناه أن تنسبوا القوة إليه دون غيره وتقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله، وقال البغوي ضمير تعزروه وتوقروه راجعان إلى رسوله وضمير تسبحوا إلى الله تعالى واستبعده الزمخشري لكونه مستلزماً لانتشار الضمائر، قلنا لا بأس به عند قيام القرينة وعدم اللبس ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ منصوبان على الظرفية لتسبحوه يعني تصلوا غدواً وعشياً أو تنزهوه دائماً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا بل يقاتلوا حتى يظفروا أو يموتوا ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنه هو المقصود ببيعة النبيّ ﷺ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حال أو استئناف على سبيل الاستعارة التخييلية يتمم المعنى المشاكلة فإنه إذا كان الله مبايعاً واشتهر المبايعة بصفقة اليدُ قد كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه فتخيل اليد لتأكيد المشاكلة في المبايعة، وقال ابن عباس يد الله بالوفاء لما وعدهم بالخير فوق أيديهم،

قلت يد الله نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة فضله غزوة الحديبية وبيعة الرضوان وسبب ذلك على ما رواه عبد بن حميدُ ابن جرير عن مجاهد وقتادة والبيهقي عن مجاهد أيضاً وابن جرير عن ابن يزيد ومحمد بن عمرو عن شيوخه قالوا رأى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين وأنه دخل البيت وأخذ فتاحه وعرف مع المعرفين وكان ذلك الرؤيا بالمدينة قبل خروجه إلى الحديبية كذا قال البغوي ومحمد بن يوسف الصنائجي في سبيل الرشاد، وفي بعض الروايات عن مجاهد أنه رأى النبيّ ﷺ وهو بالحديبية والصحيح هو الأول، قال ابن سعد ومحمد بن عمرو غيرهما إستنفر رسول الله ﷺ العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فابطأ عليه كثير من الأعراب، وروى أحمد والبخاري وعبد بن حميد وأبو داوود والنسائي وغيرهم عن الزهري وابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ دخل بيته فاغتسل ولبس ثوبين من نسج صحا وركب ناقته القصوٰى من عند بابه وخرج بأم سلمة معه وأم منيع أسماء بنت عمرو وأم عمارة الأشهلية، وخرج معه الهاجرون والأنصار ومن لحق به من العرب لا يشكون بالفتح للرؤيا المذكورة وليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب وساق الهدي فسار رسول الله ﷺ يوم الإثنين لهلال ذي القعدة يعني سنة ست حتى نزل ذا الحليفة فصلّى الظهر ثم دعا بالبُدن وهي سبعون فجللت ثم أشعر منها عدة وهن موجهات إلى القبلة في الشق الأيمن ثم أمر ناجية بن جندب فأشعر وأبقى وقلدهن نعلاً نعلاً وأشعر المسلمون بدُنهم وقلدوها وكان معهم مائتا فرس، وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سفيان عينا له وقدم عباد بن بشير طليعة في عشرين فارساً ويقال جعل أميرهم سعد بن زيد الأشهلي ثم صلّى ركعتين وركب من باب المسجد بذي الحليفة فلما انبعث راحلة مستقبلة القبلة أحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً بهذا البيت.

ولبى لبيك الحج فأحرم غالب أصحابه وأم المؤمنين أم سلمة بإحرامه ومنهم من لم يحرم إلا بالجحفة وسلك طريق البيداء ومر فيما بين مكة والمدينة بالأعراب من بني بكر ومزينة وجهينة فاستنفرهم فتشاغلوا بأموالهم وقالوا فيما بينهم يريد محمد يغزوا بنا إلى قوم معد من الكراع والسلاح وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً، قوة سلاح معهم ولا عدو ثم قدم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب مع فتيان من أسلم ومعهم هدايا المسلمين، ووقع في تلك المسير ما صاد قتادة حمار الوحش

وكان غير محرم وما أهدى رسول الله ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء وقد مر حديثه في سورة المائدة ولما بلغ رسول الله ﷺ الجحفة أمر بشجرة فقم ما تحتها فخطب الناس، فقال: «إني كائن لكم فرطاً وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وسنة نبيه» ولما أبلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ إجتمعوا وتشاوروا يريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده ومعتمراً فتستمع العرب أنه دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا ثم قدموا خالد بن الوليد على مائتي فارس إلى كراع الغميم واستنفر من الأحابيش وأجلبت ثقيف معهم وخرجوا إلى بلدج وضرب بها القباب والأبنية ومعهم النساء والصبيان فعسكروا هنا وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربته ووضعوا العيون على الجبال وهم عشر أنفس يوحي بعضهم إلى بعض بالصوت فعل محمد كذا وكذا حتى ينتهي إلى قريش بلده، ورجع بشر بن سفيان الذي بعثه رسول الله ﷺ عيناً له من مكة فلقي رسول الله ﷺ بغدير الأشطاط وراء عسفان فقال يا رسول الله هذه قريش سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم عوذ المطافيل قد لبسوا جلد النحور وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا يدخلها عليم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموها إلى كراع الغميم فقال رسول الله ﷺ يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا أن أظهر لي الله تعالى عليهم دخلوا وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وفيهم قوة فما تظن قريش فوالله لا زال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة، ثم قام رسول الله ﷺ في المسلمين محمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد يا معشر المسلمين أشيروا علي أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عانوهم فنصيبهم فإن قعدوا موتورين وإن أبونا تكن عنقاً قد قطعه الله يعني أهلك الله جماعة منهم أم ترون أنا نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال أبو بكر يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حرباً فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ووافقه على ذلك أسيد بن خضير، وروى ابن أبي شيبة أن المقداد بن الأسود قال بعد كلام أبي بكر والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيه ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فقال رسول الله ﷺ فسيروا على اسم الله دونا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم في خيله فقام بإزائه فصف أصحابه وحانت صلاة الظهر فأذن بلال، وأقام فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه فقال خالد بن الوليد قد كانوا على غرة

لو حملنا عليهم أصبنا منهم ولكن يأتي الساعة صلاة الأخرى هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم فنزل جبرئيل عليه السلام بين الظهر والعصر بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾ الآية فحانت صلاة العصر فصلّى رسول الله ﷺ الخوف وقد مر شرحها في سورة النساء، روى البزار بسند رجاله ثقات عن أبي سعيد الخدري ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا لما أمسى رسول الله ﷺ قال أسلكوا ذات اليمين بين ظهور الحمض فإن خالد بن وليد في الغميم في خيل بقريش طليعة كره رسول الله ﷺ أن يلقاه وكان بهم رحيماً قال أيكم يعرف ثنية ذات الحنظل فقال بريدة بن الحصيب أنا، وروى مسلم عن جابر وأبو نعيم عن أبي سعيد قال أبو سعيد خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان سرنا في آخر الليل حتى أقبلنا على عقبة ذات الحنظل قال رسول الله ﷺ مثل هذه الثنية الليلة كمثل باب الذي قال الله تعالى لبني إسرائيل ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ لا يجوز هذه الثنية الليلة أحدا إلا غفر له، قالوا يا رسول الله نخشى أن ترى قريش نيراننا، فقال لن يروكم فلما أصبحنا صلّى بنا صلاة الصبح، ثم قال والذي نفسي بيده لقد غفر الراكب أجمعين إلا رديلباً واحداً على جمل أحمر فإذا هو رجل من بني ضمرة، قال جابر قلنا له تعال نستغفر لك رسول الله ﷺ فقال والله لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم فبينا هو في حيال سراوع إذ زلقت به بغله فتردى فمات فما علم حتى أكلته السباع، قال مسور بن مخرمة ومروان فلما دنا رسول الله ﷺ من الحديبية وقعت يد راحلته فقال الناس حل حل فأبت أن تبعث وألحت فقال المسلمون خلأت القصوى فقال رسول الله ﷺ ما خلأت القصوى وما ذاك لها بعادة ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، ثم قال والذي نفس محمد بيده لا يسألون قريش اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيهم إياهم ثم زجرها فوثبت قال فعدل عنهم حتى نزل أقصى الحديبية على ثمد من ثماد الحديبية ظنون قليل الماء يتربضه الناس تربضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء فانتزع سهما من كنانة فأمر به فغرز في الثمد بالرواء حتى صدروا بعطن، قال المسور فإنهم لقترفون بآنيتهم جلوساً على شفير البئر والذي نزل بالسهم ناحية بن جندب سابق بُدن رسول الله ﷺ. قال محمد بن عمر حدثني الهيثم عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه قال حدثني أربعة عشر رجلاً من أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ أنه ناجية بن عجم وكان ناجية بقول دعاني رسول الله ﷺ حتى شكى إليه قلة الماء، فأخرج سهماً من كنانته ودفعه إليهُ وعابد لو من اء البيء فجئته به فتوضأ فمضمض فاه ثم مج في الدلو والناس في حر

شديد وإنما هي بئر واحدة قد سبق المشركون إلى بلد ح فغلبوا على مياهه فقال أنزل الدلو فصبها في البئر وأثرها بالسهم ففعلت فوالذي بعثه بالحق ما كدت أخرج حتى تغمدني وفارت كما تفور القدر حتى طمث واستوت بشفيرها يغترفون من جانبها، وروى أحمد والبخاري وغيرهما عن البراء ومسلم عن سلمة بن أكوع وأبو نعيم عن ابن عباس والبيهقي عن عروة نحوها قصة صب الدلو وليس فيه ذكر السهم، وروى البخاري عن جابر ومسلم عن سلمة بن الأكوع قال «عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة قالوا يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا في ركوتك فأفرغنا في قدح وضع رسول الله ﷺ يديه في القدح فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا، قيل لجابركم كنتم يومئذ؟ فقال لو كنا مائة ألف كفاناكنا خمس عشر مائة. ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية جاء بديل بن ورقاء وأسلم بعد ذلك في رجال من خزاعة منهم عمرو بن سالم وحراس بن امية وخارجة بن كوز ويزيد بن أمية وكانت عيبة نصح رسول الله ﷺ بتمامه منهم المسلم ومنهم الوداع لا يخفون عنه بتمامه شيئاً فلما قدموا سلموا عليه، فقال بديل بن ورقاء جئناك من عند قومك كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعوهم قد نزلوا عداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل النساء والصبيان يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت، فقال رسول الله ﷺ إنا ما جئنا لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت فمن صدنا عنه قاتلنا وإن قريشاً قد أضرب بهم الحرب نهكتهم فإن شاؤا ماددناهم مدة يأمنون فيها ويخلون فيما بيننا وبين الناس والناس أكثر منهم فإن أصابوني فذلك الذي أرادوا وإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما يدخل فيه الناس أو يقاتلوا وقد جموا وإن هم أبو فوالله لأجهدن على أمري هذا حتى تنفرد سالفة أو لينفذنّ الله أمره قال بديل سأبلغهم ما تقول، فأتى قريشاً، وقال إنا قد جئنا من عند محمد نخبركم عنه، قال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاصُ أسلما بعد ذلك ما لنا حاجة أن تخبرنا عنه ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها عامه هذا أبداً حتى لا يبقى رجل وأشار عليهم عروة بن مسعود الثقفي بعد ذلك بأن يسمعوا كلام بديل فإن أعجبهم قبلوه وإلا تركوه، فقال صفوان بن أمية والحارث بن هشام وأسلما بعد ذلك هات ما سمعته فحدثه بما قال النبي ﷺ، فقال عروة بن مسعود الثقفي أي قوم ألستم بالولد؟ قالوا بلى، قال ألست بالوالد قالوا بلى، وكان عروة لسبعة بيت عبد الشمس القرشية قال فهل تتهموني قالوا لا، قال ألستم تعلمون إني استنفرت أهل عكاظ فلما يلجوا على جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني قالوا بلى قال فان هذا الرجل قد عرض

عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني فأتاه فجعل النبي ﷺ يكلم نحوا من قوله لبديل، فقال عروة يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب إجتاح أصله قبلك وإن يكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها أو باشا من الناس وفي رواية اشوايا من الناس خليقاً أن يغروا ويدعوك فقال له أبو بكر الصديق امصص بظر اللات أنحن نفر منه وندعه قال من ذا؟ قالوا أبو بكر، فقال أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أخبرك به لأجبتك، وكان عروة قد استعان في حمل دية فأعانه الرجل بفريضتين والثلث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض فكان هذا يد أبي بكر عند عروة، قال فجعل عروة يكلم النبيّ ﷺ فلما كلمه أخذ لحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبيّ ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر كلما أهوى عروة يده إلى لحية النبيّ ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسه فرفع عروة رأسه فقال من هذا؟ قالوا المغيرة بن شعبة، فقال يا عد والله ما غسلت عنك عذرتك بعكاظ إلا أمس لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر، وكان مغيرة صحبت قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبيّ ﷺ أما الإسلام فاقبل وأما المال فلست منه في شيء، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبيّ ﷺ بعينيه فوالله ما تخم رسول الله ﷺ فخامة إلا رفع في كف رجل منهم فدلك بها وجههُ جلده وإذا أمر ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحادون النظر إليه تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي القوم والله لقد وفدت على الملوك وفدت على قيصر وكسرىٰ والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط تعظم أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله ما تفخم فخامة إلا وقعت في كف رجل منهم يدلك بها وجههُ وجلده وإذا امرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم اخفضوا اصواتهم عنده وما يحادون النظر إليه تعظيماً له وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقالت، قريش لا ولكن ترده عامنا هذا ويرجع إلى قابل فقال ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف فقام الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش فأتى رسول الله ﷺ فلما رأى رسول الله ﷺ قال هذا من قوم يعظمون الهدي ويتألهون فابعثوا بالهدي في وجهه حتى يراها فلما رأى الهدايا يسيل عليها من عرض الوادي في قلائدها قد أكل أوبارها من طول الحبس رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ عظاماً لما رأى فقال يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صد الهدي في قلائده قد أكل أوتاره من طوال الحبس عن محله فقالوا إجلس فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك فغضب الحليس

عند ذلك وقال يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظماً والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو ليفرن الأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص دعوني آته فقالوا آته فلما أشرف عليهم قال النبيّ ﷺ هذا مكرز وهو رجل غادر أو فاجر فلما إنتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه بنحو ما كلم بديلاً وعروة فرجع إلى أصحابه فاخبرهم بما رد عليه رسول الله ﷺ. قال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما بعث النبي ﷺ إلى قريش خراش بن أمية على جمل رسول الله ﷺ يقال له الثعلب ليبلغ عنه أشرافهم بما جاء لهم، فعقر عكرمة بن أبي جهل الجمل وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبر رسول الله ﷺ بما لقي، روى البيهقي عن عروة قال لما نزل رسول الله ﷺ الحديبية فزعت قريش لنزوله فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث رجلاً من أصحابه فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه، إليهم فقال يا رسول الله إني اخاف قريشاً على نفسي قد عرفت قريش عداوتي لها وليس بها من بني عدي من يمنعه ولكني أدلك على رجل أعز بمكة مني وأمنع عثمان بن عفان فدعا عثمان فقال إذهب إلى قريش وأخبرهم إنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الإسلام وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخلهم ويبشرهم بالفتح ويخبر أن الله يظهر دينه بمكة حتى لا يستخف فيها بالإيمان فأنطلق عثمان إلى قريش يمر عليهم ببلدح فقالوا أين تريد؟ قال بعثني رسول الله ﷺ إليكم لأدعوكم إلى الإسلام وإلى الله جل ثناؤه وتدخلوا في الدين كافة فإن الله مظهر دينه ومعز نبيّه وأخرى تكفون الذي يلي هذا الأمر غيركم فإن ظفر رسول الله ﷺ فذلك ما أردتم وإن ظفر رسول الله ﷺ كنتم بالخيار بين أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون إن الحرب وهنتكم وأذهبت الأماثل وأخبر أن رسول الله ﷺ يخبر أنه لم يأت القتال أحد إنما جاء معتمراً معه الهدي عليه القلائد ينحره وينصرف، فقالوا قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا ابداً فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا ولقيه أبان بن سعيد وأسلم بعد ذلك فرحب به أبان وأجاره وقال لا تقصر عن حاجتك ثم نزل عن فرس كان عليه فحمل عثمان على السرج وردف ورائه وقال أقبل وأدبر لا تخاف أحداً وبنو سعيد اعزة بالحرم فدخل به مكة فأتى عثمان أشراف قريش رجلاً رجلا فجعلوا يردون عليه أن محمدا لا يدخلها علينا أبداً ودخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين بمكة فقال إن رسول الله ﷺ يقول قد أظلكم حتى لا يستخفى بمكة بالإيمان

ففرحوا بذلك وقال إقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، ولما فرغ عثمان من رسالة قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ وأقام عثمان بمكة ثلاثاً يدعو قريشاً وقال المسلمون وهم بالحديبية خلص عثمان من بيننا إلى البيت فطاف به فقال رسول الله ﷺ لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف وكان رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالحراسة بالليل فكانوا ثلاثة يتناوبون الحراسة أوس بن فربي وعباد بن بشر ومحمد بن مسلمة فكانمحمد بن مسلمة على حرس رسول الله ﷺ ليلة من الليالي وعثمان بمكة قد كانت قريش بعثت ليلا خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص وأمروهم أن يطوفوا بالنبيّ ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم غرة، فأخذهم محمد بن مسلمة فجاء بهم رسول الله ﷺ وظهر قول النبيّ ﷺ أنه رجل غادر وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ وهم كرز بن جابر الفهري وعبد الله بن سهيل بن عمرو بن عبد الشمس وعبد الله بن حذافة السهمي وأبو الروم بن عمير بن عمرو وعمير بن وهب الحجحي وحاطب بن أبي بلتعة وعبد الله بن أمية دخلوا مكة في أمان عثمان، وقيل سراً فعلم بهم فأخذوا وبلغ قريشا حبس أصحابهم الذين أمسكهم محمد بن مسلمة فجاء جمع من قريش إلى النبيّ ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة وأسر المسلمون أيضاً إثني عشر فارساً، وقتل من المسلمين ابن زينم وقد اطلع الثنية من الحديبية فرماه المشركون فقتلوه وبلغ رسول الله ﷺ إن عثمان ومن معه قتلوا دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم أن سلمة ابن الاكوع والبيهقي عن عروة وابن إسحاق عن الزهري ومحمد بن عمر عن شيوخه قال سلمة بينا نحن قايلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فأخرجوا على اسم الله. في صحيح المسلم عن سلمة قال بايعته أول الناس ثم بايع حتى إذا كان في وسط قال بايع يا سلمة قلت بايعتك قال وأيضاً فبايعته ثم بايع حتى إذا كان أخرج الناس، قال ألا تبايعني يا سلمة قلت يا رسول الله ﷺ بايعتك في أول الناس وفي وسط الناس قال وأيضاً فبايعته الثالثة. وفي صحيح البخاري عنه قيل على أي شيء كنتم تبايعونه قال على الموت، وفي صحيح مسلم عن جابر قال «بايعنا رسول الله ﷺ وعمر أخذ بيده تحت شجرة مثمرة فبايعنا غير جد بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره»(١) وروى الطبراني ابن عمر والبيهقي عن الشعبي وابن مندة عن زيد بن حبيش قالوا لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة (١٨٥٦).

إنتهى إليه أبو سنان الأسدي فقال إبسط بيدك أبايعك فقال النبيّ ﷺ فبايعني على ما في نفسك زاد ابن عمر قال وما في نفسي قال أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهر الله أو أقتل فبايعه وبايعه الناس على بيعة أبي سنان، روى البيهقي عن أنس وابن إسحاق عن ابن عمر قال لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان رسولُ رسول الله ﷺ إلى أهل مكة فبايع الناس فقال رسول الله ﷺ، إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك فضرب بإحدى يديه على الأخرى فقال هذا يد عثمان وكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم وبعث قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن العزى وأسلما ومكرز بن حفص إلى النبيّ ﷺ، فقال سهيل إن الذي كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأي ذي رأينا كنا له كارهين حتى بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا فأبعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة والذي ذكر من قتل عثمان ومن معه ظهر أنه كان باطلاً، فقال رسول الله ﷺ إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابه فقالوا انفصتا فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بالشتيهم بن عبد مناف التيمي فبعثوا من كان عندهم وهم عثمان والعشرة معه وأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم الذين أسرهم المسلمون. وفي الصحيحين عن سهيل بن حنيف وعند البخاري وأصحابه السنن عن مروان بن الحكم أن عثمان لما قدم من مكة هوومعه رجع سهيل بن عمر وحويطب ومكرز إلى قريش فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب النبيّ ﷺ إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب إشتد عليهم فقال أهل الرأي منهم ليس خير من أن تصالح محمد على أن ينصرف عنا عامه هذا ولا يخلص من البيت حتى يسمع من يسمع بمسيرة من العرب أنا قد صددناه ويرجع فابلاً فيقم ثلاثاً ينحر هديه وينصرف فأجمعوا على ذلك وقالوا لسهيل أئت محمداً فصالحه وليكن في صلحك أن لا يدخل عامه هذا فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة، فأتى سهيل رسول الله ﷺ فقال عليه السلام أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا وفي لفظ قال رسول الله ﷺ سهل أمركم وجلس رسول الله ﷺ متربعاًوقام عباد بن بشر وسلمة وأسلم وهما مقنعان في الحديد فبرك سهيل على ركبتيه فكلم رسول الله ﷺ وأطال الكلام وتراجعا وارتفعت الأصوات وانخفضت، وقال عباد بن بشر لسهيل اخفض من صوتك عند رسول الله ﷺ فجرى القول حتى وقع الصلح فقال سهيل هات إكتب بيننا وبينك كتاباً فدعا رسول الله ﷺ عليًا كرم الله وجهه كما في حديث البراء عن البخاري والحاكم عن عبد الله بن مغفل أنه قال رسول الله ﷺ أكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال السهيل أما الرحمٰن الرحيم فوالله لا أدري ما هو ولكن أكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا تكتبها فقال النبيّ لله أكتب بإسمك اللّهم، ثم قال هذا ما ماضىٰ عليه

محمد رسول الله ﷺ فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ﷺ ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك أكتب محمد بن عبد الله فقال رسول الله ﷺ لعليٍّ أمحه فقال عليٌّ ماأنا بالذي أمحاه وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن حضير وسعد بن عبادة أخذ بيد عليٍّ أن لا يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهم وارتفعت الأصوات فقال النبيّ ﷺ أرنيه فأراه إياه فمحاه رسول الله ﷺ بيده وقال أكتب محمد بن عبد الله، ووقع في بعض طرق حديث البراء أن رسول الله ﷺ أخذ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضىٰ محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو وأصلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض، فقال رسول الله ﷺ لسهيل على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف، فقال سهيل لا والله ولكن لك من العام المقبل فكتب فقال سهيل على أن لا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون سبحان الله أيكتب هذا كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما فقال رسول الله ﷺ نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاء منهم إلينا فيجعل الله فرجاً قال البراء صالح على ثلاثة أشياء على أنه من أتاه من المشركين رده إليهم ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه إليه وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام ولا يدخلها إلا يجلبان السلاح والسيف والقوس ونحوه وقع الصلح على أن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة مكفوفة وأنه لا أسلال ولا أغلال وأنه من أحب دخل في عقد محمد ومن أحب دخل في عقد قريش فتواثبت خزاعة وقالوا نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر وقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم ولما تقرر الصلح ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب (رض) إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ألست نبي الله حقاً؟ قال بلى، قال ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال بلى، قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، قال بلى، قال على م نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال رسول الله ﷺ إني عبد الله ورسوله ولست أعصيه ولن يضيعني وهو ناصري، قال أوليس كنت تحدثنا أنا نأتي البيت فنطوف حقاً، قال بلى فأخبرتك أنك نأتيه العام؟ قال لا، قال فإنك آتيه ومطوف به فذهب عمر إلى أبي بكر متغيضاً ولم يصبر فقال يا أبا بكر أليس هذا نبيُّ الله حقاً؟ قال بلى، قال ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال بلى، قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال بلى، قال فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم، قال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه حتى تموت فوالله إنه لعلي الحق وفي لفظ فإنه رسول الله فقال عمر وأنا أشهد أن رسول الله ﷺ قال أوليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به قال بلى، فأخبرك إنك تأتيه العام قال لا قال فإنك

آتيه وتطوف به فلقي عمر من هذه الشروط أمراً عظيماً وقال كما في الصحيح والله ما شككت منذ أسلمت إلا بومئذ وجعل يردد على رسول الله ﷺ الكلام فقال أبو عبيدة بن الجراح ألا تسمع يا ابن الخطاب تقول بالقول نعوذ بالله من الشيطان قال عمر فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان[١]، روى ابن إسحاق وابن عَمرو الأسلمي قال عمر فما زلت أتصدق وأصوم وأعتق من الذي صنعت يومئذ، وروى أحمد والنسائي والحاكم في حديث عبد الله بن مغفل ذكر نحو ما تقدم قال فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا إلى وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأسماعهم ولفظ الحاكم بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ هل جئتم في عهد أحد وهل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ روى أحمد ومسلم وابن أبي شيبة عن أنس هبط على رسول الله ﷺ ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة من رسول الله ﷺ دعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم[٢] وفي حديث الزهري عن مروان ومسور، وروى مسلم وأحمد وعبد بن حميد عن سلمة بن الأكوع قال لما سمعت قتل ابن زنيم اخترطت سيفي على أربعة رقود من المشركين فأخذت سلاحهم وجئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية فبينما الناس كذلك إذا أبو جندل بن سهيل ابن عمر يرسف في قيوده قد خرج من أسفل حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين وكان أبوه سهيل قد أوثقه في الحديد وسجنه فقام إليه المسلمون يرحبونه ويهنونه فلما رأى أبو سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلبيبه ثم قال يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده، فقال رسول الله ﷺ إنا لم نقض الكتاب بعد، قال فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً قال فأجزه بي قال ما أنا بمجيزه قال بلى فأفعل قال ما أنا بفاعل، فقال مكرز وحويطب قد أجزناه لك فأخذاهُ ودخلاه فسطاطاً وأجاراه وكف عنه أبوه، فقال أبو جندل معاشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت وكان قد عذب عذاباً شديداً فرفع رسول الله ﷺ صوته أبا جندل اصبرو احتسب فإن الله تعالى جاعل لك بمن معك من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية (١٧٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (١٨٠٨).

المستضعفين فرجاً ومخرجاً أنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً وإنا لا نقدر فمشى عمر بن الخطاب إلى جنب أبي جندل فقال له أصبروا حتسب فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب وجعل عمر يدني قائم السيف منه قال عمر رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال فضمن الرجل بأبيه وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأو من الصلح والرجوع دخل الناس من ذلك عظيم حتى كادوا يهلكون فزادهم أمر أبي جندل، ونفذت القضية شهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين وأبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عَمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن سلمة وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومكرز بن حفص وهو مشرك، فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات فاشتد ذلك عليه فدخل على أم سلمة فقال هلك المسلمون أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا، فلم يفعلوا فقالت يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبيّ الله، أخرج ولا تكلم أحداً كلمة حتى نحر بدنك وتدعوا بحالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً حتى نحو بدنه رافعاً صوته بسم الله الله أكبر ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا فجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً قال ابن عمر وابن عباس حلق رجال يوم الحديبية وقصر أخرون فقال رسول الله ﷺ «يرحم الله المحلقين قالوا والمقصرين قال يرحم الله المحلقين قالوا يا رسول الله والمقصرين قال والمقصرين قالوا يا رسول الله ما بال المحلقين ظاهرت لهم الترحم؟ قال لأنهم لم يشكوا، قال ابن عمر وذلك أنه تربص قوم وقالوا لعلنا نطوف بالبيت وأقام رسول الله ﷺ بالحديبية تسعة عشر يوماً ويقال عشرين ليلة ذكره محمد بن عمرو في أيام المقام بالحديبية، قال رسول الله ﷺ لكعب بن عجرة لأرى الهوام تتساقط على وجهه وهم محصورون قبل الصلح أيوذيك هوام رأسك قال نعم وأمره بالحلق والفدية من صيام أو صدقة أو نسك ونزل حينئذ قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[1] الآية من سورة البقرة، وقد ذكر هناك مسائل للاحصار والحلق بعذر وما يتعلق به، روى مسلم عن سلمة بن الأكوع والبيهقي عن ابن عباس والبزار والطبراني والبيهقي عن أبي حبيش ومحمد بن عمر وعن شيوخه أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزل بمر الظهران ثم نزل بعسفان فأرسلوا من الزاد

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

فشكى الناس الجوع وقالوا ننحر يا رسول الله الحمر فأذن لهم رسول الله ﷺ، فقال عمر يا رسول الله لا تفعل فإن يكن في الناس بقية ظهر كان أمثل كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجلاً لكن إن رأيت تدعو الناس ببقايا أزوادهم ثم تدعوا فيها بالبركة فإن الله سيبلغنا بدعوتك، فدعا رسول الله ﷺ ببقايا أزوادهم وبسط نطعاً وكان أعلاهم من جاء بصاع من تمر فاجتمع زاد القوم على النطع، قال مسلمة فتطاولت لأحرزكم محرزته كر نفسه عزة ونحن أربعة عشر مائة فقام رسول الله ﷺ فدعا بما شاء الله تعالى أن يدعوا فأكلوا حتى شبعوا ثم حشوا أوعيتهم وبقي، مثله فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله والله لا يلقى الله تعالى عبد مؤمن بهما إلا حجب من النار[1]. قال الزهري في حديثه ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[2] فطلق عمر يومئذ امرأتي كانت له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية قال فنهاهم أن يردوا النساء وأمر برد الصداق.

روى أحمد والبخاري وأبو داوود والنسائي عن المسور بن مخرمة والبيهقي عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة من الحديبية أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد حاربة الثقفي حليف بني زهرة مسلماً قد خلت من قومه فكتب الأحبس بن شريف الثقفي وأزهر بن عبد عوف الزهري إلى رسول الله ﷺ كتاباً بعثهما وبعثا خنيساً بن جابر من بني عامر ابن لؤي يذكران الصلح الذي بينهم وأن يرد إليهم أبا بصير فقدم العامري ومعه مولى له يقال له كوثر بعد أبي بصير بثلاثة أيام فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهما، وقال يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتُ لا يصلح في ديننا الغدر إن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً به حتى بلغا ذا الحليفة، فصلّى أبو نصير في مسجدها ركعتين صلاة المسافر ومعه زاد له من تمر يحمله يأكل ودعا العامري وصاحبه ليأكلا معه فنزلوا يأكلون التمر وعلى العامري سيفه وتحادثاً ولفظ عروة فسل العامري سيفه ثم هذه فقال لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل فقال أبو بصير أصارم سيفك هذا؟ قال نعم، قال ناولني أنظر إليه إن شئت فناوله إياه فلما قبض عليه ضربه به حتى برد وخرج كوثر هارباً حتى أتى المدينة فدخل المسجد قال رسول الله ﷺ مالك قال قتل والله صاحبي وأُفلت منه ولم أكد وإني مقتول فاستغاث برسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٢٧).

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

فأمنه، وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامري ودخل متوحشاً بسيفه فقال يا رسول قد وفيت ذمتك وأدى الله عنك وقد أسلمتني بيد العدو وقد امتنعت بديني من أن أفتن، فقال رسول الله ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد وقدم بسلب العامري لرسول الله ﷺ ليخمسه فقال إني إذا خمسته رأوني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه ولكن شأنك بسلب صاحبك وأذهب حيث شئت[١]. في الصحيح أن أبا بصير لما سمع قول رسول الله ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد عرف أنه سيرده فخرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قدموا معه مسلمين من مكة حين قدمه على رسول الله ﷺ فلم يكن طلبهم أحد حتى قدموا سيف البحر فأقام بسيف البحريين العيصَ وذي المروة من أرض جنته على طريق عيرات قريش وبلغ المسلمين الذين قد حبسوا بمكة خبر أبي بصير فتسللوا إليه قال محمد بن الخطاب هو كتب إليهم يقول رسول الله ﷺ لأبي بصير ويل أمه مسعر حرب لو كان له رجال وأخبرهم أنه بالساحل، وانفلت أبو جندل بن سهيل الذي رده عليه السلام إلى المشركين بالحديبية فخرج هو وسبعون راكباً ممن أسلموا فلحقوا بأبي بصير فلما قدم أبو جندل على أبي بصير سلم له الأمر لكونه قرشياً وكان أبو جندل يومهم وأجتمع إلى أبي جندل حين سمع بقدومه ناس من بني غفار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلثمائة مقاتل كما عند البيهقي عن ابن شهاب لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها وضيقوا على قريش فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه فأرسل قريش أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ أن يبعث إلى أبي بعير ومن معه وقالوا من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال من غير حرج أنت فيه، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير وأبي جندل يأمرهما أن يقدما عليه ويأمر من معهما فمن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد بهم من قريش وعيراتها فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي بصير وهو يموت فجعل يقرأه ومات وهو في يده فدفنه أبو جندل في مكانه وجعل قبره مسجداً، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم فلما كان من أمرهم على الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة الله ورسول الله ﷺ خير لهم فيما أحبوا أو فيما كرهوا لما دخل رسول الله ﷺ عام القضية قال هذا الذي وعدتك، ولما كان يوم الفتح أخذ المفتاح وقال لعمر بن الخطاب هذا الذي قلت لكم، ولما كان في حجة الوداع وقف بعرفة فقال أي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في صلح العدو (٢٧٦٣).

عمر هذا الذي قلت لكم قال أي رسول الله ما كان فتح أعظم من صلح الحديبية، وكان أبو بكر يقول ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله وبين ربه والعباد يعجلون والله لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أرادوا لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله ﷺ بدنه ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ودعا الحلاق فحلق رأسهُ أنظر إلى سهيل يلتقطه من شعره يضعه على عينه وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فحمد الله سبحانه أن هداه للإسلام ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي نقض البيعة أي نقش البيعة ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ﴾ أي لا يعود ضرر نكثه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي ثبت على البيعة، قرأ حفص بضم الهاء تعظيماً للجلالة والباقون بالكسر ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالنون على التكلم، والباقون بالياء على الغيبة والضمير عايد إلى الله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ يعني الجنة ورضوان الله تعالى ورؤيته ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ ابن عباس ومجاهد يعني الأعراب بني غفار ومزينه وجهينة والنخع واسلم وهم الذين أبطؤا من الخروج مع النبيّ ﷺ حين استنفرهم إذا أراد المسير إلى مكة عام الحديبية خوفاً من قتال قريش زعماً منهم قلة عن الملسلمين وضعفهم في عقيدتهم كما مر في القضية رجع النبيّ ﷺ سالماً اعتذر وأمن التخلف وقالوا ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ يعني لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى على التخلف فيه معجزة فإن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ بما يقول للمخلفون بعد ذلك ثم كذبهم الله في اعتذارهم فقال ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ومن الاعتذار والاستغفار يعني أنهم لا يبالون استغفر لهم النبيّ ﷺ أو لم يستغفر الجملة بدل من قوله تعالى: سيقول ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يعني لأحد يمنعكم من مشيئة الله تعالى وقضائه فيكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الضاد والباقون بالفتح يعني ما يضركم كقتل أو هزيمة أو هلاك في المال أو الأهل أو عذاب في الآخرة على تخلفكم ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي ضد ذلك به تعرض بالرد ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يعني ليس الأمر كما قلتم في الإعتذار بل الله يعلم أن قصدكم في التخلف إنما هو إظهار الموافقة لأهل مكة خوفا منهم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ أيها المخلفون ﴿لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ يعني يستأصلهم مشركو مكة فلا يرجعون إلى إضراب ثان عطفه على مضمون الإضراب الأول يعني بل أظهرتم موافقة أهل مكة بل ظننتم أن لن ينقلبوا ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان بخلق الله تعالى ﴿وَظَنَنتُمْ﴾ أن محمداً وأصحابه أكلة رأس فلا يرجعون أو غير ذلك مما

يظنون بالله ورسوله ﷺ من الأمور الباطلة ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ منصوب على المصدرية ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هلكن عند الله لفساد عقيدتكم وسوء ظنكم بالله ورسوله ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه تعريض إلى أنهم غير مؤمنين بالله ورسوله فإن الإيمان ينافي تلك الظنون والتخلف عن الرسول ﷺ وجزاء الشرط محذوف وما بعده تعليل أقيم مقامه أي لا يضرنا، ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ وضع المظهر موضع المضمر إيذاناً بأن من يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر متوجب للسعير بكفره وتنكير سعير للتهويل.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لا يجب عليه شيء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني أن الغفران والرحمة صفات ذاتية له تعالى والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ في القتال حتى نصيب من المغانم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ جملة يريدون بدال إشتمال من سيقولون قرأ حمزة والكسائي كلام الله على أنه جمع كلمة، قيل المراد بالمغانم خيبر خاصة، قال محمد بن عمرو أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج يعني إلى خيبر فجدوا في ذلك من حوله فمن شهد الحديبية يغزون معه وجاء المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال عليه السلام لا يخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد وأما الغنيمة فلا، والظاهر أن معنىٰ الآية سيقولون المخلفون الذين تخلفوا من الجهاد في غزوة الحديبية حين ظنوا بالمسلمين ضعفاً وقلة إذا يرون بالمسلمين قوة وانطلقتم إلى المغانم لتأخذوها في زعمهم غالباً فسيقولون ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله يعني أمر الله لنبيه أن لا يسير معه أحد منهم كما في قوله ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن

تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[1] كذا قال ابن زيد وقتادة، قلت لعل المخلفون لما رأوا من المؤمنين شدة رغبتهم في الجهاد وسمعوا بيعة الرضوانُ أن الله أظفر المؤمنين على المشركين في بطن مكة حتى رضي المشركون على الصلح واطمأن المسلمون من أهل مكة وفرغوا الجهاد عامة العرب ندموا على التخلف وظنوا بغلبة المسلمين وأخذهم الغنائم قالوا ذلك حين عزم النبيّ ﷺ الجهاد أهل خيبر مع أن أهل خيبر كانوا أشد بأساً من أهل مكة حيث كان فيها عشر آلاف مقاتل وإنما حبس الله رسوله والمؤمنين من أهل مكة ترحماً بقريش كما حبس عنهم الفيل لما علم بعلمه القديم أن أكثرهم يؤمنون ويخرج منهم بسمات مؤمنات ولئلا يصيب المؤمنين معرة بغير علم من أن يطئوا رجالاً من مؤمنين ونساء مؤمنات كانوا بمكة لم يعلموهم ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ جملة مستأنفة إخبار من الله تعالى بعدم إتباعهم بعد عزمهم طمعاً في الغنائم ولا يبدل القول لديه وفي عجزة أخبار بالغيب مرتين مرة بالقول ومرة بعدم الإتباع وقيل هذا نفي ومعناه النهي، ﴿كَذَٰلِكُمۡ﴾ يعني قولاً مثل ما قلت لكم أيها المخلفون من الأخبار والنهي ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿مِن قَبۡلُ﴾ هذا بوحي غير متلو أن غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة لا نصيب لغيرهم فيها أو أنهم لن يخرجوا معك أبداً أو لا يصاحبهم في غزوة أبداً أوليس المراد منه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾[2] لأنها نزلت بعد ذلك سنة تسع في غزوة تبوك ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي المخلفون عطف على سيقولون ﴿بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾ عطف على محذوف يعني لم يقل الله كذلك بل تحسدوننا يقولون ذلك حسداً أن يشرككم في الغنائم ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ عطف على سيقولون يعني ليس الأمر كما زعمت المخلفون بل كانوا لا يعلمون من الله تعالى ما لهم وما عليهم في الدين ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يعني إلا تفقها قليلاً من أمور الدنيا وقال البغوي معناه إلا قليل منهم وهو من صدق الله ورسوله، قلتُ على هذا كان المختار عند النحويين الرفع على البدلية لأن الكلام غير موجب ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في الذم وإشعاراً بكمال شناعة التخلف ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ قال كعب هم الروم يعني في غزوة تبوك، قلت وهذا القول يأبى عنه توصيف قوم بقوله يقاتلونهم أو يسلمون فإن غزوة تبوك مال أمره إلى القتال فإن النبيّ ﷺ سار إلى تبوك وأقام هناك بضعة عشر يوماً فلم يتحرك هرقل إلى مقابلته ولم يبعث إليه جيشاً رجع النبيّ ﷺ من غير قتال، قال سعيد بن جبير وقتادة هوازن وثقيف

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٣.

وغطفان يوم حنين، قلت ولم يصح أن النبيّ ﷺ دعا الأعراب يوم حنين وأيضاً يكونوا أولي بأس شديد بالنسبة إلى عسكر الإسلام بل كانوا قليلاً في مقابلة جم غفير، وقال الزهريُ مقاتلُ جماعة هم بنو حنيفة أهل اليمامةُ أصحاب مسيلمة الكذاب، قال رافع بن خديج كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعى أبو بكر الصديق (رض) إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم وهذا قول أكثر المفسرين ورجحه البيضاوي بقرينة قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني بكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير كما يدل عليه قراءة أو يسلموا فإن أو حينئذ بمعنى إلى أن ولا شك أن مشركي العربُ المرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف وقتال غيرهم كأهل الروم ينتهي بالجزية فالآية دليل على إمامة أبي بكر فإنه دعي الناس لقتال أهل الردة، وقال ابن عباسُ عطاء ومجاهد وابن جريج هم أهل الفارس فإنهم كانوا أشد بأمن من غيرهم دعا الناس عمر بن الخطاب إلى قتالهم فالآية دليل على خلافة عمر المبنية على خلافة أبي بكر ومعنى يسلمون حينئذ ينقادون لإعطاء الجزية والجملتين المتعاطفتين بدال من ستدعون ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ لداعي ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ يعني الجنة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ توليا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ ذلك عام الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ لتضاعف جرمكم قال البغوي فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة كيف بنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ ضيق وشدة وعذاب في ترك الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الجهاد وغير ذلك ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي يعرض عن الطاعة بعد القلة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ قرأ نافع وابن عامر ندخله ونعذبه بالنون على المتكلم، والباقون بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الله سبُحانه.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿۞ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني بالحديبية هذه الجملة متصلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[1] الآية تأكيد لها وما بينهما معترضاتُ بهذه الآية سميت البيعة بيعة الرضوان والغرض من هذه الآية مدح المؤمنين والثناء عليهم ومما سبق حثهم على إيفاء ما جاؤا عليه، وفي الصحيحين عن جابر بن عبد اللّه قال كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض»[2] وروى مسلم عن أم بشر مرفوعاً: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة».

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ ويعني القى عليهم الطمأنينة بالحضور عند ذكر الله تعالى والرضا بما أمر الله تعالى فوق الرضا بما تشتهيه نفوسهم ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا﴾ يعني فتح خيبر ﴿قَرِيبًا﴾ قيل أقام النبيّ ﷺ بالمدينة بعد الرجوع من الحديبية عشر ليال كذا عند ابن عائد عن ابن عباسَ وعند سليمان التيمي خمسة عشر، وذكر ابن عقبة عن ابن شهاب أقام بالمدينة عشرين ليلة في حديث المسور ومروان عند ابن إسحق أنه عليه السلام قدم المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم وكان فتح خيبر في سفر سنة سبع كذا في المغازي للواقدي، قال الحافظ أنه الراجح نقل الحاكم عن الواقدي ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ روىٰ البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر، وعن ابن عمر قال ما شبعنا من التمر حتى فتحت خيبر، قال الحافظ محمد بن يوسف الصالحي أن خيبر اسم ولاية مشتملة على حصون ومزارع ونخل كثيرة على ثلاثة أيام من الحديبية عى يسار حاج الشام ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي الفتوح التي يفتح لهم إلى يوم القيامة فيه تسلية للمؤمنين إنصرافهم من مكة بصلح ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ يعني فتح خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ قال البغوي ذلك أن النبي ﷺ لما حاصر خيبر همت قبائل من بني أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة فكف الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، وقال ابن إسحاق كانت غطفان مظاهرين يهود خيبر على رسول الله ﷺ أن غطفان لما سمعوا بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر خرجوا ليظاهروا يهود عليه فلما ساروا سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية (٣٩٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (١٨٥٦).

فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر، وروى ابن قانع والبغوي وأبو نعيم في العرفة عن سعيد بن شتيم عن أبيه(رض) أنه كان في جيش عيينة بن حصين في خيل غطفان لما جاء يمر خيبر قال فسمعنا صوتاً في عسكر عيينة أيها الناس أهليكم خولفتم فيه قال فرجعوا لا يتناظرون فلم تر لذلك بنا وما تراه كان إلا من قبل السماء، وقيل كف الناس عنكم يعني بأهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ عطف على محذوفه لتكف أو نعجل أو لتأخذوا تقديره لتسلموا أو تغنمو لتكون أو علة لمحذوف تقديره وفعل ذلك لتكون الكفة أو الغنيمة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على صدقك فيما وعدتم من فتح مكة وغير ذلك ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة لفضل الله والتوكل عليه أو المعنى يثبتكم على الإسلام ويزيدكم بصيرة ويقيناً.

قصة غزوة خيبر إنه ﷺ استخلف على المدينة سباع بن عرفطة كذا روى أحمد وابن خزيمة والحاكم عن أبي هريرة ولما تجهز النبيّ ﷺ والناس شق على يهود المدينة ولم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، روى أحمد والطبراني عن أبي حدرد أنه كان لأبي شحم اليهودي عليه خمسة دراهم فلزمه فقال أجلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك قد وعد الله نبيه أن يغنم خيبر، فقال أبو شحم أتحسب أن قتال خيبر مثل قتال ما تلقون من الأعراب والتوراة فيها عشرة آلاف مقاتل وترافعا إلى رسول الله ﷺ فقال عليه السلام أعطه حقه فخرجت فبعت ثوبي بثلاثة دراهم الحديث، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الصهاء وهي أدنى خيبر دعانا لا زواد فلم يؤت إلا السويق فترى فأكل وأكلنا معه ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلّى ولم يتوضأ رواه البخاري والبيهقي، قال محمد بن عمر ثم سار النبيُّ ﷺ حتى اتى إلى المنزلة التي وهي يسوق الخيبر صارت في سهم زيد بن ثابت فعرس رسول الله ﷺ بها ساعة من الليل وكانت يهود لا يظنون قبل ذلك أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وسلاحهم وعدوهم فلما أحسوا الخروج النبيّ ﷺ كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون محمد تغيرونا هيهات هيهات وكان ذلك شأنهم، فلما نزل رسول الله ﷺ بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ولم يصحح لهم ديك حتى طلعت الشمس فأصبحوا وافئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وفي الصحيحين سار رسول الله ﷺ إلى خيبر فأنتهى إليها ليلا وكان عليه السلام إذا طرق قوماً لم يغتر عليهم حتى يصبح فإذا سمع أذاناً امسك وإذا لم يسمع غار حتى يصبح فصلنا الصبح عند خيبر بغلس فلم يسمع أذاناً فلما أصبح ركب وركب المسلمون وخرج أهل قرية إلى مزارعهم بمكاتلهمُ ومساحيهم فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا محمد

والخميس فأدبروا هاربين فقال رسول الله ﷺ ورفع يديه «**الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساح صباح المنذرين**»(١) وإبتدأ بأهل نطاة وصف رسول الله ﷺ ووعظهم ونهاهم عن القتال حتى يأذن لهم فعمل رجل من أشجع على يهودي وحمل عليه اليهودي فقتله فقال الناس استشهد فلان فقال رسول الله ﷺ بعد ما نهيت من القتال قالوا نعم فأمر رسول الله ﷺ منادياً في الناس «**لا تحل الجنة لعاص**» وروى الطبراني عن جابر أن رسول الله ﷺ قال يومئذ «لا تتمنوا لقاء العدو واسئلوا الله العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به فإذا لقيتم فقولوا اللّهم ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ثم ألزموا الأرض جلوساً فإذا عشوكم فانهضوا وكبروا» الحديث، قال ابن إسحاق ومحمد بن عمرو بن سعيد فرق رسول الله ﷺ الرايات وأذن للناس في قتال وحثهم على الصبر وأول حصن حاصره من النطاة ناعم وقاتل أشد القتال وقاتله أهل نطاة أشد القتال فلما أمسى تحول إلى الرجيع فكان رسول الله صلعم يغدو على راياتهم حتى فتح الله الحصن عليهم، روى البيهقي وأبو نعيم ومحمد بن عمر أن المسلمين لما قدموا خيبر قدموا على ثمرة خضراء وهي ديئية وختمة فأكلوا منها فأخذهم الحمى فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال فرسوا الماء في الشنان فإذا كان بين الأذانين يعني من الصبح فآحذروا الماء واذكروا إسم الله فكأنما نشطوا من العقل وبعد فتح ناعم حاصروا حصن الصعب بن معاذ، روى محمد بن عمرو عن أبي أيسر كعب بن عمر أنهم حاصروه ثلاثة أيام وكان حصناً منيعاً، روى ابن إسحاق عن رجل من أسلم ومحمد بن عمر عن معتب الأسلمي قال أصابتنا معشر أسلم مجاعة حتى قدمنا خيبر وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة لا يفتح شيئاً فيها طعام فأرسلوا أسماء بن حارثة إلى رسول الله ﷺ فقال أن أسلم يقرأ عليك السلام ويقول أنا قد جهدنا من الجوع والضعف فادع الله لنا فقال رسول الله ﷺ ما بيدي ما أقوتهم به قد علمت حالهم ثم قال: «**اللّهم فافتح عليهم الأعظم حصناً فيها أكثره ودكا**» ودفع اللواء إلى حباب بن المنذر وندب الناس فما رجعنا حتى فتح الله حصن الصعب بن معاذ وما بخيبر حصن أكثر طعاماً وودكا منه برز لحباب يوشع اليهودي فقتله حباب ثم برز له الزيال فبادره عمارة بن عقبة الغفاري فقال الناس بطل جهاده فقال عليه الصلاة والسلام ما بأس به يؤجر ويحمد، روى محمد بن عمرو عن جابر إنهم وجدوا في حصن الصعب من الطعام ما يكونوا يظنون من الشعير والتمر والسمنُ والعسل والزيت والودك ونادى منادى رسول الله ﷺ كلوا أو امقلوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (٣٩٩٩).

ولا تحملوا يعني لا تخرجوا به إلى بلادكم، روى البيهقي عن محمد بن عمرو قال لما تحولت اليهود من حصن الناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلة الزبير يعني حصن الزبير بن العوام (رض) الذي صار في سهمه بعد وهو حصن على رأس قلة فأقام محاصرهم ثلاثة أيام فجاء اليهودي، يدعي غزال فقال يا أبا قاسم تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل ونخرج إلى الشق فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله فقال اليهودي إنك لو أقمت شهراً ما بالوا لهم ذيول تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمنعون منك فإن قطعت عنهم شربهم أصحروا لك، فسار رسول الله ﷺ إلى ذيولهم فقطعها فلما قطع عليهم مشاريهم خرجوا وقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة واقتحم رسول الله ﷺ هذا اخرصون النطاة فلما فرغ من النطاة تحول إلى الشق وأول حصن بدأ به منها حصن على قلعة يقال لها سموان فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً، خرج رجل من اليهود يقال له غزول فقتله حباب ين المنذر فخرج رجل آخر من يهود فقتله أبو دجانة وأخذ درعه وسيفه جاء به إلى رسول الله ﷺ فنفله رسول الله ﷺ ذلك، وأحجم اليهود عن البراز فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه يقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً فهرب من كان فيه من المقاتلة حتى صاروا إلى حصن النزل بالشق وجعل يأتي من بقي من خل النطاة إلى حصن البنزال فغلقوه وأمتنعوا فيه أشد الإمتناع ورجف رسول الله ﷺ في أصحابه فقاتلهم وكانوا أشد أهل الشق رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة ورسول الله ﷺ معهم حتى أصاب النبل ثياب النبيّ ﷺ وعلقت به فأخذ رسول الله ﷺ النبل فجمعها ثم أخذ لهم كفاً من حصى فحصب به حصنهم فرجف الحصن بهم ثم ساخ في الأرض حتى المسلمون فأخذوا أهله أخذاً، ولما فتح رسول الله ﷺ حصون النطاة والشق أنهزم من سلم منهم إلى حصون الكتيبة وأعظم حصونها القموص وكان حصناً منيعاً ذكر ابن أبي عقبة أن رسول الله ﷺ حاصره قريباً من عشرين ليلة وكانت أرضاً وخمة، روى الشيخان عن سهل بن سعد والبخاري وأبو نعيم عن سلمة بن الأكوع وأبو نعيم عن عمرو ابن عباس وسعد بن أبي وقاص الخدري وعمر بن حصين وجابر بن عبد الله ومسلم والبيهقي عن أبي هريرة وأحمد وأبو يعلى والبيهقي عن علي وأبو نعيم والبيهقي عن بريدة قال بريدة كان رسول الله ﷺ يأخذه الشقيقة فيمكث اليوم واليومين ولا يخرج فلما نزل خيبراً أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فأرسل أبا بكر فأخذ راية رسول الله ﷺ فقاتل قتالاً شديداً ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول ثم رجع ولم يكن فتح وفي حديث على أن الغلبة كانت

لليهود في اليومين فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال «**لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه ليس بفرار يحب الله ورسوله ويأخذها عنوة**» وقال بريدة.

فتباطينا نفساً أن يفتح غداً ويأت الناس ليلتهم أيهم يعطي فلما أصبح غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يعطيها تآلى أبو هريرة، قال عمر فما أحببت الإمارة قط حتى كان يومئذ فلما أصبح رسول الله ﷺ الغداة، ثم دعا باللواء وقام قائماً قال ابن شهاب فوعظ الناس ثم قال أين عليٌّ؟ قالوا تشتكي عينه فأرسلوا إليه قال سلمة فجئت به أقوده، فقال له رسول الله ﷺ مالك؟ قال رمدت حتى لا أبصر ما قدامي، قال أدن مني وفي حديث علي عند الحاكم فوضع رأسي في حجره ثم بزق في يده فدلك بها عيني قالوا فبرء كأن لم يكن به وجع قط فما وجعهما حتى مضى لسبيله ودعا له وأعطاه الراية، قال يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا قال نفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله وحق رسوله فواللّه لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم» فخرج علي حتى ركزها تحت الحصن فاطلع يهودي من رأس الحصن فقال من أنت؟ قال علي، قال اليهودي غلبتم والذي أنزل التوراة على موسىٰ فما رجع حتى فتح الله على يديه، روى محمد بن عمرو عن جابر قال أول من خرج من حصون خيبر مبارز الحارث أخو مرحب فقتله علي رضى الله عنه ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن وبرز عامر وكان رجلاً طويلاً جسيماً فقال النبيّ ﷺ طلع عامر أترونه خمسة أذرع وهو يدعو إلى البراز فخرج إليه علي بن أبي طالب فقتله ثم برز ياسر «فبرز له علي بن أبي طالب فقال له الزبير بن العوام» أقسمت عليك إلاخلية بيني وبينه ففعل فقالت صفية لما خرج إليه الزبير قلت يا رسول الله يقتل ابني فقال رسول الله ﷺ بل ابنك يقتله إن شاء الله تعالى فقتله الزبير فقال عليه السلام فداك عم وقال «**لكل نبي حواري وحواري الزبير**»[1].

وفي حديث سلمة بن الأكوع خرج مرحب يرتجز فقتله علي، وروى أحمد عن علي قال لما قتلت مرحباً جئت برأسه إلى رسول الله ﷺ، وروى البيهقي ومحمد بن عمر عن جابر بن عبد اللّه أن محمد بن مسلمة قتل مرحباً والصحيح ما في صحيح مسلم أن عليا قاتله وروى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال خرجنا مع عليٍّ حين بعثه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (٣٩٦٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر (١٣٦٥).

رسول الله ﷺ، فلما دنى من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فقربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول عليٌّ باباً كان عند الحصن فترّس به من نفسه فلم يزل بيده وهو يقاتل حتى فتح الله ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فلم نقلبه.

وروى البيهقي من طريقين عن المطلب بن زياد عن ليث بن سليم عن أبي جعفر محمد ابن علي عن آبائه قال حدثني جابر بن عبد اللّه أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد عليه المسلمون فاقتحموها وأنه جرب ذلك فلم يحمله أربعون رجل ورجاله ثقات إلا ليث بن سليم هو ضعيف قال البيهقي وروي من وجه آخر ضعيف عن جابر قال إجتمع عليه سبعون رجلاً وكان جهدهم أن أعادوا الباب، وقال الصالحي قال ورواه الحاكم والله أعلم وأصاب من الغموض حصن إلى الحقيق سبايا منهم صفية بنت حيي بن أخطب جاء بلال بها وبأخرى معها فمر بهما على قتلى يهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها فلما رآها رسول الله ﷺ «قال أغربوا هذه الشيطانة» وأمر بصفية فخرجت خلفه وألقى عليها ردائه فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ إصطفاها لنفسه وقال رسول الله ﷺ لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى «أنزعت منك الرحمة يا بلال جئت بامرأتين على قتلى رجالهما» وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال يا هذا ألا إنك تتمنين ملك الحجاز محمداً فلطم وجهها لطمة اخضرت عينها فيها فأتى رسول الله ﷺ بها وبها أثر منها فسألها فأخبرته هذا الخبر.

وفي رواية جاء دحية فقال يا نبيّ الله اعطيني جارية من السبي فقال إذهب فخذ جارية فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال يا نبيّ الله أعطيت دحية بنت حيي سيدة قريظة والنضير لا تصلح إلا لك، قال أدعوه بها فجاء بها فلما نظر إليها النبيّ ﷺ قال خذ جارية من السبي غيرها قال فأعتقها النبيّ ﷺ وتزوجها حتى إذا كان الطريق جهزها له أم سلمة فأهدتها له من الليل فأصبح النبيّ ﷺ عروساً فقال من كان عنده شيء في قلبه به وبسط نطعا فجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الآخر يجيء بالسمن قال وأحسبه قد ذكر السويق فحاسو حيساً وكان وليمة رسول الله ﷺ، قال ثابت يا أبا حمزة ما أصدقها قال نفسها أعتقها وتزوجها، وفي الصحيحين عن عبد اللّه بن أبي أوفى قال أصابتنا مجاعة ليالي خيبر فلما كان يوم خيبر وقضا في الحمر الإنسية فانتحرناها فلما

غلت القدر ونادى منادي رسول الله ﷺ أن ألقوا القدور ولا تأكلوا لحوم الحمر شيئاً[١]، وعن ابن عباس قال نهى رسول الله ﷺ عن بيع المغانم حتى تقسم وعن الحبالى أن توطأ حتى يضعن ما في بطونهن قال أتسقي زرع غيرك وعن لحوم الحمر الأهلية وعن لحم كل ذي ناب من السباع رواه الدارقطني روى محمد بن عمرو عدة الحمر التي ذبحوها كانت عشرين أو ثلاثين، قال ابن إسحاق كان رسول الله ﷺ يأخذ الأموال مالاً مالاً ويفتحها حصناً حصناً حتى انتهوا إلى الحصنين الوطيح والسلالم وكانا آخر حصون خيبر فتحاً فجعل اليهود لا يطلعون من حصنهم حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق حين رأى أنه لا يبرز منهم أحد ولا أيقنوا بالهلكة، وقد حضرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً سألوا رسول الله ﷺ الصلح وأرسل كنانة بن أبي الحقيق رجلاً من اليهود يقال له شماخ فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بمن لديهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى التبر إلا ثوباً على ظهر إنسان فقال رسول الله ﷺ برأت ذمة الله وذمة رسوله أن تكتموا شيئاً فصالحوه على ذلك فقبضها رسول الله ﷺ الأول فالأول وجد من ذينك الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وخمسمائة قوس عربية بجعابها ووجد في الكثيبة خمسمائة قوس بجعابها، روى ابن سعد والبيهقي عن ابن عمر وابن سعد عن ابن عباس فذكر الصلح كما ذكرنا أن لا يكتموه شيئاً فإن فعلوا فلا ذمة لهم، قال ابن عباس فأتي بكنانة بن أبي الحقيق لزوج صفية والربيع أخوه وابن عمه قال رسول الله ﷺ ما فعل مسك حيي الذي جاء به النضير؟ وكان مسكاً مملوءاً من الحلي، قالا أذهبه النفقات والحروب، فقال العهد قريب والمال أكثر من ذلك فقال بهما رسول الله ﷺ إنكما إن كتمتماني شيئاً فإن إطلعت عليه استحللت به دمائكما وذراريكما قال نعم قال عروة ومحمد بن عمر فيما روى البيهقي عنهما فأخبر الله تعالى نبيه بموضع الكنز، وقال عليه الصلاة والسلام لكنانة إنك مفتر بأمر السماء فدعا رجلاً من الأنصار وقال اذهب إلى فراخ كذا وكذا فانظر نخلة عن يمينك ونخلة عن شمالك فأتني بما فيها فجاء بالآنية والأموال فقومت بعشرة آلاف دينار فضرب أعناقهما وسبى أهلها بالنكث الذي نكثاه. روى البخاري عن ابن عمر والبيهقي عنه وعن عروة وعن موسى بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في لواء النبي ﷺ (٢٨١٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٧).

عقبة أن خيبر لما فتحها رسول الله ﷺ قالوا دعنا يا محمد نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها فأعطاهم رسول الله ﷺ على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل وشحٌ ما بدأ لرسول الله ﷺ في لفظ نقركم على ذلك ما شئنا في لفظنا أقركم الله، وكان عبد اللّٰه بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرجها عليهم ثم يقمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ﷺ ابن رواحة وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فقال يا أعداء الله أتطعموني السحت والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن أعدل عليكم فقالوا بهذا أقامت السموات والأرض فأقاموا بأرضهم على ذلك فلما كان زمن عمر غشوا المسلمين وألقوا عبد اللّٰه بن عمر من فوق بيت ففدعوا يديه ويقال بل سحروه بالليل وهو نائم على فراشه فكوع حين أصبح كأنه في وثاق وجاء أصحابه فأصلحوا من يديه فقام عمر خطيباً في الناس فقال أن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال نقركم ما أقركم الله وإن عبد اللّٰه بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدى عليه من الليل ففدعت يداه وليس لنا هناك عدو غيرهم وهم تحنا وقد رأيت إجلائهم فمن كان أن هم بخيبر فليحضر حتى يقسمها فلما أجمعها على ذلك قال رئيسهم وهو أحد بني أبي الحقيق لا تخرجنا دعنا نكون فيها كما أقرنا أبو القاسم وأبو بكر فقال عمر لرئيسهم أتراه سقط عن قول رسول الله ﷺ كيف بك إذا خرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة فقاتلك هزيلة من أبي القاسم قال كذبت وأجلاهم عمر.

روى الشيخان عن أنس وأحمد وابن سعد وأبو نعيم عن ابن عباس وغيرهم عن جابر وأبي سعيد وأبي هريرة والزهري أن زينب بنت الحارث امرأة لسلامة بن مشكم ابنة أخي مرحب أهدت لصفية شاة مسمومة مصلية وقد قالت أي عضو الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها الذراع، فأكثرت فيها من السم ثم سمت سائر الشاة فدخل رسول الله ﷺ على صفية ومعه بشر بن البراء بن معرور فقدمت الشاة المصلية فتناول النبيّ ﷺ الذراع فانتهس منها فلاكها وتناول بشر بن البراء عظماً فانتهس منه، قال ابن إسحاق أما بشر فساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظهما، وقال ابن شهاب فلما اشترط رسول الله ﷺ اللقمة إشترط بشر فقال رسول الله ﷺ إرفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة تخبرني أني بقيت فيها، فقال بشر بن البراء والذي أكرمك لقد وجدت كذلك في أكلتي فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمت أن طعاماً فلما سفت ما في فيك لم أكن لأرغب نفسي عن نفسك ورجوت أن لا تكون إشترطها وفيها بغي فلم يقم بشر من مقامه حتى عاد لونه كالطيلسان ومات واحتجم

رسول الله ﷺ كامله يومئذ حجمه أبو هند وبقي رسول الله ﷺ حتى كان وجعه الذي توفي فيه فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة المسمومة يوم خيبر حتى كان هذا أوان قطع أبهري» فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً فأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية أسممت هذه الشاة فقالت من أخبرك؟ قال أخبرتني هذا الذي في يدي وهي الذراع، قالت نعم، قال ماحملك على ما صنعت؟ قالت بلغت من قومي عالم يخفك عليك فقلت إن كان ملكاً استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر فتجاوز عنها[١]، وروى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري أنها أسلمت وتركها رسول الله ﷺ وجزم بإسلامها سليمان التيمي ولفظ بعد قولها وإن كنت كاذبا أرحت الناس منك وقد استبان بي أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضرك أني على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله قال فانصرف رسول الله ﷺ عنها حين أسلمت، ووقع عند البزار من حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ بعد سؤاله للمرأة اليهودية واعترافها بسط يده إلى الشاة وقال لأصحابه كلوا بسم الله قال فأكلنا وذكرنا اسم الله فلم يضر أحداً منا، قال الحافظ حماد الدين فيه نكارة وغرابة شديدة وذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أمر بلحم الشاة فأحرق، وعن جابر أن رسول الله ﷺ لما مات بشر بن البراء أمر باليهودية فقتلت[٢]» رواه أبو داود وعن محمد بن عمر بأسانيد له فدفعها إلى أولياء بشر بن البراء فقتلوها، قال البيهقي يحتمل أنه تركها أولاً قال السهيلي تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه ثم قتلها ببشر قصاصاً قال الحافظ تركها لكونها أسلمت وإنما أخرّ قتلها حتى مات بشر لأن بموته يتحقق وجوب القصاص.

قصة قدوم جعفر؛ عن أبي موسى الأشعري قال لما بلغنا فخرج النبيّ ﷺ يعني من مكة ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه فألقتنا سفينتنا بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب (رض) فقال جعفر أن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر فأسهم لنا وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا لمن شهد معه إلا أصحاب سفينتنا، ولما قدم جعفر قال رسول الله ﷺ «**والله لا أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**» ولما نظر جعفر إلى رسول الله ﷺ خجل وقال رسول الله ﷺ لأصحاب جعفر «لكم هجرتان» وقبل رسول الله ﷺ جعفر بين عينيه رواه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: هل يبعث الطليعة وحده (٢٦٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: ما يصيب من الطعام في أرض الحرب (٢٩٨٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيد والذبائح، باب: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية (١٩٣٧).

البيهقي **قصة قدوم أبي هريرة والأدسيين** وعن أبي هريرة قدمت المدينة ونحن ثمانون بيننا من دوس ثم جئنا خيبر وقد فتح رسول الله ﷺ النطاة وهو محاصر لكتيبة فأقمنا حتى فتح الله علينا فكلم المسلمين فأشركنا في سهماتهم رواه أحمد والبخاري في التاريخ والحاكم والبيهقي وابن خزيمة والطحاوي. **قصة فدك**، فلما سمع أهل فدك بما صنع رسول الله ﷺ بخيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه الصلح أن يسيرهم ويحقن لهم دمائهم ويخلو الأموال ففعل على أنا إذا شئنا أخرجناكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خيبر للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب فأجلاهم عمر لما أجلى يهود خيبر.

قسمة خيبر: ولما كان فتح الوطيع والسلالم بالصلح فكان هذا لنوائب المسلمين وأعطىٰ منه رسول الله ﷺ الأشعري بين الدوسيين أصحاب السفينتين وهو المراد من قول موسى بن عقبة أن بعض خيبر كان صلحاً وكان مشاورة رسول الله ﷺ أهل الحديبية في إعطائهم ليس استنزالهم عن شيء من حقهم وإنما هي المشورة العامة ﴿وشاورهم في الأمر﴾[1] قال ابن إسحاق وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق والنطاة والكثيبة وكانت الكثيبة خمس الله سهم النبيّ ﷺ وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وطعم أزواج النبيّ ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح منهم محيصة بن مسعود أعطاه ثلاثين وسقاً من شعير وثلاثين وسقا من تمر وكانت النطاة والشق في أسهم الغزاة جزاها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً نطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهماً قسمت على أهل الحديبية من شهد خيبر منهم ومن غاب عنها ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد اللّٰه بن حرام قسم له كسهم من حضر كانوا ألفاً وأربعمائة رجلاً ومائتي فرس كان لفرس سهماً ولفارسه سهم وكان لكل رجل سهم وكان سهم رسول الله ﷺ كسهم أحدهم وكان لكل سهم من سهام خيبر ثمانية عشر رأساً جمع إلى رأس مائة سهم كان علي بن أبي طالب رأساً والزبير بن العوام رأساً وسرد ذلك ابن إسحاق إلى آخره، قال ابن سعد أمر رسول الله ﷺ فجزّأ غنائم خيبر خمسة أجزاء فكتب في سهم منها للّٰه وسائر السهمان إغفال وقسم أربعة أخمس على ثمانية عشر سهماً كل مائة رجل وللخيل أربعة أسهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الديات، باب فيمن سقى رجلاً سماً فمات أو أطعمه فمات أيقاد منه (٤٥٠٢).

قصة فتح وادي القرى: لما أنصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا ففتحها رسول الله ﷺ عنوة وغنمه بعالي أموال أهلها وأصاب المسلمون منها أثاثاً ومتاعاً فخمس رسول الله ﷺ ذلك وترك الأرض في أيدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر، ﴿وأُخْرَىٰ منصوب عطفاً على مغانم كثيرة يعني أو عدكم مغانم أخرى أو عطفا على هذه يعني عجل لكم مغانم أخرى بعد هذا أو بفعل محذوف يفسره قد أحاط الله بها يعني قضى لكم مغانم أخرى وعلى التقادير كلها قوله تعالى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ صفة أخرى وجاز أن يكون أخرى مرفوعاً على الابتداء ولم تقدروا عليها صفة له وقوله تعالى ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ خبر المبتدأ أو يكون لم تقدروا عليها خبر المبتدأ وقد أحاط الله حال من الضمير في عليها والمراد بمغانم فارس والروم وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم وكان قولاً لهم حتى قدروا عليها بالإسلام كذا قال ابن عباس والحسن والمقاتل وقال قتادة هي مكة وقال عكرمة حنين، وقال مجاهد كل ما فتح الله بعد ذلك وقد أحاط الله بها أي استولى فأظفركم أو أحاط الله بها علماً أن يفتحها لكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، وإن لم تقدروا عليها ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ ينصرهم سنة الله منصور على المصدرية يعني سن الله سنة غلبة أوليائه وأنبيائه على أعدائه قال الله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[1] وقال ﴿إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2] ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت تلك السنة قديماً في الأمم السابقة ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغيراً.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ قد مر فيما سبق من حديث أنس أن ثمانين رجلاً من أهل مكة في رواية سبعين هبطوا من جبل التنعيم فأخذوا فعفى النبيّ ﷺ عنهم فنزلت هذه الآية، ومن حديث عبد اللّه بن مغفل وفيه إذ خرج علينا ثلاثون شابا الحديث ومن حديث مسلم بن أكوع اخترطت سيف علي أربعة الحديث ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الكفار والباقون بالتاء على الخطاب للمؤمنين ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازي كلا على حسب ما فعل ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أهل مكة ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن تطوفوه ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ وهي ما يهدي إلى مكة من الإبل والبقر والشاة ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ﴾ الهدى معطوف على الضمير المنصوب في صدوكم وأن يبلغ معطوف على عن المسجد الحرام فتقدير عن من قبيل العطف على معمولي عامل واحد بحرف واحد وجاز أن يكون أن يبلغ متعلقاً بمعكوفاً بتقدير من ومعكوفاً حال من الهدى ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ يعني الحرام فإنه موضع حلول أجله، احتج الحنفية على أنه لا يجوز ذبح الهدايا إلا في الحرم والمحصر يرسل الهدي إلى مكة وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾(١) ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ يعني لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين أو لم تعلموهم مؤمنين ورجال مبتدأ موصوف بصفات بعد لولا الإمتناعية ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل إشتمال من المبتدأ بتقدير المضاف والخبر محذوف يعني هو موجودين بمكة وجواب لولا محذوف أغنى عنه جواب لو تزيلوا يعني لولا كراهة أن تطؤُ المؤمنين عند نصرنا وغلبتكم عليهم لعذبنا الذين كفروا بالقتل والأسر ﴿فَتُصِيبَكُم﴾ عطف على تطؤهم ﴿مِّنْهُم﴾ أي من جهنم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ قال ابن زيد أثم فإن قتل الخطأ لا يخلوا عن إثم كما يدل عليه وجوب الكفارة وقال ابن إسحاق غرم الدية وقيل الكفارة، وقيل معناه الحرب وأطلق ههنا على المضرة مطلقا تشبيها بالحرب ومن المضرة التأسف على قتل المؤمنين وتعبير الكفار بذلك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بأن تطؤهم أو تصيبكم عى سبيل التنازع، أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال قاتلت النبيّ ﷺ أول النهار كافرا وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة وفينا نزلت ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ﴾ ومتعلق بحذوف دل عليه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

السياق أي كان ذلك المنع من دخول مكة عنوة ليدخل الله ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في دينه وجنته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من أهل مكة فقد آمن كثير من المشركين يوم الفتح وقيل ذلك أو المعنى ليدخل الله المؤمنين المستضعفين في رحمته الدنيوية من العافية وطول البقاء ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي تفرقوا وامتاز المسلمون من الكفار ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل مكة في الدينا بالقتل والأسر ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ جعل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ظرف متعلق بقوله عذبنا أو صدوكم أو مفعول لمحذوف أي اذكر ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ حيث صدوا رسول الله ﷺ عن الطواف وأنكروا بسم الله الرحمان الرحيم وأنكروا محمداً رسول الله، قال مقاتل قال أهل مكة قد قتلوا أبنائنا وإخواننا ثم يدخلون علينا فتحدث العرب انهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخلونها فهذه ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من الحمية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث اطمئنوا وامتثلوا أمر الله تعالى في المنع عن القتال مع قدرتهم عليه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدي وابن زيد وأكثر المفسرين أنها لا إله إلا الله والله أكبر، وقال عطاء ابن أبي رباح هي لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، قال عطاء الخراساني هي لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقال الزهري هي بسم الله الرحمان الرحيم والمآل واحد وإضافة الكلمة في التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها والمراد كلمة أهل التقوى المراد بإلزامهم إياها ثباتهم عليها بترك الحمية ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ من كفار مكة ﴿وَأَهْلَهَا﴾ ما يعني كانوا أهلها في علم الله تعالى ولذلك إختارهم لتأيد دينه وصحبة نبيه ﷺ وهذه الآية وقوله تعالى: لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم﴾[1] يبطل مذهب الروافض حيث يدعون كفر الصحابة ونفاقهم دمرهم الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ حتى بما أضمره الصحابة(رض) من الإيمان وحب رسول الله ﷺ ﴿عَلِيمًا﴾ ولما وقع الصلح وتقرر الرجوع إلى المدينة بغير دخول مكة وقد كان رسول الله ﷺ رأى رؤيا أن يدخلها كما ذكرنا في القصة قال الصحابة(رض) أين رؤياك يا رسول الله ﷺ؟ فنزلت الآية:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ

(١) سورة الفتح، الآية: ١٨.

فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ كذا ذكر البيهقي وغيره عن مجاهد والجملة جواب قسم محذوف أولا بصيغة الماضي والمراد به المستقبل ليدل على القطع في وقوعه، قال الجوهري الصدق والكذب يكونان في القول يعني الخبر إذا طابق الواقع كان صدقاً لا كذبا ويستعملان في الفعل أيضاً فالصدق بمعنى التحقيق قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾[1] يعني حققوا العهد وفي هذه الآية أيضاً صدق فعل يعني حقق الله رؤيا الرسول الله ﷺ وعلى هذا الرؤيا بدل اشتمال من رسوله وجاز أن يكون رسوله منصوباً بنزع الخافض يعني حقق لرسوله الرؤيا أيضاً، قال الجوهري الصدق قد يتعدى إلى مفعولين قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾[2] وعلى هذا رسوله المفعول الأول والرؤيا مفعوله الثاني، وقال البيضاوي معناه صدقه في رؤياه، قال في المدارك حذف الجار وأوصل الفعل ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق أي الحكمة البالغة حال من الرؤيا أو صفة لمصدر محذوف أي صدقاً متلبساً بالحق وهو القصد إلى التمييز بين الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه وجاز أن يكون بالحق قسماً إما باسم الله تعالى وبنقيض الباطل وجوابه ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ وعلى الأولين هذا جواب وقسم محذوف، وقال ابن كيسان لتدخلن من قول رسول الله ﷺ لأصحابه حكاية عن رؤياه فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك وجاز أن يكون من قول ملك الرؤيا حكاه الله تعالى وعلى التقديرين تقييدة ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ومع كون الرسول الله ﷺ والملك على يقين منه تأدباً بآداب الله تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[3] قال أبو عبيدة

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

أن بمعنى إذ مجازه إذ شاء الله، وقال الحسن بن الفضيل يجوز أن يكون الاستثناء من الدخول لأن بين الرؤيا وتصديقها كانت سنة وقد مات في تلك السنة فمجاز الآية ليدخلن المسجد الحرام كل واحد منكم إنشاء الله ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من فاعل لتدخلن والشرط مفترض ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ لا يعني محلقين قوم منكم جميع شعور رؤسهم ومقصرين آخرين بعض شعورها حالان من الضمير في آمنين أو حال مقدرة من فاعل لتدخلن ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة لآمنين أو استئناف يعني لا تخافون بعد ذلك ﴿فَعَلِمَ﴾ الفاء للسببية عطف على محذوف تقديره آخر الدخول لحكمة فعلم من الحكمة في التأخير ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ﴾ عطف على آخر المقدر ﴿مِن دُونِ﴾ أي أقرب من ﴿ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني فتح خيبر أو صلح الحديبية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ أي متلبساً به أو السببية أو لأجله ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ لم يعني جنس الأديان كلها بنسخ ما كان حقاً وإظهار فساد ما كان باطلاً بالحجج والآيات أو بتسليط المسلمين على أهلها في وقت من الأوقات ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ الباء زائدة ﴿شَهِيدًا﴾ حال من الله أو تميز من النسبة يعني كفى الله شاهداً أو كفى شهادة الله على ما وعد من الفتح أو على رسالة الرسول بإظهار المعجزات على يديه وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من دخول المسجد الحرام وكلتاهما تأكيد أن لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ وما بينهما معترضات ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ جملة مبنية للمشهود به ويجوز أن يكون رسول الله صفة ومحمد خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي أرسله بالهدى محمداً ومبتدأ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف عليه وما بعده خبرهما والموصول مبتدأ وما بعده خبره والجملة معطوف على الجملة ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ إمتثالاً لأمر الله تعالى حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(١) وقال ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾(٢) وقال ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(٣) وأمثال ذلك كثيرة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ويعني يتراحمون فيما بينهم ويتوادون حباً لله ولرسوله فإن محب المحبوب محبوب في الحديث القدسي «**أين المتحابون في جلالي اليوم أظلهم تحت ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، وسيجيء قوله ﷺ «**من أحبهم فبحبه أحبهم**» **ونظير هذه الآية قوله تعالى:**

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: في فضل الحب في الله (٢٥٦٦).

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] رغم أنف الروافض الذين يزعمون أن أصحاب محمد كانوا يتباغضون بينهم ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ حمد ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يا محمد لاشتغالهم بالصلاة في كثير من الأوقات فإن الصلاة معراج المؤمنين حالان مترادفان من ضمير المنصوب في تراهم وكذلك ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الثواب بالجنة ورؤية الله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ منه تعالى ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ مبتدأ وخبر والجملة خبر لما سبق ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال من الضمير المستكن في الظرف قال قوم هونورو بياض وجوهم يوم القيامة يعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا وهي رواية العوفي عن ابن عباس، وقال عطار بن أبي رباح والربيع بن أنس إستنارت وجوههم في الدنيا من كثرة الصلاة، وقال شهر بن حوشب يكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر يعني في الآخرة، وقال قوم هو السمت الحسن والخشوع والتواضع وهي رواية الوالبي عن ابن عباس وهو قول مجاهد، وقال الضحاك صفرة الوجه من السهر، وقال الحسن إذا رأتهم حسبتهم مرضى وما هم مرضى، وقال عكرمة وسعيد بن جبير هو أثر التراب على الجباه، وقال أبو العالية لأنهم كانوا يسجدون على التراب دون الأثواب يعني تواضعاً ذلك المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ قال البغوي ههنا تم الكلام، ثم ذكر الله سبحانه ما في الإنجيل عن نعتهم فقال ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ الخ وجاز أن يكون مثلهم في الإنجيل معطوفاً على مثلهم في التوراة يعني ذلك مذكور في الكتابين وركون قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ﴾ الخ تمثيلاً مستأنفاً وجاز أن يكون ذلك الإشارة مبهمة يفسرها قوله تعالى ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ الجملة مع ما عطف عليه صفات زرع قرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء والباقون بإسكانها وهما لغتان بمعنى فروع الزرع أي أول ما خرج من الحب ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي صار من الرقة إلى الغلظ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق قرأ ابن كثير سؤقه بالهمزة والباقون بغير الهمزة ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافة وغلظه وقوته وحسن منظره هذين المثلين مر بهما الله تعالى: لأمتحان محمد ﷺ لكن الأول منهما يصدق على غير الصحابة أيضاً من خيار الأمة والثاني منهما مختص بالصحابة لا يشارك فيه أحد غيرهم فإن الله سبحانه أرسل محمدا ﷺ وحده كالزراع بذر في الأرض فآمن به أبو بكر وعلي وبلال ورجال متعددون بعدهم منهم عثمان وطلحة والزبير والسعد وسعيد وحمزة وجعفر وغيرهم حتى كان عمر متمم أربعين رجلاً كزرع أخرج شطأه، فكان الإسلام في بدو الأمر غريباً كاد الكفار يكونون عليه

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

لإمحائه لبداً لولا حماية الله تعالى فأزره الله تعالى بمجاهدات الصحابة من المهاجرين والأنصار حين سقوا زرعها الدين بدمائهم في حياة النبيّ ﷺ وبعد وفاته لا سيما في خلافة أبي بكر وعمر فاستوى الدين على سُوقه وظهر على الدين كله واستغنى عن حماية غيرهم بحيث يعجب الزراع حتى قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] وقال عليه الصلاة والسلام **«لا تجتمع أمتي على الضلالة»**[2] وقال **«لا تزال من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ومن خالفهم»**[3] ولأجل هذه الخصوصية سبقوا في مضمار الفضل على كل سابق بحيث لا يمكن لأحد من الأفاضل أن يبلغ درجة أي منهم حتى قال رسول الله ﷺ **«لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»** متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري وروى أحمد نحوه من حديث أنس، وقال رسول الله ﷺ **«ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة»**[4] رواه الترمذي عن بريدة وهذه الخصوصية هي مادة الفضل غالباً فيما بين الصحابة فمن كان أسبق إيماناً كأبي بكر أو أكثر موازرة للدين حين ضعفه كعمر كان أفضل ممن ليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[5] وقال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[6] وقد استوفينا فضائل الصحابة عموماً وخصوصاً ونقلاً وعقلاً في السيف ا لمسلول والله تعالى أعلم، قال البغوي هذا مثل ضربه الله عز وجل لأصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون، قال قتادة مثل أصحاب محمد في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقيل الزرع محمد والشطأة أصحابه والمؤمنون، وروي عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال محمد رسول الله والذين معه أبو بكر أشداء

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: السواد الأعظم (٣٩٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في الأئمة المضلين (٢٢٦٥)، وأخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر (٣٤٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٤٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في من سبَ أصحاب النبي ﷺ (٤٠٢٩).

(٦) سورة الحديد، الآية: ١٠.

على الكفار، عمر بن الخطاب رحماء بينهم عثمان بن عفان تراهم ركعاً سجداً علي بن أبي طالب يبتغون فضلاً من الله ورضواناً بقية العشرة المبشرة بالجنة كمثل زرع محمد ﷺ أخرج شطأه أبو بكر فأزره عمر فاستغلظ عثمان للإسلام فآستوى على سوقه علي بن أبي طالب إستقام الإسلام بسيفه يعجب الزراع، في المدارك عن عكرمة أخرج شطأه بأبي بكر الخ نحو ما ذكر والله تعالى أعلم، قال البغوي قال عمر لأهل مكة بعدما أسلم لا يعبد الله سراً بعد هذا اليوم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ الضمير في بهم عائد إلى الذين معه أو إلى شطأه من حيث المعنى فإن المراد بالشطأ الذي خرج بعد الزرع الداخلون في الإسلام الجار والمجرور متعلق بحذوف دل عليه السياق يعني جعلهم الله أشداء ورحماء وكثرهم رقواهم وقوي بهم الإسلام ليغيظ بهم الكفار يعني غيظاً للكافرين، قال أنس بن مالك(رض) من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب محمد ﷺ فقد أصابته هذه الآية، وعن عبد اللّٰه بن مغفل المزني قال: قال رسول الله ﷺ «**الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي الله الله لا تتخذ وهم غرضاً من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فبغضي أبغضهم ومن أذاهم فقد أذاني ومن أذاني فقد أذى الله ومن أذى الله فيوشك أن يأخذه**»[1] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «**إن سرك أن تكون من أهل الجنة فإن قوماً ينتحلون حبك يقرؤون لا يجاوز تراقبهم نبزهم الرافضة فإن أدركتهم فجاهدهم فإنهم مشركون**» رواه البغوي والدارقطني وفي إسناده نظر، وقد ورد في فضائل الصحابة عموماً وخصوصاً مالا يكاد يحصى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم﴾ كلمة من للبيان والضمير يعود إلى ما يعود إليه ضميريهم ﴿مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌۢ ﴿٩﴾﴾ تنكير مغفرة وأجر للتعظيم وقد انعقد الإجماع على إن الصحابة كلهم عدول وكلهم مغفور لهم والله أعلم»

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في من سب أصحاب النبي ﷺ (٤٠٢٦).

المحتويات

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

